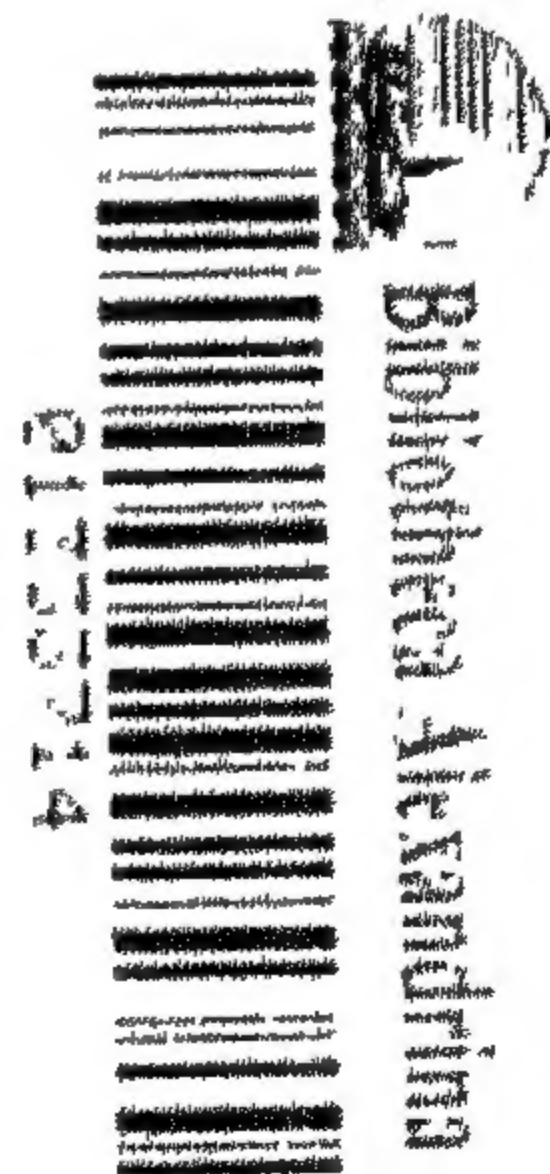


مكتبة دار الفنون والآداب

الله

توحيد و ليس و غيره



مكتبة دار الفنون والآداب

مكتبة دار الفنون والآداب

مكتبة دار الفنون والآداب

محمد بن نور محمد النبلي

الله

توحيد .. وليس وحدة

- بحث في عقيدة التوحيد في :
الإلهية ، والوحي ، والنبوة ، والولاية ،
والمعجزة ، والكرامة ، وغيرها ...
- مع المقارنة بعقيدة الوحدة ..

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

جميع الحقوق محفوظة

دار النوفل للنشر
للطباعة والنشر
الطبعة الأولى
أول مرة / ٢٠٠٦ م / الموصل / جوار جامع الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ *
لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

« صدق الله العظيم »

* * *

أهداء

الى كل من يشهد أن « لا اله الا الله ، وأن محمداً رسول الله » ..
الى كل مسلم .. ومسلمة ..
الى الذين آمنوا بالله تعالى رباً .. وبالإسلام ديناً .. وبمحمد ﷺ
نبياً ورسولاً ..
الى الذين يعبدون الله وحده .. ولا يتخذون من دونه أنداداً ،
أو شفعاء ، أو وسطاء ..
الى الذين يؤمنون بتوحيد الاسلام ، ويكفرون بثنوية الفرس
وتثليث النصارى ..
الى الذين يتمسكون بالقرآن الكريم دستوراً .. وبالسنة النبوية
الشريفة منهاجاً وأسلوباً ، ويرفضون كل مظهر للشرك ، ويدينسون
بعقيدة التوحيد ..
الى الذين يتخذون من الرسول ﷺ الأسوة الحسنة ..
الى هؤلاء جميعاً .. أهدي هذا الكتاب .

المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

ان الحمد لله •• نحمده ونستعينه ونستعديه ونستغفره ••
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا •• من يهده الله
فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ••
وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له •• له الملك وله الحمد ،
يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير ••
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وصفيه وحبيبه ، وخيرته من
خلقه •• بعثه الله على فترة من الرسل •• فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ••
ونصح للأمة وجاهد في الله حق جهاده •• وتركنا على المحجة البيضاء ،
ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها الا هالك ••
فاللهم صل عليه وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه الى
يوم الدين •
« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم
مسلمون » (١) •
« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق
منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به
والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » (٢) •
« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا • يصلح لكم

أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما « (٣) .

وبعد .. فان الدين عند الله — منذ خلق آدم الى أن يرث الأرض ومن عليها — هو الاسلام .. يقول تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام » (٤) .

ويقول جل وعلا : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » (٥) .

ويقول سبحانه : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإلى يرجعون » (٦) .

والاسلام .. دين التوحيد ..
التوحيد الذي نادى به الأنبياء والرسل منذ أرسل الله نوحا عليه السلام أول الأنبياء .. الى أن بعث محمدا ﷺ .. خاتم الأنبياء والمرسلين .

« اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » (٧) .
قالها نوح .. كما قالها ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ..

وقالها موسى وهارون وأيوب ويونس ، وسليمان وداود ، وعيسى ابن مريم عليهم السلام .

وقالها محمد بن عبد الله ﷺ .. وأخذ علينا بها العهد : « ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » (٨)

انه التوحيد الكامل للالهية ..
توحيد الاسلام .. لا ثنوية الفرس أو تثليث الانصارى (٩) ..
التوحيد .. وليس الوحدة !!

(٣) الأحزاب : ٧٠ ، ٧١ (٤) آل عمران : ١٩

(٥) آل عمران : ٨٥ (٦) آل عمران : ٨٣

(٧) الأعراف : ٥٩ (٨) آل عمران : ٦٤

(٩) الثنوية ، أو المثنوية ، مذهب يقول بالهين اثنين ، إله للخير وإله للشر ويرمز لهما بالنور والظلمة ، والتثليث معروف ..

ولهذا .. كان من آواخر الآيات نزولا قواه تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً » (١٠) .

نزلت فى حجة الوداع .. فكانت ايذاناً بأن الدين قد كمل ،
وأن النعمة قد تمت .. وأن الله تعالى قد ارتضى أن ندين بالتوحيد ..
عقيدة الاسلام ..

العقيدة التى لا تتخذ لها رباً والناس الا الله وحده .. الله الواحد
الأحد .. الذى لا شبيه له ولا ند ولا نظير .. الذى لم يتخذ شريكاً ،
ولا صاحبة ، ولا ولداً ..

الله تعالى فى عقيدة التوحيد .. هو الفرد الصمد ، الدائم الباقي
.. الذى لم يزل ولا يزال .. المستغنى عن كل أحد . والمحتاج اليه
كل أحد .. المقصود فى جميع الرغائب ، والمستعان به فى جميع
المصائب ..

يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .. وهو تعالى الكامل المنزه عن
العيوب والنقائص .. الذى يصمد اليه المخلوق فى النوازل والحوادث ..
وهو تعالى الحى الباقي .. الذى لم يلد ولداً ، ولم يلد له والد ..
فليس شئ يولد الا ويسيموت .. وليس شئ يموت الا وسيورث ..
والله تعالى لا يموت ولا يعرث ..

ليس كمثله شئ .. وهو السميع البصير .
« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له
كفواً أحد » ..

فى عقيدة التوحيد : الله تعالى هو الخالق للأشياء كلها .. وليس
هو عين هذه الأشياء التى خلقها ، كما تقول عقيدة الوحدة ..

فالوجود — فى عقيدة الوحدة — ليس الا وجوداً واحداً ،
وما العالم الا مظاهر ومجالى لهذا الوجود الواحد .. فالله سبحانه —

فى عقيدتهم — هو الوجود الحق ، وكل ما عداه ظواهر وأوهام لا يتوقف
بالوجود الا بضرب من التوسع والمجاز !!

عقيدة التوحيد تقول : « لا اله الا الله » .. آى لا معبود بحق
سوى الله تعالى ؟

وعقيدة الوحدة .. تدعى أن الكون كله قد انبثق من نواة واحدة ..
وأن الله تعالى هو هذه النواة ، وما أسماؤه وصفاته الا أجزاء هذا
الكون ومظاهره من كل ناطق وصامت ، وساكن ومتحرك !!

وترغم هذه العقيدة الضالة : بأن كل عابد مهما عبد .. من انسان
أو حجر أو شجر أو كوكب أو حيوان .. فما عبد الا الله !!

وترغم عقيدة الوحدة أن الكون كله سوف يعود يوم القيامة الى
نواته الأولى .. وهى — فى زعمهم — الله تعالى .. فمن ثم لا جنة
ولا نار ، ولا ثواب ولا عقاب .. فمن الذى يثيب ، ومن الذى يثاب ؟ ..
ومن الذى يعاقب ومن الذى يقع عليه العقاب ؟ .. مادام الكل فى واحد !!
ولهذا .. ترفض عقيدة التوحيد القول الفاجر بأن الله تعالى :
خلق الأشياء وهو عينها !!

فالله تعالى هو الخالق لكل شيء .. خلق السموات والأرض
والجبال والبحار ..

خلق الملائكة والانس والجن ..

خلق الحيوان والنبات والجماد : « الله خالق كل شيء » (١١) .

ولا يمكن — فى عقيدة التوحيد — أن يكون الله تعالى الخالق
للأشياء كلها هو عين هذه الأشياء !!

ولقد اعتنق التصوف الاسلامى نظرية وحدة الوجود .. التى
ابتدعها محيى الدين بن عربى ، فعارض بها تماماً عقيدة التوحيد :

ومن هذا المنطلق — منطلق التوحيد لا الوحدة — جاء موضوع هذا الكتاب وعنوانه .. فالاسلام فى حقيقته : دين « التوحيد » وليس الوحدة ..

وسنتعرض — بمنىة الله — فى فصول هذا الكتاب لأصل كلمة التصوف ونشأته وتطوره .

كما نتعرض لبسط نظرية وحدة الوجود .. ومذهب الصوفية فى التفسير الباطنى للقرآن الكريم .. بالاضافة الى موقفهم من الوحي والنبوة ، وعقيدتهم فى المعجزة والكرامة والولاية ..

كما نتحدث عن ادعائهم معرفة الغيب وانكشاف الحجب عنهم .. وتعظيمهم للعبور وتقديس المقبورين ، وتفسيرهم للتوسل والوسيلة ..

بالاضافة الى طريقتهم فى أداء الذكر ، وتحويل حلقاته الى حفلات للزار .. ياتون فيها كل شىء الا الذكر الذى أمرنا به الرسول ﷺ وأرشدنا اليه ..

هذه الأمور وغيرها .. مما نختلف فيه مع الصوفية ويرفضها الفكر الاسلامى الصحيح لجأفاتها لعقيدة التوحيد التى جاء بها الرسول ﷺ ، وأعلى رايها الاسلام .. هى موضوع هذا الكتاب ..



ونحب — ونحن نختم هذا التقديم — أن نقول :
اننا لا نهذف — بهذا الكتاب — الى محاربة الصوفية ، ولا نريد هذه الحرب معها .

ولا رغبة لنا فى معاداة الصوفية ، أو جلب هذا العداء علينا ،
نقرر هذا بانوضح كله ، حتى لا ندع مجالاً لأى شك أو لبس .
نحن لا نينى سوى الحقيقة وحدها ..

والحقيقة الوحيدة أن الاسلام هو دين التوحيد ..
والتوحيد .. هو الكلمة الطيبة : أصلها ثابت وفرعها فى السماء ..

هو الشجرة الوارفة التى يستظل بظلها المسلمون فى أركان
الدنيا كلها ..

التوحيد .. هو الجذور الضاربة في أعماق الأرض ، وهو الجذوع
التي ترتفع فوق ظهرها ..

هو الأغصان التي تمتد في الفضاء ، وهو الثمرة الطيبة التي أهدتها
هذه الشجرة المباركة الى البشرية جمعاء ..

التوحيد .. هو الماء الذي يروى الجذور ، والفضاء الذي
تخترقه الجذوع ، والهواء الذي تتنسمه الأغصان ..
وأخيرا .. التوحيد هو روح الاسلام ، وسر وجوده ..

ولهذا حرصنا — في هذا الكتاب — على التزام الحياد الكامل :
بقدر الوسع والطاقة .. فلم نعرض لرأى يختلف مع الصوفية ،
الا وعرضنا في مقابله رأى الصوفية في المسألة نفسها .. وان كنا ..
بحكم عقيدتنا في الاسلام — نقف في صف التوحيد ونستظل برأيته ..
ولا نحسب أن نتعصب لرأى دون آخر .. الا إذا كان معه ما يسنده
من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ..

وقد كان الامام أبى حنيفة يقول : « رأينا هذا صواب يحتمل
الخطأ ، ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب .. هذا رأينا ، فمن جاءنا
بأحسن منه قبلناه » ..

ويقول الرسول ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل
خيرا أو ليصمت » ..

وخير ما نختم به .. هو قول الله تعالى : « قد جاءكم بصائر
من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم
بحفيظ » (١٢) .

والله الموفق ، وهو المستعان .

القاهرة في ٣ جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ

١٢ فبراير ١٩٨٦ م

محمد زور عبد الباقى

الفصل الأول

ما هو التصوف ؟

● أصل كلمة التصوف :

اختلف الناس فى أصل كلمة « التصوف » .. فمن قائل بأنها قد اشتقت من « الصوف » .. بعد أن رأى الصوفيين يخالفون الناس ويلبسون الصوف بدلا من الثياب الفاخرة تقشفا وزهدا !!

ومن قائل بأن الكلمة اشتقت من « الصفاء » .. بمعنى أن قلب المرید يصفو ويتطهر باطنه وظاهره عن مخالفة ربه .

وقيل : بأنها مأخوذة من « انصفه » التى ينسب اليها فقراء الصحابة على عهد الرسول ﷺ .. وعرفوا فى التاريخ بأهل الصفة .. وفى هذا يقول القشيري : « هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة .. فيقال : رجل صوفى ، وللجماعة : صوفية .. ومن يتوصل الى ذلك يقال له : متصوف ، وللجماعة : المتصوفة .

وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق .. والأظهر فيه أنه كاللقب ..

فأما قول من قال : انه من الصوف .. وتصوف الرجل اذا لبس الصوف كما يقال : تقمص اذا لبس القميص .. فذلك وجه : ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

ومن قال : انهم منسوبون الى حنة مسجد رسول الله ﷺ . فالنسبة الى انصفه لا تجيء على نحو الصوفى ..

ومن قال : انه من الصفاء .. فاشتقاق الصوغى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة ..

وقول من قال : انه مشتق من الصف .. فكأنهم فى الحذف الأول من حيث المحاضرة من الله تعالى .. فالمعنى صحيح ولكن اللنة لا تقتضى هذه النسبة الى الصف ..

ثم ان هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج فى تعيينهم الى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق .

تكلم الناس فى التصوف ما معناه ؟ .. وفى الصوفى من هو ؟ .. فكل عبر بما وقع له .. واستقصاء جميعه يخرجنا عن المقصود من الایجاز ^(١) .

وهكذا .. لم يبين لنا القشيري — رحمه الله — أصل هذه الكلمة بعد أن استعرض جميع الأقوال فيها ..

● أما الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى — شيخ مشايخ الطرق الصوفية — فانه يلقى الضوء على أصل هذه الكلمة بعد أن يقرب الينا معناها ، فيقول تحت عنوان : « خواطر صوفية » ^(٢) :

« حين ظهرت حركة التخصص فى العلوم فى العالم الاسلامى — حوالى القرن الثالث الهجرى — تخصص فريق من علماء المسلمين فى دراسة العقيدة من حيث تقريرها على وجه عقلى .. ومن حيث الدفاع عنها ضد الآراء المخالفة لها .. فعرف هؤلاء العلماء باسم علماء التوحيد ، أو الكلام .. أو علماء أصول الدين ..

وظهر نفر آخر من العلماء .. اقتصوا بدراسة الأحكام العملية ، وكيفية استنباط هذه الأحكام من أدلتها ، وهى : القرآن والسنة والاجماع والقياس .. وعرف هؤلاء باسم الفقهاء .. وعرف علمهم باسم علم الفقه ..

(١) الرسالة القشيرية ، ط . مطبعة التقدم العلمية ، ١٣٤٦ هـ . ص ١٢٦

(٢) انظر مجلة التصوف الاسلامى — العدد ٧٠ — ربيع الأول سنة ١٤٠٥ هـ (ديسمبر ١٩٨٤ م) ص ٥ — ٧

وفى نفس الوقت .. ظهر فى العالم الاسلامى علماء آثروا أن يخصصوا جهودهم لدراسة الأخلاق .. ولكن كانت هذه الدراسة من نوع خاص .. فلم تكن نظرية بحتة ، وانما اقترنت بالتجربة والذوق ..

وقالوا : ان الأخلاق هى روح الدين .. ولكى يكون الانسان مسلما صحيح الايمان صحيح العمل ، يتعين عليه أن يتوخى الأهداف الأخلاقية ، وأن يتحقق فى عبادته وسلوكه ، وفى أقواله وفى أحواله .. بما كان عليه المصطفى عليه الصلاة والسلام ..

ولهذا .. اتجهوا الى البحث العميق فى النفس الانسانية وقواها وأمراضها .. وكيفية علاج هذه الأمراض ، وكيفية السلوك الى الله بوجه عام .. مع الميل الى ما كان عليه السلف من تقاليد وزهد فى كثير من مباحج الحياة التى يتقبل عليها العاديون من الناس ..

وهؤلاء .. عرفوا — منذ القرن الثالث الهجرى — باسم الصوفية ، وعرف علمهم باسم علم التصوف ..

ودونوا علومهم فى ذلك الوقت .. فكتب المحاسبى (ت ٢٤٣ هـ) رسائل فى محاسبة النفس .. وكتب الجنيد (ت ٢٩٧ هـ) رسائل متعددة .. وكتب كثير غيرهم . وكانت هذه الصورة الأولى لمؤلفات الصوفية الأوائل .. وكانوا جميعا علماء اشتهروا بعلوم الشريعة » ..

ثم يقول فضيلته بعد هذا التمهيد :

« ولكن .. قد يسأل سائل هنا : لماذا ظهرت هذه التسمية .. تسمية التصوف أو الصوفية ؟

والاجابة على هذا السؤال من الناحية العلمية هى الاجابة التى اجاب بها التشيرى فى الرسالة .. قال : لقد كان جيل المسلمين ممن صحبوا النبى ﷺ يجدون شرفا لا يدانيه شرف فى أن يسموا بالصحابة .. وكذلك جيل التابعين ، كانوا يرون شرفا لا يدانيه شرف فى أن يطلق عليهم هذا الاسم ..

ثم بانقضاء جيل الصحابة والتابعين .. عرف المقبلون على العبادة ..
المترسومون خطى النبي ﷺ وصحابته بأسماء مختلفة ..

عرفوا تارة باسم الزهاد .. وتارة باسم البكائين — لأنهم كانوا
من فرط إيمانهم سيكون بين الحين والآخر لخشيتهم وخوفهم من الله —
.. وعرفوا تارة باسم النساك .. ثم عرفوا أخيرا باسم الصوفية ..
وقبل ذلك كان كثير منهم يلبس الصوف اظهارا للزهد والتقشف » .

الدكتور التفتازانى — هنا — يرجع أصل التسمية الى أن الكثير
منهم كان يلبس الصوف اظهارا منهم للزهد والتقشف .. ولكن القشيري
— كما تقدم — مع اقراره بهذا الوجه ينفي عن القوم اختصاصهم
بلبس الصوف ..

ثم يقول الدكتور التفتازانى : « وقيل : سموا صوفية نسبة الى
« الصفاء » .. حتى أن أبا الفتح البستي يقول : تنازع الناس في
الصوفى واختلفوا فيه .. وظنوه مشتقا من الصوف ، وليست أنحل هذا
الاسم غير : فتى صافى فصوفى : حتى لقب الصوفى ..

وقال البعض : انهم نسبة الى أهل الصفة من الصحابة رضوان
الله عليهم .. ولكن النسبة الى أهل الصفة : صفى ..

ثم نجد كثيرا من أوائل الصوفية لم يعودوا يربطون بين لبس
الصوف وبين التصوف من حيث هو خلق وسلوك .. وقالوا ان لبس
الصوف قد يكون لباس شهرة ، ولباس الشهرة منهى عنه » ..

نرى الدكتور التفتازانى هنا .. يتفق مع القشيري في نفي نسبة
الصوفية الى أهل الصفة .. وان كان يميل الى قول « البستي » بأنه
مشتق من الصفاء ..

ويختتم الدكتور كلمته بقوله : « هكذا كان الأوائل .. اذن التسمية
حادثه ، ولكن مضمون التصوف مردود الى شواهد من القرآن والسنة ،
وحياة النبي ﷺ ، وحياة أصحابه رضوان الله عليهم » ..

● بينما يرى الدكتور ابراهيم هلال : أن كلمة صوفي بمعناها عند صوفية المسلمين .. هي نفس كلمة « ثيوصوفيا » اليونانية .. التي كانت تطلق عند قدماء اليونان على مذهب روهي يعتنقه النساك والزهاد السابقون قبل الاسلام بعدة قرون .

ويدل بهذا الرأي على أن التصوف في الاسلام .. هو استيراد من خارج الاسلام وليس من صميمه .. مستندا في تدليله بما ورد في دائرة المعارف البريطانية من أن « الثيوصوفيين » كانوا معروفين في أزمان بعيدة .. وكانوا يزهدون في الدنيا وينقطعون الى النسك والعبادة ، واستترال الحكمة الالهية على قلوبهم .. وأن هذه الكلمة مركبة من لفظين تركييا مزجيا .. وهما لفظ « ثيو » ومعناه : « اله » ، و « صوفيا » ومعناه : « الحكمة » ..

أى أن أولئك القوم كانوا بزهدهم وعبادتهم يتطلعون الى اكتساب الحكمة الربانية من الله رأسا .. فهناك تشابه كبير بينهم وبين المتصوفة من حيث اتحاد الواسطة والغاية (٢) .

● مفهوم التصوف عند الصوفية :

التصوف في عمومه — كما يراه الصوفية — : « هو السير في طريق الزهد .. والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها .. وأخذ النفس بأسلوب من التقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع والسهرة .. في صلاة أو تلاوة حتى يضعف في الإنسان الجانب الجسدى . ويقوى فيه الجانب النفسى أو الروحى ..

فهو إخضاع الجسد للنفس بهذا الطريق المتقدم .. سعيا الى تحقيق اكمال الأخلاقى للنفس .. وانى معرفة الذات الالهية وكمالاتها .. وهو ما يعبرون عنه بمعرفة الحقيقة (٣) .

(٢) التصوف الإسلامى بين الدين والفلسفة للدكتور ابراهيم هلال . نشر مكتبة النهضة العربية : ١٩٧٥ : ص ٢٠ وما بعدها ..

(٣) المرجع السابق ص ١ وما بعدها ..

وقيل : « ان مفهوم التصوف عند الصوفيين هو : « ارسال النفس مع الله على ما يريد الله » ..

وقيل : هو مناجاة القلب ومحادثة الروح .. وفي هذه المناجاة طهرة لمن شاء أن يتطهر .. وصفاء لمن أراد التبرؤ من الرجس والدنس .. وفي تلك المحادثة عروج الى سماء النور والملائكة .. وصعود الى عالم الفيض والالهام ..

وما هذا الحديث والنجوى .. الا ضرب من التأمل النظري ، والتدبر في ملكوت السموات والأرض .. بيد أن الجسم والنفس متلازمان ، وتوأمين لا ينفصلان .. ولا سبيل الى تهذيب أحدهما بدون الآخر .. فمن ثناء لنفسه صفاء ورفعته .. فلا بد له أن يتبرأ عن الشهوات وملذات البدن .. فالتصوف اذن — في مفهومهم — فكر وعمل ، ودراسة وسلوك ^(٥) .

ويقول الامام القشيري : « الصفاء محمود بكل لسان .. ضده الكدورة ، وهي مذمومة » ..

كما يقول : « جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه .. وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم .. وجعل قلوبهم معادن أسرارهم ، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره ..

فهم الغياث للخلق .. والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق .. صفاهم من كدورات البشرية .. ورقاهم الى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية .. ووفقهم للقيام بأداب العبودية .. وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية ..

فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف .. وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقلب والتصرف .. ثم رجعوا الى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ، ونعت الانكسار .. ولم يتكلموا على ما حصل

(٥) التفسير والمفسرون ، للدكتور محمد حسين الذهبي — نشر مكتبة وهبة — ١٩٨٥ ، ج ٢ ص ٣٢٤

منهم من الأعمال ، أو صفا لهم من الأحوال .. علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ، ويختار ما يشاء من العبيد .. لا يحكم عليه خلق ، ولا يتوجه عليه مخلوق حق .. ثوابه ابتداء فضل ، وعذابه حكم بعدل .. وأمره قضاء فصل « (٦) » .

والامام التشيرى .. من أئمة الصوفية المعتدلين .. ولهذا نراه ينقل عن أقطاب الصوفية آراءهم للتعريف بمعنى الصوفية .. فينقل عن أبى محمد الحريرى قوله : « التصوف : هو الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى » ..

ويقول الجنيد : هو أن يمنعك الحق عنك ويحييك به ..
وسئل الحسين بن منصور الحلاج عن الصوفى فقال : وحدانى الذات .. لا يقبله أحد ولا يقبل أحدا ..

ويقول أبو حمزة البغدادى : علامة الصوفى الصادق : أن يفتقر بعد الغنى ، ويذل بعد العز ، ويخفى بعد الشهرة .. وعلامة الصوفى الكاذب : أن يستغنى بعد الفقر ، ويعز بعد الذل ، ويشتهر بعد الخفاء ..

وعندما سئل عمر بن عثمان المكى عن التصوف ، قال : أن يكون العبد فى كل وقت بما هو أولى به فى الوقت ..

ويقول محمد بن على القصاب : التصوف أخلاق كريمة ، ظهرت فى زمان كريم : من رجل كريم مع قوم كرام ..

وسئل سمنون عن التصوف فقال : أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء ..

ويقول الجنيد : هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة ..

ويقول رويم بن أحمد البغدادى : التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والايثار .. وترك التعرض والاختيار ..

وسئل عن التصوف فقال : هو استرسال النفس مع الله على ما يريد ..

كما يقول معروف الكرخي : هو الأخذ بالحقائق ، واليأس مما في أيدي الخلائق « (٧) » .

ويعتقد الصوفيون أن مضمون التصوف مردود الى شواهد من القرآن والسنة .. وحياة النبي ﷺ ، وحياة أصحابه رضوان الله عليهم ..

وشواهد القرآن عندهم .. تنحصر في قصة الخضر مع كليم الله موسى عليهما السلام .. ويعتقدون أن الخضر كان ولياً آتاه الله علماً من لدنه .. ويستدلون بذلك على أن الولي أعلم من النبي .. مادام موسى عليه السلام — وهو نبي — يذهب الى الخضر ليتعلم منه .. وقد تعلم منه بالفعل علماً كان يجهله !!

ويبدل ابن كثير على نبوة الخضر عليه السلام بقول الله تعالى « رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمري » (٨) .. ففي هذا الدليل على أنه كان نبياً ، وأنه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه .. بل بأمر ربه فهو نبي .. وقيل رسول ..

يقول ابن كثير : « دل سياق القصة على نبوته من وجوه : أحدها قوله تعالى : « فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علماً » (٩) وفي هذا دليل على نبوته ..

الثاني قول موسى : « هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً » قال لك لن تستطيع معي صبراً . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً . قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً . قال فإن اتبعته غلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً » (١٠) .

(٧) الرسالة القشيرية — مرجع سابق ، ص ١٢٦ . ١٢٧

(٨) الكهف : ٨٢ (٩) الكهف : ٦٥

(١٠) الكهف : ٦٦ — ٧٠

فلو كان وليا وليس بنبي لم يخاطبه بهذه المخاطبة .. ولم يرد على موسى هذا الرد ..

بل موسى انما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به دونه .. فلو كان غير نبي لم يكن معصوما .. ولم تكن لموسى — وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة — كبير رغبة ولا عظيم طلب في علم ولى غير واجب العصمة .. ولما عزم على الذهاب اليه والتفتيش عنه .. ولو أنه أمضى حقبا من الزمان — قيل ثمانين سنة — ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه .. واتبعه في صورة مستفيد منه .. فدل ذلك على أنه نبي مثله يوحى اليه كما يوحى اليه .. وقد خص من العلوم الدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكريم .. نبي بنى اسرائيل الكريم .. وقد احتج بهذا المسلك الرمانى على نبوة الخضر عليه السلام ..

الثالث : أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام .. وما ذلك الا للوحى اليه من الملك العلام ..

وهذا دليل على نبوته .. وبرهان ظاهر على عصمته ، لأن الولي لا يجوز له الاقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خأذه .. لأن خاطره ليس بواجب العصمة ، اذ يجوز عليه الخطا بالاتفاق ..

ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذى لم يبلغ الحلم .. علما منه بأنه اذا بلغ ينكر ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتهم له فيتبعانه عليه .. ففى قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مبعته .. صيانة لأبويه عن الوقوع فى الكفر وعقوبته .. دل ذلك على نبوته وأنه مؤيد من الله بعصمته ..

وقد رأيت — يقول ابن كثير — الشيخ أبا الفرج ابن الجوزى طرق هذا المسلك بعينه فى الاحتجاج على نبوة الخضر ومسحته .. وحكى الاحتجاج عليه الرمانى أيضا ..

الرابع : أنه لما فسر الخضر — عليه السلام — تأويل الأفاعيل

لأوسى ووضح له عن حقيقة أمره وجلى .. قال بعد ذلك كله : « رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمري » (١١) .. يعنى ما فعلته من تلقاء نفسى .. بل أمر أمرت به وأوحى الى فيه .. فدللت هذه الوجوه على نبوته « (١٢) .

لقد دلتنا قصة الخضر عليه السلام كما رواها القرآن الكريم .. على أن الله تعالى قد أطلعه على شئ من الغيب .. وما كان الله ليطلع على هذا الغيب الا الرسل عليهم السلام .. يقول تعالى : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء » (١٣) .

كما يقول جل شأنه : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . الا من ارتضى من رسول » (١٤) .

والخضر عليه السلام كان نبيا ولم يكن وليا .. والاستدلال على أن مضمون التصوف محدود الى هذا الشاهد من القرآن فى غير موضعه .. لأن القاعدة الأصولية تقول : اذا انتفى الدليل انتفى المدلول ، وبطل — بالتالى — المستدل عليه لبطلان المستدل به ..

أما شواهد السنة — كما يرونها — ففى أن الرسول ﷺ دخل مرارا على أهل الصفة ورآهم يتذاكرون العلم ويقرأون القرآن ويذكرون الله فلم ينكر عليهم مقامهم بمسجده وانقطاعهم الى العبادة والزهد فى الدنيا ومتعتها .. فهم بذلك يرون أن انشاء الدور التى ينقطع فيها الناس للعبادة ويقوم بشئونهم اخوانهم القادرون من المسلمين ليس جديدا فى الاسلام ..

نقول : جاء فى دائرة المعارف الاسلامية عند التعليق على مادة « تصوف » — بالجزء التاسع طبع دار الشعب — : « أما الصفة التى ينتسب اليها أهل الصفة من أصحاب النبى — ﷺ — فكانت فى مؤخرة

(١١) الكهف : ٨٢

(١٢) قصص الانبياء — لابن كثير ، نشر دار التراث العربى ، ١٩٨١ ، ص ٤٥٢ — ٤٥٣

(١٤) الجن : ٢٦ ، ٢٧

(١٣) آل عمران : ١٧٩

مسجد النبي ﷺ في شمال المسجد بالمدينة النبوية .. كان يأوى اليها من فقراء المسلمين من ليس له أهل ولا مكان يأوى اليه .. ويكثر المهاجرون الى المدينة من الأغنياء والفقراء ، والآهلية والعذاب .. فكان من لم يتيسر له مكان يأوى اليه ، يأوى الى تلك الصفة التي في المسجد .. ولم يكن جميع أهل الصفة يجتمعون في وقت واحد ، بل منهم من يتأهل أو ينتقل الى مكان آخر يتيسر له ، ويجيء ناس بعد ناس .. وكانوا تارة يكثرون وتارة يقلون .. وجملة من أوى الى الصفة من الصحابة مع تفرقهم فقد قيل : كانوا نحو أربعمائة من الصحابة ، وقيل كانوا أكثر من ذلك ..

وكان فقراء المسلمين من أهل الصفة وغيرهم يكتسبون عند إمكان الاكتساب الذي لا يحدهم عما هو أوجب الى الله من الكسب .. وأما اذا أحصروا في سبيل الله عن الكسب فكانوا يقدمون ما هو أقرب الى الله ورسوله .. وكان يبعث اليهم النبي ﷺ بما يكون عنده ، وان الغالب عليهم كان الحاجة : لا يقوم ما يقدرون عليه من الكسب بما يحتاجون اليه من الرزق « ا ه .

أهل الصفة — اذن — هم نفر من انفقراء والمساكين الذين هاجروا الى المدينة ، ولم يجدوا لهم مأوى الا في جانب من مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام .. ويعيشون على الصدقات التي كانت ترد الى الرسول فيبعث بها اليهم ..

ويصف أبو هريرة حالهم فيقول : « كنت في سبعين رجلا من أهل الصفة .. ما منهم رجل عليه رداء ، اما بردة أو كساء قد ربطوها في أعناقهم . » (١٥) .

وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه أحد أعلام أولئك الفقراء من أهل الصفة .. وكان يصبر على الجوع الشديد حتى انه كان يلصق بطنه بالحصى من الجوع .. يطوى نهاره وليله من غير أن يجد ما يقيم

صلبه ... ويروى عن نفسه فيقول : « انى كنت ألزم رسول الله ﷺ بشبع بطنى ، حتى لا أكل الخمر ، ولا ألبس الجديد .. ولا يخدمنى فلان وفلانة ، وان كنت لأستقرىء الرجل الآية من كتاب الله هى معى . كى ينقلب بى فيطعمنى » (١٦) .

هؤلاء هم أهل الصفة .. وهذا كان حالهم .. فاذا كان هذا هو شاهد السنة فى رأى من يقول بأن التصوف منسوب الى أهل الصفة بالرغم من مخالفة هذا الرأى للقياس الصرفى .. فقد كفانا الامام القشيرى والدكتور التفتازانى مشقة الرد عليهم حين نفيا نسبة التصوف الى هذه الفئة من الناس التى كانت على عهد الرسول ﷺ ..

ومرة ثانية نقول : اذا انتفى الدليل ، بطل المستدل عليه طبقا للقاعدة المشهورة ..

أما اذا كان المقصود من شواهد القرآن والسنة وحياة الرسول ﷺ وحياة صحابته الكرام .. هو التحلى بالأخلاق الفاضلة .. والزهد والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها ، وأخذ النفس بالتقشّف والعبادة والأوراد والجوع والسهر فى الصلاة والتلاوة .. فان فى تعاليم الاسلام وأخلاقه ما يغنينا عن اختراع مسمى جديد ننضوى تحت رايته بدلا من اسم الاسلام الذى ارتضاه الله ورسوله لنا .. وأطلقه علما علينا : « هو سماكم المسلمين من قبل » (١٧) .

* * *

● من مصطلحات الصوفية :

للصوفية مصطلحات خاصة ، يتداولونها بينهم .. ويعرفها السالكون لطريقهم .. وقد عرض الامام القشيرى هذه المصطلحات وشرحها شرحا وافيا .. فقال : « اعلم أن من المعلوم أن لكل طائفة من

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٣٧٩ ، والحبر — بفتح الحاء — من البرد ما كان موشى مخططا .. يقال بردة حبر ، وبرد حبرة بوزن : عتبة ..
(١٧) الحج : ٧٨

العلماء لهم ألفاظ يستعملونها .. انفردوا بها عن سواهم وتواطأوا عليها لأغراض لهم فيها ، من تقريب الفهم على المخاطبين بها ، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم باطلاقها ..

وهذه البلاغة يستعملون ألفاظا فيما بينهم .. قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم والاجماع والستر على من باينهم في طريقتهم .. لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب .. غير أنهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها .. اذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف أو مجلوبة بضرب تصرف .. بل هي معان أودعها الله تعالى قلوب قوم .. واستخلص لحياتهم أسرار قوم ، ونحن نريد بشرح هذه الألفاظ تسهيل الفهم على من يريد الوقوف على معانيهم من سالكى طرقهم ومتبعي سنتهم » (١٨) .

ومن هذه المصطلحات التي أشار إليها القشيري : الوقف ، والمقام ، والحال ، والتقبض ، والبسط ، والهيبة ، والأنس ، والتواجد ، والوجد ، والوجود ، والجمع ، والفرق ، وانفناء ، والبقاء ، والغيبة ، والحضور ، والصحو ، والسكر ، والخوق ، والشرب ، والمحو ، والاثبات ، والستر ، والتجلي ، والمحاضرة ، والمكاشفة ، والمشاهدة ، والمعاينة ، واللوائح ، والنطوالع ، واللوامع ، والبوادر ، والهجوم ، والتلوين ، والتمكين ، والقرب ، والبعد ، وانشريعة ، والحقيقة ، والطريقة ، والنفس (بفتح الفاء) ، والخواطر ، وعلم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، والوارد ، والشاهد ، والنفس (باسكان الفاء) ، والأرواح ، والسر ... الخ ..

ولهم مقامات هي مدارج أرباب السلوك : كالقوية ، والمجاهدة ، والخواوة ، والعزلة ، والتقوى ، والورع ، والزهد ، والصمت ، والخوف ، والرجاء ، والحزن ، والجوع ، وترك الشهوة ، والخشوع ، والتواضع ، ومخالفة النفس ... الخ (١٩) ..

(١٨) ارسالة القشيرية . مرجع سابق . ص ٢١

(١٩) المرجع السابق ص ٢١ — ٢٥

ولا يتسع أمامنا المقام للاسترسال في عرض كافة المصطلحات التي تعارف القوم عليها .. أو شرح كل منها — حتى لا نثقل على القارئ غير المتخصص — فالمصطلحات كثيرة ، والمقامات عديدة .. ولكل طائفة منهم مصطلحاتها وأحوالها ومقاماتها ..

إنما تهدف للإشارة بأن للصوفية مصطلحاتها التي خصت نفسها بها — حتى تكون معانى ألفاظهم مستبهمة على غيرهم — وأن لهذه المصطلحات تفسيرات وتأويلات تختلف عن جميع التفسيرات اللغوية المعروفة لهذه الكلمات .. غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها ..

* * *

ويوضح الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازاني المقصود من كلمة « طريق » .. فيقول :

« كان الهدف أن يرسم الصوفية طريقا للسلوك يجتذبون به العصاة ويقولون لهم : ان عليكم أن تقبلوا على الطاعة وتسلكوا هذا الطريق » .. فتصوروا الى الله طريقا بدايته جهاد النفس .. ومراحله عندهم تعرف بالمقامات والأحوال .. ونهايته العرفان بالله .

أما عن جهاد النفس .. فنحن مأمورون بهذا الجهاد لقوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » (٢٠) . والسبيل .. هو الطريق ..

وكذلك فإن كلمة « طريق » استخدمها هؤلاء العلماء من الصوفية بالرجوع الى القرآن الكريم .. وذلك يعنى أن مصدر الكلمة هو القرآن .. لأن كلمة « طريق » أو « طريقة » ذكرت في القرآن بهذا المعنى .

يقول تعالى : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » (٢١) .

ويقول : « إذ يقول أمثلهم طريقة » (٢٢) .

ويقول : « مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » (٢٣) .

ومجاهدة النفس .. تعنى عند الصوفية مراقبة النفس ومحاسبتها على الفعل .. ونحن محتاج الى هذا المعنى خصوصا فى عصرنا .. ولو أن كل واحد منا حاسب نفسه عما قدم فى يومه لنفسه وللمجتمع .. وحاول أن يصحح أعماله لكان من وراء ذلك خير كثير ..

جهاد النفس — كما يقول الصوفية — يترتب عليه التحقق بالمقامات والأحوال ..

ولكن .. ماذا يعنون بالمقامات ؟ وماذا يعنون بالأحوال ؟
المقام — عندهم — هو الفضيلة الأخلاقية التى يجتهد السالك لطريق الله من أجل تحقيقها : كالتوبة ، والزهد ، والصبر ، والتوكل ، والمحبة لله وللرسول ، وآل بيت رسول الله ﷺ ، وغير ذلك ..
فكل هذه المعانى مستمدة من القرآن الكريم .. ويعمل الانسان الذى يريد التكامل الأخلاقى على تحقيقها فى نفسه وهو ينتقل من مقام الى مقام فى سلوكه .. فاذا رسخت له التوبة ينتقل منها الى الصبر .. ثم الى التوكل .. ثم الى الرضا .. وهكذا ..
حتى اذا استوفى هذه المقامات وغيرها .. غانه يصل الى معرفة الله .. أعنى يصل الى معرفة الخائق تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته .. ويرى الحق سبحانه وتعالى متجليا فى هذا الكون بهذه الأسماء والصفات .. وهى معرفة يحلمن لها قلب الانسان » (٢٤) .

ثم يقول فضيلته : « وكل معنى من هذه المعانى التى ذكرتها مستدل عليه بآيات من القرآن الكريم وبأحاديث للرسول ﷺ صحيحة .. حتى أن شيخ الاسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) — وقد كتب فى التصوف كتابات يجب علينا جميعا أن نقف عندها وأن نتفهمها — كتب رسالة تسمى بـ « التحفة العراقية » : وكتب رسالة أخرى عنوانها

(٢٢) طه : ١٠٤ (٢٣) البقرة : ١٧

(٢٤) انظر مجلة التصوف الاسلامى — مرجع سبقت الاشارة اليه .

« الصوفية » و « الفقراء » ، ورسالة أخرى عنوانها « رسالة في أمراض القلوب » .. مبيها أن التصوف هو علاج لأمراض القلوب .. يقول في « التحفة العراقية » : ان ما يتحدث عنه هؤلاء الصوفية من ضرورة مجاهدة النفس ، والتحقق بمعاني التوبة والرضا والصبر والتوكل ، وحب رسول الله — ﷺ — وحب أهل بيت رسول الله .. كل أولئك إنما يعتبر واجبا على كل مسلم .. وهذا لأنه لا يتصور أبدا أن المسلم يبتعد عن التخلق .. لأن التخلق كما بينا هو أساس العقيدة وأساس الشريعة ..

وخذ أي حكم من أحكام العقيدة والشريعة .. ستتبين أنه بدون الأساس الأخلاقي يصبح صورة لا روح فيها .. وقد قال ابن عطاء الله في « الحكم » : الأعمال صور قائمة ، وأرواحها وجود سر الاخلاص فيها .

وهذا المعنى مستمد من قوله تعالى : « ألا لله الدين الخالص » (٢٥) اذن .. الاخلاص في الأعمال الدينية ، والاخلاص في الأعمال — أي كانت لأننا لا نفرق بين عمل ديني وعمل دنيوي — هو أساس التصوف « (٢٦) » ..

ويخلص فضيلته الى أن : « التسمية لا شأن لنا بها — وهذا رأي — لأن التسمية مسألة شكلية .. حتى أن ابن تيمية كان يستخدم عدة تسميات .. وكان يستخدم كلمة « التصوف » كما كان يستخدم كلمة أخرى لها دلالة هي « علم السلوك » في الرسائل والمسائل .. وكذلك شرح ابن القيم كتاب « منازل السائرين » للامام البروي الأنصاري الحنبلي .. وكان عنوان الشرح « مدارج السالكين » .. بين منازل اياك نعبد واياك نستعين » .. وهو من أجل ما كتب في التصوف .. والحقيقة .. أن ابن القيم وأستاذه ابن تيمية من العلماء الذين كانت لهم مع الله أحوال قطعا .. ولا يتصور أن يكون ابن تيمية أو ابن القيم ممن لم يمارس الرياضات الروحية والأخلاقية « (٢٧) » ..

(٢٦) المرجع السابق .

(٢٥) الزمر : ٣

(٢٧) نفس المرجع .

وأخيرا .. يتساءل فضيلة الدكتور : لماذا الاختلاف بين الطرق ؟
ومتى ظهرت هذه الطرق ؟ .. ثم يجيب على تساؤله فيقول :
« ظهرت الطرق في العالم الاسلامي ابتداء من القرن الثالث
الهجرى .. وأحب أن أقول : ان كلمة « طرق » لا تعنى أكثر من
مدارس تعرف بأسماء مؤسسيها .. فنحن أحيانا ننشئ مدرسة وننسبها
الى مؤسسها ، وفي دوائر الجامعات مثلا نقول : فلان من الأساتذة ،
لأن له منهجا أو طريقة أو مدرسة في توجيه الطلاب أو في البحث
العلمي ..

وكذلك كثير من العلماء الصوفية الذين قادوا وارشدوا تلاميذهم
الى كمال العلم والعمل .. نسب تلاميذهم اليهم .. فعرفت مدارسهم
أو طرقهم بهذه الأسماء المميزة .. فمثلا الخراز (ت ٢٧٩ هـ) من كبار
أوائل الصوفية ، عرف تلاميذه بالخرازية .. وعرف أتباع الجنيد
بالجنيدية .. وهكذا ..

أما الطرق المتأخرة التي ظهرت منذ القرن السادس الهجرى ..
ومن أبرزها طريقة عبد القادر الجيلاني (ت ٥٦١ هـ) وكان عالما فاضلا
يحترمه ابن تيمية ويذكره كثيرا .. فقد عرف أتباعه بالقادرية ، وكذلك
أحمد الرفاعي (ت ٥٧٠ هـ) عرف أتباعه بالرفاعية .. وهكذا » (٢٨) ..
ويختتم فضيلة الدكتور حديثه بقوله : « فالطريقة الصوفية مدرسة
تلتف حول فكر وتوجيه عالم يوجه تلاميذه الى كمال العلم والعمل ..
لا أكثر من هذا ولا أقل ، .. وحين ظهرت الطرق في أول أمرها كانت
بمثابة مدارس للتوجيه الروحي والأخلاقي والسلوكي : دون أن يكون
بين هذه المدارس تعارض — لا في العقيدة ، ولا في الشريعة —
انما الاختلاف راجع الى طريقة التربية والأخذ بأيدي التلاميذ الى طريق
الحق ، والى الكمال الخلقى » (٢٩) .

لقد تعددت الآراء في مسألة التصوف ، وسوف تتعدد ..
واختلف الناس في شأنه ما بين مغال في تعصبه له ، ومغال في
تعصبه ضده ..

ونقول : اننا لا نعادي الصوفية ولا نحاربها اذا تمسكت بكتاب الله وسنة رسوله ، واذا دعت الى صفاء النفس ونقاء العقيدة ..
اننا لا نعادي الصوفية ولا نحاربها اذا دعت الى التجرد من علائق الدنيا — دون مقاطعتها — وعملت على التفرغ لطلب الآخرة دون القعود عن عمارة الدنيا ..

اننا لا نعادي الصوفية اذا كانت تدعو الى الرهبة من الخالق لا من الخلق .. واذا ما جعلت يقينها أن ما يصيبنا لم يكن ليخطئنا ، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا ..

اننا لا نعادي الصوفية اذا دعت الى ارجاع كل الأمور الى الله تعالى دون خوف من مخلوق لا يملك لنفسه نفعا ولا أذى ..
وأخيرا .. اننا لا نملك معاداة الصوفية أو محاربتها .. اذا كان السالكون طريقها أطهار الذيل ، أعفاء النفوس ، زاهدين في كل ما في أيدي الناس ، مطمئنين الى ما عند مسبب الأسباب ..
والصوفية — حين تحرص على التزام هذا النهج — تصبح حقا خروا الايمان في التقى والجرأة ، والاقدام والاخلاص ..
وأين هو العاقل الذي يريد لنفسه أن يحارب أو يعادي هذه المبادئ الفاضلة ؟ !

أما حين تحيد الصوفية عن أمر الله .. وحين تعرض عن كتابه وسنة رسوله فتستورد العقائد الدخيلة على الاسلام كوحدة الوجود .. أو الحلول .. أو الاتحاد !!

أما حين تتمسك بالخرافات والأساطير !!
فاننا لا نملك أبدا مسالمتها أو مهادنتها .. ولا نستطيع أبدا السكوت على انحرافات وزيفها .. مهما كان الثمن غاليا !!
ان الحرص على سلامة العقيدة .. كما أمر بها الله وجاء بها رسوله .. أثمن وأغلى عندنا من كل عاطفة ، ولو كانت عاطفة القرابة أو وشيجة الدم !!

ومجمل القول : اننا لا نعادي الا الخرافة والأسطورة في الدين .. ولا نحارب الا منازعة الله تعالى في خصائصه ، واشراك عباده في صفاته ..

الفصل الثاني

نشأة التصوف .. وتطوره

تحدثنا في الفصل السابق .. عن أصل كلمة التصوف .. وعرضنا مفهومه واصطلاحاته عند الصوفيين .. والتمرنا — في عرضنا لهذه الأفكار والاصطلاحات — الأمانة التامة ، والحيدة والموضوعية الكاملتين ، فلم نتدخل في السياق الا حين يعترضنا من المواقف ما يفرض علينا هذا التدخل بالتعليق البسيط الذي يوضح الكلام ولا يخل بمعناه .. وفي الصفحات التالية — نسوق بمشيئة الله — آراء لبعض العلماء الأفاضل الذين عرف عنهم الأمانة والموضوعية والحياد .. لنرى كيف يرون التصوف الاسلامي من خلال عرضهم لتاريخه ونشأته وتطوره .. ولنستمع الى حكمهم في المال الذي آل اليه في عصوره المتأخرة ..

● ونقرأ أول ما نقرأ .. رايا للدكتور ابراهيم هلال .. الذي يدل على أن التصوف في أصله وفي لفظه ومعناه ، متقدمه ومتأخره .. استيراد أجنبي وليس من الاسلام في شيء !!

يقول الأستاذ الدكتور ابراهيم هلال (١) : « .. يدعو الاسلام — حقيقة — الى اخضاع الجسد أو الحس للنفس والدين والعقل .. ولكن لا عن اتخاذ كل ما أشار به الصوفية .. وانما عن طريق الايمان بالله واليوم الآخر . وبإرسال والأنبياء جميعهم .. والعمل بشريعتهم التي تبلورت أخيرا في شريعة محمد ﷺ .. في حدود الطاقة بعد أداء الواجبات .. والانتفاء عن المنتهيات .. »

(١) انظر : التصوف الاسلامي بين الدين والفلسفة . للأستاذ الدكتور ابراهيم هلال — ط ١ولى . ١٩٧٥ . ص ١ وما بعدها بتصرف ..

« وبهذا فسلوك التصوف سلوك متزيد .. يظهر فى النفس الانسانية معنوياتها .. ويحاول فى أحوال تطرفه أو تفلسفه أن يباعد بينها وبين الحياة .. وآله سبحانه يقول : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (٢) .

« وإذا كان التصوف فى الاسلام قد غلب عليه هذا الطابع فى التعريف المتقدم [وكان سيادته قد عرفه بأنه : السير فى طريق الزهد .. والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها .. وأخذ النفس بأسلوب من التقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع والسهر .. فى صلاة أو تلاوة .. حتى يضعف فى الانسان الجانب الجسدى ، ويقوى فيه الجانب النفسى أو الروحى .. لاختضاع الجسد للنفس بهذا الطريق .. سعيا الى تحقيق الكمال الأخلاقى للنفس .. وإلى معرفة الذات الالهية وكمالاتها .. وهو ما يعبرون عنه بمعرفة الحقيقة] ..

« إذا كان التصوف فى الاسلام قد غلب عليه هذا الطابع .. فان ذلك راجع الى أنه قد تأثر فى ذلك بفلسفات أجنبية عن الدين الاسلامى وعن بيئته .. سواء أكانت هذه الفلسفات فلسفات أجنبية عن البيئة الاسلامية كلها .. أو أنها أخذت من البيئة الاسلامية عن طريق الشيعة وعن طريق الفلاسفة الاسلاميين ..

« فالتصوف الاسلامى قد خلط بالدين الاسلامى ما ليس منه فى جانب العبادة والمعرفة .. وأصبحت معرفة الصوفية فى عمومها معرفة فلسفية أو اشراقية لا معرفة دينية فى كشفها ، الى محض التمسك بالكتاب والسنة ..

« والاشراق — بالمعنى الفلسفى الصوفى — هو تلقى العلم الغيبى ، والمعرفة الالهية عن العالم العلوى الروحانى بعد سلوك طريق التصوف من رياضة روحية ومجاهدة للنفس بحيث تصفو من الكدورات البشرية .. وحينئذ ينعكس عليها — أو يشرق فيها — من العلوم والمعارف ما هو منقوش فى العالم العلوى الروحانى من الملائكة أو العقول

والنفوس الفلكية .. والاشراقيون هم الذين يرون أن المعارف تحصل عن هذا الطريق ويطلبونها به [هامش] .

« فالاشراق الفلسفى الذى عرف من قبل عند سقراط وأفلاطون وأفلوطين .. وغيرهم من فلاسفة اليونان والهنود والفرس .. والذى يصل فيه المرء بعد مرحلة التجرد والرياضة والعبادة الى مرحلة الكشف والاخبار عن المغييات .. هو غاية التصوف الاسلامى فى منهجه الفلسفى . »
« وقد شاع هذا المنهج بتلك الغاية الاشراقية فى البيئة الاسلامية .. وان كنا وجدنا المنهج السنى والأصول الاسلامية .. بجانب ذلك المنهج الاشراقى .. تعيش معه جنباً الى جنب عند كثير من المتصوفة .. فأفادوا فى علم الأخلاق وفى أصول تربية النفس .. وفى مناهج البحث فى العلوم » ..

وهكذا .. ترى أن التصوف الاسلامى حين أراد اخضاع الجسد للنفس يسلك طريق الزهد والتجرد من زينة الحياة وشكلياتها .. ويأخذ النفس بالتقشف والعبادات والأوراد والجوع والسهر .. حتى يضعف الجانب الجسدى فى الانسان ويقوى فيه الجانب النفسى والروحى .. ولكنه حين أراد ذلك .. خلط بالدين الاسلامى ما ليس منه فى جانب العبادة والمعرفة .. اذ اعتقد أن الطريق الى تلقى العلم الغيبى والمعرفة الالهية لن يتأتى الا عن الرياضة الروحية ومجاهدة النفس حتى تصفو من الكدورات البشرية .. فينعكس عليها من العلوم والمعارف ما هو منقوش فى عالم الملائكة !!

ولكن التصوف الاسلامى — فى سبيل هذه العاية — مال عن طريق العلوم الشرعية ، واحتضن بدلا عنه أفكار سقراط وأفلاطون وأفلوطين .. وبهذا أصبحت المعرفة الصوغية معرفة فلسفية اشراقية لا معرفة دينية .. وظهر لأول مرة فى الفخر الاسلامى اصطلاح أهل الحقيقة .. فى مقابل أهل الشريعة المتمسكين بالكتاب والسنة ..

ويدلل الدكتور ابراهيم هلال على تأثر التصوف الاسلامى بالفلسفات الأجنبية فيقول :

« أدى ولع الصوغية المسلمين بالمنهج الاشراقى .. أن أخذوا

المعرفة عن مخالفيتهم من أبناء الديانات الأخرى التى رثت وبليت ودخلها التبديل والغنوص .. فهذا ابراهيم بن أدهم يفصح لنا عن أصول التصوف وغايته فيقول : « تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان !!

» ويحدثنا أبو يزيد البسطامي ، أنه سافر مرة حاجا .. فلقبه القبط في الطريق وأمره أن يعود قائلا له : ان الله هو ما تراه في بعين قلبك .. لأنه اختارنى بيتا له .. فاذا رأيته فقد رأيته ، وطفئت حول الكعبة .. واذا عبدته فقد عبدته وسبحت له .. فلا تظن أننى شئ غيره » !!

لم يكتف التصوف الاسلامى بالأخذ عن الفلسفة اليونانية ، انما أخذ أيضا عن المسيحية فاعتنق نظرية الحلول .. ولهذا نراه يصل بتعظيمه الأولياء والأقطاب بعد أن طور من هذا التعظيم الى أن أصبح أقطابه مجلى من مجالى الله سبحانه وتعالى بعد حلوله فيهم — تعالى الله عن ذلك — وهذه أول اشارة الى اعتناق التصوف الاسلامى لمذهب الحلول أو وحدة الوجود ..

لقد كانت نظرية الحلول ذائعة فيوعا عظيما في أنحاء فارس حتى زمن الساسانيين .. وكانت هذه النزعة الفارسية الهندية من خصائص التفكير الشرقى .. بينما كانت النزعة « الثيوسوفية » — أعنى النزعة نحو المعرفة الالهية — من خصائص التفكير اليونانى ..

وكأنما لم يقنع التصوف الاسلامى باعتناق الفكر اليونانى فأضاف اليه الفكر الشرقى متمثلا في فكر فارس والهند قبل الاسلام .. فأصبح المزاج غريبا تماما عن الفكر الاسلامى المنادى بتوحيد الألوهية ..

ويدلل الدكتور هلال على ذلك بقوله : « على أن ثمة شبيها ظاهرا بين بعض العقائد والنزعات الفارسية القديمة ، وبين بعض التعاليم والمذاهب الصوفية الاسلامية .. فالزهد في التصوف الاسلامى يشبه الزهد والرهبة المانوية .. كما يشبه الزهد والقناعة والنهي عن ذبح الحيوان في الديانة الزردكية ..

« ولقد شاعت العقائد فيما شاع بين المسلمين من تراث الفرس القديم ، ووجدت من الشيعة من اعتنقها وتعصب لها .. ومن الصوفية من تلقاها بالقبول وتأثر بها عن قصد أو غير قصد »^(٣) .

ويحدثنا الدكتور ابراهيم هلال عن « التصوف الملامتي » فيقول :
« فاذا انتقلنا عن هؤلاء وعن معرفتهم ، وعن فئاتهم عن أنفسهم ..
وذهبنا الى أبي عثمان الحيري (ت ٢٩٨ هـ) ، وأبي عمرو بن نجيد (ت ٣٦١ هـ) — وهما من الملامتية — رأينا نمطا آخر من التصوف ،
وهو الفناء عن الأعمال .. أو الاستهتار فيها جلبا للملامة وتعرضا لاذم
الخلق بدلا من مدحهم .. أو الاتجاه دائما — من جانب الشخص
نفسه — نحو النفس باللوم والشك فيها دائما — والنظر اليها
بنظرة التقصير .. »

« ونستطيع أن نتبين أن هذا التصوف موجود في كلا الاتجاهين :
الفناء عن النفس والفناء عن الأعمال .. وإذا اجتمع هذان الاتجاهان
في شيء ، فانما يجتمعان في السلبية نحو دين الله ومجتمعه ..
فأحدهما لا يبغي من أعماله الا الوصول الى الله أو الاتحاد به والبعد
عن الناس .. والآخر لا يبغي من أعماله الا الوصول الى مذمة الناس له
على خلقه وعمله ، والعمل على اشاعة الفساد واظهاره بينهم »^(٤) .

ونقول : وفي ظل المذهب الملامتي .. رأينا من بين المتصوفة من
يسقطون التكاليف الشرعية بحجة وصولهم الى الله واتحادهم به ..
فمن ثم لا حاجة بهم الى التكاليف الشرعية الخاصة بالعوام من الناس ..
ويعقب الدكتور هلال بقوله : « نستطيع اذن .. رد هذا كله الى
مصادر غير اسلامية .. منها ما تقدم في تشكيل المذهب الملامتي ..
ومنها ذاك العنصر اليوناني والمذهب الغنوصي .. وقد أثر كل منهما
تأثيرا كبيرا في الفكر الفلسفي والديني في الاسلام . وقبل الاسلام
وخاصة في التصوف .. والظاهرة الكبرى التي تؤكد لنا صلة التصوف

(٣) المرجع السابق ص ٨ . (٤) نفس المرجع ص ١١ : ١٢

بالمصادر الأجنبية - لسيطرتها على اتجاه المتصوفة عموما - هي ما نراه من المغالاة في الاهتمام بالعرفان ^(٥) .

وعن « العرفان » .. أو « المعرفة عند الصوفية » .. يحدثنا الدكتور هال فيقول مدلا على أجنبيته عن الفكر الاسلامي ، وبالتالي على أجنبية التصوف عن الاسلام :

« ... ومما يحملنا على الجزم بوجود أثر للفلسفة اليونانية في التصوف الاسلامي .. أن نظرية « المعرفة » فيه ظهرت في غربي آسيا ومصر .. في بلاد تأصلت فيها الثقافة اليونانية أحقابا طويلة .. وكان بعض المبرزين في الكلام فيها من أصل غير عربي ..

« وسأكتفى هنا بذكر المعرفة كمثال واحد يوضح ما ذكرناه .. فان ما يسميه الصوفية « المعرفة بالله » ويعتبرونه من أخص صفاتهم .. يرادف في اللغة اليونانية كلمة « جنوسيس » التي معناها : العلم بلا واسطة الناشئ عن الكشف والشهود .. وقد عرفها هذا التعريف كثير من صوفية القرن الثالث .. بل ان كلمة تصوف نفسها ليست اسلامية ^(٦) .

ثم يقول : « ... أما أجنبية التصوف عن الاسلام بالنسبة للتسمية بتلك الكلمة .. فانها في أصل مضمونها القديم قبل أن تدخل الى الأوساط العربية أو الاسلامية .. لم يكن يراعى فيها لبس الصوف ، أو القوم الذين يلبسون الصوف .. وانما كان يراعى فيها طلب النفاذ الى الأسرار الخفية أو المعاني الكونية المغيبة .. واتخاذ الطرق للوصول الى ذلك ..

« ... ان التصوف في ذاته ليس جديدا في الاسلام .. وانما هو قد عاش في كل بلد ذهب اليه الاسلام .. ونما وترعرع قبل أن يفتحه المسلمون .. فهذا الاتجاه الباطني ، والبحث فيما وراء الطبيعة عن خفايا الكون ، ومحاولة الوصول اليها بطريق المجاهدة النفسية

(٦) المرجع نفسه ص ١٧

(٥) نفس المرجع ص ١٤

والجسمية .. لا يعرفه الاسلام ، ولا يعتبر من سار فى هذا الطريق
أنه يسير على صراطه المستقيم .. وانما هو استيراد من خارج الاسلام
فى المخبر والمظهر ، أو فى الحقيقة والشكل ..

« الحقيقة أو الاتجاه .. أخذ عن أديان مختلفة سماوية وغير
سماوية ..

« والشكل أو المظهر .. أخذ عن زى الرهبان المسيحيين .. فجاء
علماء العربية غنسبونهم الى انشكل الذى هو الصق شئ باتجاههم — هذا
إذا قلنا ان الكلمة فى لفظها عربية — ومن المحتمل أن تكون أجنبية
وجدت منذ القدم علما على هؤلاء الذين يريدون أن يشفوا هوى نفوسهم
من ناحية الكون والحياة .. غير مقتنعين بما جاءت به الأديان ، أو جريا
وراء الأفكار الفلسفية أو الكهنوتية ..

« ومن الراجح ان تكون كلمة تصوف مشتقة من كلمة «ثيوصوفية»
اليونانية التى كانت تطلق عند قدماء اليونان على مذهب روحى يعتنقه
النسك والزهاد والسالفون قبل الاسلام بعدة قرون .. فكانوا يناون
بجانبهم عن الدنيا .. ويلجأون الى أنواع من الرياضات الروحية
والعبادة مما اقتبسوه عن أنبيائهم ورسلم . حبا فى التقرب بالروح
من خالقهم ، وتلقى الحكمة والمعارف القدسية عنه تعالى » (٧) .

والخلاصة : « أن التصوف الاسلامى : أوله المسمى بالزهد ،
وآخره المعروف بالتصوف .. انما هو استيراد من خارج الاسلام :
وليس من صميمه ..

« وأن تسميته بالزهد فى أوله .. انما هى بالنسبة الى جانب
منه ، مثل تسمية العباد والنسك والجوعية المتقدمة والحكماء ..

« وأن كل هذه أسماء ملحوظ فيها جانب من جوانب التصوف ،
وهو يجمعها كلها .. وكل منها يتطابق معه فى وجه من وجوهه أو مذهب
من مذاهبه .

« ومن هنا .. يمكن أن ننظر الى تلك الكلمة « صوفى » و « صوفية » فى اطلاقها المبكر قبل الاسلام ، ويعدده فى القرن الأول — فى المجال العربى — على جماعة المتعبدىين أو الفرد العابد — وأن لا نكذب تلك الروايات التى تقول باطلاقها فى اللغة العربية فى ذلك الوقت المتقدم على الاسلام — على أنها من باب الكلمات الدخيلة فى اللغة العربية .. كما نعرف تطرق تلك الألفاظ اليها من القديم فى لغات الأمم المختلفة .. ثم جاء المتأخرون واعتبروها منسوبة الى الصوف فى أصح أقوالهم .. خاصة وأن لبأس الصوف شاع فى عصر الجمع والتدوين والتأليف ..

« على أن اطلاق هذه الكلمة فى العصر الأول على العباد والنسك ليس ببعيد .. اذا عرفنا أن اتصالا حقيقيا نشأ فى العالم الاسلامى اتصل فيه المسلمون بالفلسفة اليونانية فى العقود الاسلامية الأولى .. ذلك أن « ابن كثير » — وهو مؤرخ ممتاز — ذكر لنا فى بعض النصوص أن علوم الأوائى انتشرت فى العالم الاسلامى فى القرن الأول الهجرى .. والمقصود بعلوم الأوائى : الفلسفة اليونانية وعلوم النجوم وغيرها من معارف يونانية لم يوافق عليها العقل الاسلامى ..

« فلا مانع أن تكون هذه الكلمة قد استوردت فى ذلك الوقت المتقدم الذى غزت فيه علوم هذا الصنف من الأجانب العالم الاسلامى فى ذلك الوقت أو قبله .. اذا تذكرنا أيضا أن الأديرة والكنائس كانت منتشرة فى الجزيرة العربية منذ القدم ، وأن العرب لم يكونوا بمعزل منهم ، وكثير منهم خالطهم واعتنق دينهم .. فضلا عن أن العرب كانت لهم صلات تجارية بالعالم المتمددين كله فى ذلك الوقت ، والذى شاعت فيه ديانات سماوية وغير سماوية ، وفلسفات دينية وميتافيزيقية .. كما كانت هناك الى جانب تلك الصلات التجارية صلات حربية وسياسية بين العالم اليونانى من قديم .. حين غزا الاسكندر بلاد الشرق وبين العالم الرومانى والفارسى والحبشى بعد ذلك .. حتى ظهور الاسلام .. »

ومن هنا نصل الى النتيجة الواضحة .. « أن التصوف فى أصله ،
وفى لفظه ومعناه — متقدمه ومتأخره — استيراد أجنبى ، وليس من
الاسلام فى شىء » ..

* * *

● تصوف الملاحدة :

اشتهر نفر من الصحابة — رضوان الله عليهم — بالزهد ،
كأبى ذر الغفارى ، وسلمان الفارسى .. كما اشتهر به الحسن البصرى ،
وعامر بن قيس من التابعين .. وكانوا يحرفون نشاطهم الى تركية
النفوس عن نقائصها وصفاء القلوب الى خالقها .. وكانت أعمالهم مشروعة
خالصة ، وأقوالهم كانت رشيدة واضحة ، لا عوج فيها ولا تقواء ..
يقول الحسن البصرى : « حادثوا هذه القلوب بذكر الله ،
فانها سريعة الدثور .. واردعوا هذه النفوس غانها طلعة تنزع الى
الشر عادة » .

ويقول ابن قيس : « لقد أحببت الله حبا سهل على كل مصيبة ،
ورخصانى بكل قضية .. فما أبالى مع حبى له ما أصبحت عليه
وما أمسيت » ..

كان هؤلاء النفى من الصحابة والتابعين .. يعملون برسالة
الاسلام ، ويعبرون عن الهدف الأخير لها . وهو : حمل النفس على
الاطمئنان وعلى التحمل . وعلى السير فى الحياة فى ثقة ، لأنها تستعين
بالله ، وتسلك طريقته فيما تسير نحوه من غاية ..

وعندما لقب الزهاد بالصفوية فى النصف الأول من القرن الثالث
الهجرى .. وكان يتقدمهم أبو هاشم الصفوى (ت ١٥٠ هـ) — وهو أول
من لقب من الزهاد بالصفوى — كان الزهد يسير على قواعد الدين ،
ورعاية آدابه وسلوكه ..

وفى ذلك القرن — الثالث الهجرى — أصبح التصوف مذهباً غنياً ،
له قواعد للمحاجة ومصطلحات اختص نفسه بها .. وظهر من بين حشوه
أبو القاسم الجنيد الذى كان يقول : « مذهبنا هذا مقيد بالكتاب
والسنة » .. كما ظهر الفضيل بن عياض . وإبراهيم بن أدهم ،

ومعروف الكرخى ، وغيرهم .. ممن كان يطلق عليهم « صوفية أهل العلم » .. لأن تصوفهم كان على النمط الموجود فى كتاب « الزهد والورع » لأحمد بن حنبل .. وهو زهد الاسلام لا تصوف الفلسفة .. ولهذا لم يتعرض لهم ابن تيمية بالنقد فى كتابه « الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » ..

ولكن ابن تيمية — رحمه الله — انتقد نوعا خاصا من التصوف .. ذلك هو النوع الذى عرف به محبى الدين بن عربى ، وابن سبعين ، وعمر بن الفارض ، ومن تتلمذ عليهم من معاصريه .. فقد كان تصوفهم ينادى بعقيدة « الوحدة » — اتقى لا يزال يقول بها بعض المتصوفة — ولهذا أطلق ابن تيمية على تصوفهم اسم « تصوف الملاحدة » ..

وعن هذا النوع من التصوف — تصوف الملاحدة — يحدثنا المرحوم الدكتور محمد البهى .. فيقول :

« تصوف الملاحدة .. هو ذلك المضرب الذى انحدر اليه الاتجاه الصوفى فى الجماعة الاسلامية .. بعد أن قبل فى شروح المبادئ الاسلامية عقائدا وفكرا ترجع الى المسيحية والأفلاطونية الحديثة والبرهمية ، وبعض الديانات الفارسية القديمة كالمناوية ..

« وتصوف الملاحدة .. يقول بالتثليث .. يقول « بعالم الله ، وكلمة الله ، والفراصة » على أنه عالم الأزل والطهر !!

« أما الله — فى تصورهم — فهو : « نور السموات والأرض » (٩) .

« وأما كلمة الله .. فهو محمد عليه الصلاة والسلام ، أو المخلوقات !!

« وأما الفراصة .. فهى « الإلهام الصوفى » .. وصاحبها هو « المريد » أو « الانسان الكامل » .. أو « المتحد بالله » .. وهى التى يعبر عنها القرآن الكريم — فى نظرهم — بقوله : « ونفخت فيه من روحي » (١٠) .. والتى يقول فيها الرسول عليه الصلاة والسلام : « اتقوا فراصة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » ..

« ويقول تصوف الملاحدة بعقيدة « الوحدة » .. أى عقيدة شمول الألوهية .. وهى التى تترجم فى هذه العبارة : « وجود هذا العالم هو عين وجود الله ، وليس هناك وجود قديم خالق ووجود حادث مخلوق » !! .. أى لا انفصال بينهما !!

« كما يقول بعقيدة « الحلول » .. وهى اعتقاد أن يحل الله فى بعض مخلوقاته من « المريدين » أو « الواصلين » .. فإلصاك إذا أمعن فى السلوك ، وخاض لجة الوصول .. فربما يحل الله فيه كالنار فى الفحم !!

« وعن أبى الحسين الحلاج من قوله : « أنا الحق ، وما فى الجبة الا الله » (١١) ، وقد قتل من أجل هذه المقالة فى خلافة المقتدر عام ٣٠٩ هـ بعد أن أفتى الفقهاء والصوفية المستقيمون بخروجه عن الاسلام ..

« ويعبر أبو يزيد البسطامي (ت ٣٣٤ هـ) عن الواصل الذى اتحد بالله : بالانسان الكامل .. ويشرحه بقوله : « المخلق أحوال ، ولا حال للعارف لأنه محيت رسومه وفنيت هويته بهوية غيره ونفيت » !! « ويقول : « لأن تحس أنك واحد مع الله ، خير من عبادة الناس جميعا من بدء الدنيا الى غايتها » !!

« والحلول .. أو الاتحاد بهذا المعنى .. قاصر على المتفوق فى درجة التصوف ، وهو « العارف » أو « الواصل » من بين درجات الصوفية !!

« والحلول أو الاتحاد .. هو الذى يهىء ما يسمى بالفراصة .. وهو الذى يجعل الانسان العارف جزءا من ذلك الثالوث المقدس : « الله ، وكلمة الله ، وصاحب الفراسة » .. ويرفع عنه بشريته ، ويسقط بالتالى التكاليف الشرعية عنه !!

« والطريق الى هذا الحل والاتحاد .. هو احياء الضمير ، والكشف ، والممارسة .. وأما القرآن والسنة فانهما لعوام الناس » !! (١١)

(١١) الفكر الاسلامى فى تطوره . للدكتور محمد البهى . نشر مكتبة

وهبة ، ص ٢٠ وما بعدها ..

[وهكذا تحول التصوف من مذهب يتقيد بالكتاب والسنة .. الى مذهب غريب تماما عن الاسلام .. مذهب ينادى بالوحدة التي تقول بشمول الألوهية .. و « بالحلول » الذي يقول بحلول الله تعالى في المريدين والواصلين !!

لقد رفعوا عن « العارف » بشريته بعد أن ابتدعوا ثالوثهم المقدس : « عالم الله ، وكلمة الله ، والفراصة » .. أى نور السموات والأرض ، والمخلوقات ، والإلهام الصوفي الذي اختص به المريد المتحد بالله .. فأصبح انسانا كاملا !!

لقد أصبح القرآن والسنة — طبقا لنظريتهم — لعوام الناس .. فما الداعي الى التكاليف الشرعية بعد أن اتحد المريدون بالخالق — سبحانه — عن طريق احياء الضمير ، والكشف ، والممارسة !!

فلتسقط التكاليف الشرعية عن أصحاب الفراصة بعد أن ارتفعوا عن بشريتهم !!

أهذا هو توحيد الاسلام [؟]
ثم يقول فضيلة الدكتور محمد البهي :

« ويقول « تصوف الملاحدة » بعقيدة « المتجلى » ، أو « الفيض » فى صدور العالم عن الله !!

« وطريق الفيض هو الحب .. غالله تعالى أحب نفسه ، وعن هذا الحب لنفسه خلق آدم .. وهكذا : كل موجود بعده ينشأ عن حبه لنفسه موجود آخر !!

« ويروون حديثا قدسيا فى هذه العقيدة : « كنت كثرًا مخفيا ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ليعرفونى » !!
« والوحدة .. بمعنى « الشمول الالهي » وعدم انفصال الكون عن موجدته والخلق عن الخالق .. عقيدة برهمية !!

« والحلول .. على معنى حلول الله فى انسان ما .. عقيدة مسيحية !!

« والاتحاد مع الله .. على أنه غاية يصل اليها الانسان عن طريق الكشف والممارسة .. فكرة أفلاطونية حديثة !!

« وعقيدة الفيض والتجلى في انصдор — أى في صدور الموجودات عن الله — من فكر الأفلاطونية الحديثة دخل فيها عنصر الأرسطية !!

« فعلى غرار « العلم » في مدرسة أرسطو في تصوير وجود العالم بعينه عن بعض .. كان الحب لدى الصوفية في تصوير الشيء نفسه ، بالإضافة الى الفيض !!

« فالمدرسة الأرسطية .. اكتفت « بالعقل » في تصوير نشأة العالم عن العلة الأولى ..

« والأفلاطونية الحديثة .. استخدمت بدل العقل فكرة الفيض في تصوير ذلك ..

« والتصوف الاسلامي الأخير .. مزج بين الطرفين . وعبر عنهما بالتجلى ، والحب !!

« عقيدة التثليث هنا ترجع الى الأفلاطونية الحديثة .. ولكن تأثرت بالشرح المسيحي لعالم الأصول في تلك المدرسة .. وهو العالم الذي يتكون من : الأول ، والعقل ، والنفس الكلية ..

« والشرح المسيحي لهذا العالم الأصيل .. لاعم بين موجوداته الثلاثة وبين « الله ، وكلمة الله ، والروح القدس » — التي وردت في نصوص المسيحية ..

« فاذا ما عمل التصوف المتأخر .. على خلق عالم مقدس ، أزلي أبدي .. فانه سيكون عالما مثلثا قطعاً .. طالما يؤمن بالله . ورسوله — ﷺ — بالإضافة الى ما يضيفه على العارف من صبغة الاجلال والتقديس » (١٢) II

[لقد قالوا بالتثليث حين ابتدعوا « عالم الله ، وكلمة الله ، والفراصة » II

ثم قالوا بالوحدة .. وبالحلول !!
وها هم يقولون بالتجلى .. أو الفيض !!
فالعالم صدر عن الله تعالى بأن أحب الله نفسه ، وعن هذا الحب
لنفسه خلق آدم .. وعن حب كل موجود لنفسه ينشأ موجود آخر !!
وهكذا .. استقوا فكرهم من منابع العقائد الغربية تماما عن
الاسلام .. فأخذوا الوحدة عن البراهمة ، والحلول عن المسيحية ،
والاتحاد عن اليونانية الحديثة .. وأخيرا مزجوا بين فكر أفلاطون
وأرسطو فابتدعوا عقيدة التجلى !!
ومرة ثانية نقول : هل هذا هو توحيد الاسلام [؟] !

ثم يقول فضيلة الدكتور محمد البهي رحمه الله :
« أما إسقاط التكليف الشرعية عن جميع الصوفية في درجاتهم
المختلفة .. فهو نتيجة لاعتقاد أن صدور العالم عن الله بطريق الفيض .
وعن حب الله لنفسه .. فليس هناك مكان للقدرة والارادة في هذا
الصدد .. والتكليف الشرعي صورة لارادة الله .. فاذا انعدمت
الارادة : انعدم التكليف !!

« وأما سقوط هذه التكليف عن طبقة المعارف .. فالاعتقاد بالاتحاد
وعدم التمايز بين الانسان الواصل — أو الكامل — وبين الله يسقط
التكليف .. لأنه الآن ليس هناك جانبان وطرفان .. أحدهما يكف .
والآخر يقوم بالتكليف !!

« ثم لماذا التكليف وقد تمت الغاية ؟ فالتكليف ليس الا وسيلة
لغاية .. هو رسم طريق يوصل الى غاية خاصة .. وقد بلغ الانسان
هذه الغاية .. فلا معنى لرسم الطريق وطلب سلوكه !!
« ولو لم يكن من نتائج هذه العقائد الا إسقاط التكليف .. لكانت
هذه النتيجة وحدها كافية لنقد هذا المذهب اذ أي اتجاه فكري
أو عقيدى يسقط التكليف صراحة أو يضع مقدمات تستلزم إسقاطه
يكون مجافيا للرسالة الاسلامية » (١٣) .

[وهكذا يستطيع ذلك الفكر الغريب أن يحقق هدفه .. وهو إسقاط التكاليف الشرعية !!]

لقد أسقط هذه التكاليف عن جمهور المتصوفة — بدرجاتهم المختلفة بنظرية الفيض .. إذ لا مكان للقدرة والارادة نظرا لصدور العالم — في زعمهم — عن الله تعالى بطريق الفيض وعن حبه لنفسه .. والتكليف الشرعى احدى صور ارادة الله ، وقد انعدمت هذه الارادة طبقا لنظرية الفيض .. فلماذا التكليف !!

كما أسقط هذه التكاليف عن طبقة العارفين بنظرية الاتحاد .. فما دام العارف قد اتحد مع الله ، وأصبحا — في زعمهم — طرفا واحدا ، فلماذا التكليف ؟ !
فلتسقط التكاليف الشرعية ! لن : بعد أن تمت الغاية .. وهذا هو بيت القصيد [..

والخطر في الأمر .. أن أصحاب هذا النوع من الصوفية — كما يقول الدكتور محمد البهى — : « لم يضيفوا هذه العقائد الى تعاليم الاسلام كشيء مجاور لشيء آخر يضاف اليه ، مع بقاء الانفصالية بينهما .. بل حاولوا أن يحملوا بعض نصوص القرآن هذه العقائد .. ويجعلوا من شرح الفيض والعقيدة التى شرح فى ضوءها وحدة لا انفصال فيها !!

« والآيات القرآنية التى تعلّقوا بها فى تبرير اسلامية هذه العقائد الدخيلة .. هى تلك التى تشير الى قرب الله تعالى من الانسان .. مثل قوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » (١٤) .

وقوله : « ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا » (١٥) .

وقوله : « والله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله » (١٦)
« فهذه الآيات حملوها على « الوحدة » البرهمية بمعنى الشمول
الالهى ، وعدم الانفصال بين الخالق والمخلوق !!

« وإذا لم يجدوا بين النصوص الصحيحة ما يصح أن يحمل
على عقيدة من هذه العقائد .. ابتدعوا بعض الأحاديث للتدليل بها على
اسلامية العقيدة المطلوبة — كالحديث القدسى : « كنت كئزا مخفيا ،
فأصبحت أن أعرف ، فخلقت الخلق ليعرفونى » — كى يضيفوا الى
الاسلام عقيدة الشيفى .. والاسلام ينفر منها » (١٧) .

إن أين الوحدة فى قول الله تعالى : أنه خلق الانسان ويعلم ما تحدثه
به نفسه .. فلا يخفى عليه تعالى سرائره وضمائر قلبه .. فهو تعالى
أقرب للانسان من عرق العنق .. فهو أعلم به وأعرف بأحواله ،
ولا يخفى عليه شئ من خفياته ؟ !

أين الوحدة فى قوله جل شأنه : أنه يعلم جميع ما فى السموات
وما فى الأرض ، لا تخفى عليه صغيرة ولا كبيرة .. فكيف تخفى عنه
أعمال العصاة والكافرين ؟ .. الحق أنه ما يكون من حديث وسر بين
ثلاثة من خلقه الا هو مشاهدهم .. يسمع سرهم ونجواهم ، ولا يخفى
عليه شئ من أسرارهم .. ولا يكون من حديث بين خمسة الا هو —
تعالى — سادسهم .. ولا أقل من ثلاثة ولا أكثر من خمسة الا هو
معهم اذا تناجوا .. فى أى موضع ومكان كانوا ؟ !

أين الوحدة فى قوله جل وعلا : ان له وحده ملك المشرق والمغرب ،
وملك ما بينهما من الخلائق .. فحيثما تولوا وجوهكم — أيها المؤمنون
فى صلاتكم فهناك وجه الله يسمعكم فضله وأرضه وبلاده .. وأينما
تولوا وجوهكم فى دعائكم فهناك وجه الله يستجيب لكم دعاءكم ؟ !

هل تتفق هذه الآيات — التى استدلوا بها — مع الوحدة البرهمية
بمعنى الشمول الالهى ، وعجم الانفصال بين الخالق والمخلوق ؟ !

فلا عجب اذن — وهذا فكر القوم وعقيدتهم .. أن ينال التصوف الاسلامى فى نوعه المتأخر استحسان الغرب من جانب .. وسخط المسلمين عليه من جانب آخر [..

يقول الدكتور البهى : « كان التصوف زهدا .. فأصبح ضربا من ضروب الفلسفة .. ثم مال الى « وحدة » البراهمية ، و « حلول » المسيحية !!

« وهذا المال الذى آل اليه .. هو موضع الاختلاف فى التقدير بين الاستحسان والتجريح .. [استحسان الغرب وتجريح المسلمين] .. أما استحسان علماء الغرب له .. فلأنه يميل بالاسلام نحو المسيحية .. فيبعد الاسلام عن مجال الحياة العامة ، ويقصره على الدربة النفسية وما يسمى بالصفاء الروحى للفرد .. فوق أنه يقرب الله — تعالى — بفكرة الحلول الى الانسان على نحو تأليه عيسى المسيح وجعله طبيعة مزدوجة .. الهية الباطن وانسانية الظاهر !!

« وهذا ما ينشده الغرب ويبتغيه من الدين !!

« اذ الدين فى نظره يعالج الفرد ويضع أمامه المثل الأعلى للاقتراب منه .. هكذا يشرح الدين فى نظر الغرب اقتباسا من وضع المسيحية !!

« أما المسلمون .. فيرون أن فكرة « الحلول » تنقض رسالة الاسلام فى وحدة الله وتنزيهه عن الحق وصفاته .. وهى !كونها تستتبع فكرة « التناسخ » تجعل من الله موجودا منتقلا .. وذلك يتنافى مع بعض صفاته تعالى : كالبقاء والقيام بالنفس .. فالمسلمون يرون الصوفية المتأخرة ضربا من تحريف الاسلام الى المسيحية المحرمة .. وهى مسيحية الحلولية « (١٨) ا ه .

● ويتحدث فضيلة الشيخ محمد الغزالى عن « التوحيد » الذى

هو جوهر الاسلام .. وخرافة « الوحدة » التي أدخلت على الاسلام زورا ، وأدت الى الزعم بتسوية المخلوق بالخالق وافناءؤه فيه .. فيقرر أنها شرك يفسد عقيدة التوحيد .. وضلال لا أصل له في الاسلام ..

يقول الشيخ محمد الغزالي : « التوحيد .. جوهر الاسلام ومظهره ، ولبابه وقشوره .. ودعامة التعاليم التي جاء بها .. بل هو رباط بنائه ، ولون طلائه ، ومعقد أصوله وفروعه .. » وليس الامتلاء بدعا في الدعوة الى توحيد الله ..

« فرسل الله — قاطبة — بعثوا بهذا الايمان الخالص ، وجمعوا الناس عليه .. وحذروهم من كل شائبة تعكر صفوه وتطفئ رونقه : » وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا انا فاعبدون « (١٩) .

« غير أن جماهير غفيرة من البشر أبت الا أن تزيغ عن هذا الصراط .. وأن تتشبث بأوهام سخيفة ، باعدتها عن الله ، وأحلتها البوار ..

« فكان كل نبي سبق .. يجيء بالحق ، ويناشد الأمم أن تثوب اليه .. حتى جاء خاتم المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ ، فصدع صرح الشرك .. وخط في شغاف القلوب عقيدة الايمان بالله الواحد ..

« وكان القرآن الكريم — ولا يزال — النداء العالي لهذا اليقين الحق ، والمجادل القوي عما يعرض له من شبه أو يلتبس به من تخطيط .. » ومن المؤسف .. أن المسلمين أصابهم مس من داء الانتم السابقة .. فظلموا رسالتهم الجليلة بما شابوا به عقيدة التوحيد .. وبما أقحموه عليها من بدع وخرافات ..

« وهي بدع وخرافات .. تشبه ما انزلق اليه الأولون . أو هي ترديد لما كان من لغو .. حذوك النعل بالنعل : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ، قد بينا الآيات لقوم يوقنون » (٢) .

« والابتداع .. قد يأتى بالشئ وضده معا .. ليفسد العقيدة الوسط .. »

« فتسوية المخلوق بالخالق شرك يفسد عقيدة التوحيد .. وكذلك افناء الخلق فى الخالق .. ضلال لا أصل له فى هذه الملة .. وان كان ظاهره أنه غلو فى تقدير الله ، واغراق فى مبدأ التوحيد » (٢١) .

ثم يقول فضيلته — جزاه الله خيرا — عن « وحدة الوجود » :
« كنا نظن أن هذه الخرافة قد انتهت بانتها أصحاب الشطحات الذين اشتهروا فى التصوف القديم .. »
« الا أن نفرا من عصاة المسلمين — فى عصرنا هذا — عندما يتركون حياة المجون .. ويرغبون فى العودة الى الله ، تصيهم لوثات غريبة .. »

« فيحسبون أن من تمام توبتهم تغليب ذات الله على كل ما يعرض لهم من أشخاص وأشياء .. فتراهم يخرجون من أنفسهم .. ويسلخون العالم من خصائصه العتيدة .. وقد تتردد على ألسنتهم كلمة « الحلاج » عندما سئل : من فى الجبة ؟ .. فقال : الله !!

« ولما كان من المتعذر بناء سلوك عملى على هذه الفكرة .. فان الجانحين اليها يكتفون بنوع من الجبر الذى يشل الارادة .. والتسليم لما تقدر به الأحداث .. ثم الحديث عن الله الكامن فى كل شئ حديث استكانة وذوبان .. »

« وقد أصيب جمهور المسلمين برشاش من هذه الخرافة .. أوقف نمو المنطق المبادئ فى بلاد الاسلام .. وخلط بالالهيات أمورا كثيرة لا تمت اليها بسبب .. »

« ان العالم شئ يغاير الله — برغم ما يقوله فريق من المتصوفة — والله عز وجل : ذاته وأسمائه . وحقوقه التى فصلت تفصيلا فى كتبه المنزلة .. »

(٢١) ليس من الاسلام : للشيخ محمد الغزالي : نشر دار الكتب الاسلامية : ١٩٨٢ ص ١٦١ - ١٦٢

« وهناك فرق كبير بين وحدة الوجود .. ووحدة الشهود .
« ان المرء قد يستغرق في النظر الى مسألة ما ، استغراقا يذهله
عما حوله .. وربما فودى — وهو في بحار الفكر — فلا يسمع النداء ..
« فهل هذه الصورة من صور الانحصار الذاتى ، تعنى فناء ما حول
الانسان لأن الانسان غائب عنه بفكره ؟ !

« والشمس تطلع فتغمر بأشعتها الساطعة أرجاء الكون ، فلا يمكنك
أن ترى فى الأفق البعيد أو القريب نجما .. حتى اذا عاد الليل
وانتشر ظلامه أخذت النجوم المختلفة عن العين تلوح فرادى وجماعات ..
« هل غلبة أشعة الشمس عليها تعنى لمن لا يراها أنها معدومة ؟ !
« ان من المؤمنين الأخيار من يعيشون فى أنوار الله معيشة رفيعة
.. رسخوا فى مقام الاحسان حتى ألفوا أطواره الزاهية ..

« ومقام الاحسان — كما عرفه رسول الله ﷺ — « أن تعبد الله
كأنك تراه .. فان لم تكن تراه فانه يراك » (٢٢) .

« وهذا الالف يصح أن نطلق على حقيقته « وحدة الشهود » ..
وهو منحى يغير تمام المغايرة « وحدة الوجود » .. وان اختلط الأمران
على القاصرين ..

« وأكثر الذين يعتنقون فكرة ما .. أو تسيرهم عاطفة خاصة ..
يقيسون ما يلقاهم من شئون الحياة على شئونها .. ألا ترى الرجل
الغزل يقول :

لا أرى الدنيا على نور الضحى بل أرى الدنيا على نور العيون

« فليس بعجيب أن يوجد مؤمنون تستولى على مشاعرهم عاطفة
دينية .. تجعل نشاطهم كله محصورا فى مرضاة الله .. وتجعل نخلتهم
للأمور من هذه الزاوية الخاصة وحدها ..

« بل فى هذا يساق الحديث المشهور عن رسول الله ﷺ ..
أن الله تعالى قال (٢٣) : « من عادى لى ولينا فقد آذنته بالحرب ..

(٢٢) رواه البخارى ومسلم ، (٢٣) أى : فى الحديث القدسى .

وما تقرب الى عبدى بشيء أحب الى مما افترضت عليه .. وما يزال
عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه .. غاذا! أحببته كنت سمعه الذى
يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى
يمشى بها .. ولئن سألتنى لأعطينه .. ولئن استعاذنى لأعيدنه » ..

« فالحديث .. يشير الى مرتبة التقانى فى ارضاء الله تفانيا
يجعل حواس المرء وجوارحه مسخرة فى طاعة الله وحده ..

« ولا يعنى — البتة — أن ادمان العبادة ينتهى بطول ، أو اتحاد —
كما يتصوره بعض السذج .. أو ينتهى على القليل بطور خارق للنواميس
المعتادة .. كما صور ذلك المتصوفة فى حديث مكذوب : « عبدى ..
أطعنى أجعلك ربانيا ، تقول للشئ : كن ، فيكون » (٢٤) .

* * *

● ويعقد المرحوم الشيخ محمد حسين الذهبى المقارنة بين الحال
التى كان عليها المتصوفة فى القرون الأولى .. والحال التى أصبحوا عليها
فى قرونهم المتأخرة .. فيحدثنا فضيلته عن الزهد الذى كان موجودا
فى الصدر الأول للإسلام .. وكيف استفاد منه المتصوفة فى سلوكهم
الصوفى .. ثم حانهم بعد أن أدخلوا علوم الفلسفة فى تصوفهم ،
وكونوا لهم فلسفة خاصة بهم تدين بأفكار غريبة تماما عن الإسلام ..
فدخل فى التصوف رجال من غير أهله .. تظاهروا كذبا بالورع والطاعة
والزهد والتقشف .. فأفسدوا التصوف الإسلامى بعد أن حولوه الى
مذهب فلسفى ..

يقول صاحب « التفسير والمفسرون » :

« التصوف — بالمعنى السالف [وكان رحمه الله يتحدث عن
الزهد والتقشف] موجود منذ الصدر الأول للإسلام .. فكثير من
الصحابة كانوا معرضين عن الدنيا ومتاعها .. آخذين أنفسهم بالزهد
والتقشف .. مبالغين فى العبادة ..

« فكان منهم من يقوم الليل ويصوم النهار .. ومنهم من يشد الحجر على بطنه تربية لنفسه وتهذيباً لروحه .. »

« غير أنهم لم يعرفوا في زمنهم باسم الصوفية .. وإنما اشتهر بهذا اللقب فيما بعد من عرفوا بالزهد والتقاني في طاعة الله تعالى .. وكان هذا الاشتهار في القرن الثاني الهجري .. وأول من سمي بالصوفي هو « أبو هاشم الصوفي » المتوفى سنة ١٥٠ هجرية .. »

« وفي هذا القرن وما بعده .. تولدت بعض الأبحاث الصوفية .. وظهرت تعاليم القوم ونظرياتهم التي تواضعوا عليها .. وأخذت هذه الأبحاث تنمو وتتزايد كلما تقدم العهد عليها .. وبمقدار ما اقتبسها القوم من المحيط العملي الذي يعيشون فيه تطورت هذه الأبحاث والنظريات » (٢٥) .

ثم يقول رحمه الله : « ولقد استفاد المتصوفة من الفلاسفة والمكلمين والفقهاء ما كان له الأثر الأكبر في هذا التطور الصوفي .. غير أنهم أخذوا من الفلسفة بحظ وافر .. بل وكونوا فلسفة خاصة بهم .. حتى أصبحنا نرى بينهم رجالاً أشبه بالفلاسفة منهم بالمتصوفة .. وأصبحنا نرى بعضهم يدين بمسائل فلسفية لا تتفق ومبادئ الشريعة .. مما أثار عليهم جمهور أهل السنة .. وجعلهم يحاربون التصوف الفلسفي ، ويؤيدون التصوف الذي يدور حول الزهد والتقشف وتربية النفس وإصلاحها .. وما زال أهل السنة يحاربون التصوف الفلسفي حتى كادوا يقضون عليه في نهاية القرن السابع الهجري .. »

« ومن ذلك الوقت .. دخل في التصوف رجال من غير أهله .. تظاهروا بالورع والطاعة .. وتحلوا بالزهد والكاذب والتقشف المصطنع .. فأصبحنا نرى بعض الجهلاء الأميين يشرفون على الطريق .. ويتولون تربية الأتباع والمريدين .. ووقفت التعاليم الصوفية عند دائرة محدودة . »

(٢٥) التفسير والمفسرون ، للشيخ محمد حسين الذهبي ، نشر مكتبة

وهبة ، ١٩٨٥ ، ج ٢ ص ٣٢٥

هى دائرة الأوراد والأذكار .. وان تعدتها ، فلا أكثر من بعض الأبحاث
الضيقة فى الفقه والتفسير والحديث « (٢٦) .

* * *

● وعن هذا التطور الذى لحق بالصوفية .. نقرأ للامام القشيري
— وهو الرجل الذى لا يمكن أبدا اتهامه بالعداء للصوفية أو بكراهية
الأولياء والصالحين — يقول القشيري : « ثم اعلموا — رحمكم الله —
أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم .. ولم يبق فى زماننا
هذا من هذه الطائفة الا أثرهم .. كما قيل :

أما الخيام فانها كحياتهم وأرى نساء الحى غير نسائها

» . حصلت الفترة فى هذه الطريقة ، بل اندرست الطريقة
بالحقيقة ..

« مضى الشيوخ الذين كانوا بهم اعتداء . وقل الشباب الذين
كان لهم بسيرتهم وسنتهم اعتداء .. وزال الورع وطوى بساطه ،
واشتد الطمع وقوى رباطه .. وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ،
فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة .. ورفضوا التمييز بين الحلال
والحرام ، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام .. واستخفوا بأداء
العبادات ، واستهانوا بالحسوم والصلوات .. وركضوا الى ميدان
الغفلات ، وركنوا الى اتباع الشهوات ، وقل المبالاة بتعاطى المحظورات ،
والارتفاق بما يأخذونه من السوق والنسوان وأصحاب السلطان ..

« ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الغفلات ، حتى أشاروا
الى أعلا الحقائق والأحوال .. وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال ،
وتحققوا بحقائق الوصال .. وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه
وهم محو .. وليس لله عليهم غيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ..
وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختفوا عنهم بانكسية ، وزالت عنهم
أحكام البشرية ، وبقوا بعد فنائهم عنهم بانوار الصمدية .. والقائل

عنهم غيرهم إذا نطقوا ، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا
بل صرفوا » (٢٧) .

هذا ما يقوله أحد أئمة الصوفية الأجلاء — قاله عام ٤٣٧ هجرية —
وليس كلاما جديدا يمكن معه أن يتهم قائله بكراهية التصوف أو العداء
للسوفية .. ولكنه التطور الذى لحق بالصوفية فى قرونها المتأخرة ،
وأصبح لها فلسفتها الخاصة .. وتحولت من « تصوف أهل العلم » ،
الى « تصوف الملاحدة » !!

* * *

● وعن انحراف « التصوف الاسلامى » فى مرحلته المتأخرة ..
يحدثنا الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فيقول : « .. أدى انحلال
أحوال البلاد سياسيا واجتماعيا .. فى أواخر عصر المماليك الى انحراف
الصوفية .. وتحولت حياة التصوف عن مثلها الى حياة مليئة بالمفاسد
والرذائل الخلقية ..

» وبعبارة أخرى .. فقد تخطى الصوفية عن النظم والآداب التى
عرفوا بها بين الناس .. فاختلفت أوضاعهم ، وازداد عبثهم .. وصاروا
موضع سخرية المجتمع ونقد العقلاء ..

» من ذلك أن أذكاريهم غدت بصوت مسموع ويشترك فيها جماعة ،
ومن ثم سميت السماعيات .. ولم تلبث أن أصبحت الشبابة والمزمار
والدف والرقص والتصفيق من مظاهر تلك السماعيات .. فإذا دب معه
« المتصوف » الطرب قليلا .. حرك رأسه كما يفعل أهل الخمر سواء
بسواء .. ثم اذا تمكن الطرب منه .. ذهب حياؤه ووقاره .. فيقوم
ويرقص ، وينادى وييكى .. ويدخل ويخرج ، ويبسط يديه ويرفع
رأسه نحو السماء كأنه جاءه المدد منها .. ويخرج الزبد من فيه ..
وربما مزق بعض ثيابه وعبث بلحيته ..

» كذلك أنشأ مشايخ : الخانقاوات يمدون الأسطة الفاخرة ..
ويجمعون فى مجالسهم الأرذال وأصحاب المغانى والملاحى !!

« ومنهم من اعتاد أخذ أموال الوقف ليصرفها في اللهو والخمر مع التجاهر بذلك .. بل ان بعضهم استحضر المرد (*) في مجالسهم ، وزينوهم بالحلى والصبغات .. وزعموا أنهم انما أرادوا الاستشهاد على قدرة الله ، والاستدلال بالصنعة على الصانع !!

« ولم يلبث أن انتشر تعاطى الحشيش بين الصوفية .. حتى نسب اليهم وأصبح يعرف باسم « حشيشة الفقراء » .. وقد استنكر كثيرون ذلك الوضع الذى آل اليه أمر التصوف .. ومما قيل فى ذلك :

صوفية أحدثوا فى ديننا احبا

وخالفوا الحق دين المصطفى العرب

من اقتدى بهم قد ضل مثلهم

سحقا لذهبهم ، ولو كان من ذهب

أهل المراقص ، لا تأخذ بمذهبهم

فقد تمادوا على التمويه والكذب» (٢٨)

ثم يقول : « أما المقرئى .. فقد وصف الصوفية على أيامه — أى فى القرن التاسع الهجرى — بأنهم « لا ينسبون الى علم ولا ديانة .. والى الله المشتكى » !

« ثم كان أن ازداد الوضع سوءاً فى العصر العثمانى .. وهو العصر الذى تعرض فيه المصريون لنكبات جمه عكست صورتها فى المجتمع .. ذلك أنه انتمى الى التصوف فى ذلك العصر كثير من الأدعياء ممن لا يوصفون بعلم أو دين .. حتى أن الشعرانى يذكر أنه تتلمذ على سبعين شيخاً .. لا يعرف أحدهم النحو !!

« وأدهى من ذلك وأمر .. أن الصوفية استهانوا بشعائر الدين وأصوله .. فأعرضوا عن الصلاة بدعوى أنهم يؤدونها فى الأماكن المقدسة !! .. كما أهملوا الصيام ، وأوهموا الناس أن التكليف الدينية تسقط عن كل واصل !!

(*) جمع امرء : وهو الحصى الذى لم ينبت له شارب أو لحية .

(٢٨) انظر : السيد البدوى .. شيخ وطريقة ، للدكتور سسييد

عبد الفتاح عاشور — سلسلة اعلام العرب (٥٨) ، عام ١٩٦٦ ، ص ٢٢٧ وما بعدها .

« ولا أدل على استهانتهم بشعائر الدين .. أن بعضهم — مثل الشيخ تاج الدين الذاكر — كان يمكث بوضوء واحد سبعة أيام .. امتدت أواخر عمره الى أحد عشر يوما !!

« بل ان الشيخ أبو السعود الجارحي كان يتوضأ في أول رمضان .. فلا يعيد الوضوء الا بعد العيد بستة أيام !!

« ثم بلغ الاستهانة بالدين أن يلجأ المتصوفة الى اختلاق كلام عديم المعنى يزعمون أنه قرآن !! .. فيحكى الشعرانى أن الشيخ شعبان المجذوب كان يجلس فى المسجد أيام الجمع ويقرأ : « وما أنتم فى تصديق هود بصادقين .. ولقد أرسل الله بالموثفات يضربوننا ويأخذون أموالنا ، وما لنا من ناصرين » !!

« كل ذلك دون أن يجروا أحد من الناس على الاعتراض عليه .. بل كانوا يعتقدون فيه ، ويعدون رؤيته عيداً عندهم !!

« أما الشيخ ابراهيم العريان .. فقد كان يصعد الى منبر المسجد عارياً ويخطب فى الناس قائلاً : « السلطان ودمياط ، وباب اللوق وبين الصورين وجامع طولون ، والحمد لله رب العالمين » .. فيخشع الناس لكلامه ، ويحصل لهم بسط عظيم » (٢٩) !! ..

ويقول الدكتور عاشور : « واذا كان هذا هو موقف الصوفية من مبادئ الدين .. فلا ينتظر منهم عندئذ أية رعاية لأبسط قواعد الأخلاق .. فاستباحوا لأنفسهم الحرمات على مرأى من الناس .. ومارسوا الزنا والخمر واللواط ، والميسر والحشيش .. دون أن يخشوا لومة لائم !!

« ويبدو أن عامة الناس أصابهم الرعب تحت تأثير الجبل ، وما أشيع عن الصوفية من كرامات كفيلة بأن تسحق من يتعرض لهم بقول أو فعل .. فتركوا الصوفية يمارسون حياتهم المنحرفة على مرأى منهم .. بل ربما بحثوا عن مبررات يبررون بها سلوكهم الشاذ ..

« واستمرت هذه الأوضاع طويلا حتى القرن التاسع للميلاد ..
مما جعل الجبرتي يقول في المصريين وتقديسهم للمشايخ :

بعضهم قبل الضريح وبعض عتب الباب قبلوه وتربا
هكذا المشركون تفعل مع أحد نامهم تبتغى بذلك قريبا

« وزاد الطين بلة .. أن بعض الصوفية تطرفوا في أفعالهم
وأفعالهم .. فتشأت عن ذلك طوائف المجانيب أو الدراويش .. الذين
اشتبهوا بأفعال غريبة زعموا أنها من الدين ، وما هي من الدين في
شيء .. ولكن : العاقل من عرف زمانه على قول الشعراني « (٣٠) ..

ثم يقول سيادته : « وشهد الرحالة « بيرو تافور » — الذي زار
مصر في أواخر عصر المماليك — جماعة من هؤلاء الدراويش في مصر ،
وقد حلقوا رؤوسهم ولحاهم وسعر الحواجب ، كما أزالوا رموش
أعينهم .. فبدوا في صورة مزعجة تشبه المجانين .. ويزعمون أن ذلك
ضرب من التقوى والعبادة !!

« ومن أفعال ذلك النفر من الصوفية - أن يركب الواحد منهم في
قفص على رأس حمال .. ويتعمم « بشرطوظ » طويل جدا .. ويعاشر
سفلة القوم ، ويزعم أن ذلك من الدين !!

« ومنهم من اعتاد أن يركب على قطعة خشب أو جريدة بعد أن
يصور لها وجهها وعينين ، وأنفاً وفماً .. ويمسك بيده شيئاً كأنه سوط ،
ويربط الجريدة بخيط كأنه لجام .. ويجرى على هذه الصورة المضحكة
وسط شوارع القاهرة ، وهو يضرب دابته والناس يعتقدون في بركته !!

« وقد أشار ابن خلدون الى هذه الطائفة من الصوفية بقوله :
« ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون .. أشبه
بالمجانين من العقلاء .. وهم على ذلك صحت لهم مقامات الولاية
وأحوال الصديقين !!

(٣٠) نفس المرجع السابق .

« وكان أن استرعت هذه الأوضاع أنظار الفرنسيين وقت الحملة الفرنسية على مصر .. فأرسل سارى عسكر — وهو « كليبر » لأن « بوناپرت » كان قد غادر البلاد الى وطنه — يسأل علماء المصريين ومشايخهم عن أولئك الذين يدورون فى الأسواق ، ويكثفون عن عوراتهم ، ويصيحون ويصرخون ، ويدعون الولاية ولا يصلون ولا يصومون ، ومع ذلك تعتقدهم العامة .. »

« سألهم كليبر : هل هذا جائز فى دينكم .. أم محرم ؟
« فأجاب مشايخ المسلمين وعلمائهم : ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعتنا وسنتنا .. »

« فشكرهم كليبر على ذلك .. وأمر الحكام بمنعهم والقبض على من يرويه كذلك .. فان كان مجنوناً ربط بالمارستان .. أو غير مجنون فاما أن يرجع عن حالته أو يخرج من البلد !! »

« ولكن هيهات أن يتخلى عامة الناس عن عقائدهم فى سهولة .. وبخاصة فى بلد فشا فيه الجهل ، وعمه التأخر والركود .. وهكذا استمر أولئك الذين يدعون المشيخة فى غيهم وعبتهم ، وشجعهم الناس بالاعتقاد فيهم » (٣١) .

ويقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : « ولا نريد أن نتبع هذه الظاهرة الخطيرة التى مازالت بعض آثارها باقية ضعيفة حتى اليوم فى أجزاء من مجتمعنا .. وانما يكفى أن أخذت الكلام عن هذه الظاهرة بقصة طريفة رواها الجبرتي ، وحدثت فى القاهرة على أيام محمد على الكبير .. »

« ذلك أنه وجدت فى القاهرة عندئذ — أى فى مستهل القرن التاسع عشر للميلاد : امرأة يقال لها الشيخة رقية .. كانت تلبس مئثرا أبيض ويدها عصا من الخيزران ، ويدها الأخرى مسبحة طويلة .. وتطوف بهذه الصورة على بيوت الأعيان .. وقد اعتقد فيها نساء

(٣١) المرجع السابق نفسه .

الأكابر الصالح والتقوى .. وكانت تدخل البيوت وتخلو بهن ،
ويسألنها الدعاء لهن ..

« بل لقد اعتقد الرجال وبعض الفقهاء فى صلاحها وبركتها ..
« وكان أن توفيت الشيخة رقية .. فحزن الناس ، وعم القاهرة
حزن عميق على وفاة تلك الشيخة الصالحة .. وأخذ الناس يتحدثون
عن بركتها وكراماتها ..

[ويفاجئنا الجبرتي — فى عبارات جريئة نمسك عن ذكرها حرصا
على حياة العذارى — يفاجئنا بالمفاجأة القاسية التى حدثت بعد ذلك ..
اذ أنهم لما أرادوا تغسيل الشيخة رقية اكتشفوا أنها كانت رجلا
احتال بهذه الحيلة ليتمكن من مخالطة النساء فى خدورهن !! وأترك
لكم — أيها الاخوة — أن تتخيلوا كيف كان حال الرجال الذين كانت
الشيخة تتردد على نسائهم ، وتقضى الأوقات الطويلة فى خدورهن ..
بعد أن انكشفت الحقيقة المذهلة لهذه الشيخة التى اعتقد الناس فيها
الصلاح والتقوى .. يلتهمون بركتها ويسألونها الدعاء] !!

ويختتم الدكتور عاشور كلامه بقوله : « على أنه اذا كانت غالبية
الصوفية منذ أواخر عصر سلاطين المماليك قد انخرفت عن جادة الصواب
.. فانه ينبغى أن نذكر دائما أن هناك قلة منهم حافظت على صلاحها
ومبادئها المثالية النقية .. وهؤلاء ظلت زوايهم مراكز العبادة
والتثقيف ، وتطهير القلوب ، وتنقية الضمائر وتهيئة النفوس بعد
تصفيتها لاداعة الخير والمعروف » (٢٢) ١ هـ .

● وينبرى فضيلة الشيخ « محمد زكى ابراهيم » (٢٣) للرد على
اتهام الصوفية بالانحراف الى العقائد المتعارضة مع عقيدة « التوحيد »
كالخلول ، والاتحاد — ولكن غرضه لم ينف غى دفاعه — وجود مثل

(٢٢) المرجع السابق ص ٢٢٢

(٢٣) شيخ الطريقة المحمدية الشاذلية ، ورائد العشيرة المحمدية .

هذه الأفكار ، وان راح ينسبها الى الحفريات التاريخية التى اندثرت
وعفا عليها الزمن ..

يقول فضيلته : « ... أما أن التصوف يدعو الى عقائد الحلول
والاتحاد والوحدة .. فليس هذا هو تصوف المسلمين .. وانما هو
تصوف أجنبى أعجمى مدسوس .. والمتهمون به نفر محدود محدود ..
انتهى أمرهم وليس لهم اليوم تابع ولا وارث .. وأصبح ما نسب
اليهم — بحق أو بباطل ، سواء قبل التأويل أو لم يقبله — نوعا من
الحفريات التاريخية التى لا يتابعها الا الهواة والمتخصصون — ان وجد
اليوم هواة ومتخصصون فى البحث عن مقابر الأفكار المهمة —
والا أصحاب الهوى الذى يعمى ويصم .. ولا اعتبار لأولئك ولا هؤلاء ..

« وقد أصبح الكلام اليوم فى هذا الجانب .. نوعا من مجرد
الاثارة والتشويه ، والعبث واضاعة الأوقات والتشويش على أفاضل
الناس .. وشراء العاجلة بالآجلة ..

« وانما يقول الصوفية بنوع معين من الفناء .. فصله الشيخ
« ابن تيمية » فى رسائله بشيء من الانصاف .. وأشار اليه الشيخ
« ابن القيم » فى شرحه على كتاب « الهوى » .. وشتان ما بين هذا
والقول الفاجر بالحلول ، والاتحاد ، والوحدة المذكورة » (٣٤) .

* * *

(٣٤) راجع مجلة « التصوف الإسلامى » العدد ٧٠ — مرجع سهقت
الإشارة اليه — ص ٥٥

رأينا .. فى مسألة التصوف الاسلامى

كان ابن تيمية — رحمه الله — مع وفرة اطلاعه وشدة اخلاصه لاسلامه ولجماعته الاسلامية حاد المزاج .. وسرعان ما تنقل حدة المزاج الخصومة والحكم فى مجال الجدل العقلى ، أو الدينى .. الى مجال الأشخاص وحياتهم الخاصة .. وما يدور فى نفوسهم أو يخلد فى قلوبهم من عقيدة وايمان ..

ولهذا كان — ابن تيمية — عنيفا فى مهاجمته لتصوف الملاحدة — كما أسماه — ، فحين هاجم العقائد .. هاجم الأشخاص الذين أسندت اليهم ..

أما ولى الدين العراقى .. فقد سلك مسلكا آخر فى تعرضه لأفكار ابن عربى .. فقال فى « الأجوبة المرضية » : « أما ابن عربى .. فلا شك فى اشتمال « الفصوص » المشهورة عنه على الكفر الصريح الذى لا شك فيه ، وكذا « فتوحاته المكية » .. وينبغى عندى أن لا يحكم على ابن عربى فى نفسه بشئ ، فأنى لست على يقين من صدور هذا الكلام عنه ، ولا من استمراره عليه الى وفاته .. ولكننا نحكم على هذا الكلام بالكفر » ..

ونحن .. نؤثر مسلك « ولى الدين » على ما سلكه ابن تيمية .. فنقول : « ان المبادئ التى نادى بها أولئك الناس . وأدخلوها على تصوفهم .. تشتمل على الكفر الصريح الذى يضاد توحيد الاسلام .. ولكننا لا نتعرض لأشخاصهم بكفر ولا ايمان .. انما نكل أمرهم الى الله تعالى .. يحكم فيهم بما يشاء . فقد أغضوا اليه وقدموا على ما قدموا ..

ولا يمنعنا هذا من أن نقول : ان الله تعالى قد قال وهو أصدق القائلين : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل

فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، ان الله لا يهدي القوم
الكافرين «(١)» .

فأمر رسوله ﷺ أن يبلغ للناس ما أنزل اليه ، ولا يكتم منه
شيئا .. فان لم يفعل فما بلغ الرسالة ، ولا أدى الأمانة ..

ثم أمرنا تعالى باتباع ما أمر به الرسول ﷺ ، واجتناب ما نهى
عنه .. فقال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه
فانتهوا »(٢) .

بل انه تعالى أقسم بذاته .. نافيا الايمان عن يأبى الرجوع
الى الرسول ﷺ فيما يعترضه من خلاف فى رأى أو العقيدة أو الدين ،
وفى سائر العبادات والمعاملات .. ويكون ذلك بتحكيمة ﷺ حال حياته ،
وبالرجوع الى سنته بعد وفاته ..

وغلظ تعالى فى ذلك ، فنفى الايمان عن يحكم الرسول فى شأن
من شئونه ، ثم يجد فى صدره ضيقا مما يقضى به الرسول أو تقضى به
السنة المطهرة ..

فالؤمن كامل الايمان — كما وصفه الله تعالى — هو الذى يرجع
الى الرسول ﷺ .. والى سنته المطهرة فى كل شأن من شئونه ..
مستلهما الحل لما يعترضه من أمور فى كتاب الله وسنة رسوله ..
ثم يرضى كل الرضا بالحل الاسلامى ويسلم تسليما ..

يقول تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر
بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »(٣) .

والتسليم لا يكون الا بنبذ الارادة تماما اذا تعارضت مع حكم
الله أو حكم رسوله .. وقد وصف تعالى من لا يحكم بما أنزله بالكفر .
والظلم ، والنسوق .. نعوذ بالله من ذلك ..

(٢) الحشر : ٧

(١) المائدة : ٦٧

(٣) النساء : ٦٥

وقد أدى الرسول ﷺ الأمانة : وبلغ الرسالة ، ونصح الأمة ،
وجاهد في الله حق جهاده .. ولم يكتف نسيئاً مما أنزله الله عليه ..
ولهذا نراه يكرر أكثر من مرة في حجة الوداع ، وبعد تقرير كل أصل
من أصول العقيدة .. يكرر كلمته المشهورة : « ألا هل بلغت ؟ » ..
فيقول الناس : نعم يا رسول الله . فيقول ﷺ : « اللهم فاشهد » ...
ويقول ﷺ : « تركتكم على المحجة البيضاء .. ليلها كنهارها ،
لا يزيغ عنها الا هالك » ..

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : قال رسول الله
ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » (٤) .

وفي رواية لمسلم : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » ..
وعن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ اذا خطب
احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول
صبحكم ومساكم .. ويقول : « بعثت أنا والساعة كهاتين » — ويقرن
بين أصبعيه السبابة والوسطى — ويقول : « أما بعد .. فان خير
الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد — ﷺ — وشر الأمور
محدثاتها .. وكل بدعة ضلالة » (٥) .

وقال ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من
بعدي ، غضوا عليها بالنواجذ .. وإياكم ومحدثات الأمور ، فان كل
محدثه بدعة ، وكل بدعة ضلالة » .. رواه الستة وزاد أبو داود :
« وكل ضلالة في النار » ..

فليس هناك بدعة حسنة وأخرى سيئة .. انما كل بدعة ضلالة ،
وكل ضلالة في النار ..

ولهذا يقول الامام مالك رضي الله عنه : « من ابتدع في الاسلام
بدعة يراها حسنة ، فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة ، لأن الله

(٤) متفق عليه .

(٥) رواه مسلم .

جل شأنه يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً » (٦) .

لقد أكمل الله لنا الدين .. وأتمم النعمة .. ورضى لنا الاسلام ديناً ، وأطلق علينا اسم المسلمين دون سائر الأسماء .. فقال وهو أصدق القائلين : « هو سماكم المسلمين من قبل » (٧) .

تعالوا الى كتاب الله .. هل جاء فيه ذكر للتصوف أو الصوفية ؟
لم يرد ذلك فى آية واحدة منه !!

تعالوا الى سنة رسول الله ﷺ .. هل فيها ذكر للتصوف أو الصوفية ؟

لم يفكرها ﷺ مرة واحدة !!
والقرآن الكريم .. لم يغادر كبيرة ولا صغيرة الا أحصاها ..
والرسول ﷺ لم يترك كبيرة ولا صغيرة .. سواء فى أمر ديننا أو دنيانا الا وتعرض لها وبينها ..
فلماذا لم يرد ذكر للتصوف أو الصوفية فى كتاب الله أو فى سنة رسوله ان كان لهما أصل فى الاسلام ؟ !

هل عرف الصحابة رضوان الله عليهم الصوفية أو التصوف ؟ !
هل قال !لصحابه رضوان الله عليهم بوحدة الوجود .. وأن الوجود حقيقة واحدة لا فرق فيها بين الحق والخلق ؟ !

هل قال واحد من الصحابة أن خالق الأشياء هو عين هذه الأشياء ؟ !
لم يقل بذلك واحد منهم !!
يقول تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (٨) .

فلماذا لا نتبع الصراط المستقيم ؟ !

ويقول جل شأنه : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » (٩) .

فلماذا لا نتبع الرسول فنظفر بحب الله ونفوز بغفرانه ؟ !
يقول سبحانه : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر » (١٠) .

فلماذا لا نتأسى بالرسول وتتخذ منه الأسوة الحسنة ؟ !
ويقول جل وعلا : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » (١١) .

فلماذا نخالف عن أمره ، ونعرض للفتنة تحسينا وللعذاب الأليم ينزل بنا ؟ !

الله تعالى يقول لنا : « انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون » (١٢) .

فلماذا ننأى عن الفلاح .. ونأبى أن نقول لله ولرسوله « سمعنا وأطعنا » ؟ !

لساذا نترك الطريق الواضح . والمحجة البيضاء .. ونتبع الطرق المتشعبة ، والمسالك الوعرة ؟ !

لساذا لا نتدبر قول الله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولوا الأبواب » (١٣) ؟ !

(٩) آل عمران : ٢١

(١٠) النور : ٥١

(١١) انفور : ٦٣

(١٢) آل عمران : ٧

فلماذا نبتغى الفتنة ، فنُدع الآيات المحكمات ونسير وراء
المتشابهات ؟ !

لماذا لا نعقل تحذيره تعالى لنا : « ولا تكونوا كالتى نقصت
فزله من بعد قوة انكاثا » (١٤) ؟ !

فلماذا نحل عرا الاسلام بأيدينا .. ونفسد أعمالنا بأنفسنا ؟ !

لماذا نأبى الا أن نحشر أنفسنا مع « الذين ضل سعيهم فى
الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١٥) ؟ !

عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : حفظت عن رسول الله
ﷺ قوله : « دع ما يريك الى ما لا يريك » (١٦) .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله
ﷺ يقول : « ان الحلال بين ، وان الحرام بين .. وبينهما مشتبها
لا يعلمهن كثير من الناس .. فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه
وعرضه .. ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام : كالراعى يرعى
حول الحمى يوشك أن يرتع فيه .. ألا وان لكل ملك حمى .. ألا وان
حمى الله محارمه .. ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح
الجسد كله .. واذا فسدت فسد الجسد كله : ألا وهى القاب » (١٧) .

فلماذا ننأى عن الصراط المستقيم ، ونبتعد عن الطريق الواضح ؟ !

لماذا نتبع السبل التى تبعدنا عن تعاليم الاسلام الذى شرفنا
الله بالانتساب اليه ؟ !

لماذا ندخل على عقيدتنا الخرافات والأساطير التى تجعلنا
أضحوكة للأمم ؟ !

لماذا ينسب البعض منا لأنفسهم المعجزات والخوارق فيدعون
القدرة على التصرف فى أمور الناس .. يعطونهم ويمنعونهم ، يحيون
من يشاءون ويميتون من يريدون ، ويسلبون الناس إيمانهم ويمنحونهم

(١٥) الكهف : ١٠٤

(١٧) : متفق عليه .

(١٤) التحل : ٦٢

(١٦) رواه الترمذى .

اياهم ، يمشون على الماء ويطيرون فى الهواء ، يحولون التراب ذهباً
ويحولون خصومهم مسوخاً وحيوانات ؟ !

لماذا يدعى البعض منا العلم بالغييب وانكشاف الحجب عنهم ،
فيشركون أنفسهم فى خاصية هى لله وحده ، لم تتأت لملك أو نبي ،
ولم تتح لانسى أو جنى ؟ !

هل هذا هو الدين الحق منذ بعث الله الرسل انى أن يرث الأرض
ومن عليها ؟ !

هل هذا هو الاسلام الذى أنزله تعالى على محمد بن عبد الله
ﷺ ؟ !

ويعد .. فأياً ما كان الأمر بالنسبة لما يسمى بالتصوف الاسلامى ..
فانه ليس أمامنا الا التسليم بالوجود الصوفى فى المجتمع الاسلامى
قديمًا ، ويتواجد فيه حديثًا !!

واذا كنا نسلم بأن للصوفيين عقائدهم وأفكارهم ومصطلحاتهم
وتصوراتهم — بغض النظر عن خروجها على تعاليم الاسلام أو
اتفاقها معه !!

واذا كان لنا التسليم — مع الدكتور سعيد عاشور — بأنه لا تزال
قلة منهم تحافظ على صلاحها ومبادئها المثالية النقية .. وبالرغم من
كل شيء !!

فاننا لا نملك — أبداً — التسليم ببعض هذه العقائد والأفكار ،
بحكم أننا ندين بالاسلام .. دين التوحيد الكامل ..

ان ما يعيننا هو أمر الكثرة الساحقة وليس القلة التى لا تزال
تحافظ على صلاحها ومبادئها المثالية النقية ..

لهذا .. نختلف مع الصوفية فى زعمهم بوحدة الوجود ، كما
نخالفهم فى مذهبهم فى التفسير الباطنى للقرآن الكريم ..

نختلف معهم فى عقيدتهم فى الوحي والنبوة ، ونخالفهم فى رؤيتهم للمعجزة والولاية والكرامة ..

نختلف معهم فى مذهبهم فى تعظيم القبور وتقديس المقبورين .. ولا نقرهم فى تصورهم للتوسل والوسيلة ..

نختلف معهم فى طريقة أداء الأذكار التى يتبعونها ، فيحولون حلقات الذكر الى حفلات للزار يأتون فيها كل شئ الا الذكر الذى دلنا على كفيته الرسول ﷺ ..

هذه الحقائق والأفكار التى نخالفهم فيها ولا نقرهم عليها .. يرفضها الفكر الإسلامى الصحيح لجأفاتها لعقيدة التوحيد التى أعلا الإسلام رايتها ..

* * *

الفصل الثالث

القول بوحدة الوجود !!

نشطت حركة الترجمة والنقل خلال العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٦٥٦ هـ) .. بعد أن شجع الخلفاء العباسيون الترجمة .. فأخذ العرب ينقلون التراث اليوناني والسرياني والفارسي ، وغيره الى اللغة العربية ..

بل ان بعض المفكرين ألنوا من عند أنفسهم أشياء لا تحمل من التراث الأجنبي الا العناوين .. سعيًا وراء الربح بعد أن راجت سوق الترجمة والنقل ..

ولا غضاضة في نقل النتائج التي يتوصل اليها العقل الانساني الفاضح .. ولكن لا يجب أن يزاحم به وحى السماء ..

ولكن .. حدث هذا ، فكان للتوسع في الترجمة الشر الكبير على الثقافة الاسلامية ..

غير أن عناصر المقاومة التي نهضت في الكيان الاسلامي لصدد هذا الغزو الثقافي لم تنجح تمامًا في القضاء عليه .. فبقيت في بعض المؤلفات ادينية آثار لهذا الغزو الواعد ..

يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالي : « كان أشد النواحي الدينية استقبالا للغزو الأجنبي : علم الكلام والتصوف .. ولا يصعب أن يميز الدخيل من الأصل في هذه الميادين .. الا أن المزج يبلغ أحيانا درجة كبيرة من المهارة ..

» فانكار المعتزلة لصفات المعاني .. تأثروا فيه بتفسير أرسطو للوحدانية المطلقة .. لقد ظل أرسطو يشرح الوجود الالهي الأعلى ،

ويبرز هذا الوجود من كل شيء الا التأمل الذاتى .. فالاله — من ذاته —
يعلم ويقدر ولا شيء الا الذات ..

« وكلام أرسطو لا يسلم له .. وفيه مبالغات ظاهرة .. ومع ذلك
فان بعض علماء المسلمين مالوا اليه .. وقالوا : ان القول بوجود
الصفات قول بتعدد القدماء .. وعقدوا مباحث سخيفة لهذه القضية
وشغلوا بها جمهور الأمة !!

« ولأرسطو منطق ذكى يساعد على الجدل ، ولا تريد به المعارف
الانسانية .. وقد رحب المسلمون ترحيبا حارا بهذا المنطق .. حتى
جاءت الحضارة الحديثة فأنزله عن عرشه ..

« ثم ان التصوف الاسلامى تأثر بالتصوف الهندى والتصوف
النصرانى وبعض الأفكار الاغريقية .. ومن السهل أن تدم الدنيا بحجة
الاقبال على الآخرة .. وأن تحارب الجسد بحجة الاقبال على الروح ..
وأن تقبل مبادئ من وحيدة الوجود بحجة الاستغراق فى وحيدة
الشهود ..

« وقد حمل علم التصوف جملة من هذه الأخطاء النفسية والفكرية
وأشاعها بين جمهور المسلمين .. وكان له أثر عميق فى بلبلة العقل
الاسلامى ومخاضته للفقه الموزون ..

« وأعلن التصوف على بلوغ هذه الغاية اخلاص رجاله وحماسهم ،
وغلبة الصناعة والارتفاق على نفر من أهل الفقه والفتوى ..

« والغريب أن خرافات الفلسفة الالهية عند الاغريق وغيرهم
تبناها بعض المفكرين العرب ، فوجد بينه من يقول بالأفلاك والعقول
والعناء ، والنول !! تقليدا لليونان ، والموضوع كله هزل !!

« أين كانت الخلافة العباسية فى اثناء الهجوم على الفكر
الاسلامى بهذه الطريقة الوضيعة ؟

« لم تكن تكثرث بالنتائج !!

« وعندما تحركت الخلافة تحركت لتتنصر انحراف المعتزلة في بعض القضايا الكلامية .. وأمرت بسجن وجلد ابن حنبل الذي كان يعتبر زعيم المحافظين في ذلك الوقت ..

« على أن علماء الاسلام ، ووراءهم السواد الأعظم من الأمة .. قاوموا هذا الغش المفروض على ثقافتهم الدينية مقاومة ناضجة ..

« وأمكن حصر الاسرائيليات والنصرانيات والاغريقيات .. وكل القمامات الفكرية التي أرادت الالتصاق بالرسالة الخاتمة .. وتم تحذير الناس منها ..

« والواقع أن أصول الاسلام بقيت معصومة .. غير أننا لا ننكر أن أوهاما ومبتدعات ومرويات واهية وآراء سقيمة لا تزال تحيا بين ظهرانينا .. ما يبصرها الا أولوا النهى »^(١) .

في هذا العصر .. ظهر أبو بكر محيي الدين بن عربي (٥٦٠ — ٦٣٨ هـ) .. وكان ابن عربي شيخ المتصوفة في وقته .. وكان له أتباع ومريدون يعجبون به إلى حد كبير .. حتى لقبوه فيما بينهم بالشيخ الأكبر ، والعارف بالله ..

كما كان له أعداء ينقمون عليه ويرمونهم بالكفر والزندقة .. وذلك لما كان يدين به من القول بوحدة الوجود ، ولما كان يصدر عنه من المقالات الموهمة التي تحمل في ظاهرها كل معاني الكفر والزندقة .. وبلغ من عداوة بعض الناس له أنهم حاولوا اغتياله بمصر ..

وابن عربي .. هو أول من قال في الفكر الاسلامي بوحدة الوجود .. « ومذهبه في وحدة الوجود أنه يرى الوجود حقيقة واحدة .. ويعد التعدد والكثرة أمراً تخست به الحواس الظاهرة .. وقد أداه القول بوحدة الوجود إلى القول بوحدة الأديان .. لا فرق بين أديان سماوية أو غير سماوية .. فالكلمة يعبدون الإله

(١) الدعوة الاسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر — للشيخ محمد الغزالي ، نشر مكتبة وهبة ، ص ٢٩ ، ٣٠

الواحد المتجلى فى صورهم وصور جميع المعبودات .. والغاية الحقيقية من عبادة العبد لربه هو التحقق من وحدته الذاتية معه .. وانما الباطل من العبادة أن يقصر العبد ربه على مجلى واحد دون غيره ويسميه الها (٢) .

وقد تأثر ابن عربى بالنظريات الفلسفية الكونية .. وراح يطبق كثيرا من الآيات القرآنية على هذه النظريات ..

● يقول تعالى فى شأن ادريس عليه السلام : « ورفعناه مكانا عليا » (٣) .. أى أنه تعالى رفع ادريسا الى مكان عال مرتفع — وقيل أنه رفع وهو حى الى السماء الرابعة — ويفسرهما البعض بأنه تعالى رفع ذكره وأعلا قدره بشرف النبوة والرسالة ..

ولكن ابن عربى يفسر هذه الآية بقوله : « وأعلا الأمكنة : المكان الذى تدور عليه رضى عالم الأفلاك ، وهو فلك الشمس .. وفيه مقام روحانية ادريس .. وتحته سبعة أفلاك ، وفوقه سبعة أفلاك .. وهو الخامس عشر » ..

وبعد أن يذكر الأفلاك التى تحته والتى فوقه يقول : « وأما علو المكانة فهو لنا — أعنى المحمدين — كما قال تعالى : « وأقيم الأعلام والله معكم » (٤) فى هذا علو .. وهو يتعالى عن المكان لا عن المكانة !! [الفصوص ج ١ ص ٢٦] .

● ويقول تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأوحينا بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » (٥) .

(٢) التفسير والمفسرون — للدكتور محمد حسين الذهبي . نشر مكتبة وهبة ، ج ٢ ص ٤٠٨

(١) محمّد : ٢٥

(٣) مريم : ٥٧

(٥) البقرة : ٨٧

والمعنى — والله أعلم — أن الله تعالى أعطى موسى عليه السلام التوراة .. وأتبع الرسل بعضهم بعضا على منهاج واحد وشريعة واحدة .. وآتى عيسى ابن مريم المعجزات الواضحات الدالة على نبوته من احياء الموتى وابراء الأعمى والأبرص ونحو ذلك من الآيات .. وأنه تعالى قواء وأعانه بالروح المطهرة — وهو جبريل عليه السلام — أفكلما جاءكم يامعشر اليهود رسول من الرسل بغير الذى تهواه نفوسكم استكبرتم عليهم بغيا وتجبيرا ، فغضبتم بعضا منهم . وقتلتم البعض الآخر .. وهكذا فعلتم أبدا برسول الله !!

هذه الآية الواضحة .. يفسرها ابن عربى بقوله : « وانظروا أن جبرائيل هو العقل الفعال .. وميكائيل هو روح الفلك السادس وعقله المفيض للنفس النباتية الكلية الموكلة بأرزاق العباد .. واسرافيل هو روح الفلك الرابع وعقله المفيض للنفس الحيوانية الكلية الموكلة بالحيوانات .. وعزرائيل هو روح الفلك السابع الموكل بالأرواح الانسانية كلها ، يقبضها بنفسه أو بالوسائط التى هى أعوانه ويسلمها الى الله تعالى » !! [تفسير ابن عربى ج ١ ص ٥١]

● ويقول تعالى : « مرج البحرين يلتقيان • بينهما برزخ لا يبغيان » (٦) .

أى أنه تعالى ترك وأرسل بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان .. وجعل بينهما حاجزا وبعدا لا يفسد أحدهما صاحبه فيبغى بذلك عليه ، ولا يتجاوزان حد الله الذى حده لهما ..

يقول الطبرى : « عنى به بحر السماء وبحر الأرض ، وذلك أنه تعالى قال : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » (٧) ، واللؤلؤ والمرجان انما يخرجان من أصداف بحر الأرض عن قطر السماء . فمعلوم أن ذلك بحر الأرض وبحر السماء .. »

ولكن ابن كثير يدفع هذا التفسير فيقول : « ... وهذا لا يساعده

اللفظ فانه تعالى قد قال : « بينهما برزخ لا يبغيان »^(٨) .. أى وجعل برزخاً — وهو الحاجز — من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا ، وهذا على هذا .. فيفسد كل واحد منهما الآخر .. وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخاً وحجراً محجوراً ..

يقول تعالى فى سورة الفرقان : « وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً »^(٩) .. فالمقصود هنا بالبحرين : الحلو والمالح .. وهو الأوضح ..

هذا هو التفسير الذى يقبله العقل ويتفق مع سياق اللغة .. ولكن ابن عربى يفسر هاتين الآيتين بقوله : « مرج البحرين » : بحر الهولى الجسمانية الذى هو الملح الأجاج ، وبحر الروح المجرد الذى هو العذب الفرات .. « يلتقيان » فى الوجود ! الانسانى .. « بينهما برزخ » هو النفس الحيوانية التى ليست فى صفاء الروح المجردة ولطافتها ، ولا فى كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها .. « لا يبغيان » : لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته .. فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله من جنسه ، ولا البدن يجسد الروح ويجله مادياً !! [تفسير ابن عربى ج ٢ ص ٢٨٠]

ويتضح لنا جلياً .. من هذا التفسير العجيب لهذه الآيات الثلاث .. تأثر ابن عربى بالنظريات الفلسفية الكونية ، والتى تقول بأن الأفلاك هى التى تسيطر على مصائر المخلوقات وتحركها ، كما يتضح تأثره بنظرية العقول النفعالة التى قال بها أرسطو ..

ويقول فضيلة الشيخ محمد حسين الذهبى رحمه الله : « .. كذلك نرى ابن عربى يتأثر فى تفسيره للقرآن بنظرية وحدة الوجود .. التى هى أهم النظريات التى بنى عليها تصوفه .. فنراه فى كثير من الأحيان يشرح الآيات على وفق هذه النظرية .. حتى انه ليخرج بالآية عن مدلولها الذى أراده الله تعالى »^(١٠) .

(٨) الرحمن : ٢٠ (٩) انفراغان : ٥٢

(١٠) التفسير والمفسرون ، المرجع السابق ج ٢ ، ص ٢٢٨

ولهذا نرى ابن عربى حين يفسر فاتحة الكتاب يقول : « ... فاذا وقع الجدار ، وانهدم الصور ، وامترجت الأنهار ، والتقى البحران ، وعدم البرزخ .. صار العذاب نعيما ، وجهنم جنة .. ولا عذاب ولا عقاب .. الا نعيم وأمان ، بمشاهدة العيان » !!

ويعقب الآلوسى على ذلك قائلا : « وهذا وأمثاله محمول على معنى صحيح يعرفه « أهل الذوق » ، ولا ينافى ما وردت به القواطع » !! ثم يقول : « وإياك أن تقول بظاهره مع ما أنت عليه .. وكما

وجدت مثل هذا الأمر من « أهل الله تعالى » .. فسلمه لهم بالمعنى الذى أراحوه مما لا تعلمه أنت ولا أنا .. لا بالمعنى الذى ينتدح فى عكك المشوب بالأوهام .. فالأمر — والله — وراء ذلك » (١١) !!

هذا ما يقوله الآلوسى تعقيبا على رأى ابن عربى .. والآلوسى صوفى يدين بوحدة الوجود ، فلا عجب أن نراه يسلم بما قاله ابن عربى !!

ويعلق النابلسى على ذلك بقوله : « وأما ما ذهب اليه الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى فى كتابه « الفتوحات المكية » وغيره .. من أن عذاب الكفار ينقلب عذوبة ، فيتأذنون به بعد انقضاء مدة الألم ، فهو أمر مبنى على الكسف عن أسرار الحقائق الأخروية ، وليس فيه مخالفة لما ذكرناه من مذهب الجمهور : أن عذاب الكفار فى النار دائم أبدي ، وإنما فيه الإخبار عن أحوالهم وقت العذاب الأبدى بحسب النشأة الأخروية !!

فإن الله تعالى حين يضع قدمه فى النار — كناية عن التجلى لأهل النار بصفات الجلال — ينزوى بعننها الى بعض كما ورد فى الحديث فتقول : « قد .. قد » وفى رواية : « قط .. قط » .. يعنى : يكفينى .. يكفينى ، وذلك حين يشتد غضب الله تعالى على أهل النار ، فيزداد العذاب عليهم ، وحين يشتد الغضب تشتد الرحمة أيضا : لأنها سبقت

(١١) تفسير الآلوسى ج ١ . ص ١١٢ : ١١٣ : وانظر المرجع

الغضب كما ورد التصريح بذلك [يقصد حديث : « رحمتي سبقت غضبي »] ، فيتعذبون من جهة اشتداد الغضب ، ويتلذذون من جهة اشتداد الرحمة !!

أرأيت أن الانسان اذا كانت له قرحة يكثر ألمه بسببها ، وقد علم شفقة الطبيب عليه عند فصدده فيها ، ربما يتلذذ بما يدركه منها من الألم عند مباشرة الطبيب لذلك القصد ، مع أنه أكثر ألماً مما كان من قبل ؟ !

فعذاب أهل النار لا يزول أبداً ، وكذلك تألمهم بذلك العذاب لا يزول أبداً أيضاً .. ولكن اذا غاب الإدراك عنهم من شدة العذاب لا يدركون العذاب .. ويغيبون عن أنهم يتألمون به غاية التألم ، لاشتغالهم بجمال الجلال الإلهي .. كما أن أهل الجنة اذا راوا ربهم ينسون نعيم الجنة ، ولا يشعرون بأنهم مدركون له ، لاشتغالهم بجمال الجلال الإلهي .. فان الله تعالى له هاتان الصفتان : صفة الجلال ، وصفة الجمال .. فيتجلى لأهل الجنة بصفة الجمال ، ولأهل النار بصفة الجلال .. وكل صفة من هاتين الصفتين فيها من الصفة الأخرى ، لأن الموصوف بهما واحد ، فالجمال باطنه جلال ، والجلال باطنه جمال .. ولا يزال الأمر هكذا أبد الآبدين ، ودهر الداهرين !!

واياك أن تظن أن الشيخ الأكبر ابن عربي ، يقول بانقضاء العذاب عن الكفار وزواله عنهم ، وإنما مراده ما ذكرناه في حقيقة أمره .. ولكن اختلفت عباراته ، وتوزعت اشاراته ، وضاعت عن معنى ما أراده ساحة الكلمات ، فظن الجاهل بمراده أنه يقول بانقطاع العذاب الأبدي عن الكفار ، ورتب على هذا انكار النصوص القطعية .. وحاشاه من ذلك » (١٢) .

أين هذا الزعم الضال من قول الله تعالى : « ان الذين فتنوا

(١٢) انظر « حقائق الاسلام لأسراره » لعبد الغنى النابلسي .
نشر دار التراث العربي ، ١٩٧٦ ، ص ١٢٣ — ١٢٥

المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق .
ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ،
ذلك الفوز الكبير . ان بطش ربك لشديد « (١٢) . هـ يصير العذاب
نعيمًا ، وتصير جهنم جنة ، ويئول الأمر الى أنه لا عذاب ولا عقاب ..
الا نعيم وأمان بمشاهدة العيان ؟ !

أليس هذا كلام الله ؟ .. ألم يتوعد القرآن الكافرين بالعذاب
الأليم في نار جهنم . ويبشر المؤمنين بالنعيم المقيم في الجنة ؟
أم أن القرآن يخص عوام الناس : أهل الشريعة ، في حين يخص
عقيدة الوحدة الخواص وخواص الخواص من أهل الحقيقة ؟ !
سبحانك ربى .. هذا افك عظيم !!

● ويقول تعالى : « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم
تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم
غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » (١٤) .

أى ان الذين جحدوا بالقرآن وبرسالة محمد ﷺ .. قد تساوى
عندهم الانذار أو تركه .. فانهم لا يؤمنون بعد أن طبع الله على
قلوبهم وأسماعهم .. فلا يكون للإيمان اليها مسلك .. ولا للكفر
منها مخلص ..

لقد طبع الله على قلوبهم وأسماعهم .. كما يطبع ويختم على
الأوعية والظروف .. وجعل على أبصارهم غطاء فلا يبحرون سبيل
الهدى ، ولهم العذاب العظيم على تركهم طاعة الله وغرائضه ..

وقد كان الرسول ﷺ يحرص على أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه
على الهدى .. فأنخبره تعالى أنه لن يؤمن الا من سبق له من الله
السعادة في الذكر الأول .. ولا يخل الا من سبق له من الله الشقاء
في الذكر الأول ..

ولكن ابن عربى يفسر هذه الآية من منطلق وحدة الوجود ..
فيقول :

« يا محمد .. ان الذين كفروا ستروا مصيبتهم فى .. دعهم فسواء
عليهم أنذرتهم بوعيدك الذى أرسلتك به ، أم لم تنذرهم لا يؤمنون
بكلامك .. فانهم لا يعقلون غيرى .. وأنت تنذرهم بخلقى ، وهم
ما عقلوه ولا شاهدوه (١١)

« وكيف يؤمنون بك وقد ختمت على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعا
لغيرى ، وعلى سمعهم فلا يسمعون كلاما فى العالم الا منى .. وعلى
أبصارهم غشاوة من بهائى عند مشاهدتى فلا يبصرون سوى (١١)

« ولهم عذاب عظيم عندى : أردهم بعد هذا المشهد السننى الى
انذارك ، وأحجبهم عنى — كما فعلت بك بعد قاب قوسين أو أدنى قريبا ،
أنزلتك الى من يكذبك ، ويرد ما جئت به اليه منى فى وجهك ، وتسمع
ما يضيق له صدرك .. فإين ذلك الشرح الذى شاهدته فى اسرائلك ؟ ..
فهكذا أمنائى على خلقى الذين أخفيتهم رضائى عنهم » ١١
[الفتوحات المكية ج ١ ص ١١٥]

ونقول : أى افك وأى افتراء .. تريد هذه النظرية الضالة أن
تبثه فى عقول الناس ؟
المشركون — فى هذا النص الخطير — لا يعقلون سوى الله
تعالى ١١ ..

وقلوبهم مملوءة بمحبته ، فليس فيها متسعا لغيره ١١
وأسماعهم ختم الله عليها فلا يسمعون كلاما فى العالم الا منه ١١
وأبصارهم .. لا تبصر سوى بهائه تعالى .. فلا يبصرون
سواه ١١

والعذاب الذى أعده الله لهم .. هو أن يردهم بعد هذه المشاهد
السننية الى انذار الرسول .. فيحجبهم ذلك الانذار عن الله تعالى ١١
سبحانك ربى .. هذا بهتان عظيم ١١

● ويقول جل شأنه : « والهمك الله واحد ، لا اله الا هو الرحمن الرحيم » (١٥) .

ومعناها — والله أعلم — أن معبودكم — أيها الناس — الذي يستحق العبادة ، معبود واحد لا رب سواه ، فلا تعبدوا غيره ، ولا تشركوا به سواه .. فإنه تعالى لا مثيل له ولا نظير .. وهو الرحمن الرحيم ..

والله تعالى .. يقيم للناس — بهذه الآية — الحجة والبرهان على وحدانيته .. فقد نبه بآثار مخلوقاته على وجوده ووحدانيته بأبلغ حجة وأوضح بيان ..

غير أن ابن عربي يفسر الآية بقوله : « ان الله تعالى خاطب في هذه الآية المسلمين .. والذين عبدوا غير الله قربة الى الله فما عبدوا الا الله .. فلما قالوا : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » (١٦) ، فأكدوا ذكر العلة ، فقال الله لنا : ان الهكم والاله الذي يطلب المشرك القربة اليه بعبادة هذا الذي أشرك به واحد .. كأنكم ما اختلفتم في أحديته .. فقال : « والهمك » .. فجمعنا وإياهم اله واحد .. فما أشركوا الا بسببه فيما أعطاهم نظرهم (١١)

« ومن قصد من أجل أمر ما .. فذلك الأمر على الحقيقة هو المقصود لا من ظهر أنه قصد .. كما يقال : من سحبتك لأمر أو أحبك لأمر ولى يانقضائه ..

« ولهذا ذكر الله أنهم يتبرأون منهم يوم القيامة .. وما أخذوا الا من كونهم فعلوا ذاك من نفوسهم .. لا أنهم جهلوا قدر الله في ذاك (١١)

« ألا ترى الحق .. لما علم هذا منهم كيف قال : « والهمك الله واحد » ونبههم فقال : « قل سموهم » (١٧) .. فيذكرونهم بأسمائهم المخالفة أسماء الله ..

١٦٠ الزمر : ٢ .

(١٥) البقرة : ١٦٢ .

(١٧) الرعد : ٢٣ .

« ثم وصفهم بأنهم فى شركهم قد ضلوا ضلالا بعيدا ، أو مبينا ..
لأنهم أوقعوا أنفسهم فى الحيرة لكونهم عبدوا ما نحتوا بأيديهم ..
وعلموا أنه لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنهم من الله شيئا ..
فهى شهادة من الله بقصور نظرهم وعقولهم !!

« ثم أخبرنا الله .. أنه قضى ألا نعبد الا اياه .. بما نسبوه من
الألوهية لهم ، أى جعلوهم كالنواب لله والوزراء كأن الله استخلفهم !!
« ومن عادة الخليفة .. أن يكون فى رتبة من استخلفه عند
المستخلف عليه .. فلماذا نسبوا الألوهية لهم ابتداء من غير نظر فيمن
جعل ذلك ..

« وقول من قال : « أجعل الآلهة الها واحدا » (١٨) ؟ .. انما كان من
أجل اعتقادهم فيما عبدوه أنهم آلهة دون الله المشهود له عندهم بالعظمة
على الجميع .. فأشبهه القول ما ثبت فى الشرع الصحيح من اختلاف
الصور فى التجلى !!

« ومعلوم عند من يشاهد ذلك أن الصورة ما هى الصورة ..
وكل صورة لابد أن يقول المشاهد لها : انها الله .. لكن لما كان هذا
من عند الله ، وذلك الآخر من عندهم .. أنكر عليهم التحكم فى ذلك ،
كما ثبت من قوله تعالى : « فأينما تولوا فثم وجه الله » (١٦) ..
هذا حقيقة ، فوجه الله موجود فى كل جهة يتولى أحد اليها !!

« ومع هذا .. لو تولى الانسان فى صلاته الى غير الكعبة ،
مع علمه بجهة الكعبة ، لم تقبل صلاته .. لأنه ما شرع له الا استقبال
هذا البيت الخاص بهذه العبادة الخاصة .. فاذا تولى فى غير هذه
العبادة التى لا تصح الا بتعيين هذه الجهة الخاصة ، فان الله يقبل
ذلك المتولى !!

« كما أنه لو اعتقد أن كل جهة يتولى اليها ما فيها وجه الله اكان
كافرا وجاهلا .. ومع هذا فلا يجوز له أن يتعدى بالأعمال حيث
شرعها الله ..

« ولهذا اختلفت الشرائع .. فما كان محرما فى شرع ما ، حله الله فى شرع آخر ، ونسخ ذلك الحكم الأول فى ذلك المحكوم عليه بحكم آخر .. فى عين ذلك المحكوم عليه ..

« قال الله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » (٢٠) .. فما نسخ من شرع واتبعه من اتبعه بعد نسخه ، فذلك المسمى هوى النفس الذى قال الله فيه لخليفته داود : « انا جعلتك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق » (٢١) .. يعنى الحق الذى أنزلته اليك ، « ولا تتبع الهوى » (٢١) وهو ما خالف شرعك ، « فيضلك عن سبيل الله » (٢١) .. وهو ما شرعه الله لك على الخصوص » ..

ثم يقول : « فاذا علمت ذلك ، وتقرر لديك .. علمت أن الله اله واحد فى كل شرع عينا ، وكثير صورة وكونا .. فان الأدلة العقلية تكثره باختلافها فيه .. وكلها حق ومدلولها صدق .. والتجلى فى الصورة كثرة أيضا لاختلافها .. والعين واحدة !!

« فاذا كان الأمر هكذا فما تصنع ؟ .. أو كيف يصح لى أن أخطئ قائلًا ؟ ..

« ولهذا لا يصح خطأ من أحد فيه .. وانما الخطأ فى اثبات الغير وهو القول بالشريك ، فهذا القول بالعدم .. لأن الشريك ليس ثم ، وذلك لا يغفره الله .. لأن الغفر المستر ، ولا يستر الا من له وجود .. والشريك عدم فلا يستر .. فهى كلمة التحقيق : « ان الله لا يغفر أن يشرك به » (٢٢) .. لأنه لا يجده .. فلو وجده لصح وكان للمغفرة عين تتعلق بها ..

« وما فى الوجود من يقبل الأضداد الا العالم من حيث ما هو واحد .. وفى هذا الواحد ظهرت الأضداد .. وما هى الا أحكام عين الممكنات فى عين الوجود .. التى بظهورها علمت الأسماء الالهية المتضادة وأمثالها » !! [الفتوحات المكية ج ٤ ص ١٠٦ ، ١٠٧]

٢١١. سورة ص : ٢٦ .

(٢٠) المسائد : ٤٨ .

(٢٢) النساء : ١١٦ .

ونقول : هنا تتجلى وحدة الوجود بأجلى صورها .. فالمؤمنون والمشركون — طبقاً لهذا التأويل الفاسد — لا يختلفون فى أحدية الله !! .. وانما يعبدون الها واحدا !! .. وما عبادتهم للأصنام الا من قبيل اتخاذها نواباً ووزراء لله !! .. واعتقادهم فيما عبدوه أنهم آلهة من دون الله أشبه ما يكون — فى نظرهم — بما ثبت من الشرع الصحيح من اختلاف الصور فى التجلى !!

هل لمسلم — مهما كان أمره — أن يقبل مثل هذا التفسير القائم على نظرية وحدة الوجود ؟ أو ذلك التفسير الذى يقوم على نظريات الفلاسفة الذين بحثوا فى الطبيعة وما وراء الطبيعة ؟

اننا لا يمكن — أبداً — أن نقبل مثل هذا الكلام .. لأنه لا يتفق مع مراد الله تعالى ومقصوده الذى جاء القرآن من أجله .. ومرة ثانية .. نقول : أى افك وأى ضلال تريد هذه النظرية أن تبثه فى عقول الناس ؟ !

● ويقول تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه » (٢٣) .
أى : أنه تعالى .. حكم وأمر ألا نعبد سواه ..

ولكن ابن عربى يفسر الآية بقوله : « .. علماء الرسوم يحملون لفظ « قضى » على الأمر .. ونحن نحمله على « الحكم » كشفاً ، وهو الصحيح .. فانهم اعترفوا أنهم ما يعبدون هذه الأشياء الا لتقربهم الى الله زلفى .. فأنزلهم منزلة النواب الظاهرة بصورة من استنابهم .. وما ثم صورة الا الألوهية فنسبوها اليهم .. ولهذا يقضى حوائجهم اذا توسلوا بها اليه غيرة منه على المقام أن يهتضم ، وان أخطأوا فى النسبة فما أخطأوا فى المقام .. ولهذا قال : « ان هى الا أسماء سميتوها » (٢٤) .. أى أنتم قلتم عنها انها آلهة ، والا فسموهم ..

« فلو سموهم لقالوا : هذا حجر أو شجر ، أو ما كان .. فنتميز عندهم بالاسمية .. اذ ما كل حجر عبد ولا اتخذ الها ، ولا كل شجر ،

ولا كل جسم منير ، ولا كل حيوان .. فله الحجة البالغة عليهم بقوله :
« قل سموهم » (٢٥) !! [الفتوحات ج ٣ ص ١١٧]

ونقول : ما قد انكشف المخبوء ، وانفضح المستور .. فهذا
ابن عربى يبرر لعبدة الأحجار والأشجار عقيدتهم .. فانهم —
فى تصوره — لم يعبدوها لذاتها ، وانما اتخذوها وسائل لقضاء
الحوائج !!

ثم يزعم أن الله تعالى يقضى هذه الحوائج اذا اتخذ الناس هذه
الوسائل .. وهو مدخل خطير لتقديس القبور وعبادة المقبورين ..
فانهم — فى زعمه — ما عبدوهم فى الحقيقة وانما اتخذوا المقبورين
وسائل لقضاء الحاجات !!

● ويقول تعالى : « واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » رب المشرق
والمغرب لا اله الا هو فاتخذوه وكيلا » (٢٦) ..

أى : اذكر اسم ربك فادعه به .. وانقطع اليه انقطاعا تاما
لحوائجك وعبادتك .. أى أخلص له المسألة والدعاء .. لأن الله تعالى
رب المشرق والمغرب وما بينهما من العالم .. فلا ينبغي أن يعبد سواه ..
ففوض اليه جميع أمورك ، واقصده فى كل حوائجك ..
واكن ابن عربى يفسر الآية بقوله : « .. واذكر اسم ربك الذى
هو أنت .. أى اعرف نفسك .. واذكرها ولا تنسها فينسك الله ..
واجتهد لتحصيل كمالها بعد معرفة حقيقتها ..

« رب المشرق والمغرب » .. أى الذى ظهر عليك نوره .. فطلع
فى أفق وجودك بايجادك .. أو المغرب الذى اختفى بوجودك ، وغرب
نوره فيك واحتجب بك » !! [تفسير ابن عربى ج ٢ ، ص ٣٥٢]
أرايتم كيف قادته عقيدة الوحدة الى أن الرب عبد والعبد رب ؟ !
أرايتم كيف يقول مبتدع نظرية الوحدة أن ربك هو أنت ؟ ! وأنت حين
تعرف نفسك فقد عرفت ربك .. وأن المشرق والمغرب ليس مشرق العالم
ومغربه .. انما هما ظهور نور الله عليك حين أوجدك .. وغروبه فيك
واحتجابه بك ؟ !

أرايتم ماذا يريدون أن يفرسوا بعقيدتهم — الشاذة — في عقول المسلمين ؟ !

● ويقول تعالى « فادخلني في عبادي • وادخلي جنتي » (٢٧) ..

أي : فادخلي في عبادي الصالحين ، وادخلي جنتي دار المتقين ..

ولكن ابن عربي يفسرها بقوله : « ادخلي جنتي التي هي سترى ، وليست جنتي سواك .. فأنت تسترني بذاتك الانسانية فلا أعرف إلا بك .. كما أنك لا تكون إلا بي .. فمن عرفك عرفني .. وأنا لا أعرف فأنت لا تعرف .. فإذا دخلت جنتي دخلت نفسك فتعرف نفسك معرفة أخرى غير المعرفة التي عرفتتها حين عرفتك ربك بمعرفتك أياها .. فتكون صاحب معرفتين : معرفة به من حيث أنت ، ومعرفة به بك من حيث هو لا من حيث أنت .. فأنت عبد رأيت ربا ، وأنت رب لمن له فيه أنت عبد .. وأنت رب وأنت عبد لمن له في الخطاب عهد » ١١

[الفصوص ج ١ ، ص ١٩١ — ١٩٣]

هل غفتم شيئا ؟ !

الجنة — عند ابن عربي — هي النفس الانسانية — أي الستر — فليست الجنة سوى أنفس الناس .. فالناس يسترون الله بذواتهم فلا يعرف إلا بهم ، كما أنهم لا يكونون إلا به تعالى !!

فمن عرف نفسه عرف الله ، وإذا لم يعرف الله لم تعرف النفس .. فإذا ما دخل العبد جنته — أي نفسه — فإنه يعرف ذاته معرفة أخرى غير المعرفة التي عرفها حين عرف ربه بمعرفته أياها .. وبهذا يكون العبد صاحب معرفتين : معرفة بالله تعالى من حيث هو عبد ..

ومعرفة بالله بمعرفته لنفسه من حيث كونه الها .. لا من حيث نفس العبد ..

وبهذا يكون 'العبد بمعرفته لنفسه' ، قد عرف ربه .. فالعبد رب
إن للرب فيه هو عبد .. وهو رب وفي نفس الوقت عبد لله تعالى ..
فالوجود وحدة واحدة لا فرق فيها بين عبد ورب ..

ويظهر لنا من هذا النص تأثر ابن عربي بنظرية الفيض التي قال
بها « أفلوطين » والتي تقول : بما أن الله واحد ، والوجود واحد ..
فإن هذه الكائنات قد صدرت عن الواحد بفيض منه .. إذن
فهما واحد ..

لذا نراه يقول : أن العبد يعرف نفسه بنفسه أولاً .. فهذه معرفة ..
ثم يعرف الله عن طريق نفسه الموجودة ، التي لا بد لها من موجد
وهو الله تعالى .. وهذه معرفة ثانية ..
كما أن الله يعرف نفسه بنفسه .. وهذه معرفة ..

وقد صدر عنه هذا الوجود حتى يعرفوه عن طريق وجودهم ..
فهذه معرفة ثانية ..

وإذا أردنا مزيداً من التبسيط .. فنقول مع بعض الفلاسفة : أن
« العملة ذات وجهين » .. وهي ذي الحقيقة عملة واحدة تحمل وجهين ..
ويشترك هذان الوجهان في كونهما عملة واحدة ، وهكذا تكون المعرفة
واحدة ولكن لها وجهان .. وجه من جهة الله للعبد ، والله لله .. ووجه
آخر من جهة العبد للعبد ، والعبد لله ..

ما كان أغنانا عن هذا التمنطق الذي يقود إلى الترنديق ..
ولا يضيف إلى العقيدة السليمة شيئاً .. فنقول : إن الله تعالى يقول
للنفس المطمئنة : « فادخلي في عبادي » وادخلي جنتي » . فالمعنى —
والله أعلم — ادخلي في عبادي الصالحين ، أدخلك جنتي التي هي
دار المتقين ..

● ويقول جل شأنه : « قد أفلح من زكاه » . وقد خاب من
دساها » (٢٨) .

أى قد أفلح من زكى نفسه بتطهيرها من الكفر والمعاصي ..
وأصلحها بالطاعات من الأعمال .. وقد خاب وخسر من دسّس نفسه
فأخملها بركوب المعاصي وترك طاعة الله ..

ولكن ابن عربى يفسرها بقوله : « .. » « تحقيق هذا الذكر أن
النفس لا تركوا إلا بربها .. فبه تشريف وتعظيم فى ذاتها .. لأن الزكاة
ربو .. فمن كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه .. والصورة فى
الشاهد صورة خلق .. فقد زكت نفس من هذا نعته ، وربت وأنبتت
من كل زوج بهيج .. كالأسماء الالهية لله ..

« والخلق كله بهذا النعت فى نفس الأمر .. ولولا أنه هكذا فى
نفس الأمر ما صح بصورة الخلق ظهور ولا وجود .. ولذلك خاب من
دساها لأنه جهل ذلك فتخيل أنه دساها فى هذا النعت ، وما علم أن
هذا النعت لنفسه نعت ذاتى لا ينفك عنه ويستحيل زواله .. لذلك
وصفه بالخفية حيث لم يعلم هذا .. ولهذا قال : « قد أفلح »
ففرض له البقاء .. والبقاء ليس إلا لله .. أو لما كان عند الله ،
وما ثم إلا الله أو ما هو عنده .. نخزائنه غير نافذة ، فليس إلا صور
تعقب صوراً .. » [الفتوحات ج ٤ ، ص ١١٩]

ومع هذا .. يطلب منا الآلوسى عدم القول بظاهر هذه الأفكار
الشاذة .. مع ما نحن عليه من قصور .. وأنه يجب علينا كلما وجدنا
مثلاً لواحد منهم أن نسلّمه لهم بالمعنى الذى أرادوه مما لا نعلمه
بعقولنا المشوبة بالأوهام .. ثم يكلّمنا بأن نعتقد — بعد ذلك — أن الأمر
هو — كما أقسم عليه — وراء ذلك ؟ !

لا والله .. اننا لا نملك أبداً الاستجابة لطلب الآلوسى ، وليست
لدينا القدرة على الخضوع لتكليفه .. انما ندين بالطاعة لله ولرسوله ،
ولا شىء وراء ذلك ..

ويقول عبد الغنى النابلسى — من هذا المنطلق : « ما ثم إلا ذات :
وصفات ، وصفات صفات ، وهى : الأفعال ، والمنفعلات ..

فالأول : هو المعبود ، والثاني : هو الموصل اليه وهو الواسطة ،
والثالث : هو العابد ، والرابع : هو العائق والمانع ..

والأول : مرتبة الله تعالى . والثاني : مرتبة محمد ﷺ ، والثالث :
مرتبة المؤمنين ، والرابع : مرتبة الشيطان ..

وهذه الأربعة في الحقيقة .. شيء واحد ، ولكنه تنزل وتفضل ،
فظهرت هذه الأطوار ، وتعددت وجوداته ..

فالوجود العيني : مرتبة الذات ، والوجود العلمي : مرتبة الصفات ،
والوجود القولي : مرتبة الأفعال ، والوجود الزماني : مرتبة الانفعالات ..

وهذه الأربع وجودات .. هي صورة الحق ، وقد خلق الله آدم
مستملا على هذه الصورة . قال النبي ﷺ : « أن الله خلق آدم على
صورته » . وفي رواية : « عني صورة الرحمن » فهو مرآة الحق ..
فيوجد آدم في عينه ، فهي مرتبة الذات .. ويوجد آدم في علم الله
تعالى ، وهي مرتبة الصفات .. ويوجد في القلم الأعلا ، وهي مرتبة
الأفعال .. ويوجد في اللوح المحفوظ ، وهي مرتبة الانفعالات ..
فقد تمت لآدم هذه الوجودات الأربع ..

وكل عالم من عوالم الله تعالى له آدم وبنوه من جنسه ..
وكل نبي ورسول من جنسه ، ويقرب ذلك ما أخرجه ابن جرير عن
ابن عباس رضي الله عنه في آية : « ومن الأرض مثلهن » (٢٩) ..
قال : في كل أرض منك إبراهيم ونحو ما على الأرض من الخلق ،
قال ابن حجر : أسناده صحيح .. وأخرجه الحاكم والبيهقي :
« في كل أرض آدم نادمكم ، ونوح نوحكم ، وإبراهيم كإبراهيمكم ،
وعيسى كعيسى ، ونبي كنبئكم » ..

هذه الوجودات الأربعة المذكورة لهذا الشيء الواحد ، وهو الوجود
الذاتي على التنزيه ، وهو العيني .. والوجود الصفاتي على التنزيه ،

وهو العلمى .. والوجود الأفعالى على التتزيه ، وهو القولى ..
والوجود الانفعالى على التتزيه ، وهو الرقمى ..

فهو الله فى عالم الذات العلية ، ومحمد ﷺ فى عالم الصفات
السنية ، والمؤمن فى عالم الأفعال ، والشيطان فى عالم الانفعال ..

قال الله تعالى : «سبحان ربك رب العزة عما يصفون» (٣٠) ، وقال :
« من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٣١) .. وقال فى الحديث القدسى :
« .. كنت سمعه وبصره » الحديث .. وقال : « ويحذركم الله
نفسه » (٣٢) .. وفى الحديث : « أعوذ بك منك » (٣٣) .

لقد سلك ابن عربى — فى تفسيره للقرآن الكريم — مسلكا غريبا
.. فهو يقسّر الآيات ويخضعها لنظرية وحدة الوجود التى يدين بها ..
وقد سلك غيره — أمثال البسطامى والحلاج والنابلسى — المسلك نفسه
أو قريبا منه ..

والمعنى الذى يقصدونه من وحدة الوجود .. انه « ليس هناك
الا وجودا واحدا .. وكل العالم مظاهر ومجال لهذا الوجود .. فالله
سبحانه هو الموجود الحق ، وكل ما عداه ظواهر وأوهام لا توصف
بالوجود الا بضرب من التوسع والمجاز » !!

لقد سرت هذه النظرية الى التصوف الاسلامى — كما قدمنا —
عن طريق الفلاسفة ، وعن طريق الاسماعيلية والباطنية الذين خالطوهم
وأخذوا عنهم مذهبهم القائل بحلول الاله فى أئمتهم .. وحسوره
الصوفيون بصورة أخرى تتفق مع مذهب الباطنية فى الحقيقة ، وان
اختلفت فى الاصطلاح والألفاظ ..

(٣١) النساء : ٨٠

(٣٠) انصافات : ١٨٠

(٣٢) آل عمران : ٢٨

(٣٣) انظر : « انفتح اترياقى ، وانفيس الرحمانى » نسبد الغنى

النابلسى ، حققه عبد القادر احمد عطا ، ونشرته دار التراث العربى باسم :

« حقائق الاسلام وأسراره » ١٩٨٦ : ص ٣٥ ، ٣٦

وهذا ما سوغ لابن عربى أن يقول : « ان عجل بنى اسرائيل أحد المظاهر التى اتخذها الله وحل فيها » .. وحاشا لله !!

وهذا ما جره — فيما بعد — الى القول بوحدة الأديان كلها .. لا فرق بين سماوى منها وغير سماوى .. اذ الكل — فى نظره — يعبدون الاله الواحد المتجلى فى صورهم وصور جميع المعبودات .. وسبحان الاله عما يافكون !!

وهذا ما سوغ للحلاج أن يقول : « أنا الله » — تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا !!

وبعد .. فان الله تعالى يقول : « تلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير » (٣٤) .

يقول الدكتور يوسف القرضاوى — جزاه الله خيرا — : « اذا عرفت أن الايمان بالله هو جوهر العقائد الاسلامية جميعا .. فواجبك أن تعرف هنا كذلك أن توحيد الله هو جوهر الايمان بالله تعالى .. واذا تجرد عن التوحيد الحق كان كفرا وشكا ، ورجسا وزورا ، وظلما عظيما وضلالا مبينا ..

« ولهذا كان لزاما عليك أن تعرف حقيقة التوحيد الذى أمر الله به ، وأقام عليه دينه ، وأنزل به كتابه ، وبعث به رسوله ، وعلق خيري الدنيا والآخرة على تحقيقه وتجريده ، وجعل الجنة لأهله وأنصاره ، والنار لخصومه وأعدائه .. فان كثيرا من الطوائف نسبوا أنفسهم الى التوحيد وادعوا أن ما هم عليه هو التوحيد الخالص .. وما عليه غيرهم هو الباطل » (٣٥) .

(٣٤) الحج : ٦٢

(٣٥) حقيقة التوحيد ، للدكتور يوسف القرضاوى ، نشر مكتبة وهبة

١٩٨٥ ، ص ١٢ وما بعدها ..

ثم يقول فضيلته — وهو بيت القصيد : « وهل أذاك نبأ دعاة
وحدة الوجود ؟ .. »

« انهم يزعمون أنهم وحدهم الموحدون .. ومن عداهم فهم
المعدون ! .. »

« فهل علمت ما توحيدهم المزعوم ؟ ؟ »

« توحيدهم أن الحق المنزه هو عين الخلق المشبه !! .. وأنه سبحانه
هو عين وجود كل موجود وحقيقته وماهيته !! .. وأنه آية كل شيء :
وله فيه آية تدل على أنه عينه !! »

« وهذا عند محققهم من خطأ التعبير .. بل هو نفس الآية .
ونفس الدليل ، ونفس المستدل ، ونفس المستدل عليه !! »

« فالتعدد بوجود اعتبارات وهمية لا بالحقيقة والوجود .. فهو —
عندهم — عين الناكح وعين المنكوح ، وعين الذابح وعين المذبوح .
وعين الآكل وعين المأكول !! »

« وهذا عندهم هو أنسر الذي رمزت اليه هوامس الدهور الأولية ..
ورامت افادته الهداية النبوية .. كما قال محققهم ابن سبعين !! »

« ومن فروع هذا التوحيد — أي الوحدة — وثماره : أن فرعون
ونمرود وأمثالهما مؤمنون كاملو الايمان .. عارفون بالله على الحقيقة !!
« وأن عباد الأصنام .. انما عبدوا عين الله لا غيره ، غيهم على
الحق الصواب !! »

« وأن لا فرق في التحليل والتحريم بين الأم والأخت وبين
الأجنبية !! ، ولا بين الماء والخمر : ولا بين الزواج والزنا !!
« انكل عين واحدة ، بل هو العين الواحدة .. وأن الأنبياء ضيقوا
الطريق على الناس ، وبعثوا عليهم المقصود .. والأمر وراء ما جاءوا به
ودعوا اليه « (٣٦) !! »

ثم يخيف فضيلته : « ... وهل يجهل ذو بصيرة توحيد المضللين
من عوام المسلمين .. وتوحيد مضليهم ممن يدعون المشيخة ويتريون
بزي الحين ورجاله الصالحين ؟

« انهم يدعون غير الله .. ويرجون ويخافون غير الله ممن ادعوا
لهم انهم اولياء أو أقطاب أو أوساط أو أبدال .. أو غير ذلك من الألقاب !!
« فهم يطوفون بأضرحتهم .. يسألونهم أكثر مما يسألون الله ..
ويستعينونهم أكثر مما يستعينون الله .. ويهرعون اليهم في الملمات ،
ويطلبون منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات .. بدعوى أنهم وسطاء
بينهم وبين الله .. ولولا الواسطة لذهب — كما قيل — الموسوط » (٢٧) !!

* * *

ونقول : ان الزعم بوحدة الوجود .. هو ادعاء فاجر ، بنى على
خرافة أن الكون كله قد انبثق عن نواة واحدة .. وأن الله تعالى هو
هذه النواة .. وما أسماؤه وصفاته الا أجزاء هذا الكون ومظاهره من
كل ناطق وحامت ، وساكن ومتحرك !!

وتزعم هذه النظرية الضالة .. بأن كل عابد مهما عبد من انسان
أو حجر أو شجر أو كوكب أو حيوان .. فما عبد الا الله !!

وأن الكون كله .. سوف يعود يوم القيامة الى نواته الأولى ..
وهي — فى زعمهم — الله تعالى .. فلا جنة ولا نار ، ولا ثواب
ولا عقاب .. بل يحير الى ما يزعمه مبتدع هذه النظرية : يحير العذاب
نعيماً .. وجهنم جنة ، ولا عذاب ولا عذاب .. الا نعيم وأمان ،
بمشاهدة العيان !!

أرايتم كيف قادمهم القول الفاجر بوحدة الوجود الى الزيغ
والضلال ؟ !

وأى زيغ وأى ضلال .. اكبر من ادعاء أن الله تعالى هو عين

الناكح وعين ! المنكوح ، وعين الذابح وعين المذبوح ، وعين الآكل وعين
المأكول ؟ ! - تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ..

ان هذه النظرية الضالة .. هي التي سوغت للحلاج أن يقول :
« أنا الحق .. وما في الجبة إلا الله » !!

وهي التي سوغت لأبي يزيد البسطامي .. أن يخترع قصة التقائه
مع القطب ، وقوله له : اذا رأيتني فقد رأيتك وطفيت حول الكعبة ..
واذا عبدتني فقد عبدتني وسجدت له ، فلا تظن أنني شيء غيره « !!
وهو قول لا يجرؤ عليه الا « ابليس اللعين » ، فما رأى أبو يزيد
الا شيطانه !!

هذه العقيدة .. هي التي سوغت للشاذلي أن يقول :
وان عبد النار ! المجوس وما انطفت كما جاء في الأخبار في كل حجة
فما عبدوا غيري وما كان قصدهم سوى وان لم يضرروا عقدني (١١)
وسوغت لابن عربي أن يقول : « سبحان من خلق الأشياء وهو
عينها » !!

وأن يقول :

فيحمدني وأحمده ويعبدني وأعبد (١١)

وأن يقول :

وقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي اذا لم يكن ديني الى دينه داني
فأصبح قلبي قابلا كل حالة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبسة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن (١١)

هذه العقيدة .. هي التي سوغت للجيلي أن يقول :
لي الملك في الدارين لم أر فيهما سوى فأرجو فضله أو غاخشاه
وقد حزت أنواع الكمال واننى جمال جلال الكل ما ازا ! الا هو (١١)

ثم يقول :

واى رب للأنام وسيد جميع الورى اسمى وذاتى مسماه

وسوغت للحلاج أن يقول :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فماذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا (١١)

وهي انتى سوغت لبهاء الدين البيطار أن يقول :

وما الكلب والخنزير الا الهنا وما الله الا راهب فى كنيسة (١٢)

هل لا يزال « الآلوسى » يطلب منا عدم القول بظاهر هذه الأفكار
مع ما نحن عليه ؟ !

هل لا يزال يطلب منا أن نسلم لهم القول بالمعنى الذى
يريدونه مما لا نعلمه نحن ولا يعلمه هو ؟ !

هل لا يزال يقسم بالله تعالى .. أن الأمر وراء ذلك ؟ !

ليس لمخلوق أدنى حق فى لومنا حين نقول : ان هذه العقائد
والأفكار الدخيلة على الاسلام .. لا تخدم معتقيها بل تخرجهم عن
الايمان ان لم يتوبوا منها ويقلعوا عنها ..

انهم يسمون هذا التجديف شطحا .. ويدعون أنهم تنتابهم أحوال
ومواجيد فلا يدرون بما ينطقون !!

ويزعمون أن عقيدتهم هذه لا تقرأ فى الكتب ، ولا تتلقى عن
الأنبياء والرسل .. انما هى معانى يقذفها الله تعالى فى قلوبهم !!

ان هذا هو الجنون بعينه : ان نم يكن هو الاضلال نفسه !!

لقد كان أبو يزيد البسطامي عندما يسمع القارئ يتلو قول
الله تعالى : « ان بطش ربك لشديد » (٢٨) : يقول : وعزتى وجلالى ..
ان بطشى لأشد من بطشه !!

ويروى عنه أنه قال : قلت يوما : سبحان الله .. فنادانى الله
فى سرى : هل فى عيب تنزهنى عنه ؟ قلت : لا يارب .. فقال : فنفسك

نزه عن ارتكاب الرذائل .. فأقبلت على نفسها بالرياضة حتى تنزهت
عن الرذائل وتحلت بالفضائل .. فصررت أقول : سبحانى سبحانى ،
ما أعظم شأنى ، الجنة لعبة صبيان !!

ماذا نسمى مثل هذه الأقوال الشاذة ؟ .. أهى تجليات وكشف ،
أم نشاطات ووجد ، أم جنون وخبال ؟ ؟

ولكنها عقيدة الوحدة ، والزعم بوحدة الوجود ، وادعاء أن العبد
رب والرب عبد .. تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ..
ان الدين عند الله الاسلام .. والاسلام دين التوحيد الكامل ..

ومع هذا يسمون توحيدنا أوحالا .. ويستهلون الى ربهم أن
ينتشلهم من أوحال التوحيد ، وأن يغرقهم فى بحار الوحدة .. ويقولون
فى أورادهم : « اللهم انشلتى من أوحال التوحيد ، وأغرقنى فى عين
بحر الوحدة .. حتى لا أرى ، ولا أجد ، ولا أحس الا بها » ..

اللهم انهم يسمون توحيدنا أوحالا .. ويسمون عقيدتهم الضالة
وحدة ..

اللهم أغرقنا فى أوحال التوحيد — كما يسمونها — وأنقذنا يارب
من بحار الوحدة التى يزعمونها .

انهم يدعون المحبة لله تعالى ، وأنهم قد بلغوا فى حبهم المزعوم
درجة العشق والوجد !! .. وكتبوا فى عشقهم ووجدهم أشعارا بالغة
الغراية ، انغردوا بها من دون الناس جميعا .. فيجيزون للشاعر منهم
بأنسم الشطح والوجد والعشق الالهى أن يطلق نفسه على سجيته ..
فاذا هو ينطلق مع حبه المزعوم لله انطلاقا يعبر فيه عن ذات قلبه
تعبيرا غزليا انسانيا مستقيضا .. بل ويعبر عن تلك المحبة تعبيرا حسيا
عما يجرى بين المحبين فى بعض المواقف ويستحى الناس من ذكره !!

فلا نكاد نعرف من أى أنواع الحب ينطلق معه صاحب هذا القلب
.. ولا من أى أنواع الغزل هذا الشعر ؟ !

فهل يجوز — مثلا — لابن الفارض — أن يخاطب الله عز وجل
بقوله :

ته دلا فانت أهل لذاكنا وتحكم فالحسن قد أعطاك (!)

أو بقوله :

قلبي يحدثنى بأنك متلفى ، روحى فداك عرفت أم لم تعرف (!)

وهل يصح أن يذهب به الوجد والشطح الى قوله :

ان كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد رايت فقد ضيعت أيامى
أمنية ظفرت روحى بها زمتا واليوم أحسبها أضغاث أحلام
وان يتن فرط وجدى مى محبتكم اثما فقد كثرت فى الحب أثامى
ولو علمت بان الحب آخره هذا الحمام لما خالفت لوامنى
أودعت قلبنى انى من ليس يحفظه أبصرت خلفى وما طالعت قدامى
لقد رمانى بسهم من لواظته أسمى فؤادى فواشوقى الى الرامى (!)

وهل يصح أيضا أن يتحدث !الحب عن محبوبه الالهى بمثل ما يتحدث
الشاعر نفسه عدا يهوى من ردف ثقيل فى محبوبه .. وذلك فى قوله :
أمواء مهتفنا ثقيل الردف كالبحر يجل حسنه عن وصف
ما أحسن واو صدغه حين بدت يارب عسى تكون واو العطف (!!)

وأخيرا .. هل يصح فوق هذا كله .. أن يتحدث الحب عن
اتصاله بمحبوبه الأسمى ، هذا الحديث المرف فى ألفاظه المادية
وصوره الحسية .. وذلك على نحو ما يتحدث نفس الشاعر فى
هذين البيتين :

ما أطيب ما بتنا معا فى برد اذ لاصق شدة اعتناقا خدى
حتى رشحت من عرق وجنته لازان نحسب منه ماء النورد (!)

أهذا هو بحر الوحدة ، الذى يرجون أن يغرقوا فى عينه حتى
لا يروا ولا يجدوا ، ولا يحسوا الا بها ؟ !

وصدق الله تعالى اذ يقول : « والشعراء يتبعهم الغاؤون » ألم تر
أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، الا الذين

آمنوا وعملوا الصالحات ونكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ،
وسيعظم النين ظلموا أى متقلب يتقلبون «٤٧» .

● صاحب النظرية .. بين خصومه وأنصاره :

من الطبيعي — وهذه أفكار ابن عربى — أن يقابلها الفقهاء بالحملة
القاسية فى حياته وبعد مماته .. فقد تصدى لهذه الأفكار الكثير من
علماء الشريعة — أهل السنة — أمثال : ابن الخياط ، والحافظ الذهبى ،
وابن تيمية ، وابن اياس ، والتفتازانى ، وعلى القارى ، والامام
جمال الدين بن محمد بن نور الدين .. وغيرهم ..

فقد وقفوا عند هذه الأفكار ولم يستطيعوا استساغتها : كمذهبه
فى وحدة الوجود ، وقوله بايمان فرعون ، وما زعمه من التقائه بأرواح
الأنبياء والأولياء السابقين ..

بالاضافة الى ما كان يفيض به من تعبيرات الشوق والهيام فى
قصائد غزلية .. يظنها السامع أو القارى ، موجهة الى انسان ، ولكنها
فى حقيقتها موجهة الى المعانى الروحية التى يحس بها ، وان استعمل
فيها الألفاظ الحسية — جريا على طريقة الصوفية فى رموزهم
واشاراتهم ..

كما كان من الأسباب التى أدت الى مهاجمته : ما كان يحدث به
عن التجليات والاشراقات التى يزعم حدوثها له ، ولا يجد لها الناس
علة عقلية ممكنة ..

ومن الطبيعى أيضا .. أن يجد له أنصارا ومريدين ، يدافعون عنه
ويتحمسون لأفكاره أمثال : الفيروز ابادى ، والمخزومى ، والزملكانى ،

(٣٩) الشعراء : ٢٢٤ — ٢٢٧ : وانظر كتاب : ابن الفارض ..
سلطان العاشقين ، للدكتور محمد مصطفى حلمى ، سلسلة اعلام السرب
(١٥) : ١٩٦٣ ، ص ٢٤٠ — ٢٤٣

والحموى ، والصفدى ، والسيهروردى ، والخجندى ، والكاشى ،
والرازى ، ومحمد المغربى ، وابن جماعة ، والبلقىنى ، والسبكى ،
والجلال السيوطى ، والقاشانى وغيرهم ..

● ويزعم المدافعون عن نظرية وحدة الوجود .. أنها ناتجة لديهم
عن طول تأملهم فى آيات الله وآلائه التى أبدعها ، فبدأ عليها أثر
خلقه وإنشائه وأبداعه ..

فنور الله وقدرته وجلاله وجماله .. يبدو على هذه الآيات كما
يبدو تأثير المؤثر فى الأثر ..

ويقرب من هذا المعنى — فى نظرهم — ما أراده ذو النون المصرى
حين هتف ينجى ربه : « الهى ، ما أصغيت الى صوت حيوان ، ولا الى
خفيف شجر ، ولا خرير ماء ، ولا ترنم طائر ، ولا تنعم ظل ، ولا دوى
ريح ، ولا قعقة رعد .. الا وجدتها شاهدة بواحدانيتك ، دالة على أنه
ليس كمثلك شئ » ..

وعلى هذا .. فوحدة الوجود فى رأيهم غيرها فى رأى الغربيين
والمستشرقين .. لأنهم — كما يدعون — يفرقون بين الله والعالم ،
ولكنهم يرون أن هذا العالم الظاهر لا وجود له حقا ، وإنما الوجود الحق
لله تعالى ، غليظ هو العالم ولا العالم هو ..
أما غيرهم فيرون أن الروح والمادة شئ واحد ..

ووحدة الوجود — عندهم — قائمة على المعرفة الحقيقية لله ..
وفى هذا يقول معروف الكرخى : « اذا انفتحت عين بصيرة العارف
نامت عين بحره فلا يرى الا الله » ..

ويعبر عنها حسن رضوان فى كتابه « روض القلوب المستطاب »
بقوله :

وكل ما سواه نجم آفل بل فى شهود العارفين باطل
ثم يعلق على ذلك بقوله : « ان كل ما سوى الله تعالى من الأعيان
الظاهرة والماهيات الممكنة ، علوية أو سفلية ، باطل فى شهود العارفين
(٧ — انه توحيد)

من حيث ذاته ، فلا حقيقة له أزلا وأبدا ، وانما الوجود حقيقة كذلك هو ذات الحق تعالى ، وليس لتلك الأعيان والماهيات الظاهرة وجود حقيقى ذاتى لها » .

وعلى هذا الفهم . . يفسرون كلام ابن عربى ، الذى يفهم منه فكرة وحدة الوجود ، والذى يتلخص فى قوله فى الفتوحات : « سبحان من خلق الأشياء وهو عينها » (٤٠) .

وقوله فى الفصوص :

ياخالق الأشياء فى نفسه أنت لما تخلقه جامع
تخلق ما لا ينتهى كونه فيك فأنت الضيق الواسع
فالمعنى الذى يقصده ابن عربى — فى رأيهم — وان كان يوهم فى ظاهره فكرة الوحدة بين الخالق والمخلوق ، لا ينبغى أن يفهم الا على أساس فهمهم من هذه الوحدة ويقصدون منه أنه لا موجود على الحقيقة الا الله تعالى !!

هذا ما يقوله أنصار ابن عربى ومريدوه !!

* * *

● وأول ما يدفع به الصوفيون انكار المنكرين على ابن عربى ، هو زعمهم بأنه قد دست عليه الكثير من الآراء التى لم يقلها !! يقول الشعرانى — وهو من أقطاب الصوفية — : « وقد توقفت حال الاختصار — يعنى للفتوحات — فى مواضع كثيرة منه ، ولم يظهر لى موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة ، فحذفتها من هذا المختصر . . وربما سهوت فتبعت ما فى الكتاب ، كما وقع للبيضاوى مع الزمخشري » ثم لم أزل كذلك أظن أن المواضع التى حذفت ثابتة عن الشيخ محيى الدين ، حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين السيد محمد ابن السيد أبى الطيب — المتوفى عام ٩٥٥ هـ — فذاكرته فى ذلك ، فأخرج الى نسخة من الفتوحات التى قابلها على النسخة التى عليها خط للشيخ محيى الدين نفسه بـ « قونيه » ، فلم أر فيها شيئا مما توقفت فيه وحذفته ، فعلمت أن النسخ التى فى مصر الآن كلها كتبت من

النسخة التي دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة ، كما وقع له ذلك في كتاب الفصوص وغيره » ..

ونحن نقول : هكذا الشأن معهم دائما : الإنكار ، ثم التشكيك ، ثم التأويل !!
ولنا في هذا تجربة ..

حدث ذلك عندما نقلنا عن « الطبقات الكبرى » للشعراني بعض النصوص التي تخالف العقيدة ، ولا تتفق مع بدائه العقول ، لمناقشتها في كتابنا « من وصايا القرآن الكريم » .. فقوبلنا أولا بالإنكار .. اذ نفوا وجود هذه الأفكار التي تعرضنا لها ، بل وأنكروا وجودها تماما .. معتمدين نى ذلك على ندرة هذه المراجع أو ارتفاع أثمانها ، بحيث يتعذر الحصول عليها أو الرجوع إليها !!

فلما جابهناهم بالمراجع التي أخذنا عنها .. عمدوا الى التشكيك ، فادعوا أنها من الدخيل عليهم مما دسه خصوم الشعراني عليه !!

فلما قلنا : كيف يكون هذا ، وأنتم تعتمدون على هذه المراجع نفسها .. تتقلون عنها وتحتجون بها ؟ ! ..
أيكون الدليل صحيحا اذا كان في أيديكم ، ثم يصبح هذا الدليل نخسه زائفا اذا انتقل الى أيدينا ؟ !

ولماذا لم ترفعوا هذا الدخيل المدسوس من مراجعكم اذا كان ما تدعون صحيحا ؟ !

عندئذ لجأوا الى التأويل .. فقالوا : ان هذه النصوص تحوى من المعانى الباطنة والعلوم اللدنية ما لا يدركه سوى الخواص من الصوفيين — لأنهم أهل الحقيقة — أما دليقة العوام — وهم أهل الشريعة — فانهم لن يصلوا أبدا الى أسرار هذه الأفكار لكونها محجوبة عنهم !!
وهكذا دأبهم دائما !!

● ويذهب البعض — ومنهم الشيخ محمد عبده ، والدكتور محمد حسين الذهبي — الى أن تفسير ابن عربي للقرآن الكريم من عمل عبد الرزاق القاشاني ، ونسبه لابن عربي ترويجا له بين الناس ، وتشهيرا له بشهرة ابن عربي !!

ويقول الشيخ محمد عبده : « وقد اشتبه على الناس فيه — أى فى التفسير الاشارى — كلام الباطنية بكلام الصوفية ، ومن ذلك : التفسير الذى ينسبونه للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربي ، وانما هو للقاشاني الباطنى الشهير ، وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز » (١١) .

وقد أيدته فيما ذهب اليه الدكتور الذهبي عندما تعرض لتفسير ابن عربي فى الجزء الثانى من كتابه « التفسير والمفسرون » .

ونحن اذا سلمنا بهذا القول ، وأن هذا التفسير من عمل القاشاني ، — وأنه قد نسب له لابن عربي ترويجا له بين الناس ، وتشهيرا له بشهرة المنسوب اليه — فلا نملك أبدا اغماض عيوننا عن موافقة ما جاء بهذا التفسير من آراء وأفكار تتفق مع المبادئ التى بثها ابن عربي فى مؤلفاته كلها كالفتوحات ، والفصوص .. وغيرها ..

* * *

● وينبرى الشعرانى للدفاع عن زعم ابن عربي بايمان فرعون .. فيقول فى اليواقيت والجواهر : « ذكر فى الباب الثانى والستين من الفتوحات ، بأن فرعون من أهل النار الذين لا يخرجون منها أبدا الآبدين .. والفتوحات من آخر مؤلفاته ، على أنه اذا ثبت ذلك فى وروده عنه ، فانه لم ينفرد وحده بهذا الرأى ، فقد ذهب بعض السلف الى قبول ايمانه — أى فرعون — لما حكى عنه الله انه قال : « آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين » (١٢) وكان هذا آخر عهده بالدنيا .. وقال أبو بكر الباقلانى : قبول ايمانه هو الأقوى

من حيث الاستدلال ، ولم يرد لنا نص صريح أنه مات على كفره ،
ودليل السلف والخلف على أنه آمن عند اليأس ، وإيمان أهل اليأس
لا يقبل « (٤٢) » .

ويقول صاحب نفح الطيب في معرض الدفاع عن ابن عربي :
« ان بعض العلماء ، تأول قول محيي الدين بإيمان فرعون ، أن مراده
بفرعون : النفس .. بدليل قوله :

قلبي « قطبي » وقالبي أجناني

سرى « خضرى » ، وعينه عرفاني

روحي « هارون » ، وتيمي « موسى »

نفسى « فرعون » ، والنوى « هاماني »

ولهذا يحملون كلامه على محمل الاشارات الصوفية التي يدق
فهمها على كثير من العقول !!

● ويعلمون ما يزعمه من لقائه بأرواح الأنبياء والأولياء السابقين ،
بأن هذه حالة خاصة لبعض الذين اصطفاهم الله من عباده ، لأن الأرواح
جنود مجندة . ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .. وليس
هناك تعارف أعظم من الاجتماع على معرفة الله ، فتلك هي الألفة التي
تربط بين الأرواح العارفة برباط المعرفة المتين ، وليس ما يمنع لقاء
هذه الأرواح التي لا يقف أمامها حجاب ، ولا يحول دون لقاءها حس !!
● أما تعبيرات الشسوق والهيام التي كانت تفيض بها قصائده
الغزلية .. فيقول أنصاره بأنه لم ينفرد وحده بهذه الرموز في التعبير
عن روحانياته .. ولكن كثير منهم لجأ الى ذلك لأن الكثير من نزعات
الصوفية يخالف ظاهر الشريعة ، فلا يمكن الافصاح عنها خوفا من
سلطان الفقهاء الذين كانوا يتبعون الصوفية بالنكير والتشهير !!

بالإضافة الى أن اللغة العادية تقصر عن أداء كل ما عندهم من
معان .. لأنها تقوم على الذوق أكثر مما تقوم على المنطق !!

فليس أمام الصوفية من وسيلة يمكن التعبير بها عن معانيهم وأذواقهم إلا الرمز الذي لم يجر على قاعدة واحدة سار عليها الصوفية .. وإنما تختلف باختلاف الموضوعات التي يتناولونها !!

● وينسب المدافعون عن التجليات والاشراقات — التي كان ابن عربي يزعم حدوثها له — بانها من الخوارق التي تظهر للأولياء .. وهي في حقيقتها من اكرامات الله لهم .. يفيضها عليهم تقوية لغرائمهم، وحثا لهم على الجهاد ، وتأنيسا لهم في مضيهم نحو غايتهم ، وأن ما يحدث لهم من اشراق على بعض الأجسام المادية إنما هو أثر من آثار تجلي الجمال الالهي الذي يحيل الظلام نورا ، والحس معنى ، والمادة روحا !!

وفي هذا يقول الشعراني عنه : « انه من أكابر أهل العطايا الذين كشف لهم الحق عن جمال وجهه الباقي ، فتلاأت سبحاته بالأنوار الساطعة الى يوم التلاق .. وحكم على من تعرض لتخطئته أو تكفيره بالجهل والحرمان ، وعدم الفهم وضعف الايمان » (٢٤) !!

ويقول ابن العماد : « وقع له في تضاعيف كتبه كلمات كثيرة أشكلت ظواهرها .. وكانت سببا لاعراض كثيرين ممن لم يحسنوا الظن به ، ولم يقولوا كما قال غيرهم من الجهابذة المحققين ، والعلماء العاملين ، والأئمة النوارثين : ان ما أوهمته تلك الظواهر ليس هو المراد ، وإنما أمور اصطلح عليها متأخرو أهل الطريق غيرذ عليها حتى لا يدعيها الكذابين ، فاصطلحوا على الكناية عنها بتلك الالفاظ الموهمة خلاف المراد ، غير مباليين بذلك لأنه لا يمكن التعبير عنها بغيرها » !!

هذا هو ابن عربي .. صاحب نظرية وحدة الوجود .. وهذه هي خلاصة آراء أعدائه وأنصاره .. أوردناها حتى لا نتهم بالتحيز ضد الرجل ..

وفي الوقت الذي أعجب به أتباعه ومريدوه حتى لقبوه فيما بينهم

بالشيخ الأكبر ، والعارف بالله .. كان أعداؤه والناقمون عليه يرمونه بالكفر والزندقة .. وما ذلك إلا لما كان يدين به من القول بوحدة الوجود ، ولما كان يصدر عنه من المقالات الموهمة .. التي تحمل في ظاهرها كل معانى الكفر والزندقة ..

ويقول السيوطى : « والقول الفصل فى ابن عربى ، اعتقاد ولايته ، وتحريم النظر فى كتبه ، فقد نقل عنه هو أنه قال : « نحن قوم يحرم النظر فى كتبنا » .. قال السيوطى : « وذلك لأن الصوفية تواضعوا على ألفاظ اصطلحوا عليها ، وأرادوا بها معانى غير المعانى المتعارفة » فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر .. نص على ذلك الغزالى فى بعض كتبه وقال : انه شبيه بالمتشابه من القرآن والسنة ، من حمله على ظاهره كفر » !!

والسيوطى — رحمه الله — كان من أشد المتحمسين لابن عربى .. حتى لقد صنف كتابا فى الدفاع عنه أسماه « تنبيه الغبى ، على تنزيه ابن عربى » !!



الفصل الرابع

مذهب الصوفية فى التفسير الباطنى للقرآن

وكما لا نملك التسليم للصوفية فى ادعائهم بوحدة الوجود ..
فاننا لا نستطيع أن نسلم بمذهبهم فى التفسير الباطنى للقرآن الكريم ..
والتفسير الباطنى — أو الاشارى — للقرآن الكريم .. ليس أمرا
جديدا فى ابراز معانيه .. بل هو أمر معروف من لدن نزوله على
رسول الله ﷺ ..

أشار اليه القرآن الكريم .. ونبيه عليه الرسول ﷺ .. وعرفه
الصحابه رضوان الله عليهم وقالوا به ..
أما اشارة القرآن اليه .. ففى قوله تعالى : « فما ل هؤلاء القوم
لا يكادون يفقهون حديثا » (١) .

وقوله : « أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا
فيه اختلافا كثيرا » (٢) .

وقوله : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (٣) .

فهذه الآيات كلها .. تشير الى أن القرآن له ظهر وبطن ، وذلك
لأن الله سبحانه وتعالى حيث ينعى على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون
حديثا ، ويحضهم على التدبر فى آيات القرآن الكريم .. لا يريد بذلك
أنهم لا يفهمون نفس الكلام ، أو حضهم على فهم ظاهره .. لأن القوم
عرب والقرآن لم يخرج عن لغتهم ، فهم يفهمون ظاهره ولا شك ..
وانما أراد بذلك .. أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب ..

(٢) النساء : ٨٢

(١) النساء : ٧٨

(٣) محمد : ٢٤

وحضهم على أن يتدبروا فى آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده ..
وذلك هو الباطن الذى جهلوه ولم يصلوا اليه بعقولهم ..

وأما تنبيه الرسول ﷺ .. فذلك فى الحديث الذى أخرجه
الفريابى من رواية الحسن مرسلاً عن رسول الله ﷺ أنه قال :
« لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع » ..

وفى الحديث الذى أخرجه الاعملى .. من رواية عبد الرحمن بن
عوف رضى الله عنه مرفوعاً الى الرسول ﷺ أنه قال : « القرآن تحت
العرش له ظهر وبطن ، يحتاج العباد » ..
ففى هذين الحديثين ، تصريح بأن القرآن له ظهر وبطن .. ولكن
ما هو الظهر ، وما هو البطن ؟

اختلف العلماء فى بيان ذلك .. فقليل - ظاهرها - أى الآية -
لفظها .. وباطنها تأويلها ..

وقال أبو عبيدة : ان القصص التى قصها الله تعالى على الأمم
الماضية ، وما عاقبهم به ، ظاهرها : الاخبار بهلاك الأولين ، وحديث
حدث به عن قوم .. وباطنها : وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا
كفعلهم فيحل بهم مثل ما حل بهم ..

ولكن هذا خاص بالقصص .. والحديث يعم كل آية من آيات
القرآن الكريم ..

وحكى ابن النقيب قولاً ثالثاً : وهو أن ظاهرها : ما ظهر من معانيها
لأهل العلم .. وباطنها : ما تضمنته من الأسرار التى أطلع الله عليها
أهل الحقائق ..

وأما الروايات التى تدل على أنهم فسروا القرآن تفسيراً اشارياً ..
فما رواه البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « كان عمر
يدخلنى مع أشياخ بدر .. فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال : لم تدخل
هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ .. فقال عمر : انه من حيث علمتم .. فدعانى
فى ذات يوم فأدخلنى معهم .. فما رأيت أنه دعانى يومئذ الا ليريهم ..

قال : ما تقولون فى قوله تعالى : « اذا جاء نصر الله والفتح » ؟ (٤) ..
فقال بعضهم : امرنا أن نحمد الله ونستغفره اذا نصرنا وفتح علينا ..
وسكت بعضهم فلم يقل شيئا .. فقال لى : اكذلك تقول يا ابن عباس ؟ ..
فقلت : لا .. قال : فما تقول ؟ .. قلت : هو أجل رسول الله ﷺ
أعلمه له فقال : « اذا جاء نصر الله والفتح » ، وذلك علامة أجتك ،
« فصبح بحمد ربك واستغفره ، انه كان توابا » . فقال عمر : ما أعلم
منها الا ما تقول (٥) ..

فبعض الصحابة .. لم يفهم من السورة أكثر من معناها الظاهر ..
أما ابن عباس وعمر — رضى الله عنهما — فقد فهما معنى آخر وراء
الظاهر .. هو المعنى الباطن الذى تدل عليه السورة بطريق الإشارة ..

ولما نزل قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم
نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً » (٦) فرح الصحابة وبكى عمر رضى
الله عنه وقال : ما بعد الكمال الا النقص .. مستشعرا بنبيه ﷺ ..
فقد أخرج ابن أبى شينة .. أن عمر رضى الله عنه لما نزلت
الآية بكى .. فقال النبى ﷺ : « ما يبكيك » قال : أبكاني أنا كنا فى
زيادة من ديننا .. فأما اذ كمل ، فإنه لم يكمل شيء قط الا نقص ..
فقال عليه الصلاة والسلام : « صدقت » (٧) .

فعمر رضى الله عنه .. أدرك المعنى الإشارى ، وهو نعى الرسول
ﷺ .. وأقره النبى على فهمه هذا .. وأما باقى الصحابة ، فقد فرحوا
بنزول الآية لأنهم لم يفهموا أكثر من المعنى الظاهر لها ..

ويقول فضيلة الشيخ الذهبى — رحمه الله : « غير أن هذه المعانى
المتكاثرة التى يشتمل عليها باطن القرآن .. لم تكن غى متناول المفسرين
جميعا .. كما أنهم لم يكونوا متساوين فى القدر الذى أدركوه منها ..
بل تفاوتوا فى ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت غى الأخذ بالأسباب .

(٤) النصر : ١

(٦) المائدة : ٣

(٥) رواد البخارى .

(٧) تفسير الألوسى ج ٦ ص ٦٠

« كما أنهم لم يكونوا جميعا مصيبين فيما وصلوا اليه منه وأدركوه
.. بل أصابوا فى بعض منها وأخطأوا فى البعض الآخر .. وما أخطأوا
فيه .. بعضه عن جهل ، وبعضه عن تعمد خبيث ونية سيئة ..

» فالامامية .. مع قولهم بالظاهر على ما به .. قالوا بالباطن
أيضا ، ولكنهم .. تعمدوا أن يفسروا الباطن على ما يتفق وعقيدتهم
الفاسدة ..

» والباطنية .. لم يعترفوا بظاهر القرآن ، واعترفوا بالباطن
فقط .. ولكنهم أيضا تعمدوا أن يفسروا الباطن على ما يتفق ونواياهم
السيئة ..

» أما الصوفية — أهل الحقيقة وأصحاب الاشارة — فقد اعترفوا
بظاهر القرآن ولم يجحدوه .. كما اعترفوا بباطنه ، ولكنهم حين فسروا
المعانى الباطنة ضلوا عملا صالحا وآخر سيئا .. فبينما تجد لهم
أذهاما مقبولة سائغة .. تجد لهم بجوارها أفهاما لا يمكن أن يقبلها
العقل .. أو يرضى بها الشرح «^(٨) .

وينقسم التصوف — كما يرى الدكتور محمد حسين الذهبي^(٩) —
الى قسمين أساسيين : تصوف نظرى ، وتصوف عملى ..

فالتصوف النظرى هو الذى يقوم على البحث والدراسة ..
أما التصوف العملى ، فهو الذى يقوم على التقشف وازهد والتقانى
فى الطاعة حسب مفهومهم فى الطاعة ..

وقد كان لكل من القسمين أثره فى تفسير القرآن الكريم ..
مما جعل التفسير الصوفى ينقسم أيضا الى قسمين : تفسير صوفى
نظرى .. وتفسير صوفى غيضى ، أو اشارى ..

(٨) التفسير والمفسرون . م. ش. شيخ محمد حسين الذهبي : نشر مكتبة
وهبة ، ١٩٨٥ ، ج ١ ، ص ٢٥١ وما بعدها ..

(٩) المرجع السابق ، ص ٢٢٩

وقد جنى التصوف النظرى على المباحث النظرية والتعاليم الفلسفية التى يعتنقها أولئك المتصوفون .. ولما تعذر على المفسرين منهم أن يجدوا فى القرآن ما يتفق صراحة مع تعاليمهم أو يتماشى مع النظريات التى يقولون بها — اذ القرآن قد أنزله الله تعالى بلسان عربى مبين لهداية الناس لا لاثبات نظرية من النظريات ربما تكون مستحدثة أو بعيدة عن روح الدين وبيداهة العقل — لذا حاول أولئك المفسرون حرصا منهم على اثبات تعاليمهم ونظرياتهم .. أن يجدوا فى القرآن ما يشهد لهم أو يستندوا اليه ..

لهذا نراهم يتعسفون فى فهمهم للآيات القرآنية ، ويشرحونها شرحا يخرج بها عن ظاهرها الذى يؤيده الشرع ، وتشهد له اللغة .. ويعتبر محبى الدين بن عربى — كما مر بنا — شيخ هذه الطريقة .. وقد رأينا كيف تأثر تفسيره بنظرياته الفلسفية لاثبات وحدة الوجود .. كما أنه يقيس انغاثب على الشاهد بمقاييس خيالية منتزعة من المشاهد المحسوسة .. كما يحاول اخضاع قواعد النحو لنظرياته الصوفية .. ولكنه الخضوع الذى يكيفه على حسب ما يرضى روحه ويوافق ذوقه .. أما التفسير الصوفى الفيضى — أو الاشارى — فهو الذى يؤول آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها ، بمقتضى الاشارات الخفية التى تظهر لأرباب السلوك .. ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة ..

وعلى هذا .. فالتفسير الفيضى — أو الاشارى — يفترق عن التفسير النظرى من وجهين :
فالنظرى .. يجرى على مقدمات علمية يعتقدها الصوفى ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك ..

أما الفيضى .. فانه لا يرتكز على مقدمات علمية .. بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفى نفسه .. حتى يصل الى درجة تتكشف له فيها — حسب زعمه — الاشارات القدسية ، ويصل الى المعارف الربانية عن طريق خواطره والهامة القلبية ..

كما أن صاحب التفسير النظري .. يرى أنه كل ما تحتمله الآية من معان ، وليس وراءه معنى آخر يمكن أن تحمل الآية عليه بحسب طاقته ، في حين أن هناك معنى آخر تحتمله الآية ويراد منها أولا وقبل كل شيء .. وهو المعنى الظاهر الذي ينساق اليه الذهن قبل غيره .. وما كان للمسلم الحق أن يقبل التفسير القائم على نظرية وحدة الوجود بأي حال .. ومهما كان قائله !!

كذلك ليس له الحق أن يقبل التفسير الذي أسس على نظريات الفلاسفة الذين بحثوا في الطبيعة وما وراء الطبيعة — والذي جرى عليه ابن عربي وغيره من المتصوفة في تفسيرهم لبعض آيات القرآن الكريم — على أنه تفسير موافق لمراد الله تعالى ومقصوده الذي جاء القرآن من أجله ..

كما أن التفسير الذي يبنى على قياس الغائب على الشاهد ، كتفسير ابن عربي لحقيقة الميزان الذي توزن به الأعمال يوم القيامة .. ليس تفسيراً مقبولا لدى المسلم الحق ، لأنه ضرب من التخمين ، والتخمين لا يجوز أن يدخل في فهم الأشياء التي لا يتوصل الى حقيقتها الا من طريق السمع عن المعصوم عليه السلام ..

يفسر ابن عربي الميزان الذي توزن به الأعمال يوم القيامة فيقول : « ان الله تعالى خلق الانسان على صورة الميزان . وجعل كفتيه يمينه وشماله ، وجعل لسانه قائمة ذاته ، فهو لأي جانب مال .. وقرن الله السعادة باليمين ، وقرن الشقاء بالشمال .. وجعل الميزان الذي يوزن بالأعمال على شاكل القبان .. وليذا وصف بالثقل والخفة ليجمع بين الميزان العددي وهو قوله تعالى : « بحسبان » ، وبين ما يوزن بالرحال .. وذلك لا يكون الا غي القبان .. غلذلك لم يعين الكفتين ... » الخ !!

كما لا يقبل المسلم الحق قول ابن عربي أن : « الشمس والقمر والنجم والشجر يسجدون لهذا الميزان — أي من أجل هذا الميزان .. فمنه ذو ساق وهو الشجر .. ومنه ما لا طاق له وهو النجم —

فاختلفت السجدة٠٠ « والسماء رفعها » وهى قبة الميزان « ووضع الميزان » ليزن به الثقلان « ألا تطفوا فى الميزان » بالافراط والتفريط من أجل الخسران ، « وأقيموا الوزن بالقسط » مثل اعتدال نشأة الانسان ٠٠ إذ الانسان لسان الميزان ، « ولا تفسدوا الميزان » (١٠) ، أى لا تفرطوا بترجيح احدى الكفتين الا بالفضل ٠٠٠ « الخ !!

يرفض المسلم الحق هذا التفسير لأنه ضرب من التخمين ٠٠ فالآيات قد ساقها تعالى فى معرض التدليل على نعمه تعالى التى أنعم بها على الناس ٠٠ ومعناها : أن الله الرحمن قد علمنا القرآن برحمته ، فأنعم بذلك علينا ٠٠ اذ بصرنا به الى ما فيه رضاه تعالى ، وعرفنا ما فيه سخطه ٠٠ لنطيعه فنستوجب جزيل ثوابه ، ونفجو من أليم عقابه ٠٠ ثم امتن تعالى علينا بأنه خلق آدم والناس ، وعلم الانسان ما به الحاجة اليه فى أمر دينه ودنياه من الحلال والحرام ، والمعاش والمنطق ٠٠ ثم لنقتا الى آياته ، فالشمس والقمر يجريان بحساب ومنازل ، وما نجم من الأرض من نبات مما ينبسط عليها كالبقل ولم يكن له ساق ، وما قام على ساق من اشجار يسجدان لله تعالى ٠٠ وكل هذه الأشياء المختلفة الهيئات تسجد له ٠٠ لقد رفع الله السماء فوق الأرض ، ووضع العدل بين خاقه فى الأرض ٠٠ فلماذا يأمرهم ألا يظلموا وييخسوا فى الوزن ، وأن يقيموا لسان الميزان بالعدل ، ولا ينقصوا الوزن اذا وزنوا للناس فيظلموهم ٠٠

هذا — والله أعلم — هو تفسير هذه الآيات ولا حيلة لها بالميزان الذى توزن به أعمال الناس يوم القيامة ٠٠ ولهذا يرفض المسلم الحق ذلك التأويل المبني على التخمين فى أمور لا يتوصل الى حقيقتها الا عن السنة الصحيحة التى جاء بها الرسول ﷺ ٠٠

كما لا يقبل المسلم الحق التفسير المبني على القواعد النحوية أو البلاغية ٠٠ الا اذا ساعده القياس والسياق ٠٠ فاذا خالفهما وجب الاعراض عنه والأخذ بما يصححه النظر ويقرّيه الدليل ٠٠

ان خير ما يقال فى معنى الظاهر والباطن .. أن ظاهر القرآن — وهو المنزل بلسان عربى مبين — : هو المفهوم العربى المجرد .. وباطنه : هو مراد الله تعالى وغرضه الذى يقصد اليه من وراء الألفاظ والتراكيب ..

ولا يشترط فى فهم ظاهر القرآن زيادة على الجريان على اللسان العربى .. كما أن كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربى فليس من تفسير القرآن فى شىء .. لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به .. ومن ادعى فيه غير ذلك فهو ييطل فى دعواه ..

أما المعنى الباطن .. فلا يكفى فيه الجريان على اللسان العربى وحده .. بل لابد منه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى فى قلب الانسان يصير به نافذ البصيرة ، سليم التفكير ..

فالتفسير الباطن .. ليس أمرا خارجا عن مدلول اللفظ القرآنى .. ولهذا يشترط فيه أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر فى لسان العرب ، بحيث يجرى على المقاصد العربية .. وأن يكون له شاهد نصا أو ظاهرا فى محل آخر يشهد لصحته من غير معارض ..

فاذا توافر هذان الشرطان فى معنى من المعانى الباطنة قبل ، لأنه معنى باطنى صحيح .. والا رغب رخصا باتا .. لأنه معنى باطنى فاسد ، وتقول على الله تعالى بالهوى والتشهى ..

فاذا ما ذهبنا نستعرض — على ضوء هذه المقدمات — أقوال القوم فى معانى القرآن الباطنة ، فاننا نجد الكثير منها يمكن أن يكون من قبيل الباطن الصحيح .. كما أن الكثير منها أيضا من قبيل الباطن الفاسد المرفوض ..

وقبل أن نتعرض لأقوال الصوفية فى معانى القرآن الباطنة .. نحب أن نسوق بين يدي الموضوع أهم كتب التفسير الصوفى الباطنى .. حتى يكون القارىء على علم بكتب التفسير التى تعرض له ..

● أهم كتب التفسير الصوفي الفيضى (الباطن) :

نقول وبالله التوفيق .. ان من علماء الصوفية من وجه همته الى التفسير الظاهر ، ولم يتعرض للتفسير الفيضى كالبيضاوى والزمخشري مثلا ..

ومنهم من جعل غالب همه فى التفسير الظاهر ، وتعرض للتفسير الفيضى بقدر .. كما فعل النيسابورى والآلوسى ..
ومنهم من غلبت عليه ناحية التفسير الفيضى .. ومع ذلك فهو يتعرض أحيانا للتفسير الظاهر .. كما فعل التستري ..

ومنهم من وجه همته كلها للتفسير الفيضى ، ولم يحجم حول المعانى الظاهرة .. كما فعل أبو عبد الرحمن السلمى ..
وأخيرا .. منهم من أعرض عن الظاهر وجمع فى تفسيره بين التفسير الصوفى النظرى ، والتفسير الصوفى الاشارى .. كما فعل محبى الدين بن عربى ..

ومن أهم كتب التفسير الفيضى : « تفسير القرآن العظيم » للتستري (ت ٢٧٣ هـ) ، و « حقائق التفسير » للسلمى (ت ٤١٢ هـ) ، و « عرائس البيان فى حقائق القرآن » لأبى محمد الشيرازى (ت ٦٦٦ هـ) ، و « التأويلات النجمية » لنجم الدين داية (ت ٦٥٤ هـ) ، و « علاء الدولة السمنانى » (ت ٧٣٦ هـ) ، والتفسير المنسوب لابن عربى (ت ٦٣٨ هـ) — ويرى البعض أنه من عمل عبد الرزاق التتائسانى (ت ٧٣٠ هـ) ونسبه لابن عربى ترويجا له بين الناس ..

وقد جمع تفسير ابن عربى بين التفسير الصوفى النظرى . وبين التفسير الصوفى الفيضى .. ولم يتعرض للكلام عن التفسير الظاهر بحال من الأحوال .. وأغلب ما فيه من التفسير النظرى يقوم على مذهب وحدة الوجود ..

أما ما فيه من التفسير الفيضى فتثير منه لا يفهم له معنى .. وليس له فى سياق الآية أو لفظها ما يدل عليه ..

● نماذج من التفسير الصوفي للقرآن الكريم :

تبدأ كل سورة من سور القرآن الكريم بـ : « بسم الله الرحمن الرحيم » ..

وقبل أن يشرع المسلمون فى أى عمل من أعمالهم .. يبدأون بالبسملة ، امثالاً للحديث الشريف : « كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر » — أو « أقطع » ..

والغرض من قراءة البسملة .. اعلان من العبد بأنه يبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شئ .. مستعيناً به جل وعلا فى جميع أموره ، طالباً العون منه .. فانه وحده الاله المعبود ، ذو الفضل والجود .. وتسميته تعالى « الرحمن » لعموم رحمته جميع خلقه ، وتسميته « الرحيم » لخصوص رحمته المؤمنين .. يقول تعالى : « وكان بالمؤمنين رحيماً » (١١) ..

فالله جل ثناؤه « رحمن » جميع خلقه .. و « رحيم » المؤمنين خاصة فى الدنيا والآخرة ..

وفى ذلك يقول الامام الطبرى : « ان الله تعالى ذكره وتقدس اسماءه .. أدب نبيه محمداً ﷺ بتعليمه اياه تقديم اسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله .. وجعل ذلك سنة لجميع خلقه يستنون بها ، وسبيلاً يتبعونه عليها » ..

فقول القائل : « بسم الله الرحمن الرحيم » اذا افتتح سورة .. ينبىء عن أن مراده بذلك : أقرأ باسم الله .. وكذلك عند القيام والقعود اذا قال : باسم الله ، فان معناه أقوم باسم الله ، وأقعد باسم الله ، وكذلك سائر الأفعال ..

ولكن « سهل التسترى » يفسر البسملة بقوله :

« الباء » : بهاء الله عز وجل ، و « السين » : سناء الله عز وجل ،

و « الميم » مجد الله عز وجل ..

و « الله » : هو الاسم الأعظم الذى حوى الأسماء كلها ..
وبين الألف واللام حرف مكتى غيب من غيب الى غيب ، وسر من سر
الى سر ، وحقيقة من حقيقة الى حقيقة ، لا ينال فهمه الا الطاهر من
الأدناس ، الآخذ من الحلال قواما ضرورة الايمان ..

و « الرحمن » : اسم فيه خاصية من الحرف المكتى بين الألف
واللام ..

و « الرحيم » : هو العاطف على عباده بالرزق فى الفرع ، والابتداء
فى الأصل ، رحمة لسابق علمه القديم ..

[تفسير القرآن العظيم للتستري ، ص ٩٠٦]

● ويقول بعض المفسرين فى قوله تعالى : « ألم » فى أول سورة
البقرة : ان لكل كتاب سر ، وسر القرآن فواتحه ..

ويقول بعضهم : هى أسماء للسور ..

ويقول آخرون ان معناها : أنا الله أعلم ..

ويقول غيرهم : ابتدئ بهذه الحروف المقطعة أوائل السور ..
ليفتح لاستماع القرآن آذان المشركين .. لأنهم تواصلوا بالاعراض
عن سماعه ..

ويرى الطبرى : أن تأويل مفاتيح السور التى هى حروف مقطعة ..
أن الله تعالى أراد بكل حرف منه الدلالة على معان كثيرة شامل جميعها
من أسمائه عز وجل وصفاته ما قاله المفسرون ..

والراجح فى رأينا — والله أعلم — أن هذه الحروف المقطعة ..
انما هى للتنبيه على اعجاز القرآن الكريم .. وهو قول المحققين من
أئمة علماء التفسير ..

فماذا يقول « التستري » فى تفسير هذه الحروف ؟

يقول : « ألم » : اسم الله عز وجل ، وغيه معان وصفات يعرفها
أهل الفهم به .. غير أن لأهل الظاهر فيه معان كثيرة ..

« فأما هذه الحروف اذا انفردت .. فـ « الألف » : تأليف الله
عز وجل .. ألف الأشياء كما شاء ..

و « اللام » : لطفه القديم ..
و « الميم » مجده العظيم ..

ثم يقول : « لكل كتاب أنزله الله تعالى سر .. وسر القرآن فواتح
الأسور ، لأنها أسماء وصفات مثل قوله : « المص » ، و « الر » ،
و « المر » ، و « كهيعص » ، و « طسم » ، و « حمعسق » ، فإذا جمعت
هذه الحروف بعضها على بعض .. كانت اسم الله الأعظم ، أي إذا
أخذ من كل سورة حرف على الولا — أي على ما أنزلت السورة
وما بعدها على النسق « الر » و « حم » و « ن » — معناه :
« الرحمن » .

« وقال ابن عباس : « ألم » معناه : أنا الله أعلم ، وقال على
رضي الله عنه : هذه أسماء مقطعة .. إذا أخذ من كل حرف حرفا
لا يشبه صاحبه فجمعن .. كان اسم من أسماء الرحمن ، إذا عرفوه
ودعوه به كان الاسم الأعظم ، الذي إذا دعى به أجاب » !!
[المرجع السابق ص ١١ ، ١٢]

● ويقول تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : « الذي خلقتني
فهو يهدين » والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين .
والذي يميّتي ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يسوم
الدين » (١٢) .

أي : الذي خلقتني — وهو رب العالمين — يهدين للصواب ،
ويسددني للرشاد .. وهو الذي يغذوني بالطعام والشراب ، ويرزقني
الأرزاق المختلفة .. وإذا سقم جسمي واعتل فهو يبرئني ويعافيه ..
وهو تعالى الذي يميّتي إذا شاء ، ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي ..
وهو تعالى الذي أرجو أن يستر لي خطيئتي يوم الحساب ..

ولكن التستري يفسر هذه الآيات بقوله : « الذي خلقتني فهو
يهدين » : أي الذي خلقتني لعبوديته يهدينني إلى قربته ..

« والذي هو يطعمنى ويسقين » : أى يطعمنى لذة الايمان ،
ويسقينى شراب التوكل والكفاية ..
« وإذا مرضت فهو يشفين » : أى اذا تحركت بغيره لغيره عصمنى ،
وإذا ملت الى شهوة من الدنيا منعها عنى ..
« والذي يميتنى ثم يحيين » : أى الذى يميتنى ثم يحيينى بالذكر ..
« والذي أطمع أن يغفر لى خطيئتي يوم الدين » : أى أن ابراهيم
عليه السلام قد أخرج كلامه على شروط الأدب بين الخوف والرجاء ،
ولم يحكم عليه - تعالى - بالمغفرة !! [نفس المرجع ص ١٠٦]
وهذا التفسير يغلب عليه ناحية التفسير الفيضى ، وان كان يتعرض
أحيانا للتفسير الظاهر ..

● أما « السلمى » .. فيفسر قوله تعالى : « ألم » بأول البقرة
بقوله : « قيل ان « الألف » : ألف الموحدانىة ، و « اللام » : لام اللطف ،
و « الميم » : ميم الملك .. معناه : من وحدنى على الحقيقة باستقاط
العلائق والأغراض تلطفت له ، فأخرجته من رق العبودية الى الملا
الأعلى ، وهو الاتصال بمالك الملك دون الاشتغال بشئ من الملك ..

وقيل : « ألم » معنى « الألف » : أى أفرد سرك ، و « اللام » :
ليت جوارحك لعبادتى ، و « الميم » : أقم معى بمحور رسومك وصفاتك ..
أزينك بصفات الأنس بى ، والمشاهدة اياى ، والقرب منى !!
[حقائق التفسير ص ٩]

● ويقول تعالى : « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى » (١٣)
أى أنه تعالى بسط الأرض طولا وعرضا .. وجعل فيها جبالا
ثابتة وأنهارا من ماء ..

ولكن « السلمى » يفسر هذه الآية بقوله : « قال بعضهم :
هو الذى بسط الأرض وجعل فيها أوتادا من أوليائه وسادة من عبيده ،

فاليهم الملجأ وبهم النجاة .. فمن ضرب فى الأرض بقصدهم فاز ونجا .. ومن كان بغيته لغيرهم خاب وخسر » ..

ثم يقول : « سمعت على بن سعيد يقول : سمعت أبا محمد الحريرى يقول : كان فى جوار الجنيد انسان مصاب فى خربة .. فلما مات الجنيد وحملنا جنازته حضر الجنازة ، فلما رجعنا تقدم خطوات وعلا موضعا من الأرض عاليا ، فاستقبلنى بوجهه وقال : يا أبا محمد ، انى راجع الى تلك الخربة ، وقد فقدت ذلك السيد .. ثم أنشد شعرا :

وما أسفى من فراق قوم	هم المصابيح ، والحصون
والمدن ، والمزن ، والرواسى	والخير ، والأمن ، والسكون
لم تتغير لنا الليالى	حتى توفتهم المنون
فكل جمر لنا قلوب	وكل ماء لنا عيون !!

[المرجع السابق ، ص ١٣٨]

● ويقول تعالى : « فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام » (١٤) .
أى أن فى الأرض الفاكهة الكثيرة .. وفيها النخل ذوات الليف المتكمة به ، وذوات الطلع النضيد .

فماذا يقول السلمى فى تفسير هذه الآية ؟

يقول : « قال جعفر : جعل الحق تعالى فى قلوب أوليائه رياض أنسه ، فغرس فيها أشجار المعرفة ، أصولها ثابتة فى أسرارهم ، وفروعها قائمة بالحضرة فى المشهد ، فهم يجنون ثمار الأنس فى كل أوان ، وهو قوله تعالى : « فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام » : أى ذوات الألوان .. كل يجتنى منه لونا على قدر سعته وما كوشف له من بوادى المعرفة وآثار الولاية » !! [نفس المرجع ، ص ٣٤٤]

وهذا التفسير — كما رأيت — يوجه همهته كلها الى التفسير الفيضى ، ولم يحم حول المعانى الظاهرة ..

● ويقول تعالى : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج » (١٥) .
أى : ليس على أهل العجز عن الجهاد ، ولا على المرضى ، ولا على من لا يجد نفقة للغزو اثم فى التخلف عن الجهاد ..
ولكن الشيرازى يقول فى تفسير الآية : « وصف الله زمرة أهل المراقبات ، ومجالس المحاضرات ، والهاثمين فى المشاهدات ، والمستغرقين فى بحار الأزليات .. الذين أنحلوا جسامهم بالمجاهدات ، وأمروا نفوسهم بالرياضيات ، وأذابوا قلوبهم بدوام الذكر . وجولانها فى الفكر .. وخرجوا بعقائدهم الصافية عن الدنيا الفانية بمشاهدة الباقية . بأن رفع عنهم بفضل حرج الامتحان ، وأبقاهم فى مجالس الأسى ورياض الايقان .. وقال : « ليس على الضعفاء » يعنى : الذين أضعفهم حمل أوقار المحبة ، « ولا على المرضى » : الذين أمرضهم مرارة الصبابات ، « ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون » : الذين يتجردون عن الأكوان بتجريد التوحيد وحقائق التفريد ، « حرج » : عتاب من جهة العبودية والمجاهدة .. لأنهم مقتولون بسيف المحبة ، مطروحون بباب الوصلة ، أضعفهم من الشوق ، ومرضهم من الحب ، وفقرهم من حسن الرضا » ١١ [عرائس البيان ج ١ ، ص ٣٦٩]

● ويقول تعالى « وإِنَّهٗ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظُلُمًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَاسَكُمْ ، كَذَٰلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ » (١٦) .

أى : أن من نعم الله تعالى عليكم أن جعل لكم من الأشجار ظلالا تستظلون بها من شدة الحر ، وجعل لكم من الجبال مواضع تستقون فيها كالكهوف ، وجعل لكم ثيابا من القطن والكتان والصوف .. تحفظكم من الحر والبرد ، كما جعل لكم دروعا تقيكم فى الحرب .. غالثه تعالى كما أنعم عليكم بهذه الأشياء ، فإنه يتم نعمته عليكم لئى تخضعوا له بالطاعة ، وتخلصوا له العبادة ..

يفسر الشيرازى هذه الآية بقوله : « يعنى : ظلال أوليائه ليستظل بها المريدون من شدة حر الهجران ، ويأوون اليها من قهر الطغيان ، وشياطين الانس والجان .. لأنهم ظلال الله فى أرضه ، لقوله عليه السلام : « السلطان ظل الله فى أرضه ، يأوى إليه كل مظلوم » .. »
« وجعل لكم من الجبال أكثانا » ، أكتان الجبال : قلوب أكابر المعرفة وظلال أهل السعادة من أهل المحبة ، يسكن فيها المنقطعون الى الله ..

« وجعل لكم سراييل تقيكم الحر » : جعل للعارفين سراييل روح الأنس لئلا يحترقوا بنيران انقدس ..
« وسراييل تقيكم بأسكم » : سراييل المعرفة وأسلحة المحبة لتدفعوا بها محاربة النفوس والشياطين .. ثم زاد نعمته ومنته عليهم بقوله : « كذلك يتم نعمته عليكم » .
[المرجع السابق ، ص ٥٣٤ ، ٥٣٥]

ويقول تعالى عن سليمان عليه السلام : « وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدد أم كان من الغائبين . لأعذبه عذاباً شديداً أو لأنبحنه أو ليأتينى بسلطان ميين » (١٧) .
أى أن سليمان عليه السلام تنقد أنواع الطير .. فلم ير الهدد بينها .. فقال : ما الذى جعلنى لا أرى الهدد ؟ .. أخطاه بحسرى فلا أراه قد حضر ، أم هو غائب لم يحضر ؟
فلما أخبر — عليه السلام — بأنه غائب .. أشم ليعذب الهدد عذاباً شديداً ، أو ليقتلنه ، أن لم يات به بحجة واضحة تبين لسامعها صحتها ..

ولكن الشيرازى يقول : « أن طير الحقيقة لسليمان طير قلبه .. فتفقده ساعة وكان قلبه غائبا فى غيب الحق ، مشغولا بالمذكور عن الذكر ، فتفقده وما وجدته ، فتعجب من شأنه .. أين قلبه أن لم يكن معه ؟ .. فظن أنه غائب عن الحق ، وكان فى الحق غائبا .. وهذا شأن غيبة

أهل الحضور من العارفين .. ساعات لا يعرفون أين هم ، وهذا من كل استغراقهم في الله ، فقال : « لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبین » : لأعذبه بالصبر على دوام المراقبة والرعاية ، وألقينه في بحر الفكرة من المعسرفة ، ليفنى ثم يفنى عن الفناء .. أو لأذبحنه بسيف المحبة أو بسيف العشق .. أو ليأتيني من الغيب بسواطع أنوار أسرار الأزل » !! [نفس المرجع ج ٢ ، ص ٨١٣]
وهذا مثل سابقه .. يوجه عنته كلها الى التفسير الفيضي .

● ويقول الله تعالى عن طالوت وجنوده : « فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غرفة بيده » (١) ..

أي : فلما رحل طالوت بالجنود من بيت المقدس — وهم ثمانون ألف مقاتل — شكوا اليه العطش .. فأخبرهم بأن الله سوف يختبرهم بنهر يردون عليه .. فمن شرب من مائه فليس من أهل ولايته وطاعته .. ومن لم يذق ماء ذلك النهر فانه من أهل ولايته وطاعته .. الا من شرب غرفة اغترفها بيده فانه منه ..

هذه الآية الواضحة .. يفسرها نجم الدين داية بقوله : « الاشارة فيها : أن الله تعالى ابتلى الخلق بنهر الدنيا وماء زينتها وما زين للخلق فيها لقوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، تلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » (٢) .. ليظهر المحسن من المسئء ، وليميز الخبيث من الطيب والمقبول من المردود .. وكما قال تعالى : « انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » (٣) .

ثم امتحنهم .. فقال تعالى : « فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني » : يعنى من أوليائى ومحبي وطلابى . والله اختصنا

لقربى وقبولى : والتخلق بأخلاقى ونيل الكرامة منى .. وكان النبى
ﷺ يقول : « أنا من الله ، والمؤمنون منى » ..

« الا من اغترف غرفة بيده » : يعنى من قنع من متاع الدنيا على
ما لا بد منه من الماكول ، والمشروب ، والملبوس ، والمسكن ، وصحبة
الخلق . على حد الاضطرار بمقدار القوام .. كما كان النبى ﷺ
وأصحابه .. وكان يقول : « اللهم ارزق آل محمد قوتا » : أى ما يمسك
رمقهم !! [التأويلات النجمية ج ١]

● ويقول تعالى عن سليمان عليه السلام : « وحشر لسليمان
جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون » حتى اذا اتوا على
وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان
وجنوده وهم لا يشعرون » (٢٠) .

أى : وجمع لسليمان جنوده من جميع الأجناس فى مسير لهم ،
فهم يكفون لئلا يتقدموا فى المسير .. حتى اذا أتى سليمان وجنوده
على واد للنمل قالت نملة : يا أيها النمل التجئوا الى بيوتكم حتى
لا يقتلكم سليمان وجنوده وهم لا يعلمون بكم ..

يفسر نجم الدين هذه الآية بقوله : « وحشر لسليمان جنوده
من الجن » : أى صفته الشيطانية ، « والانس » : أى صفته النفسانية ،
« والطير » : أى صفته الملكية ، « فهم يوزعون » : عن طبيعتهم
بالشريعة ليسخروا لسليمان القلب وينقادوا له ..

« حتى اذا اتوا على وادي النمل » : وهو هوى النفس الحريصة
على الدنيا وشهواتها . « قالت نملة » : وهى النفس اللوامة ،
« يا أيها النمل » : أى الصفات الانسانية ، « ادخلوا مساكنكم » :
محالكم المختلفة وهى الحواس الخمس ، « لا يحطمنكم » : لا يهلككم ،
« سليمان » : القلب ، « وجنوده » : المسخرة له ، « وهم لا يشعرون » :
لأنهم الحق وأنتم الباطل .. فاذا جاء الحق زهق الباطل ، كما أن

الشمس اذا طلعت تبطئ الظلمة وتنفيها .. وهى لا تشعر بحال الظلمة وما أصابها « !! [المرجع السابق ج ٤]

● ويقول تعالى فى شأن المشركين : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين » (٢١) .

أى : ابدأوا بقتال الكفار .. الأقرب فالأقرب اليكم دارا ، دون الأبعد فالأبعد .. وليجد هؤلاء الكفار منكم شدة عليهم ، وأيقنوا أن الله معكم وناصرکم ان اتقيتم ربكم بأداء فرائضه واجتناب نواهيه .. ويفسر نجم الدين هذه الآية بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » : أى صدقوا محمداً ﷺ فيما ذلهم الى الله باذنه ..

« قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » : أى جامدوا كفار النفس وصفاتها بمخالفة صفاتها وتبديلها ، وحملها على طاعة الله والمجاهدة فى سبيله فانها تحجبك عن الله ..

« وليجدوا فيكم غلظة » : أى عزيمة صادقة فى فنائها بترك شهواتها ولذاتها ومستحسناتها ، ومنازعتها فى هواها وحملها على المتابعة فى طلب الحق ..

« واعلموا أن الله مع المتقين » : بجذبة الوصول ايتقوا به عما سواه ، كما يتقى المرء بترسه عن الشباب والرمح والسيف « !! [نفس المرجع ج ٢]

● ويقول تعالى ممثلا لليتبات بامرأة فرعون : « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين » (٢٢) .

ومعناها — والله أعلم — أن الله تعالى يمثل ممثلا للذين صدقوا الله : امرأة فرعون التى آمنت بالله وصدقته رسوله موسى عليه السلام .. وكانت تحت عدو من أعداء الله كافر — وهو فرعون — غلم يفسدها كفر زوجها اذ كانت مؤمنة بالله تعالى .. لئذا حين دعت الله بقولها :

رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، وانقذنى من عذاب فرعون ، واجنبني
أن أعمل عمله ناكفر بالله ، ونجنى من عمل القوم الكافرين ومن عذابهم
.. عندما دعت الله تعالى بهذا الدعاء ، مؤمنة به ، ومخلصة فى دعائها ..
استجاب لها تعالى بأن أنقذها من عذاب فرعون ، وعصمها من الوقوع
فى الكفر .. ولذا ييشرها تعالى بأنه قد بنى لها بيتا فى الجنة جزاء
لايمانها واستجابة لدعائها ..

ولكن « السمنانى » يفسر هذه الآية بقوله : « وضرب الله مثلا
للذين آمنوا » : يعنى القوى المؤمنة من قوى النفس اللوامة ..
« امرأة فرعون » : يعنى القوة الصالحة القابلة تحت القوة الفاسدة
الفاعلة المستكبرة .. ما ضرها كفر القوة الفاعلة الفاسدة اذا كانت
صالحة هى بنفسها .

« اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون
وعمله ونجنى من انقوم الظالمين » : يعنى اذ قالت اللطيفة الصالحة
القابلة فى مناجاتها مع ربها : ابن لى بيتا فى أخص أطوار القلب ..
وقالت أيضا فى مناجاتها : نجنى من هذه القوة الفاسدة والفاعلة عملها ..
ونجنى من أنوائها وقواها الظالمة « !! [التاويلات النجمية ج ٥]

● ويقول تعالى فى شأن « ثمود » قوم « صالح » عليه السلام :
« كذبت ثمود بطغواها . اذ انبعث أشقاها » .. الى آخر السورة (٣٣) ..
أى أن أولئك القوم .. كذبوا بالعذاب الذى توعدهم به نبيهم ..
فكان ذلك العذاب طاغيا عليهم .. حدث ذلك حين ثار أشقى ثمود
« قدار بن سالف » ، وكان عزيزا شريفا غيهم .. فقال لهم صالح عليه
السلام : احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ، وراعوا يوم شربها ..
ولكنهم كذبوا صالحا فى خبره بما يحل من نعمته تعالى بهم ان عقروها ..
فقتلوا الناقة عن رضا جميعهم .. فدمر الله عليهم بكفرهم وتكذيبهم
لنبيه عليه السلام ، وعقرهم للناقة .. فسوى الله عليهم فلم يفلت
منهم أحد .. والله تعالى .. لا يخاف عاقبة اهلاكهم وتدميرهم ،

كما يخاف الرؤساء والملوك عاقبة ما يفعلون .. لأنه تعالى لا سلطان لأحد عليه ..

يفسر « السمناني » هذه الآيات بقوله : « كذبت ثمود بطغواها .
اذ انبعث أشقاها » : يعنى اذ انبعثت اللطيفة وأسرعت الى الطاغية ،
انبعث أشقى قوى النفس على اثر اللطيفة الصالحة ، ليعقر ناقة شوقها .
« فقال لهم رسول الله » : أى اللطيفة ..

« ناقة الله وسقياها » : أى احذروا عقر ناقة الشوق وشرابها
من عين الذكر ..

« فكذبوه فمقروها » : بتكذيبهم صالح اللطيفة النفسية ، وعقروا
ناقة الشوق ..

« فعمد عليهم ربهم بذنبيهم » : أى أهلكهم الله .

« فسواها » : أى عممهم بذلك العذاب .

« ولا يخاف عقباها » : ولا يخاف القوى العاقرة فى عقر ناقة
الشوق عاقبة الأمر .. فأهلكهم بطغيانهم لرسوله وتكذيبهم اياه !!
[المرجع السابق ج ٥]

● ويقول « السمناني » : « ان لكل آية سبعة أبطن .. كل بطن
يخالف الآخر .. فالمعنى الذى يجرى على هذا البطن يغاير المعنى الذى
يجرى على البطن الآخر » !!

ويوضح ههذه البطون السبعة فيقول : « فبطن مخصوص باللطيفة
القلبية ، وبطن مخصوص باللطيفة النفسية ، وبطن مخصوص باللطيفة
القلبية ، وبطن مخصوص باللطيفة انسية ، وبطن مخصوص باللطيفة
الروحانية ، وبطن مخصوص باللطيفة الذخية ، وبطن مخصوص باللطيفة
الحقية » !!

ولم يقف « السمناني » عند هذا الحد .. بل تعداه الى القول
بأن لكل آية سبعين بطنا .. بل سبعمائة !!
وهذا التفسير أيضا لم يحم حول المعانى الظاهرة .. انما وجه
همته كلها للتفسير الفيزي ..

أما محيي الدين بن عربي .. فانه يجمع في تفسيره بين التفسير الصوفي النظري ، والتفسير الصوفي الفيضي .. ولم يتعرض فيه للكلام عن التفسير المظاهر بحال من الأحوال .. كما بنى أغلب ما فيه من التفسير النظري على مذهبه في وحدة الوجود ..

ونلاحظ أن الكثير من التفسير الفيضي لابن عربي لا يفهم له معنى ، بل انه لا يوجد في سياق الآية أو لنظها ما يدل عليه ، كما قدمنا .. يقول الله تعالى .. حاكيا عن ابراهيم عليه السلام : « واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره الى عذاب النار ، وبئس المصير » (٢٤) .

أى ان ابراهيم عليه السلام دعا ربه فقال : يارب ، اجعل هذا البلد بلدا آمنا من الجبابرة أن يسلطوا عليه ، ومن عقوبتك أن تناله .. وارزق يارب من الثمرات سكان مكة المؤمن منهم دون الكافر .. فقال له تعالى : ومن كفر غافى أرزقه أيضا .. لأنى أرزق البر والفاجر ، فأمتعه قليلا برزقى من الثمرات فى الدنيا الى أن يأتية أجله .. ثم أدفعه وأسوقه الى عذاب جهنم سحبا وجرا على وجهه .. فبئس ذلك الموضع الذى يصير اليه فى جهنم بعد ذلك النعيم الذى تمتعه به فى الدنيا ..

هذه الآية الواضحة .. يفسرها ابن عربي بقوله : « واذ قال ابراهيم رب اجعل » هذا الصدر الذى هو حرم القلب « بلدا آمنا » من استيلاء صفات النفس واغتيال العدو اللعين ، وتخطف جن القوى البدنية أهله ، « وارزق أهله من الثمرات » : ثمرات معارف الروح أو حكمه أو أنواره ، « من آمن منهم بالله واليوم الآخر » : من وحد الله منهم وعلم المعاد ، « قال ومن كفر » أى ومن احتجب أيضا من الذين سكنوا الصدر ، ولا يجاوزون حده بالترقى الى مقام العين لاحتجابهم بالعلم الذى وعاءود الصدر .. « فأمتعه قليلا » من المعانى العقلية ، والمعلومات الخفية النازلة اليهم من عالم الروح على قدر ما تعيشوا به ،

« ثم أضطره الى عذاب النار » : نار الحرمان والحجاب ، « وبئس المصير »
مصيرهم لتعذيبهم بنقائصهم ، وتألمهم بحرمانهم « !!

[تفسير ابن عربى ج ١ ص ٥٧]

● ويقول تعالى : « ان الله فائق الحب والنوى ، يخرج الحى من
الميت ومخرج الميت من الحى ، فأنى تؤفكون » (٢٥) .
أى أن الله — جل وعلا — هو الذى شق الحب فأخرج منه الزرع ،
وفلق النوى فأخرج منه الشجر .. ففلق الحب عن السنبلة ، وفلق
النواة عن النخلة .. فهو تعالى يخرج السنبل الحى من الحب الميت ،
ويخرج الحب الميت من السنبل الحى .. والشجر الحى من النوى الميت ،
والنوى الميت من الشجر الحى .. كما يخرج النطفة الميتة من الحى ،
ثم يخرج من النطفة بشرا حيا .. ان الذى يفعل ذلك كله هو الله
جل جلاله .. فكيف تصرفون عن الحق وتعبدون ما لا ينفع ولا يسمع ،
وتتركون عبادة من أخرج لكم الزروع والحروث والثمار ؟

ولكن ابن عربى يفسر الآية بقوله : « ان الله فائق حبة القلب
بنور الروح عن العلوم والمعارف ، ونور النفس بنور القلب عن الأخلاق
والمكارم .. ويخرج حى القلب عن ميت النفس تارة باستيلاء نور
الروح عليها ، ومخرج ميت النفس عن حى القلب أخرى باقباله عليها :
واستيلاء الهوى وصفات النفس عليه .. فأنى تصرفون عنه الى غيره « !!
[المرجع السابق ج ١ ، ص ٢١٥]

● ويقول جل شأنه : « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي
رحمته ، حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء
فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون . والبلد
الطيب يخرج نباته بأذن ربه ، والذى خبت لا يخرج الا تكدا ، كذلك
نصرف الآيات لقوم يشكرون » (٢٦) .

أى أن الله تعالى .. هو الذى يرسل الرياح تبشر بالمطر أمام نزول

غيثه على خلقه .. حتى اذا حملت هذه الرياح سحابا مثقلا بالماء ..
ساقه تعاني لاهياء بلد ميت أجذب أهله ، فانزل في ذلك البلد الميت
المطر الحى ليخرج بذلك الماء من جميع أنواع الثمرات ..
وكما يحيى الله تعالى هذا البلد الميت بانزال الماء بعد موته
وجدبه .. كذلك يخرج الموتى من قبورهم بعد فنائهم ودروسهم ..
لتعتبروا وتذكروا .. فتعلموا قدرة الله ..

والبلد الطيبة تربته ، يخرج نباته — باذن الله — طيب الثمر فى
وقته وحينه .. والذي خبثت تربته لا يخرج نباته الا بعسر ومشقة ..
كذلك يبين الله الحجج ويضرب الأمثال لقوم يشكرون الله على انعامه ..
وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن وعمله الطيب ، والكافر وعمله
الخبث ..

فالبلد الطيب مثل للمؤمن .. والذي خبث مثل للكافر ..
هذا — والله اعلم — هو التفسير المقبول للآية ، ولكن ابن عربى
يفسرها على طريقته .. فيذكر أنه لما أدركته الفطرة التى لا بد منها
لكل داخل فى الطريق وتحكمت فيه .. رأى الحق سبحانه (١١) فتلا
عليه هاتين الآيتين .. قال : « نعلمت أنى المراد بهذه الآية ، وقلت :
ينبى بما تلاه علينا على التوفيق الأول الذى هدانا الله به على يد عيسى
وموسى ومحمد — سلام الله عليهم جميعهم — فان رجوعنا الى هذا
الطريق كان ببشارة على يد عيسى وموسى ومحمد عليهم السلام ،
« بين يدي رحمته » وهى العناية بنا .. « حتى اذا أقلت سحابا ثقالا »
وهى ترادف التوفيق .. « سقناه لبلد ميت » وهو أنا . « فأحيينا به
الأرض بعد موتها » (٢٧) .. وهو ! يظهر علينا من أنوار القبول والعمل
الصالح والتعشق به ..

ثم مثل فقال : « كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » : يشير بذلك
الى خبر ورد عن النبى ﷺ فى البعث — أعنى حشر الأجسام — من أن
الله يجعل السماء تمطر مثل منى ارجال .. ثم قال : « والبلد الطيب
يخرج نباته باذن ربه » وليس سوى الموائمة والسمع والطاعة

لطهارة المحل ، « والذي خبث » وهو الذي غلبت عليه نفسه والطبع ، وهو معتنى به في نفس الأمر « لا يخرج الا نكدا » مثل قوله : « ان لله عبادا يقادون الى الجنة بالسلاسل » ، وقوله تعالى : « والله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها » (٢٨) . . نخشنا : طوعا يا الهنا !!

● ويقول جل وعلا : « ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق » (٢٩) فالله تعالى . . يأمر الناس باجتنب عباداة الأوثان لأنها رجس . . كما يأمرهم باتقاء الكذب والفرية على الله . . ويأمرهم أن يستقيموا له على اخلاص التوحيد له فلا يشركوا شيئا من دونه بقوله : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . . حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » (٣٠) .

ثم يقول : « نلك ومن يعظم شعائر الله . . . » أي يعظم هذا الذي أمرتكم به ، ومن يعظم ما جعلته من مناسك الحج ، فان تعظيمه لها من خشية الله . . ولكم في هذه الشعائر — وهي الذبائح التي تساق هديا للكعبة — منافع ، لأنكم تشربون ألبانها ، وتركبون ظهورها انى أن تتحر . . ثم محل هذه الذبائح الى أرض الحرم . .

الآية سيقنت لبيان مناسك الحج . . وجاءت بعد اخباره تعالى لنا أنه يسر وبين لابراهيم عليه السلام مكان الكعبة ليقوم ببنائها . . وأمره ألا يشرك في عبادته اياه شيئا ، وأن يطهر بيته من عبادة الأوثان للطائفين به والمصلين الذين هم قائمين وراكعين وساجدين في صلاتهم حول البيت . . ثم أمره أن ينادى في الناس : ان حجروا بيت الله الحرام . . ووعدهم أنهم سوف يأتون البيت مشاة على أرجلهم وركبا على الأبل التي تأتي من كل طريق ومكان بعيد . . ليشهدوا ما ينفعهم من العمل الذي يرضى الله والتجارة ، ولكي يذكروا اسم الله تعالى في أيام التشريق

على ما رزقهم من الهدايا والبدن التي أهدوها من الابل والبقر والغنم ..
وأباح لهم أن يأكلوا من هذه البدن والهدايا .. وأن يطعموا — مما يذبحون
أو ينحرون — البائس الذي به ضر الجوع والحاجة ، والفقر الذي
لا شيء له .. ثم ليقتضوا ما عليهم من مناسك حجهم : من الحلق ،
والرمي ، والطواف .. وليوفوا الله بما نذروا من هدى وغيره .. وليطوفوا
طواف الاغاضة ببيت الله القديم ..

هذا الذي أمرنا الله به من الوفاء بالنذور والطواف .. هو الواجب
علينا .. ووعد تعانى من يجتنب ما أمر الله باجتنابه فى حال احرامه ،
تعليما منه لحدود الله .. بالخير الكثير عند ربه فى الآخرة ..

ثم يقول تعالى : أنه قد أحل لنا الأنعام بأن ناكلها اذا ذكيناها ..
الا ما يتلى علينا من تحريم شيء منها ، وطلب منا أن نتقى عبادة الأوثان
لأنها رجس ، وأن نتقى قول الكذب والفرية على الله .. وأن نكون
مستقيمين لله على اخلاص التوحيد له وألا نشرك به شيئا من دونه ..
ومثل تعالى من يشرك به كمثل من خر من السماء ، فهلك واختطفته
الطير .. أو هوت به الريح فى مكان بعيد ثم قال : « ذلك ومن يعظم
شعائر الله فانها من تقوى القلوب » .

ولكن ابن عربى يفسر الآية بقوله : « شعائر الله » : أعلامه
وأعلامه الدلائل الموصلة اليه .. « ثم محلها الى البيت العتيق » :
وهو بيت الايمان عند أهل الاشارات .. وليس الا قلب المؤمن الذى
وسع عظمة الله وجلاله !! [الفتوحات ج ٤ ، ص ١٠٩]



وبعد .. فهذا وامثاله من كلام الصوفية .. لو قلنا انهم ارادوا به
تفسير الآيات القرآنية وبيان معانيها التى تحمل عليها لا غير ..
لكان هو بعينه مذهب الباطنية ..

وذلك لأن المعانى التى حملوا عليها الألفاظ لا تعرفها العرب من
مدلولات لهذه الألفاظ .. لا بالوضع الحقيقى ، ولا بالوضع المجازى
المناسب .. وليس فى مساق الآيات ما يدل على هذه المعانى المذكورة ..
(١ — الله توحيد)

ومعلوم أن القرآن عربى .. ومخاطب به العرب الذين يفهمون
الفاظه وتراكيبه . ولا يفهم منه العربى أكثر من المعانى المتبادرة الى
فهمه والتى تنساق الى ذهنه ابتداء ..

ولا ننكر أن ثم أفهاما يلقيها الله تعالى فى قلوب أصفياؤه وأحبابه ..
ويخصصهم بها دون غيرهم على تفاوت بينهم فى ذلك .. بمقدار ما بينهم
من تفاوت فى درجات السلوك ومراتب الوصول ..

كما لا ننكر أن تكون هذه الأفهام تفسيرا للقرآن ، وبيانا لمراد
الله من كلامه .. ولكن بشرط أن تكون هذه الأفهام يمكن أن تدخل
تحت مدلول اللفظ العربى القرآنى .. وأن يكون لها شاهد سرعى
يؤيدها ..

أما أن تكون هذه الأفهام خارجة عن مدلول اللفظ القرآنى .
وليس لها من الشرع ما يؤيدها .. فذلك ما لا يمكن أن نقبله على أنه
تفسير للقرآن وبيان لمراد الله تعالى .. لأن القرآن عربى قبل كل شيء ..
والله سبحانه يقول فى كتابه : « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم
يعلمون » (٣١) .. وحاشا لله أن يلغز فى آياته ، أو أن يعمى على عباده
طريق النظر فى كتابه وهو يقول : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل
من منكر » (٣٢) .

* * *

(٣١) فصلت : ٣

(٣٢) القمر : ١٧

وانظر التفسير والمفسرون ، مرجع سابق : ج ٢ ص ٢٦٥ . ٢٧١

الفصل الخامس

موقف الصوفية من الوحي ، والنبوة

يزعم الصوفيون .. أن النبي ﷺ اختص بعلومهم وأحوالهم نفرا من قرابته وآل بيته ، وفريقا من أهل محبته .. وذلك بما نفث في صدورهم من علوم الحقيقة وأسرار الباطن !!

وأنه ﷺ .. أورث هؤلاء الأقارب والأحباب ميراث النبوة الروحي في شكل ولاية !!

ويزعمون أن شيوخهم قد تناقلوا هذه الولاية كابرا عن كابر في سلسلة الآباء الروحانيين الى يوم القيامة !!

ويسمون هذا النسب الروحي في أوساطهم : « حسبا » .. ويعرف أهله المحسوبون بأنهم : « أهل الله » !!

فما هو مبلغ تصورهم للنبوة ، وما هو موقفهم من الوحي ؟ ؟

يقول الدكتور التفتازاني عن التصوف في عهده الأول : « نلاحظ إبان القرنين الثالث والرابع الهجريين اتجاهين واضحين للتصوف ..

الاتجاه الأول .. ويمثله صوفية معتدلون في آرائهم ، يربطون بين تصوفهم وبين الكتاب والسنة بصورة واضحة .. وان شئت قلت : يزنون تصوفهم دائما بميزان الشريعة ، وكان بعضهم من علمائها المعروفين .. ويغلب على تصوفهم الطابع الأخلاقي ..

والاتجاه الثاني .. يمثله صوفية استسلموا لأحوال الفناء .. ونطقوا بعبارات غريبة عرفت بالشطحيات .. وكانت لهم تصورات لعلاقة الإنسان بالله : كالاتحاد .. وتصوفهم لا يخلو من بعض المنازع الميتافيزيقية في صورة بسيطة ..

فهم في هذه الفترة .. وان كانوا تكلموا في المعرفة بطريقة نظرية .. الا أنها كانت من زاوية أخلاقية في الأغلب « (١) » .

وتقوم النظرة الصوفية الى المعرفة — إبان هذه الفترة — على أنها : « العلم بلا واسطة ، الناشئ عن الكشف والشهود » ..

لذا نرى كلامهم بناء على هذه النظرة — في المواجد والآذواق مبنيا على الكشف والشهود والخروج بهما وبالفناء الى دائرة تقربهم من الاتجاه الاشرافي .. غير أنهم وقفوا عند حد النظر بعمق الى المعاني الباطنة للألفاظ والنصوص الدينية .. كما راعوا ذلك في عباراتهم التي تكلموا بها واستعملوها في علمهم الصوفي .. ونظروا فيها الى كل ما تحتمله هذه الألفاظ من معنى .. وربما بلغ بهم الأمر الى حد الالغاز والرمز (٢) ..

ويقول الدكتور ابراهيم هلال : ان الاتجاه السني — في الفترة الأولى — ظل هو الغالب في الفكر الصوفي الى أوائل القرن السادس .. وكان لدعوة القشيري ونشاط الامامين الهروي والغزالي البارز في هذا المجال أثرهما في محافظة التصوف على سنيته الغالبة حتى هذه الفترة ..

غير أن الاشراف — كحركة فلسفية — لم يعدم أن يجد له بين المتصوفة أنصارا ومريدين .. فظهر في الشرق في فلسفة السهروردي الحلبي ، وفي الأندلس في مدرسة ابن مسرة التي كان من أبرز رجالها ابن عربي وابن سبعين .. كما تأثر بها من الشرقيين الجيلي وابن الفارض .

واتخذ التصوف عند هؤلاء .. طابعا فلسفيا ، ونحا منحى الفلاسفة في اتخاذ نظرياتهم في الفيض والمعرفة الاشرافية لتفسير كثير من المشكلات العقائدية التي تعترضهم في ذكره الخلق ، وذات الله وصفاته ،

(١) مدخل الى التصوف الاسلامي ، للدكتور ابو الرينا التنازلي .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٢ : ١٦٧ بتصريف .

والعلاقة بين الله والكون ، وبين الله والانسان .. وغيرها مما يتصل
بالنبوة والولاية والمعرفة ..

الأمر الذى نتج عنه نظريات فلسفية معقدة ، وبحوث ميتافيزيقية
شاعت فى الوسط الاسلامى هـنظرية وحدة الوجود ، والحقيقة المحمدية ،
ونظرية الحلول والاتحاد بشخْلِها المحتمل ، ونظرية القطب والأبدال ،
وغیرها مما لم يكن معروفا من قبل فى الأوساط الاسلامية السنية^(٢) .

● نظرية المعرفة الاشراقية :

وأول فيلسوف اسلامى نادى بنظرية المعرفة الاشراقية هو الفارابى
مبتدع هذه النظرية .. ثم أخذ بها الفلاسفة والصوفية من بعده ..
ويرى « الفارابى » أن غاية المعرفة هى الاتصال بالعقل الفعال ..
والعقل الفعال عنده هو جبريل الموكل بالوحي ، والذى ترتسم فيه كل
الصور ، وتنتقش فيه كل العلوم والمعارف الغيبية .. حسب زعمه !!

والانسان — عند الفارابى — لا يبلغ هذه الدرجة الا بالمجاهدة
والرياضة وتصفية النفس .. وذلك يكون بأفعال ارادية .. بعضها
فكرية وبعضها أعمال بدنية ، وليس باى أفعال اتفقت ..

وهذه الأعمال من شأنها .. أن تنتقل بالانسان شيئا فشيئا ..
من حالة البشرية .. الى حالة الملائكية .. ويصير — كما يقول الفارابى —
« فى جملة الجواهر المفارقة للمواد » .. وبهذا يكون قد وصل الى
درجة المعرفة التامة التى صارت المعلومات فيها منطبعة فى نفسه ،
وأصبحت نفسه مع انصور الكلية « عقلا ومعقولا بالفعل » .. وهذه
هى رتبة الاتصال بالعقل الفعال ..

وما دام الانسان — فى نظر الفارابى — قد وصل الى هذه
الدرجة .. فقد صار فى حالة تقبل للمعلومات الجزئية الغيبية ،

(٢) التصوف الاسلامى . نلدكتور ابراهيم هلال ، ص ٩٩

والمعارف الكلية التي لا يطلع عليها الا الملائكة المقربون ، لأنها منقوشة في اللوح المحفوظ — أو العقل الفعال — ويكون ذلك اما في وقت اليقظة أو في وقت النوم .. وهي حال الفلاسفة والحكماء الالهيين « (٤) » .

وهذه الآراء نفسها .. هي فحوى نظرية المعرفة الاشراقية عند أتباع الأفلاطونية المحدثة .. التي تقوم على التجرد من ماديات النفس ، واعتزال العالم الخارجي باطالة التأمل والتفكر . والنظر في النفس أو في العالم رغبة الوصول الى الاله أو الاتحاد به فكريا . والعيش معا في العالم الأعلى أو الكينونة الدائمة في ذلك العالم المجرد أو الالهى . والاطلاع على أسرار تعجز انفس عن الوصول اليها في حال ماديتها .. وقد أثر هذا المذهب أولا عن أفلاطون ، ثم قوى واشتد عوده على يد أفلوطين في القرن الثالث الميلادي ..

واذا ما حاولنا تلخيص النظرية الاشراقية عند الفارابى .. نجد أن الانسان — عنده — اذا قويت نفسه بالرياضة حتى صار عقلا بالفعل ، وصارت المعقولات منه هي التي تعقل .. حصل له حينئذ عقل بالفعل ، أو عقل مستفاد ..

وعن طريق هذا العقل .. يمكن للانسان أن يتصل بالعقل الفعال الذى هو جبريل عند الفلاسفة ، واللوح المحفوظ عند الصوفية ، والذى نقش فيه كل شيء : ما كان وما يكون ..

وتكون نفس الانسان — في هذه الحالة — بمثابة المرآة ينعكس عليها كل ما عند الملأ الأعلى ، أو ما في نفوس الملائكة .. فيكون ذلك الشخص بما يفيض من العقل الفعال الى عقله المنفعل حكيما وفيلسوفاً .. وبما يفيض منه الى قوته التخيلية نبياً منذراً بما سيكون .. ومخبراً بما هو الآن من الجزئيات بوجود يعقل فيه الالهى ..

والفارابى — هنا — يجمع بين المعرفة والنبوة في نظرية واحدة .. ويجعل الأساس الذى تقوم عليه معرفة العلماء والفلاسفة الالهيين

نفس الأساس الذى تقوم عليه معرفة الأنبياء .. وان كان قد خص
الأنبياء بزيادة فى قوة المخيلة ..

كذلك .. يجعل من هذه النظرية أساسا لمعارف المرضى والمجانين
وغيبياتهم فيقول : « وقد تعرض عوارض يتغير فيها مزاج الانسان ،
فيصير بذلك معدا لأن يعقل عن العقل الفعال .. اما فى وقت اليقظة ،
واما فى وقت النوم » ..

والنظرية الاشراقية .. عندما تتحدث عن كلمة العقل .. فانما يراد
بها الحالة التى عليها الانسان من المعرفة ..

فالانسان — عندهم — قبل حصوله على المعلومات يكون فى مرحلة
العقل الهولانى .. أى المجرى من المعارف ..

فاذا بدأت المعارف تشرق فى نفسه من العقل الفعال .. صار عقلا
منفعلا .. فاذا قويت هذه المعارف صار عقلا بالفعل .. فاذا زادت
عن ذلك صار عقلا مستغادا ، أو فى مرحلة العقل المستفاد ، وهى آخر
تطور يمر به الانسان — عندهم — فى تحصيله للمعارف بالطريقة
الاشراقية أو الذوقية ..

وفى هذه المرحلة يستطيع الانسان أن يتصل بالعقل الفعال ..
أو جبريل الموكل بالوحي وآخر العقول العشرة التى تحكم الكون —
فى تصورهم — والذى يعتبر عقلا لفلك القمر ، ويأخذ عنه المعرفة
الغيبية والعلم الاذنى كائنات ما يكون الأخذ والعلم .. ويكون فى هذه
الحالة بارادة الانسان نفسه^(٥) .

* * *

● كيف يتصورون الوحي والنبوة ؟

يقول فضيلة الشيخ محمد حسين الذهبى فى تعريف الوحي :
« أصل الوحي فى اللغة : الاعلام فى خفاء ، ومن هنا كان له فى لسان
العرب اطلاقات متعددة ، كلها يدور حول هذا المعنى العام : فيطلق

(٥) المرجع السابق ص ٢٥ : ٢٦

على الالهام ، والاشارة ، والكتابة ، والرسالة ، والكلام الخفى ،
وكل ما ألقيته إلى غيرك ..

وفي إطار هذا المعنى النفعي الشامل لكل هذه الاطلاقات ،
ورد الوحي في أسلوب القرآن الكريم بمعنى الالهام ، وذلك في
قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا
ومن الشجر ومما يعرشون • ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل
ربك فللا » (٦) .

وورد بمعنى الاتسار .. في قوله تعالى حكاية عن زكريا
عليه السلام : « فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا
بكرة وعشيا » (٧) .

وورد بمعنى الوسوسة في قوله سبحانه : « وأن الشياطين
ليوحين إلى أوليائهم ليجادلوكم » (٨) .

وورد بمعنى اللقاء الله بما يريد لقاءه للملائكة ، كما في قوله :
« إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا » (٩) .

وورد بمعنى اللقاء الله بالقرآن لنبيه محمد ﷺ ، كما في قوله
مخاطبا له : « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن
حولها » (١٠) .

وورد بمعنى الوحي به ، كما في قوله تعالى عن القرآن الكريم :
« أن هو إلا وحي يوحى » (١١) .

أما الوحي بالمعنى الشرعي : فتارة يعرفونه بأنه : « كلام الله
تعالى المنزل على نبي من أنبيائه » .. وتارة أخرى يعرفونه بأنه :
« اعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه » ..

(٧) مريم : ١١
(٩) الأنفال : ١٢
(١١) النجم : ٤

(٦) النحل : ٦٨
(٨) الأنعام : ١٢١
(١٠) الشورى : ٧

وظاهر أن التعريف الأول تعريف للوحي بمعنى الوحي به ، وأن
التعريف الثاني تعريف للوحي بمعنى الإيحاء ..

وظاهر أيضا أن الوحي بالمعنى الشرعى .. لا يخرج عن نطاق
المعنى اللغوى ، والفرق بينهما هو الفرق بين العام والخاص .. فالوحي
بالمعنى اللغوى عام يشمل كل إعلام فى خفاء ، والوحي بالمعنى الشرعى
خاص لا يتناول الا ما كان من الله لنبيه من الأنبياء « (١٢) » ..

« أما كيفية تلقى جبريل — عليه السلام — للقرآن عن الله تعالى ..
فقليل انه كان يؤمر من قبل الله تعالى بحفظه من اللوح المحفوظ ..
وقيل — وهو الأرجح — أنه كان يتلقفه من الله تعالى تلقفاً إيحائياً
لا ندرك كنهه ، ثم ينزل به على النبي ﷺ ..

ومما يشهد لهذا القول الأخير .. ما رواه الطبرانى من حديث
النواس بن سميان مرغوعاً الى النبي ﷺ قال : « اذا تكلم الله بالوحي ،
أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله ، فاذا سمع بذلك أهل
السماء سعقوا وخروا سجداً فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه
الله بوحى بما أراد . فينتهى الى الملائكة ، فكلما مر بسماء سألته أهلاً :
ماذا قال ربنا ؟ قال : قال الحق . فينتهى به حيث أمر ..

وأما كيفية تلقى النبي ﷺ للقرآن عن جبريل — عليه السلام —
فكان على طريقتين :

أحدهما : أن النبي ﷺ كان ينخلع من حالته البشرية الى الحالة
الملائكية فيكلمه جبريل بالوحي ، ويعى عنه النبي ﷺ ما يقول ..
وهذد أشق الحالتين على رسول الله ﷺ ..

ثانيتهما : أن جبريل كان ينخلع من صورته الملائكية الى الصورة
البشرية فيوحى الى النبي ﷺ ما شاء الله أن يوحى : والرسول ﷺ

(١٢) الوحي والقرآن الكريم ، للشيخ محمد حسين الذهبى ، نشر
مكتبة وهبة ، ١٩٨٦ . ص ٧ وما بعدها .

يعنى عنه ما يقول ، وكثيرا ما كان يأتى جبريل عليه السلام الى النبى ﷺ على صورة رجل من أصحابه اسمه : حمية الكلبى « (١٣) » .

هذا هو التصور السليم للوحى وكيفيته .. غير أن لفلاسفة الصوفية فى المسألة رأى آخر .. فالنبوة — عندهم — ما هى الا تطوير للنفوس البشرية .. حتى تصل الى أفق الملائكة .. فهى — أى النبوة — مكتسبة مثل الولاية ، وليست فطرية باصطفاء الله .. والوحى نفسه — فى بعض الحالات — عندهم — جاء من تطوير النفس واعدادها ، فينعكس على صفحتها ما فى العقول والنفوس من معان وأخبار .. فالوحى بناء على ذلك — فى تصورهم — ليس من عند الله !!

ولهذا نراهم يسوون بين الأنبياء والكهان والسحرة والمجانين وأولياء الصوفية والمرضى .. وذلك حين فسروا علوم الأنبياء بما فسروا به غيبات هؤلاء ، وحين أسندوا الى الفريقين القدرة على التأثير فى الطبيعة والكون بقوة النفس الذاتية .. وجعلوا هذا تفسيرا لمعجزات الأنبياء وبقية الخوارق الأخرى .. وهذا — ولا شك — ضرب من الزرابة بالمعجزات ، وانكار تدخل العناية والقدرة الالهية فيها توصلا الى الغائها وابطالها (١٤) !!

ونراهم يصورون الوحى .. على أنه شئ يتولد من نفس النبى .. أو صور — تشرق فى نفسه وقت الصفاء ، وبعد أن تحل نفسه الى نهاية الصقل دون أن يكون هناك اتجاه أو تنزل من جهة ملك الوحى على الانسان على ما هو معروف فى الوحى ، وأنه هو الذى يتحدد الأنبياء ويقتزل عليهم .. لا أنهم هم الذين يقصدونه ويطلبونه !!

يقول تعالى لرسوله ﷺ : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم » (١٥) .

(١٣) المرجع السابق .

(١٤) التصوف الاسلامى ، للدكتور ابراهيم حلال ص ٢٢٣ . ٢٢٤

(١٥) الشورى : ٥٢

ويقول على إسان جبريل عليه السلام : « وما ننزل إلا بأمر ربك ،
له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا » (١٦) .

فالله تعالى .. هو الذى أوحى الى نبيه ﷺ بالقرآن .. وما كان
الرسول ﷺ يعرف أى شئ هو القرآن أو الايمان .. ولكن الله تعالى
رحمة منه بالناس جعل هذا القرآن ضياء لهم يستضيئون بنوره
للنجاة من النار .. وهو تعالى يهدى بهذا القرآن من يشاء من عباده
الى سبيل الصواب . والى الطريق المستقيم ..

والرسول ﷺ يندى العباد بالدعوة الى الله تعالى والبيان لهم
الى الطريق المستقيم . طريق الله الذى دعا عباده اليه ..

والمراد بهداية الرسول — هنا — هى هداية الدلالة والارشاد ..
أما هداية التوحيد والايمان غيى لله وحده كما قال تعالى لنبيه :
« انك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء » (١٧) .

وجبريل — غيى السلام — ما ينزل بالوحي الى الدنيا الا بأمر
الله تعالى .. فله وحده ما بين أيدينا من أمر الآخرة ، وما خلفنا من
أمر الدنيا ، وما بين وقتنا هذا الى قيام الساعة ..

ويروى أن جبريل عليه السلام .. احتبس عن الرسول ﷺ مدة
من الزمن .. واشتاق الرسول اليه .. فلما جاءه قال له : « ما جئت حتى
اشتقت انيك » .. فنزلت الآية : « وما ننزل إلا بأمر ربك » ،
وختمها بقوله : « وما كان ربك نسيا » .. أى لم يكن ربك ذا نسيان
فيتأخر نزولى اليك ..

ولكن .. وآه من لحن هذه !!

لكن القوم حين يتحدون للحديث عن النبوة والوحي .. يعتقدون
الشبه بين الأولياء — أو الحنماء المتألهين كما يسمونهم — وبين الأنبياء !!
فهم يجعلون الاتصال بالعقل الفعال الذى هو مصدر المعرفة
والوحي .. لا يتم — سواء للأنبياء أو الأولياء — الا بعد تطهير النفس

بالعبادات البدنية والتأملات الفكرية .. ثم يبتدىء هذين الصنفين -
أى الأنبياء والأولياء - فى السير الى المراحل العقلية الى أن يصل الى
مرحلة تقبل الفيض ، وأخذه عن العقل الفعال !!

فالإتصال - فى تصورهم - يبدأ عن الطرفين عند نهاية التطهر
والتجرد ، وينتهى عندهما معا بالفيض !! وهو ما يقول به الفلاسفة
فى جانب العقل الفعال .. وفى هذا هبوط بمنزلة الوحي ، فضلا
عما فيه من التسوية بين الأنبياء وبين غيرهم من داللى المعرفة !!

قلنا : ان الإشراق - كحركة فلسفية - وجد له بين المتصوفة
أنصارا ومريدين كالسهروردى فى الشرق ، وابن مسرة وابن عربى
وابن سبعين فى الغرب ..

والإشراق عند السهروردى يمثل المرحلة الحاسمة للتطور الفكرى
الكامن فى المحيط العقلى الإسلامى .. كنتيجة طبيعية لتطور مذهب
ابن سينا من جهة ، وحكمة أفلاطون من جهة أخرى ..

يقول السهروردى : « وما ذكرته من علم الأنوار ، وجميع ما يبتنى
عليه وغيره ، يساعدنى عليه كل من سلك سبيل الله عز وجل .. وهو ذوق
امام المحكمة ورئيسها أفلاطون صاحب الأيد والنور .. وكذا من قبله
من زمان والد الحكماء هرمس الى زمانه من عذماء الحكماء قبل
أنبا دوفليس » (١٨) .

غير أننا نجد أوجه الشبه بين السهروردى وبين ابن سينا
والفارابى قوية جدا .. رغم نعيه عنيهما عدم الرسموخ فى الذوق
أو الحكمة الالهية .. فقد قال بنظرية الفيض : « انى قال بها وبنيها عليها
نظريتهما .. وان كان قد خالفهما أخيرا فى عدم الوقوف بالفيض عند
العقل الفعال .. »

فالفيض عند السهروردى أوسع مما يتصوره المشاؤون - وأثر

فى عدد مراتبه بما لا يمكن حصره .. فنور الأنوار .. يفيض على كل ما تحته من الأنوار القاصرة أو المجردة .. وهى بالتالى يفيض كل منها على ما يليها : العالى على السافل !!
والحكمة — فى القرآن الكريم — هى النبوة ، ولم ترد الا مراداً بها النبوة وانوحى والتشريع ..

يقول الله تعالى عن آل ابراهيم : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً » (١٩) .

ويخاطب عيسى عليه السلام قائلاً : « يا عيسى ابن مريم انكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تخلم الناس فى المهد وكهلاً ، واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل » (٢٠) .

ويقول للرسول ﷺ : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً » (٢١) .

كما يقول : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (٢٢) .

ولكن السهروردى يقول : « ولا تظن أن الحكمة فى هذه المدة القريبة — أى بعد عصر النبوة — تانت لاغية .. بل العالم ما خلا قط عن الحكمة . وعن شخص قائم بنا عنده الحجج والبيانات .. وهو خليفة الله فى أرضه : وهذا يكون ما دامت السموات والأرض » (٢٣) .

والمعرفة — عند السهروردى — سواء اكانت وحياً أم غيره : مصدرها النفس وأنتها قوة المخيلة .. وكلاهما مصدر داخلى فى الانسان (!!) .. وسواء اكانت — هذه المعرفة — قد انعكست على

(٢٠) المائدة : ١١٠

(٢٢) الحجّة : ٢

(١٩) النساء : ٥٦

(٢١) النساء : ١١٢

(٢٢) المرجع السابق - ص ١١

النفس من العقل الفعال أو من نفوس الأفلاك .. فكلا التعبيرين سواء .. لأن العقول والنفوس — فى نظره — تتجه بأنوارها الى ذلك العقل فتقويه وتؤيده ..

يقول السهروردى : « أن الأنوار المجردة العالية لا يحجب بين السافلة منها وبين نور الأنوار .. اذ الحجاب من خاصية الأبعاد وشواغل البرازخ .. مع أن كل نور قاهر يشاهد الأنوار » (٢٤) !!

فالأمر — كما قال الفلاسفة من قبل — أنه ليس هناك وحى خارجى يأتى عن طريق القاء جبريل .. بل الوحى قد وجد مبدئياً داخل النفس — حسب تأثرهم بنظرية المثل — ، أو أن النفس تستقبله عن صورته التى فى العقل الفعال — حسب نظرية المعرفة الاشراقية — فالواقع أن الثانية فيها عناصر من الأولى ، والأمر ليس الا جلاء وتصقيل ، أو اعداد واستعداد ، أو عملية تذكر — على ما يقول أفلاطون وابن سينا — وهذه ميزة علم الأنبياء والأولياء عند هؤلاء الاشراقيين .. فليست هنا ايجابية الوحى السماوى كما جاء فى القرآن الكريم والأديان السماوية قبله !! بمعنى أنه اتجاه من الله أو من الملك الى الانسان .. وانما الاتجاه عند هؤلاء هو من الانسان فقط ، ومن أى انسان كان .. وكأن الوحى السماوى شرعة لكل وارد ، وليس اختياراً واصطفاء !!

فهنا طريق كسبى للنبوة .. قد قال به من سار فى هذا الطريق من المتفلسفة أو من كان على شاكلتهم من المتصوفة .. فقد ادعى الحلاج من قبله أحاديث قدسية على نحو الأحاديث القدسية عند الرسول ﷺ .. كما أضاف اليه الشبلى الشفاعة يوم القيامة مع النبى ﷺ ، كما أضافها الشبلى أيضاً الى نفسه .. وهذا مقام قد اختص به النبى ﷺ دون الأنبياء جميعاً ..

ونسب الى عبد الحق بن سبعين .. أنه تجرأ على هذا المقام —

مقام النبوة — وأنه كان يقول على حديث الرسول ﷺ : « أنا العاقب
فلا نبى بعدى » .. يقول عبد الحق : لقد زدت فيه : « نبى عربى »^(٢٥) !!

* * *

وكان محمد بن عبد الله بن مسرة (ت ٣١٩ هـ) ، وهو من كبار
متصوفى الأندلس — صاحب المدرسة التى كان من أبرز رجالها ابن عربى
وابن سبعين فى الغرب .. والجيلى وابن الفارض فى المشرق ..
كان ابن مسرة فيلسوفا أكثر منه متصوفا .. وكان يستقر آراءه
وراء نسكه وزهادته .. غقد كان معتزليا فى أول أمره ، ثم مال الى
مذهب الأفلاطونية المحدثة ..

وقد سبب الى ابن مسرة .. احياء حكمة الفيلسوف الطبيعى
اليونانى القديم أنبا دوغليس (المتوفى عام ٤٣٠ ق.م) .. ذلك
الفيلسوف الذى ادعى النبوة بل الألوهية !! والذى كان يرى أن وسيلة
النجاة هى التطهر والزهد ، وتغليب العقل على الحواس ، والعمل على
العودة الى المحبة التى هى أصل الوجود وسره .. اذ تتجمع بها العناصر
بعضها الى بعض فتسود الوحدة .. أو توجد الموجودات حسب مبداءه
فى المحبة والكراهية : أو المحبة والقهر !!

غير أن ابن مسرة .. قال بمذهب آخر أقرب الى أن يكون هو
مذهب أفلوطين .. حيث قال بنظرية الفيض كأصل للوجود ، أو الكون ،
وما فيه من مخلوقات !!

لذا نرى ابن عربى — أبرز رجال مدرسة ابن مسرة — يفضل
الولاية على النبوة .. معتمدا على أن الله تعالى تسمى بالولى ولم
يتسم بالنبى !! .. فاذلك بقى اسم الولاية وانقطع اسم النبوة ..
وما كان لله أن يتسمى باسم وينقطع : فاسماؤه باقية أبدا وأزلا ..
واذلك قال ﷺ : « فلا رسول بعدى ولا نبى » .. ولكن ابن عربى ،
بالنسبة لمذهبه غنى استمرار النبوة الباطنية — أى نبوة الأنبياء —

يضيف الى حديث الرسول ﷺ : « نبيا مشرعا ، أو مشرعا له » ..
أى نبيا جاء على شريعة رسول قبله ، وأنها ما انقطعت الا من وجه
خاص ، وهو مسمى النبي والرسول ، ولذلك بقى حكمها وبقيت حقيقتها
فى الأولياء (٢٦) !!

ومن مظاهر تتقيص ابن عربى من قدر النبوة بناء على هذه الفكرة :
تسويته المطلقة بين نبوة الرسول ﷺ وهدى الأولياء أو نبوتهم الباطنية
.. وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : « أولئك الذين هدى الله ،
فبهداهم اقتده » (٢٧) فيقول : « ان هؤلاء كانوا قد ماتوا وورثهم الله
وهو خير الوارثين .. ثم جاد على النبي — ﷺ — بذلك الهدى الذى
هداهم به » !!

ثم يقول : « وهذا عين ما قلناه فى علم الأولياء اليوم » !!

فالورثة — عند ابى عربى — تشبه أن تكون نسخا للشرائع
والتنزيل .. اذ يرفع الوحي مرة أخرى الى الله لئى يهبط من عنده
بصورة أخرى على هيئة تأويل تجده لدى أصحاب العلم الباطن ،
أو لدى من يسميهم هو « ورثاء الله » ..

والوحي عند ابن عربى : خيال وحديث نفس ، وليس فى الواقع
الا تصويرا من خيال النبي !!

اسمع اليه وهو يقول : « لقد بلغ بى قوة الخيال : أن كان حبنى
يجسد لى محبوبى من خارج لعينى .. كما كان يتجسد جبريل لرسول
الله ﷺ ، فلا أقدر أنظر اليه ، ويخاطبنى وأصغى اليه ، وأفهم
عنه » (٢٨) !!

وهذا يعنى : أن الوحي ليس الا تصويرا من خيال النبي ،
كما يصور خيال المحب ويجسد أمامه محبوبه فيخاطبه ويناجيه ويسمع
كلامه .. وهو فى الحقيقة لا يخاطب الا نفسه ولا يسمع الا كلامه !!

(٢٦) المرجع السابق ، ص ١٩٨ (٢٧) الانعام : ٩٠

(٢٨) الفتوحات ج ٢ ، ص ٤٢٩

وأذا كان الوجود عند ابن عربي واحدا ، فما معنى الثنائية في الوحدة ؟ .. الواقع أنه ليس هناك ثنائية — عنده — بين الوحي وبين النبي .. وإذا كانت هناك من أخبار يأتي بها الرسول ، أو تشريعات ، فهي ليست شيئا خارجا عن نفسه ، أو ليست شيئا غير نفسه !!

يقول ابن عربي في الفصوص : « ولا يلقي الوحي في غير ، ولا تلقى »^(٢٦) .. وعلى هذا فان جبريل عليه السلام شيء اعتباري لا حقيقة له الا في الاسم بالنسبة للوحي !!
أرأيت الى أين قادت عقيدة وحدة الوجود ؟ !

ومقام الولاية — عند ابن عربي — يتساوى مع مقام النبوة ان لم يفقه .. يقول ابن عربي : « وليس هذا العلم — أي معرفة الله — الا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء .. وما يراه أحد من الأنبياء والرسل الا من مشكاة الرسول الخاتم .. وما يراه أحد من الأولياء الا من مشكاة الولي الخاتم .. حتى أن الرسل لا يرونه اذا رأوه الا من مشكاة خاتم الأولياء .. فان الرسالة والنبوة — أعني نبوة التشريع ورسالته — ينقطعان ، وأما الولاية فلا تنقطع أبدا .. فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرونه الا من مشكاة خاتم الأولياء » !!

ثم يسوق الكلام الى أن يذكر : « ان خاتم الأنبياء موضع لبنة فضة ، وان خاتم الأولياء موضع لبنتين .. لبنة ذهب ولبنة فضة !!

» فهو موضع اللبنة الفضية وهو ظاهره وما يتبعه من الأحكام .. لأنه يرى الأمر على ما هو عليه فلا بد أن يراه هكذا !!
وهو موضع اللبنة الذهبية في الباطن .. فانه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به الى الرسل » !!

إذا نرى ابن تيمية يتصدى لدحض هذا الفكر الضال فيقول : «دعواه أن الأولياء كلهم حتى الأنبياء يستفيدون من خاتم الأولياء .. فهذا مخالف للعقل والشرع .. فان الأنبياء أنضل من الأولياء ، وخيار

(٢٦) غرر الحزم . النفس السابع ص ١٢

(١٠ — الله توحيد)

الأولياء أتبعهم للأنبياء ، كما كان أبو بكر أفضل من طلعت عليه الشمس
بعد الإنبيين والمرسلين ..

« وكذلك دعواه : أن خاتم الأولياء يأخذ العلم الظاهر من حيث
يأخذ النبي ، ويأخذ العلم الباطن من المعدن الذي يأخذ منه الملك
ما يوحى الى النبي ، فهذا من أعظم الكفر والاضلال .. وهو مبنى على
قول المتفلسفة الذين يجعلون النبوة فيضا يفيض على عقل النبي ..

« ويقولون ان الملك هو ما يتمثل في نفس النبي من الأشكال
النورانية .. فيقولون ان النبي يأخذ عن تلك الصور الخيالية ..
وهي الملك عندهم .. فمن أخذ المعانى الفعلية عن العقل المجرد كان
أعظم وأكمل ممن يأخذ عن الأمثلة الخيالية ..

« فهؤلاء اعتقدوا أقوال الفلاسفة الملحدين .. وسلخوا مسلك
الرياضة .. فأخذوا يتكلمون بتلك الأمور الالحادية الفلسفية ..
ويخرجونها في قالب المكاشفات والمخاطبات ..

« وما ذكره في خاتم الأولياء لا حقيقة له — وان كان قد ذكره
الحكيم الترمذى في كتاب « خاتم الأولياء » — فقد غلط في ذلك الكتاب
غلطا معروفا عند أهل المعرفة والعلم والإيمان » (٣٠) اه .

ومن هذا المنطلق — أن الولي أفضل من النبي — يقول أبو يزيد
البسطامي : « لقد خضنا بحرا وقف الأنبياء بساحله » !!

فالأنبياء — في نظره — يتلقون رسالاتهم عن جبريل عن الله ..
أما الأولياء فانهم — حسب عقيدتهم — يتلقون علمهم عن الله مباشرة ..
ويسمون هذا !لعلم بالعلم اللدنى : لأنه من لدن الله !!

ويقول الجيلي : « الولي يسمع نطق الجمادات والنباتات
والحيوانات وكلام الملائكة واختلاف اللغات ، وكان البعيد منه
كالقريب » !!

(٣٠) علم الحديث ، لابن تيمية ، نشر دار الكتب الاسلامية ، ص ٥١٦

ثم يقول عن نفسه : « وفى هذا التجلى سمعت علم الرحمانية » !!
كما يقول فى تعريف الانسان الكامل : « انه القطب الذى تدور
عليه أفلاك الوجود ، وانه واحد لا يتعدد .. وانما يظهر فى الأنبياء
والأولياء فى صور ومازيسات مختلفة » !!

أى أن النبوة تتناسخ وتظهر فى الأولياء !!

ولهذا كان من اليسير على بعض الصوفية أن يدعوا لأنفسهم سرا
وجها صفة النبوة والرسالة .. فكان الشبلى يقول لتلميذه : « أشهد
بأنى أنا رسول الله » !! .. ويحكون أن تلميذه هذا كان من أصحاب
الكشف ، ولذلك أقر له بالرسالة فقال : « أشهد أنك رسول الله » !!

كما اصطنعوا الأحاديث اللازمة لتأييد فضل الأولياء على الأنبياء
مثل قولهم : « الأولياء على منابر من نور ، وانهم فى مقام يغبطهم
عليه الأنبياء والشهداء » !!

بل لقد زادوا على ذلك .. فخرجوا بعبارات يتطاولون بها على
مقام الرسل الكرام .. فيقول الجيلانى : « أنتم معشر الأنبياء أوتيتم
اللقب : وأوتينا — أى نحن الأولياء — ما لم تؤتوا » !!

وأى عجب فى هذا .. بعد أن تطاول ابن عربى بالالحاد فى أسماء
الله تعالى ، فقال : « ان الله لم يتسم بالنبى ولا بالرسول .. ولكن
تسمى بالولى » ؟ !

وبناء على هذه النظرية الغريبة .. اعتبروا النبوة مكتسبة وليست
اصطفاء واختيارا من الله تعالى !!

يقول أبو حامد الغزالى : « وأما الأنوار العقلية المعنوية فالعالم
الأعلى مشحون بها ، وهى جواهر الملائكة » (٢١) !!

ثم يوضح حقيقة انوحى على هذا الأساس فيقول : « ان الخيال

الكثيف اذا صنى ورفق وهذب وضبط .. صار موازيا للمعاني العقلية
وغير حائل عن إشراق نور منها (٣٢) !!

وبهذا يكونون قد نفوا مبدأ الاصطفاء والاختيار فى النبوة ..
وصارت تحصل لمن يتصل بالعقل الفعال بسبب الاستعداد للأشخاص
من غير أن يكون من الملأ الأعلى سبب يخص شخصا دون شخص
بالخطاب والتكليم !!

كما أنهم خرجوا عن فكرة ختم الرسالة بمحمد ﷺ .. وأنه صار
من الممكن — فى عرفهم — أن يرسل الله من بعده رسالا — ويعنون بهم
الحكماء المتألهين — كما ذهب الى ذلك السهروردي المقتول ..

وذلك مثل مناجاة ابن الفارض التى يقول فيها :
آنست فى الحى نارا ليلا فبشرت أهلى
الى أن يقول :

وصرت موسى زمانى قد صار بعضى كلى
كما أن فى هذا أيضا انكار لمظاهر الرسالة والوحى .. تلك
المظاهر التى ثبتت تاريخيا ودينيا .. محاولين تأويل الديانات الموحى
بها تأويلا يمسحها الى مقامات الصوفية (٣٣) ..

ويقول الأستاذ سميح عاطف الزين فى حديثه عن الولاية والنبوة
عند الصوفيين (٣٤) :

« ليس بين شطحات الصوفية شطحة أحثل بدواعى العجب من
تلك التى يزعمون فيها أن الرسول الكريم خص بعالمهم وأحوالهم
نفرا من قرابته وفريقا من أهل محبته ، بما نعت فى صدورهم من
علوم « الحقيقة » وأسرار « الباطن » .. وأنه أورث هؤلاء الأقارب

(٣٢) المرجع السابق ص ٢١٧

(٣٣) التصوف الإسلامى ، ص ٢٤٤

(٣٤) انظر : الصوفية فى نظر الإسلام ، له ، ص ٩٠

والأحباب ميراث النبوة « الروحي » .. في شكل « ولاية » يتناقلها السعداء من شيوخ التصوف كآبيرا عن كآبر .. في سلسلة من الآباء الروحانيين الى يوم القيامة !!

« ويسمى هذا النسب الروحي في اوساط الصوفية « حسبا » ويعرف أهله المحسوبون بانهم « أهل الله » .. وهي بدعة ظهرت في العالم الاسلامي بظهور التصوف ..

« وقد أراد المروجون لها من الشعبية انتزاع الفضل في الاسلام من أولئك الذين حملوا انبيهم هدايته من الجزيرة العربية ، بشعور ممقوت من كراهيتهم للعرب ، وبدافع من احساسهم بالنقص الشديد أمام الكمال العربي الاسلامي .. مما فرض عليهم التطاول على اواقع بالمزاعم والادعاءات ..

« ولكن هذه البدعة .. لم تنتفعهم كثيرا أول الأمر ، ولم ترفع قدرهم أمام أهل العصبية العربية ، فسارعوا الى تليفق بدعة أخرى تقوم على ادعاء النسب العائلي الى جانب هذا النسب الروحي الذي أوجدوا خيالهم .. غزعموا للناس اتصال نسبهم بالرسول — ﷺ — عن طريق الحسين عليه السلام غالبا ، والحسن عليه السلام أحيانا .. مع أن آخرهم من مجبري الانساب !!

ثم يتحدث عن الرلاية عند الصوفية فيقول : « نجح اخضاع الصوفية هذا بين انعمام .. فأخذوا يفاخرون بميراثهم الروحي الموهوم ، ونسبهم الجديد المزروع .. وحسبوا أنفسهم غاية الله من خلقه ، وحسوة الحسوة من عباده !!

« وكان ذات سببا في ادعاء امتيازهم على الناس ، واختصاصهم من حوزتهم بالولاية . تعويضا لشعورية عما حرموا أنفسهم من الكسب والطيبات ، وثمان لما ترشوه من المباحات !!

« فلما أصبحت الولاية لهم وحدهم .. شكوها بما يناسب أهواءهم ، وأخرجوها من مراد الله منها . وساروا بها في طريقها الهندي القديم : من تعذيب النفس بالرياضات والمجاهدات .. وسموا ذلك

« طريق الوصول الى الله » .. وجعلوا لهذا الطريق مراحل يقطعها
« السالك » .. مرحلة اثر مرحلة .. حتى يصل فى نهايته الى مرحلة
« الفناء » التى هى غاية الغايات عند الصوفية ..

« ثم قسموا الولاية الى درجات ومراتب .. بعضها فوق بعض ..
أعلاها مرتبة « القطب » أو « الغوث » .. ومن بينها رتب : الصديقين ،
والأوتاد ، والأبدال ، والعصب ..

« ولهم فى ترتيب المقامات سلم كثير الدرجات ..

« ثم افترق الصوفية بالولاية فقالوا : هى مرتبة انتفاء الأخذ
بالأسباب ، فيكفى أن يدور الأمر برأس الولى ليكون قدرا مقدورا !!
« وبالغوا فى تعظيم أصحاب الولاية .. فانزلوهم منزلة فوق
منازل النبيين والصديقين والشهداء ، فهم يقولون : ان الأولياء فى حياتهم
قوة قدسية ينالون بها العلوم من غير تعلم .. فعندهم سر اسم الله
الأعظم ، وعلم الألواح والقلم ، وما فى أم الكتاب .. وأنهم ليسخرون
الكون لمشيئتهم ، وأن الأرزاق والنعم توزع على الناس من طريقهم ،
ولذلك تجب طاعتهم وطلب « المدد » منهم !! ويقولون انهم معصومون
من الذنوب ، فاذا أذنبوا احتجوا بالقدر ، أو اعتذروا بأن الشرائع
لم تنزل من أجلهم .. الى غير ذلك !!

« ثم يقولون عنهم بعد الموت : انهم لا يموتون : وانما يرغبون ..
وأن أجسادهم لا تبلى فى القبور ، وأنهم فى حياة البرزخ يشرفون
على شئون الخلق كما كانوا فى الدنيا » (٣٥) !!

ويحدثنا — جزاه الله خيرا — عن مفهومهم للنبوة والولاية فيقول :
« لم يقتنع الصوفية بما ذهبوا اليه من الشطح والادعاء فى تفسيرات
الولاية ، حتى قرنوا بين الولاية والنبوة ، وجعلوا للولاية خصائص
وميزات من جنس خصائص النبوة وميزاتها .. فهم يجعلون « الكشف »
فى الولاية نظير « الوحي » فى الرسالة ..

[ونقول : التَّشَفُّعُ عند الصوفية .. درجة من درجات المعرفة التي لا تحصل بالعقل ، وقد يسمونه الفَيْضُ ، ونظرية الفيض أو « الاشراق » مقتبسة — كما مر بك — من الأفلاطونية الحديثة التي توسعت في شرحها بعد أن أخذت فيها آراء أفلاطون وحكماء الهند] .

« ويقولون : ان الأولياء يتلقون « الفيض » وما يسمونه « العلم اللدني » عن الله مباشرة .. فلا حاجة بهم الى الرسل لأنهم يأخذون من نفس المورد الذي يأخذ منه الرسل ! ، ويضعون الكرامات التي لا تخرج عن كونها نوعاً من التخصّص والتصورات الخرافية في منزلة معجزات الرسل .. ثم يتبعون هذا الادعاء بانتحال معجزات الرسل واحدة واحدة .. ومحيي الدين بن عربي ينعت الولاية بالنبوة .. فيقول : « نبوة الولاية » ، و « نبوة الشرائع » .. ويقول : هما من معدن واحد » (٢٦) ..

● ويشرح غزينة الشيخ عبد الرحمن الوكيل أطوار الوجود الصوفية ، فيقول : « تدّين الصوفية بأن الوجود الالهي له أطوار ، أو مراتب ، أو تنزلات ، أو تعينات ، أو نسب ، أو اضافات .. فكلها ذات مدلول خراشي واحد !!

« وأولى تلك المراتب : « العماء » .. والوجود الالهي في هذا الطور لا يوصف بوصف ، ولا يسمى باسم ، ولا يعرف بعهد ولا برسم !! .. أو كما يقول الدمشقاني : « اعلم ان حقيقة الذات الالهية من حيث هي ، امتدادها — اعنى مدة بقائها — غير مضبوط .. لأنها من حيث هي كذلك لا وصف لها ، ولا رسم .. غيى العماء ، اذ لا يمكن معرفتها بوجه من الوجود ما لم تتعين بصفة ..

« وأول هذه التعينات علمها بذاتها .. فهذه الصفة تنزل لها من الحضرة الالهية الذاتية التي لا نعت لها الى الحضرة الواحدية التي هي حضرة الاسماء والصفات . وتسمى : انحضرة الالهية » (٢٧) .

(٢٦) نفس المرجع ص ٦٢

(٢٧) جامع الأصول - للشمسقاني - ص ٩٣

ثم يقول : « نقلت لك النص بتمامه .. ليستيقن قلبك بأننا ننصف الصوفية ، فلا نسميهم الا بما يحبون أن يعرفوا به .. وقد يسمى الرب الصوفى فى تلك المرتبة بالوجود المطلق .. بيد أن النابلسى — فى غلو التجريد الذى ينتهى به الى العدم المطلق — ينزه الوجود فى تلك المرتبة حتى عن الاطلاق .. لأن وصفه بالمطلق قيد ، أو صفة له .. فيستلزم أن يكون المطلق مقيدا ، والمقيد مطلقا !! فيتوتر التناقض بين وصفه ، ويستلزم أن تكون له صفة ، وهو مجرد كل التجريد عند ذلك الطور عن الاسم والصفة !!

« ورغم هذا .. فهو واقع فى التناقض ، لأن الوصف بالسلب — أى عدم الاطلاق — قيد أيضا للوجود كالوصف بالايجاب !!

« ولقد أراد هذا « العماء » أو « الوجود المطلق » أن يتعين فى صورة .. ليعرف وليعرف نفسه ! فتعين فى صورة « الحقيقة المحمدية » فكانت هى التعيين الأول للذات الالهية .. أو الفتق بعد الرتق .. أو معبر الوجود من الاطلاق الى التقيد .. أو من العماء الى الأحدية ، ثم الواحدية » (٣٨) .

ولهذا نراهم يضعون الحديث الصوفى : « كنت كنزا مخفيا ، فأردت أن أعرف .. فخلقت الخلق .. فبى عرفونى » .. ويفسرون معنى « فبى » بكلمة « محمد » .. لأنها تساويها فى العدد فى حساب الجمل !!



● الحقيقة المحمدية :

يعرف الصوفيون الحقيقة المحمدية « بأنها الذات مع التعيين الأول ، ولها الأسماء الحسنى ، وهى اسم الله الأعظم » (٣٩) !!

يقول الدمرداش : « حقيقة الحقائق .. هى المرتبة الانسانية

(٣٨) هذه هى الصوفية ، لعبد الرحمن الوكيل ، ص ٧٣ ، ٧٤

(٣٩) انظر : جامع الأصول ، للكشخاني ، والتعريفات : للجرجاني .

الكمالية الالهية الجامعة لسائر المراتب كلها ، وهي المسماة بحضرة الجمع ،
وبأحادية الجمع ، وبها تتم الدائرة ، وهي أول مرتبة تعينت في غيب
الذات ، وهي الحقيقة المحمدية « (٤٠) » .

ويقول الكمشخاني : « صور الحق هو محمد ، لتحقيقه بالحقيقة
الأحدية والواحدية » !!

كما يقول انه : « الجامع لجميع الأسماء ، أو هو اسم الذات
الالهية من حيث هي هي .. أي مطلقة » (٤١) !!

والأحدية .. هي : « مجلى الذات الالهية : ليس للأسماء
ولا للصفات ولا لشيء من مؤثراتها فيه ظهور .. فهي اسم لصرافة
الذات المجردة عن الاعتبارات الحقية — أي لا توصف بأنها حق —
والخلقية » (٤٢) .

والرسول ﷺ — عندهم — « عبارة عن مجلى ظهور الذات فيها
صفة ، والصفة فيها ذات » (٤٣) !!

والفرق بين الاحدية والواحدية : « أن الأحدية لا يظهر فيها شيء
من الأسماء والصفات .. أما الواحدية فتظهر فيها الأسماء
والصفات » (٤٤) !!

فالرسول ﷺ — طبقاً لعقيدتهم هذه — « هو الله سبحانه ،
ذاتا وصفة .. وهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو الموجود
المطلق والوجود المتحد : حان ولا شيء قبله أو معه ، ثم تعين في صور
مادية سمى في واحدة منها بجماذ : وغى أخرى بحيوان .. وهكذا حتى
اندرج تحت اسمه ذل مسمى ، وحددت ماهيته على كل ماهية » (٤٥) !!

ومبتدع هذه النظرية هي محيي الدين بن عربي .. وذلك نتيجة
لتأثره بنظريتي الفيض والمعرفة الاشراقية ، وتوابعه بوحدة الوجود ..

(٤٠) رسالة في معرفة الحقائق . أحمد النمرdash : ص ٧

(٤١) جامع الأصول . ص ١٠٧ ، ١٢٠

(٤٢) المرجع السابق . (٤٣) نفس المرجع .

(٤٤) نفس المرجع .

(٤٥) هذه هي الصوفية . مرجع سابق : ص ٧٤ ، ٧٥

ولهذا ابتدع هذه النظرية واعتنقها لينى عليها مبدأه فى وحدة الوجود ، ونظريته فى العلم اللدى للأولياء ، أو لخاتم الأولياء .. وهما جماع مذهبه ..

ابتدع ابن عربى نظريته فى وحدة الوجود .. متصورا ربا عجيبا .. يجمع بين النقيضين المتوترين فى ذاته ، وبين الضدين الحقيقيين فى صفاته ..

فهو الوجود الحق ، وهو العدم الصرف .. هو الخلاق ، وهو المخلوق .. هو عين كل كائن ، وصفاته عين صفات كل موجود وكل معدوم .. هو الحق الكريم ، والباطل اللئيم .. هو الفكرة العبقريّة ، والخرافة الحمقاء .. هو الخاطرة الملهمة ، والوهم الذاهل ، والخيال الحيران ، والمستحيل الذى لا يتصور فيه العقل أبدا أن يخطر حتى مرة واحدة فى بال الامكان ، والممكن الذى يرى فيه الذكر أجلى معانى الامكان .. والذى لا يتوهم فيه العقل وهم استحالة .. هو المؤمن ، وهو الكافر .. هو الموحد الخالص التوحيد ، وهو المشرك الأصم الوثنية .. هو الجماد الغليظ ، وهو الحيوان ذو المشاعر المرهفة والحساسية المتوقدة .. هو الملك الساجد تحت العرش ، وهو الشيطان الذى يسطرخ فى سقر .. هو القديس الناسك يذوب قلبه فى دموع التسابيح ، وهو العربيذ يضج الماخور من بغى خطايا .. هو الراهبة التى تحيا على محبة الله وتقواه ، وهو الغانية التى تحيا للجسد المبذول وتعيش على ثمنه .. هو النور يغمر الوجود بمباهجه ، وهو الظلام موار الكهوف بالفرع والرهبة (١٦) !!

ولهذا رأينا ابن عربى يؤمن بأن اليهود عباد العجل ناجون .. بل انه يؤمن بأنهم كانوا على علم بحقيقة الألوهية ، ذلك العلم الذى لم ينعم موسى ولا هارون بلمحة من تجلياته .. فانهم — فى نظره — ما قصرُوا العبادة على فكرة مجردة خاوية كموسى ، وانما عبدوا الرب

متجليا في صورة عجل .. فادركوا من حقيقة الأمر ما لم يدركه موسى
وهارون .. وهو أن الذات الالهية لا تعبد ! لا حين تتجلى في صور
خفية !!

ومن هذا المنطلق .. نراه يؤمن بقدسية عبدة الأصنام ، ويمجد
صدق ايمانهم واخلاص توحيدهم .. ويؤمن بانصائفة عبادا يوحدون
الله ويخلصون له الدين .. كما يؤمن بسمو ايمان النصارى حين عبدوا
ثلاثة آلهة ، ولكنه يعيب عليهم قصورهم عن ادراك الحقيقة الكاملة في
تصوره .. غالب — عذبه — ليس هو تلك الأقانيم فحسب ، وانما هو
عين ما يرى أو يحس ، وعين ما لا يرى أو يحس .. ولهذا فهم مخطئون
— في نظره — لأنهم عبدوا مظاهر الرب . أو بعض تعيناته .. وكان
واجبا أن يعبدوه في الكل لأنه هو ذلك انكل فيما ظهر ، وفيما بطن (٢٧) !!
ويؤكد ابن عربي أن كل شيء هو الله سبحانه فيقول : « سبحانه من
أظهر الأشياء وهو عينها » (٢٨) !!

ويقول : « ان العارف من يرى الحق — أي الله تعالى — في كل
شيء ، بل يراه عين كل شيء » (٢٩) !!

ويقول : « فما يحد شيء الا وهو حد الحق .. فهو السباري في
مسمى المخلوقات والمبدعات ، فهو الشاهد من الشاهد ، والمشهود من
المشهود .. عالهم صورته . وهو روح العالم المدبر له .. فهو
الانسان الكبير » (٣٠) !!

والحد .. هو أتم انواع التعريف .. فاذا عرفت الصنم مثلا
بحد ما .. فهذا التعريف صادق على الرب — في تصور — لأنه هو
ذلك الصنم نفسه !!

ويقول عن صور العالم : « هي ظاهر الحق اذ هو الظاهر ، وهو
باطنها اذ هو الباطن .. وهو الأول : اذ كان ولا هي ، وهو الآخر ،
اذ كان عينها عند ظهورها » (٣١) !!

(٢٧) راجع انفسه في «الغنى» : و «المحدي» .

(٢٨) الفتوحات . ج ٢ ص ٦٠٤ (٢٩) الفصوص ج ١ ص ١٩٢

(٣٠) الفصوص ج ١ ص ١١١ (٣١) المرجع السابق ص ١١٢

فالرب — فى تصور ابن عربى — هو كل ما نرى من صور العالم ..
اسمع اليه وهو يقول : « هو عين ما ظهر : وهو عين ما بطن فى حال
ظهوره .. وما ثم من يراه غيره » — أى أنك اذا رأيت انسانا أو حيوانا
أو حجرا ، فقد رأيت الرب نفسه ! فالرائى والمرئى هما عين ذلك الرب .
تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا !!

ثم يقول : « وما ثم من يبطن عنه ، فهو ظاهر لنفسه باطن عنه ،
وهو المسمى أبا سعيد الخراز^(٥٢) وغير ذلك من أسماء المرئيات »^(٥٣) !!
والعارف بالله الحق — عنده — هو من يرى : « سريان الحق —
أى الله تعالى — فى الصور الطبيعية والعنصرية . وما بقيت له صورة
ألا ويرى عين الحق فيها »^(٥٤) !!

ويصف ابن عربى الرب — سبحانه — بالعجز والنقص ، والسفه
والحماسة .. ويأثنه مناط مذمة وتحقير ومهانة !! فيقول : « ألا ترى
الحق يظهر بصفات المحدثات ، وأخبر بذلك عن نفسه ، ويحذف النقص
وبصفات الذم^(٥٥) .. ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق من أولها
الى آخرها — وكلها حق له — كما هى صفات المحدثات حق للحق »^(٥٦) !!
وهو — عنده — يستغرق كل نسبة عدمية أو وجودية .. فيقول :
« فالعلى لنفسه هو الذى يكون له الكمال الذى يستغرق به جميع الأمور
الوجودية ، والنسب العدمية ، بحيث لا يمكن أن يغوته نعت منها ..
وسواء أكانت محمودة عرفا وشرعا ، أو مذمومة عرفا وعقلا وشرعا ..
وليس ذلك إلا اسمى الله تعالى خاصة »^(٥٧) !!

ويزيح ابن عربى الستار عن مكنون عقيدته حين يقول : « العارف
المكمل من رأى كل معبود مجلى لنخق يعبد فيه . ولذلك سموه ذلهم انها

(٥٢) هو أحمد بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ) وكان ممن تكلموا فى الفناء
الصوفى .

(٥٣) المرجع السابق ج ١ ، ص ٧٧

(٥٤) نفس المرجع ص ١٨١ (٥٥) المرجع نفسه ص ٨٠

(٥٦) نفس المرجع ص ٧٩

مع اسمه الخاص بحجر أو شجر ، أو حيوان ، أو انسان ، أو كوكب ،
أو ملك « (٥٧) !!

فهو يعدد في هذا النص آلهة الذين كفروا من قبل ، حين عبدوا
الحجر والشجر والحيوان والانسان والكواكب والملائكة .. فيصوب
عبادة الصابئة للكواكب ، وعبادة اليهود للعجل ، وعبادة النصاري
لثالثوث ، وعبادة الوثنيين للأصنام انتهى أقاموها لمن مات من أوليائهم ..
فالكل — في نظره — ما عبدوا الا ربا واحدا تجلى في صورة تلك
المعبودات !!

بل ان ابن عربي يوضح في عبادة الأنثى !!

انظر اليه حين يقول : « ولما أحب الرجل المرأة ، وطلب الوصلة ،
أي غاية الوصلة التي تدون في المحبة ، فلم يكن في صورة التشابة
العنصرية أعظم وصلة من النكاح . ولهذا تعم الشهوة أجزاءه كلها ..
ولذلك أمر بالاعتساف منه ، نعمت الطهارة كما عم الفناء فيها عند حصول
الشهوة .. فان الحق خيور على عبده أن يعتقد أنه يلتذ بغيره فظهره
بالغسل ليرجع بالنظر اليه فيمن غنى فيه ، اذ لا يكون الا ذلك ..

» فاذا شاهد الرجل الحق في المرأة كان شهيدا في منفعل ..
واذا شاهده في نفسه من حيث ظهور المرأة عنه شاهده في فاعل ..
واذا شاهده في نفسه من غير استحضار صورة ما تكون عنه ، كان
شهيدا في منفعل عن الحق بلا واسطة .. فشهوده للحق في المرأة
أتم وأكمل ، لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل ، ومن نفسه
من حيث هو منفعل خاصة ، ولهذا أحب النبي النساء لكمال شهود الحق
فيهن : اذ لا يشاهد الحق مجردا عن المواد أبدا ، فشهود الحق في
النساء أعظم الشهود وأكمل .. وأعظم الرحمة النكاح « (٥٨) !!
أرايت بأي اجتراء وأي زندقية يحور الرب تعالى ؟ !

(٥٧) نفس المرجع ص ١٩٥

(٥٨) انفسوس . ص ٢١٧ ج ١ . ص ٢١٧

فالحق فى التعريفات الصوفية هو الذات الالهية فى وجودها المطلق !!

أرأيت بأى اجترأ وأى زندقة يزعم أن علة حب الرسول ﷺ للنساء هى اعتقاده أنهن الله تعالى فى أجمل صور تعييناته وتجلياته ، ورغبة فى الالتذاذ الجسدى المتنوع بربه !! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ..

أرأيت كيف زعم أن الله لم يأمر بالغسل الا ليطهر العبد مما توهمه من أنه كان مع امرأة على حين كان هو مع الربة الصوفية جسدا وخطيئة !!

ان جلدى ليقشع .. وشعرى ليقف فزعا ، ويكاد قلمى ينقص وأنا أنقل لك هذه الصورة البشعة للكفر والزندقة والضلال .. والله تعالى أسأل أن يتجاوز عن ذنبى فى هذا فما أردت الا تعريفك — أخى القارىء — بمبدأ وحدة الوجود الذى ابتدعه ابن عربى وأقام عليه دينه ومذهبه !!

ان ابن عربى لم يبتدع نظريته فى الحقيقة المحمدية .. الا ليبنى عليها مبدأه فى وحدة الوجود .. ونظريته فى العالم اللدنى للأولياء ..

وقد تحدثنا عن ذلك حين عرضنا للمعرفة الاشرافية فى صدر هذا المبحث ، وأن أن نحدثك عن هذه الحقيقة المحمدية التى افترضوها .. والله الكريم يغفر لنا ما نعرض من أفكارهم وافكهم وزورهم .. قلنا ان الرسول ﷺ — فى عقيدتهم — هو الله سبحانه ، ذاتا وصفاتا !!

وليس الرسول — فى زعمهم — بشرا ولا رسولا .. وانما هو الذات الالهية فى أسمى مراتبها ، وهو الاسم الأعظم : وهو الأحدية والواحدية !!

يقول الله تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » (٥٩) ؟

ويقولون : هو الذات مع التعين الأول ، وله الأسماء الحسنى ،
وهو اسم الله الأعظم !!
ويقول تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنا الهكم
الله واحد » (٦٠) .

ويقولون : صورة الحق هو محمد — ﷺ — لتحقيقه بالحقيقة
الأحدية والواحدية ، وهو مجلى الذات الالهية !!

اسمع الى ابن عربى وهو يقول : « اللهم أفص صلة صلواتك
وسلامة تسليماتك على أول انعمينات المفاضة من العماء الربانى ،
وآخر التنزلات المضافة الى النوع الانسانى ، المهاجر من مكة — كان
الله ولم يكن معه شئ ، ثان — الى المدينة : وهو الآن على ما عليه كان ،
محصى عوالم الحضرات الخمس غى وجوده ، سر الهوية فى كل شئ
سارية ، الجامع بين العبودية والربوبية : الشامل للامكانية
والوجوبية » (٦١) !!

ويعلق على هذا فضيلة الشيخ عبد الرحمن الوكيل قائلاً :
« ... رأيت الى قطب الصوفية الأكبر فى غى الحاده الأكبر ، يفترى
أن محمداً — ﷺ — هو الله ! »

وتأمل دهاء مكره فيما يعبر به عن كفره فى قوله : « المهاجر من
مكة كان الله ولم يكن معه شئ ، ثان الى المدينة » .. انك حين تقرأ
تلك الجملة دون تدبر ستظن أن فيها خلا .. وأن جملة « كان الله
ولم يكن معه شئ ، ثان » — لا صلة لها بما قبلها ولا بما بعدها !!

ثم يقول : « واخترت أننى خدعت ، غظنت أن هذه الجملة
مقحمة ، وحررت فى إدراك هدف ابن عربى من وضع تلك الجملة التى
تبين عن حق ذريم بين باطل عرييد . وآخر لنيم !!
بيد أنى عدت الى النص اتلوه ، وغى فكرى دين ابن عربى .

(٦٠) الكهف : ١١٠

(٦١) مجموعة الأحزاب ش . . : اسامبول . ١٢٩٨ هـ . ص ٢ .

وثمت بدا لى هدفه فى وضوح وجلاء .. وتبين لى أن الجملة ليست مقحمة ، وانما هى لحمه دينة وسداه ..

فلنعد الى الجملة نرتبها كما تحتم قواعد اللغة الصحيحة :
« المهاجر من مكة الى المدينة كان الله ، ولم يكن معه شىء ثان » ..
ما زدنا شىئا على قوله ولا نقصنا منه .. وكل ما فعلناه هو وضع قوله « الى المدينة » موضعه ، بعد أن نأى به ابن عربى عنه ، ليذكر به ويلتوى على القراء فهمه !!

بهذا يبدو لك جليا .. أن ابن عربى يفترى أن المهاجر من مكة الى المدينة لم يكن هو محمدا رسول الله .. وانما كان هو الله متجليا فى صورة اسمه فيها « محمد » !!

ولا ريب فى أنك تعرف : أن صاحب الرسول — ﷺ — فى الهجرة كان أبا بكر .. غير أن ابن عربى يقول : « ولم يكن معه شىء ثان » !!
يعنى أن أبا بكر هو الآخر لم يكن إلا الله متعينا فى صورة اسمه فيها « أبو بكر » !!

ومات محمد ﷺ .. ومات من بعده أبو بكر — رضى الله عنه —
فأى الله هذا الذى يتجرع غصة الموت مرتين !! .. بل ما ذلك إلا الله الذى يموت ويحيا فى كل لحظة آلاف المرات ! ؟

ثم يقول فضيلته : « لقد دانت للصوفية بأن الرب الأكبر هو عين خلقه !! .. وفى كل لحظة يعبر بها الوجود تغنى حياة وتتبتق حياة ..
فيا للصوفية ! يعبدون ربا يموت آلاف المرات ، ويولد آلاف المرات فى آن واحد !!

« ومحمد الصوفية له مظهران ، أو اعتباران . فهو عبد أو خلق باعتبار ظاهره .. وهو رب أو حق باعتبار باطنه !!
« ولهذا يصفه ابن عربى — باعتبار ظاهره — بأن له العبودية !!
« ويصفه — باعتبار باطنه — بأن له الربوبية !!

« يصفه بأن له الامكانية باعتبار ناسوته .. وبأن له الوجوبية باعتبار لاهوته » (٦٢) ١١

ويقول النابلسي وهو يتحدث عن شهادة التوحيد : « وأما بيان الحقيقة ، فإن هاتين الشهادتين تداخلتا بحيث صارتا شهادة واحدة ، وبينهما تالزم معنوي .. »

فإن الله تعالى أظهر محمدا ﷺ عندنا ، ومحمد ﷺ أظهر الله تعالى عندنا أيضا .. كما أن النور لا يعرف الا بالظلمة ، والظلمة لا تعرف الا بالنور .. ولهذا قال تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٦٣) .. فجعل اطاعة الرسول هي اطاعة الله تعالى . وقد تكرر لفظ الجلالة مرتين في الشهادتين ، ووقع بينهما اسم محمد اشارة الى أن الله من حيث هو . والله من حيث محمد واحد ، والفاصل بينهما هو مجرد هذه الصورة المحمدية لا غير .. وهذه الصورة له من حيث محمد ، لا له من حيث هو .. فإنه من حيث هو لا يقبل الاشارة مطلقا ، والصورة معدن الاشارة .. ولهذا كانت الشهادة الأولى مشتملة على النفي في أولها بحرف « لا » اعلاما بالتنزيه الذي ينبغي من أول الأمر ، بخلاف الشهادة الثانية صدرت بالاثبات مؤكدة بـ « أن » ..

ومرادنا بالصورة المحمدية — انتهى هي حجاب الله تعالى عند قوم ، ومجلاه ومظهره عند آخرين — اللفظ والمعنى جميعا ، فإن الظاهر والباطن يدخل تحت مسمى الصورة : عتأهرها عندنا باطنها عند الملائكة ، وظاهرها عندهم باطنها عندنا .. فهو الظاهر من حيث ما هو باطن ، وهو الباطن من حيث ما هو ظاهر .. فأخذت الصورة حكم المتصور بها ، ولهذا قال تعالى : « فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك » (٦٤) ، وإنما كان ذنبه : اعتقاد المغايرة : والشهادتان في الحقيقة شهادة

(٦٢) هذه هي التصوفية ، نعبد الرحمن الوكيل ، ص ٧٧ — ٧٩

(٦١) محمد : ١٩

(٦٣) النساء : ٨٠

(١١ — الله توحيد)

واحدة .. ولكن حالت الصورة بينهما كما ذكرنا .. فمن نظر اليها قال
بالثنوية ، والتوحيد انصرف يأبى ذلك (٦٥) .

* * *

ونحن .. لا نريد أن نطلق الاتهام كما أطلقه فضيلة الشيخ
عبد الرحمن الوكيل .. ولا نقول بمثل قوله ان جميع الصوفية يعبدون
ذلك الرب الذى اخترعه ابن عربى بادعاء وحدة الوجود والحقيقة
المحمدية .. ذلك الرب الذى يموت آلاف المرات ، ويولد آلاف المرات
فى آن واحد !!

... نحن لا نقول بمثل هذا القول ..

فما كل متصوف سمع بوحدة الوجود .. وما كل متصوف عرف
الحقيقة المحمدية ..

انما كان هذا قول الفلاسفة منهم الذين أسسوا هذه العقيدة
الدخيلة على الاسلام — أعنى الحقيقة المحمدية — لينبأ عليها الزعم
بوحدة الوجود ..

ونقول : ان هذه العقائد دخيلة على الاسلام لأنه لم يكن لها أصل
فى الصدر الأول له ، قبل أن يهتم المسلمون بنقل الفكر الوثنى لأرسطو
وأفلاطون وأفلوطين ثم يخلطونه بعقيدة التوحيد التى قام عليها
الاسلام ..

ان هذا الكلام جد خطير .. بل هو الخطر كله !!

ونحن نعرف مدى خطورة هذا الكلام !!

ومعرفتنا لهذه الخطورة هى التى تدعونا للتصدى له !!

ونحن نعرف أننا حين نتصدى لهذا الكلام الخطير نقولب علينا
المئات بل الألوف !!

وأن هذه المئات أو الألوف ، سوف تستعدى علينا كل سلطة ..
سواء أكانت سلطة الدماء ، أو سلطة الحكام !!

(٦٥) انظر « حقائق الاسلام وأسراره » ، مرجع سبقت الإشارة اليه ،
ص ١٦٨ ، ١٦٩

ولكن .. ما حيلتنا ونحن ندرك خطورة هذه الأفكار التي تمسح
عقيدة التوحيد وتحيلها إلى كائن عزيل لا يصمد أمام الأيام ؟ !
ما حيلتنا .. ونحن نطالع هذا الكلام الخطير حين نقرأ أفكار
فلاسفة الصوفية الأوائل .. ثم لا نجد من يتصدى لها من العقلاء
والمعتدلين من رجال الطرق المعاصرين — وبعضهم قد بلغ بحمد الله أرقى
درجات العلم — لا ينحدون لهذه الأفكار إلا بقولهم : ان القائمين
بالحلول والاتحاد والوحدة قد انتهى أمرهم وليس لهم اليوم تابع
ولا وارث .. وان ما نسب انهم قد أصبح اليوم نوعا من الحفريات
التاريخية التي لا يتابعها إلا الهواة والمتخصصون في البحث عن مقابر
الأفكار المهملة ، والا أصحاب النوى الذي يعنى ويحسم ؟ !

ما حيلتنا .. ونحن نرى هذه الأفكار والعقائد — وان لم تبد
واضحة جلية أمام اناس — تتسلل إلى حياة وسلوك المئات والألوف
من الأتباع والمريدين — ون أن يعرفوا لها أصلا ، أو يعلموا لها مصدرا ؟ !

ما حيلتنا .. ونحن نرى البعض — من المسلمين — يعملون بحسن
نية — أو بغير ذلك — على هدم عقيدة التوحيد التي جاء بها الأنبياء
والرسل منذ بعث الله أنبياء ورسلًا ! !

ماذا نملك من فعل ونحن نرى الماعول تنهال على التوحيد الذي
بنى عليه الاسلام لنرى تهدمه من أساسه وتقيم على أنقاضه بناء هزيل
أساسه وحدة الوجود ؟ !

ان الاسلام — مما قلنا أنكر من مرة — ولن نكف أبدا عن ذلك
القول — هو دين التوحيد الكامل ..

وتوحيد الاسلام .. ليس كتوحيد اليهود الذين عبدوا « يهوه »
وجعلوه الها محيا لا يموت سوى بنى اسرائيل !!

توحيد الاسلام .. ليس سنائية المجوس الذين عبدوا الها للنور
وآخر مظلمة !!

توحيد الاسلام .. ليس شتتبت النصارى .. الذين ادعى فريق
منهم أن المسيح ابن الله . وادعى الفريق الآخر أنه هو الله نفسه !!

توحيد الاسلام .. يقول : لا اله الا الله .. محمد رسول الله ..
فالله تعالى هو خالق السموات والأرض ومن فيهن .. وهو رحمن
الدنيا ورحيم الآخرة .. ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ..

وما محمد — ﷺ — الا رسول قد خلت من قبله الرسل ..
بشرا منا .. فضله الله علينا بالوحي .. واختصه من دوننا بالرسالة ..
فمبلغ العلم فيه — كما يقول البوصيري — أنه بشر ، وأنه خير
خلق الله كلهم ..

فاذا ما قام من بين صفوفنا — نحن المسلمين — من يدعو الى
وحدة الوجود : وينادي بالحقيقة المحمدية على هذه الصورة ..
فان الأمر جد خطير ، ويدعو المسلم الغيور على دينه وتوحيده الى
التصدى له ..

وليت الاخوة — من الصوفية المعتدلين — يتصدون لهذه الأفكار
الخبیثة المستوردة من الفكر الوثني التي لا تهدف الا لتقويض عقيدة
التوحيد !!

لینتنا نواجه الأمر بشجاعة واستشهاد ، بدلا من أن نتأسى بالنعام
حين يدفن رأسه في الرمال حتى لا يرى الخطر المحدق به !!

فائلهم اهد قومي ، فانهم لا يعلمون !!

يقول بهاء الدين البيطار : « شأن محمد في جميع تصرفاته شأن
الله ، فما في الوجود الا محمد » !!

ويقول : « لا يدري لحقيقته غاية ، ولا يعلم لها نهاية .. فهو من
الغيب الذي تؤمن به » !!

ويقول : « ولما كانت بشريته ﷺ نورا محضا .. كانت غضلاته
مقدسة طاهرة ، ولم يكن لجسمه الشريف ظل كالأجسام الكثيفة ..
وهذا النور المحمدي ، هو المعنى بروح الله المنفوخ في آدم :
فروح الله نور محمد » (٦٦) !!

ويقول النابلسي في شرحه لصلاة ابن بشيش : « ما صلى على محمد

الا محمد .. لأن صلاة العبيد عليه صدرت منهم بأمره من صورة اسمه « (٦٧) » ١١

ويقول الدباغ : « اعلم أن أنوار المكونات كلها .. من عرش وفرتس ، وسموات وأرضين ، وجنات وحجب ، وما فوقها وما تحتها .. إذا جمعت كلها ، وجدت بعضا من نور النبى .. وأن مجموع نوره لو وضع على العرش لذاب .. ولو وضع على الحجب السبعين التى فوق العرش لتهافتت » ونو جمعت المخلوقات كلها ووضع ذلك النور العظيم عليها لتهافتت وتساقطت « (٦٨) » ١١

ويقول التيجانى : « لما خلق النور المحمدى ، جمع فى هذا النور المحمدى جميع أرواح الأنبياء والأولياء جميعا جمعا أحديا ، قبل التفصيل فى الوجود العيني . وذلك فى مرتبة العقل الأول « (٦٩) » ١١ ويقول الحلوانى فى قصيدته « المستجيرة » يخاطب رسول الله ﷺ :

أنشأت نورا سائعا قبل الورى	فردا لفرد ، والبرية فى العدم
ثم استمد جميع مخلوقاته	من نورك السامى ، فياعظم الكرم
فلذا اليك الخلق تغزغ كلهم	فى هذه الدنيا ، وفى اليوم الأهم
وإذا دهتهم كربسة فرجتهم	حتى سوى العقلاء فى داك انتظم
جد لى ، فان خزائن الرحمن فى	يدك أنيمين ، وأنت أكرم من قسم (٧٠)

أين هذا من قول الله تعالى لرسوله ﷺ : « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون » والله ما فى السموات وما فى الأرض ، يغفر إن يشاء ويعذب من يشاء ، والله غفور رحيم « (٧١) » .

الله تعالى يقول لنبيه : « ليس لك من الأمر شيء » ..

(٦٧) مجموع الأحزاب . ص ٥٥٧

(٦٨) الأبريز ، للدباغ ص ٨١

(٦٩) رماح حرب الرحيم . نعم بن سعيد ، ص ١٤

(٧٠) رسالة توحيد عبد المتع الحلوانى . ص ١٤ وما بعدها ..

(٧١) آل عمران : ١٢٨ ، ١٢٩

ويقولون : جد لى ، فان خزائن الرحمن فى يدك اليمين ، وأنت
أكرم من قسم !!

ويقول تعالى له : « قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل
بى ، ولا بكم ، ان أتبع الا ما يوحى الى وما أنا الا نذير مبين » (٧٣) .

ويقول جل شأنه : « قل انى لا أملك لكم ضررا ولا رشدا . قل انى
لن يجيرنى من الله أحد وإن أجد من دونه ملتحدا » (٧٣) .

ويقول النطواني : اليك يفرع الخلق كلهم فى هذه الدنيا ،
وفى يوم القيامة ، وإذا دهمت الناس كربة فرجتها عنهم !!

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان
ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا » (٧٤) .

ويقول البوصيرى : « فمن علومك علم اللوح والقلم » !!

يقول جل وعلا : « ولا تمجّل بالقرآن من قبل أن يلقى اليك وحيه ،
وقل رب زنى علما » (٧٥) .

ويقول الشعرانى : « اعلم أن رسول الله — ﷺ — أعطى القرآن
مجملا ، قبل جبريل — عليه السلام — من غير تفصيل الآيات
والسور » (٧٦) !!

ويزعمون أن جبريل — عليه السلام — عجب حين رأى محمدا
ﷺ يتلوا القرآن قبل أن يعلمه آياه !! فسأل جبريل ، فأجابه النبى :
أرفع الستر مرة حين يلقى اليك الوحي . . . ففعل جبريل ، فرأى محمدا
هو الذى يوحى اليه . . . فصاح مسبحا : منك واليك يا محمد !!

أرأيت لى أى حد وصلت الزندقة والضلال ؟
وما أضل الناس وأزاغ أبصارهم سوى ابتداع ابن عربى للحقيقة
المحمدية واختراعه لوحدة الوجود !!

(٧٣) الجن : ٢١ . ٢٢

(٧٥) طه : ١١٤

(٧٢) الاحقاف : ٩

(٧٤) الشورى : ٥٢

(٧٦) الكبرى : الأحمر ، ص ٦

يقول تعالى : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وهيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون • ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (٧) •

وما أنزل على إبراهيم والنبين من بعده سوى التوحيد •• وعلى التوحيد بنى الإسلام الذى ندين به ••

* * *

الفصل السادس

الولاية .. والمعجزة والكرامة

● الولي : هو العبد الصالح المتحلي بهدى النبي ﷺ ، والذي يعمل بأحكام الشريعة المطهرة .. ويتأدب بآدابها في اعتقاده وقوله وعمله .. فيعمل بما أمر الله به ، وينتهي عما نهى الله عنه .. ويوالي الله تعالى بالمراقبة والعبادة ، فيواليه تعالى بالرعاية والحيطة ..

يقول تعالى : « ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون • الذين آمنوا وكانوا يتقون • لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة » لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم » (١) •

فأولياء الله تعالى وأنصاره وأحبابه .. لا خوف عليهم في الآخرة ، ولا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا .. لأنهم صدقوا الله ورسوله ، واتقوا ربهم بأداء فرائضه واجتناب معاصيه .. فاستحقوا من الله البشارة في الدنيا بالرؤيا الصالحة .. وتبشير الملائكة لهم عند قبض أرواحهم برحمة الله ورضوانه ، وتبشيرهم نعم في قبورهم حيث يبشرون برضوان الله عند سؤال الملكين لهم .. كما ينعمون بالجنة التي أعدّها الله لهم .. وهذا هو الفوز العظيم .. إذ لا خلف لوعده الله ولا تغيير ..

فالولي — والله أعلم — هو المؤمن المتقي لله ، فكل مؤمن تقى هو ولي لله تعالى .. وفي الحديث : « أن من عباد الله لأناس ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله » .. قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا من هم وما أعمالهم ؟ قال : « هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها .. فوالله أن وجوههم لنور ، وأنهم لعلى نور .. لا يخافون إذا خاف

الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس » .. ثم قرأ الآية : « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢) .

وللولي — كما يقول القشيري (٣) — معنيان : أحدهما (فاعل) بمعنى (مفعول) وهو من يتولى الله سبحانه أمره . قال تعالى : « وهو يتولى الصالحين » (٤) ..

والثاني : (فعيل) مبالغة من (الفاعل) .. وهو الذي يتولى عبادة الله تعالى وطاعته .. شعبدته تجرى على التوالى من غير أن يتخللها عصيان ..

وكلا الوصفين واجب .. وحتى يكون الولي وليا يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء .. ودوام حفظ الله تعالى إياه غي أسراء والضراء ..

ومن شرط الولي .. أن يكون محفوظا .. كما أن من شرط النبي أن يكون معصوما .. فكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخدوع ..

روى سعيد بن جبير — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ سئل : من أولياء الله لا فقال : « الذين يذكر الله برؤيتهم » .. ووصفهم على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال : « أولياء الله قوم صفر الوجوه من أسهر .. عمش العيون من العبر .. خمد البطون من الجوع .. ييس الشغاف من الذوى » (٥) .

فالعبد متى كان مخلصا لله تعالى : عاملا بدينه ، وداعيا الى العمل بالشرع .. فهو الولي .. فلقد حدد الله تعالى صفات الأولياء بأنهم : « الذين آمنوا وكانوا يتقون » .. ووصفهم فى الحديث القدسي بأنهم انما وصلوا الى مراتبهم عند الله تعالى بأداء الفرائض والاكثار من النوافل ..

(٢) انظر : تفسير الطبرى ج ١١ ، ص ١٢٢

(٣) فى الرسالة التفسيرية ص ١١٧

(٥) أى انقبول .

(٤) الاعراف : ١٦٦

وفسر معنى التقوى المطلوبة .. بأنهم أخضعوا جوارحهم كلها
من أعين وأرجل وأفئدة وألسن لله تعالى .. فلا يصرون ولا يسمعون
ولا يمشون ولا يفكرون ولا يتكلمون .. إلا فيما يرضيه تعالى ويتفق
مع شرعه وهداه ..

ولهذا فهو سبحانه يتكلم بهم ، ويتوعد من يقدم على إيذائهم —
بأى نوع من الأذى — بأنه قد استحل محاربة الله تعالى وعرض
نفسه لهذه المحاربة .

يقول تعالى فى الحديث القدسي : « من آذى لى ولما فقد استحل
محاربتى ، وما تقرب الى عبدى بمثل أداء الفرائض .. وما يزال عبدى
يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه .. فإذا أحببته كنت عينه التى يبصر
بها ، وأذنه التى يسمع بها ، ورجله التى يمشى بها . وفؤاده الذى
يغفل به ، ولسانه الذى يتكلم به .. ان سألنى أعطيته ، وان دعانى
أجبت » (٦) .

فالؤمن المتقى لله .. انما يتقرب الى ربه بأداء الفرائض التى
افترضها عليه .. ولا يزال يتقرب الى الله بالنوافل حتى يحبه الله
تعالى .. فإذا ما أحبه الله عصمه من الفتن ونجاه من كيد الشيطان ..
فلا تبصر عينه الا ما يرضى الله .. ولا يستمع الا لما يحبه الله ..
ولا يمشى الا فى طاعة الله .. ولا يشغل عقله الا طاعة الله ..
ولا يتكلم لسانه الا فى مرضاة الله ..

ولهذا .. فان العبد المتقى لربه .. اذا سأله أعطاه ، واذا دعاه
أجابه .. يبساله من يسأله ويعادى من يعاديه .. فهو فى حفظ من
الله تعالى فى الدنيا والآخرة ..

يقول البخارى فى رواية له عن أبى هريرة رضى الله عنه :
« من أهان لى ولما فقد بارزته بالمحاربة » ..

(٦) رواه احمد وابو يعلى والطبرانى وابو نعيم وابن عساکر عن
عائشة رضى الله عنها ..

ويقول الحسن البصري : ابن آدم .. هل لك بمحاربة الله من طلاقة ؟ .. فان من عصى الله فقد حاربه ، وكلما كان الذنب أقبح كانت المحاربة لله أشد ..

ولهذا سمى الله تعالى آتلة الربا وقطاع الطريق محاربين لله تعالى ورسوله : اعظم ظلمهم لعباده ، وسعيهم بالفساد في بلاده .. وكذا معاداة أوليائه ، فانه تعالى يتولى نصره أوليائه ويحبهم ويؤيدهم .. فمن عاداهم فقد عادى الله وحاربه ، وتعرض لهلاك نفسه ..

وروى الترمذى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الله الله في أصحابي .. لا تتخشوهم غرضا ، فمن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوتك أن يأخذه » .

ويقول فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهري^(٧) : ان الولي هو « من آمن بالله واتقى .. ولما كان الايمان والتقوى درجات .. كانت الولاية تختلف باختلاف عمل صاحبها .. والله تعالى يقول : « ولكل درجات مما عملوا » (٨) .

ودليل أن الولي هو من آمن واتقى هو قوله تعالى : « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون » (٩) . ولا يشترط في الولي كرامة ، وانما يشترط فيه الاستقامة ..

وهناك فرق بين الكرامة والاستقامة .. بل كلما زادت الولاية كلما ستر الله كرامات صاحبها حتى لا يفتن بنفسه ، أو يفتن الناس به ..

وهناك لله أولياء يستورون عن الناس .. بل ان هناك أولياء ستروا عن أنفسهم .. حتى أن أبا بكر — رضى الله عنه — اذا حسبت كراماته من يوم أن أسلم انى أن مات ثلث تجد له عشر معشار ما ينسبه الصالون الى المجهولين ..

(٧) الرئيس منهم الجمعيات الشرعية في مصر ..

(٨) الانعام : ١٢٢ . الاحقاف : ١٩

(٩) يونس : ٦٢ ، ٦٣

اذن .. لا يشترط فى الولى الكرامة .. والعلماء قالوا : ان الولى الحقيقى يستحق من ظهور الكرامة كما تستحق البنت من ظهور حيضها .. ولا بد من العلم انه لا يوجد فى الدنيا ولى حقيقى تهدر على يده أوامر الشرع .. فلا بد لشرع الله أن يحترم .. وليس هناك دين فى الباطن ودين فى الظاهر .. ومن يقول هذا فهو يتهم الله ورسوله .. فالخلاصة — اذن — أن الولى من جمع بين الايمان والتقوى ، ولا يشترط فيه الكرامة ، بل يشترط فيه الاستقامة ..

وقد تقع منه المعصية .. ولكن يستحيل فى حقه استمرار المعصية ، والفرق بينه وبين انبى أن النبى معصوم ، والولى محفوظ .. ولا يحق لنا أن نطلق كلمة الولاية على أحد الا ببرهان من الله .. ومعنى كلمة ولى .. أن الله تولاه بالتوفيق لتوليه هو أوامر الله بالعمل والتنفيذ ..

اذن .. الولاية متبادلة ، فمن لا يتولى الله فان الله لا يتولاه .. ومن لم يرض عن الله لا يرضى الله عنه — أى لا يرضى عن شرائع الله ، فلا يرضى الله عنه ..

وهناك فرق بين الولاية والأولياء .. فكل مؤمن متق له حظ من الولاية على قدر ايمانه وتقواه .. ولما كانت أسرار الناس بينهم وبين الله تعالى ولا نعلم حقيقتها فلندع هذا الأمر يتولاه هو .. فنقبل الظاهر ونكل السرائر لله .. فلا نقرر أن فلانا ولى ، ولكن يمكن أن نقول : أحسبه عند الله صالحا ولا تركى على الله أحدا ..

لأن أى انسان مهما كان تقيا نقيا .. لا تستطيع أن تجزم أنت بما مات عليه .. بدليل أن أم حارثة — وقد استشهد ابنها — قالت وهى تقلب جثته وتصبر قلبها المحترق : هنيئا لك .. عصفور من عصافير الجنة .. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال : « من هذه المتالية على الله » ؟ .. فقبل : أمه .. فقال : « يأم حارثة ، انى لأرجو لابنك الخير .. ولكن أنا رسول الله ولا أدرى ما يفعل بى » .. ثم قال : « لعله كان يتكلم بما لا يعنيه .. أو يمنع ما لا ينفعه » ..

وفى ذلك يقول الله تعالى : « قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بى ولا بكم ، ان أتبع الا ما يوحى الى » (١٠) .

وقيل مرة لابن عمر : ما دمت حيا فالاسلام بخير .. فقال : « ويلك يا هذا ، أتدرى علام أغلق باب بيتى ؟ »

فلا يصح منا أن نقول ان فلانا ولى الا بنص قرآنى ، أو بحديث لرسول الله ﷺ . مثل السيدة مريم ، ومؤمن آل فرعون ، وأصحاب الكهف ، والحسن والحسين رضى الله عنهم .. أما غير ذلك .. فيعتبر تألياً على الله ، والوصف بالولاية شيء ، والاستعانة بها من دون الناس شيء آخر ، فهذا شرك .. بل رسل الله — وهم أشرف الخلق — لا يصح الاستعانة بهم رغبة أو رهبة » (١١) ..

* * *

● والمعجزة فى أصل معناها التلقوى — مشتقة من العجز ، وهو عدم القدرة على أمر من الأمور .. ويطلقها علماء الشريعة على الأمر الخارق للعادة الذى يظهره الله تعالى على يد نبي مرسل ، لتقوم دليلاً على صدق دعوته .. وبرهانا على حقيقة رسالته ..

ولقد جرت سنة الله — سبحانه — أن يؤيد كل رسول من رسله بمعجزة خارقة للعادة ، وخارجة عن حدود المألوف للناس ، حتى يحمل المعاندين المتأبررين على الإيمان بهم . والادعان لهم بالتسليم بكل ما جاءوا به من هداية وإرشاد ..

كان الأنبياء يبعث فى قومه غيصدع بالدعوة الى الله ، فيستجيب له من شرح الله صدره لدعوته . وينتذب به من جعلوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا صيحة اسماء انتى تنادى عليهم : أن هبوا من رقدتكم ، وأفيقوا من غفلتكم .. وتحرروا من قيود شهواتكم وأهوائكم ..

(١٠) الأحقاف : ٩

(١١) هذه دعوى : لشيخ عبد اللطيف مشهورى . ط الاعتصام .

ص ٢٥٢ — ٢٥١ بتصرف ..

ويتمادى المكذبون فى المكابرة والعناد .. ماذا بهم يرمون أنبيائهم
— بعد الكذب — بالنسج تارة ، وبالجنون أخرى (١٢) ..

« قالوا كل ذلك وأكثر منه فى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ..
وطالبوهم بالآيات الدالات على صدق رسالاتهم .. فما كان من الأنبياء
الا أن لجأوا الى الله سبحانه ، يطلبون منه أن يؤيدهم بالآيات من عنده ،
فاستجاب لهم ربهم ، وأظهر على أيديهم من المعجزات ما يشهد لهم
بصدق دعوتهم ..

« وتجدى الأنبياء أقوامهم أن يأتوا بمثل ما أتى الله به على
أيديهم من خوارق العادات ، فمعجزوا كل العجز .. وكان نتيجة ذلك
أن آمن بهم العقلاء ، واستمر متشبثا بالكفر الحمقى من الجهلاء
والسفهاء ..

« وشاعت حكمة الله تعالى .. أن تكون معجزة كل نبي من جنس
ما برع فيه قومه ، لتكون أبلى فى التحدى ، وليكون العجز عن معارضتها
أبلغ فى الدلالة على كونها آية من عند الله على صدق من ظهرت على
يده من الأنبياء » (١٣) .

ومن شرط المعجزة أن تكون مبنية على الظهور والاعلان .. لأنها
حجة الأنبياء على دعوى النبوة ، فلا بد من اظهارها واعلانها صريحة
جلية أمام المكذبين الجاحدين حتى يسلموا لأنبيائهم ويدخلوا فى دينهم
.. كما يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات .. مهما بدت هذه الخوارق
غريبة ومستبعدة ..

ومن أدلتها فى القرآن الكريم .. قوله تعالى عن موسى
عليه السلام : « فالتقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا
هى بيضاء للناظرين » (١٤) .

(١٢) . الوحي والقرآن . الكريم ، للشيخ محمد حسين الذهبى ، ص ٢٠

(١٣) المرجع السابق ، ص ٢١ (١١) الأعراف : ١٠٧ ، ١٠٨

وقوله على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام : « ورسولا الى بني اسرائيل انى قد جئكم بآية من ربكم ، انى اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى باذن الله ، وأنبتكم بما تأكلون وما تدخسون فى بيوتكم » (١٥) .

وقوله عن الرسول الخاتم ﷺ : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، انه هو السميع البصير » (١٦) .

ولقد كان القرآن الكريم .. هو المعجزة الكبرى الخالدة والباقية الى يوم القيامة لنبينا ﷺ .. يقول تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (١٧) .

● أما الكرامة .. فهي أمر خارق لعادة أيضا — بيد أنه غير مقرون بدعوى النبوة — يظهره الله تعالى على يد عبد صالح ، فتحل بهدى النبى ﷺ ، عامل بأحكام الشريعة المطهرة ومقتأدب بأدابها فى اعتقاده وقوله وعمله .. وهى — شأنها شأن المعجزة — ثابتة عند جماهير العلماء خلفا وسلفا ..

ولا يشترط فى الكرامة الظهور والاعلان .. لأنها مبنية على الاخفاء والاسرار . وما يظهر منها لا يكون عن قصد للولى أو ادعاء منه للكرامة .. فكثيرا ما تظهر الكرامة على يد ولى فيشعر بها من حوله دون أن يشعر هو بها .. ولو أن وليا ادعى لنفسه الكرامة على الله حتى انه ليطلب منه الأمر الخارق نفعادة فيجاب اليه ، لخرج من عداد الأولياء ، ولعد غى زمرة الأفاكين الأدعياء ..

كما أن الكرامة .. تختص ببعض خوارق العادات دون بعض ..

(١٦) الإسراء : ١

(١٥) ال عمران : ٤٩

(١٧) الإسراء : ٨٨

فهى تتعلق — عادة — بالخوارق التى لا تبلغ حد المعجزة من الغرابة والاستبعاد ..

ويقول القشيري : « ظهور الكرامات على الأولياء جائز .. والدليل على جوازه أنه أمر موهوم حدوثه فى العقل ، لا يؤدي حصوله الى رفع أصل من الأصول .. فواجب وصفه سبحانه بالقدرة على ايجاده .. وإذا وجب كونه مقدورا لله سبحانه فلا شيء يمنع جواز حصوله .. »
« وظهور الكرامات .. علامة صدق من ظهرت عليه فى أحواله .. فمن لم يكن صادقا فظهور مثلها عليه لا يجوز .. والذي يدل عليه أن تعريف القديم سبحانه أينا حتى تفرق بين من كان صادقا فى أحواله وبين من هو مبطل من طريق الاستدلال أمر موهوم .. ولا يكون ذلك الا باختصاص الولي بما لا يوجد مع المفتري فى دعواه .. وذلك الأمر هو الكرامة التى أشرنا اليها ..

ولا بد أن تكون هذه الكرامة فعلا ناقضا للعادة فى أيام التكليف .. ظاهرا على موصوف بالولاية فى معنى تصديقه فى حاله « (١٨) .
ومن أدلة الكرامة .. ما ذكره الله تعالى فى شأن مريم ابنة عمران .. قال تعالى : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يا مريم أنى لك هذا ، قالت هو من عند الله ، أن الله يرزق من يشاء بغير حساب » (١٩) .

يقول الامام القرطبي : كان يجد عندها غاكهة الشتاء فى القيظ ، وفاكهة القيظ فى الشتاء ..

ويقول جل شأنه : « وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا . فكل واشربى وقربى عينا » (٢٠) .

قيل : كان جذع النخلة يابس .. وقيل : كانت نخلة مثمرة .. والصحيح : أن النخلة لم تكن مثمرة اذ ذاك .. لأن ميلاد المسيح عليه السلام كان فى زمن الشتاء ، وليس ذاك وقت ثمر النخل .. ويفهم

(١٨) الرسالة القشيرية ، مرجع سابق ، ص ١٥٨

(١٩) آل عمران : ٣٧ (٢٠) مريم : ٢٥ ، ٢٦

ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان : « تساقط عليك رطبا جنيا » ..
ومن الأدلة على وقوع الكرامة .. ما أكرم الله تعالى به أبا بكر
الصديق رضي الله عنه .. من تكثير طعامه أمام أضيافه حتى أكلوا
جميعا على كثرتهم .. وبقى الطعام أكثر مما كان ..

ومنها ما أكرم به عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتحقيق كل
ما ألهمه وظنه ..

ومنها ما أكرم به سعيد بن زيد رضي الله عنه .. حين استجاب
دعائه على أروى بنت أوس ، لما ادعت عليه أمام مروان بن الحكم
زورا في أرض ادعت أنه اغتصبها ..

ومن الأدلة .. ما أكرم الله تعالى به جريجا العابد بنطق الطفل
الرضيع ، وتبرئته من جريمة الزنا ..
ومنها .. ما أكرم الله به الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة
حين توسلوا اليه بأعمالهم الصالحة .. الخ .

ولا يمنع العقل امكان حدوث المعجزة أو الكرامة .. ما دام الذي
يجريهما هو الله تعالى على أيدي أنبيائه وأوليائه .. بل ان من ينكر
المعجزة للنبي ، والكرامة للولي يعد كافرا والعياذ بالله ..
* * *

● ويقول فضيلة الشيخ محمد الخزالي (٢١) : « ... والعقل يقول
انه لا بد لحدوث الأسباب من مسببات .. ولكن بعض الناس قالوا
بضعف الحلة وانقطاعها بين الأسباب والمسببات ..
فقد توجد النار ولا يوجد الاحراق .. وقد يوجد الماء ولا يوجد
الري .. وقد توجد السكين ولا يوجد القطع ..
وأن الواجبات العادية قد تتخفف ..
وأن قانون انسيبية على الاجمال .. غير ملزم ولا مطرد ..

(٢١) في كتابه : الدعوة الاسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ،
نشر مكتبة وهبة : ١٩٨٥ . ص ٧٠ : ٧١ بتصرف .
(١٢) — الله توحيد)

والذين ناموا. بهذا الرأي — من علماء الكلام — أرادوا به الرد على بعض الفلاسفات الاغريقية التى تجعل الأسباب خالقة .. وتنسب الى الطبائع ما يقع هنا وهناك .. واليونانيون يقولون بأن الطبيعة تخلق ، وأن السبب — من ذاته — يفعل ، كلام لا وزن له ولا دليل عليه .. غير أن الرد على هذه الأفكار لا يكون بنفى ما أودع الله فى الأشياء من الخواص ، وما ناطه بها من الآثار .. فان الأسباب — بقدر الله فيها — تؤتى نتائجها حتما ..

أما خوارق العادات .. فلها شأن آخر وتعليلات فوق المعارف المعتادة .. وهى — اذا صدقت — شذوذ يؤكد القاعدة ولا يمسحها .. ولهذا رأينا — خصوصا فى القرون المتأخرة — من يجعل الدنيا لا تضبطها قاعدة ولا يحكمها قانون ..

ومن المقبول شرعا — عندهم — أن يتزوج رجل فى المشرق بامرأة فى المغرب ، وأن تلد منه على بعد الشقة .. لأنه قد يكون من أهل الخطوة (١) .. أى ربما انتقل من المحيط الهندى الى الأطلسى فى لحظة ما من ليل أو نهار !!

وهذا التصور المخبول — كما يقول الشيخ الغزالى — لا ينضج معه علم ولا يصح فيه بحث ، ولا يملك أصحابه الأدوات التى يحققون بها نجاحا عمليا فى هذه الحياة ..

والمقرر فى العلوم الكونية والتجريبية والانسانية وغيرها .. أن قانون السببية محترم وأن رفضه جنون .. والغريب — كما يقرر فضيلته — أن كتابات دينية كثيرة : جعلت الولاية مقرونة بخرق العادة !!

ولما كان فى كل قرية شيخ مشهور بالصلاح ، ولما كان لا يخلو زمان من هؤلاء الأسياف العظام !! : ولما كان خرق العادة يقع منهم أحياء وأمواتا ، بطريقة يعتبر انكارها — فى زعمهم — جرما .. لما كان ذلك كذلك .. فان سريان الخوارق زحم العالم الاسلامى ، وجعل قانون السببية لغوا !!

وكان لذلك .. أثر محزن فى انهيار حضارتنا ، واختلال ثقافتنا ..
وقد تدارك العلماء هذا العوج .. وألغوا الرسائل فى دعم قانون
السببية وضرورة احترامه .. وألغوا الذى تقف عنده قليلاً ..
هو هوس بعض الكاتبين فى اثبات الولايات وخوارقها .. وكأن الرسالة
الاسلامية ما جاءت الا لاثبات هذه القضية !!

والذى بدا لى — والحديث للشيخ الغزالي — أن هذا الهوس
يرجع الى التعلق بغير الله تعالى .. ودعاء المقبورين لعمل العجائب ..
فاذا قلت : رجل مات ، ما تنتظرون منه ؟ قيل : انه — حيا أو ميتاً —
يفعل بقدر الله ، فالتعلق به لا ينكر !!

فاذا اعترضت .. جاء الاتهام السريع : أنتكر كرامات الأولياء ؟ !

● ويقول صاحب « الفتاوى الأمينية » فى حديثه عن الكرامة :
« ... ولا مانع أن يكرم الله تعالى الولي بأنواع من الكرامات ..
ويخصه بما يشاء من الفضائل والخيرات .. فيتولاه بحفظه ، ويجرى
الخير على يديه ، ويجيب دعاءه ، ويشفى الله بدعائه المرضى ، ويبارك
فيما يضع فيه يده من طعام أو شراب ..

وبذلك .. يعلم بطلان ما يتحدث به جهلة المتصوفة وخدمة
الأضرحة ، من الأباطيل والخرافات التى أغروا بها العامة ، والوهوم
عن العمل بدين الله ، ليملاوا بطونهم من صناديق النذور الباطلة ..
ويستبيحوا لأنفسهم فرض العوائد على من يخدع بباطلهم ويقع
فى فخهم !!

ومن ذلك قولهم : ان الشيخ فلاناً من الأبدال ، وأن له أربعين
جسماً ، فلا لوم عليه اذا ارتكب الكبائر وترك الفرائض !!

وقولهم : ان الشيخ من أهل الحقيقة .. فيكفيه ما له من الكرامات
عن العمل بأحكام الشريعة !! ..

وغير ذلك كثير من الأباطيل التى يقصد منها الارتفاق وكسب العيش
من طريق سهل ..

ومنه يعلم .. أنه ليس من الكرامة فى شىء ما يظهره الحواة
والسحرة والمشعوذون من الأمور الخارقة للعادة .. فان ذلك ليس من
الدين ؛ والدين منه براء ..

والطامة الكبرى — كما يقول الشيخ أمين محمود خطاب — اعتقاد
كثير ممن ينتسبون للعلم فيهم والتبرك بهم ، معتقدين فيهم الولاية ..
نعوذ بالله من العمى والضلال .. ونسأله تعالى السلامة
والوقاية (٢٢) .

* * *

● ونقول : الولى — اذن — هو العبد الصالح المتحلى بهدى
النبي ﷺ ، والذي يعمل بأحكام الشريعة المطهرة .. ويتأدب بأدابها
فى اعتقاده وقوله وعمله .. فيعمل بما أمر الله به ، وينتهى عما نهى
عنه ، وهو الذى يوالى الله بالمراقبة ، فيوالىه تعالى بالرعاية والحيطة ..
والمعجزة .. هى أمر خارق للعادة ، يظهره الله تعالى على يد نبي
من أنبيائه تأييدا لنبوته ، ويعجز البشر عن أن يأتوا بمثله ..

والكرامة .. هى أمر خارق للعادة أيضا .. غير أنه غير مقرون
بدعوى النبوة ، ويظهره الله تعالى على يد عبد صالح .. متحل بهدى
النبي ﷺ .. عامل بأحكام الشريعة المطهرة ومتأدب بأدابها فى اعتقاده ،
وقوله ، وعمله .. ولا يشترط فيها الظهور كالمعجزة .. بل ان الولى
الحقيقى يستحق من اظهار الكرامة ، كما تستحق العذراء من ظهور
حيضها .. وهو القول الذى سبق أن سسقناه فى تعريف الولاية
والكرامة والمعجزة ..

وليس من الولاية أو الكرامة .. ما يدعيه بعض الجهال مما يحيل
العقل امكان وقوعه : من القدرة على احياء الموتى ، أو سلب الايمان
عن المعترضين ، أو التصرف فى أمور الناس بالاحياء والاماتة ..
واحالتهم الى مسوخ أو حيوانات !!

ليس من الولاية أو الكرامة : المشى على الماء ، أو الطيران فى الهواء .. أو تحويل التراب الى ذهب !!

وليس من الولاية أو الكرامة : ادعاء العلم بالغيب ، أو الاطلاع على اللوح المحفوظ ، أو معرفة الأتباع والمريدين منذ كانوا فى عالم الذر .. أو الاخبار بما يقع فى مستقبل الزمان !!

ليس من الولاية أو الكرامة : قلب الوالى وتشككه .. فتارة تراه جنديا ، وتارة أسدا : وأخرى فيلا .. ثم تنظر اليه فتراه صبيا !!

ليس من الولاية أو الكرامة : الصلاة بغير وضوء ، أو التظاهر فى مساقى الكلاب والتمرغ فى مياول الحمير .. أو حشد الحوانيت والمتاجر بجنت الكلاب والقطط والخراف النافقة !!

وأخيرا .. ليس من الولاية أو الكرامة : التعرى للنساء عند خطبتن . أو سراودة النساء والمردان ، والقمليس على أردافهم ولو كانوا بحضرة أبائهم . أو كانوا من أبناء الامراء أو الوزراء !!

هذه المزاعم والاباطيل — وامثالها كثير جدا (٢٢) — ليست من الولاية أو الكرامة فى نبي .. بل انها تسمى الى مفهوم الولاية والكرامة — عند الصوفية — بنفسى انقدر اندى تسمى به الى اتصوف نفسه !! فلماذا ندع الحق الواضح والحريق المستقيم ، ونلجأ الى اصطناع الخرافات ، واختلاق المزعوم والاباطيل !

● عقيدة الصوفية فى الولاية والكرامة :

يزعم الصوفيون ، أن نلاولياء حثومة باطنة : يتوقف عليها نظام العالم .. ويطلقون على هذه "الحكومة اسم « الديوان » !! والقطب .. هو رأس هذه "الحكومة الأعلى ، واية رئاسة الاجتماعات التى يعقدها فى انتظام مجلس سوره الموقر !!

(٢٢) راجع كمان لهذه خرافات والمزاعم : كتاب « الطبقات الكبرى » للشعرانى : وانظر مثابا : من وصاية القرآن الكريم : ص ٢٢١ — ٢٢١ ، حيث اوردنا نماذج لهذه الاباطيل والمزاعم ..

ولا يعوق أعضاء هذا المجلس حواجز الزمان أو المكان .. وانما
يأتون من أرجاء الأرض فى لحظة ظرف ، ويعبرون البحار والجبال
والصحارى فى يسر بالغ !!

ودون ذلك انقطب ، درجات مختلفة من الأولياء .. فالنقباء ثلاثة ،
والأوتاد أربعة ، والأبرار سبعة ، والأبدال أربعون ، والأخيار ثلاثمائة
.. ويعرف الواحد من هؤلاء الآخر ، ولا يعمل واحد منهم الا برضا
الباقين !!

والأوتاد .. يطوفون حول الأرض جميعا فى كل ليلة .. فان كان
هناك مكان لم تقع عليه أعينهم ، بدت فيه فى اليوم التالى شسائية
نقص .. فيخبرون انقطب حتى يجعل همه الى ذلك المكان المشوب ،
فيرا مما أصابه بفضل ذلك القطب !!

أرأيت مثل هذا الخيال ؟

يقول الدباغ : « الديوان يكون بغار حراء .. فيجلس الغوث خارج
الغار ، ومكة خلف كتفه الأيمن والمدينة أمام ركبته اليسرى .. وأربعة
أقطاب عن يمينه ، وهم مالكية على مذهب مالك بن أنس .. وثلاثة أقطاب
عن يساره ، واحد من كل مذهب من المذاهب الثلاثة .. والوكيل أمامه ،
ويسمى قاضى الديوان .. ومع الوكيل يتكلم الغوث !!
« والتصرف للأقطاب السبعة على أمر الغوث .. وكل واحد من
الأقطاب السبعة تحته عدد مخصوص يتصرفون تحته !!

« ويحضر الديوان النساء : وصفوهن ثلاثة .. ويحضره بعض
الكمل من الأموات ويكونون فى الصفوف مع الأحياء .. والأموات
حاضرون فى الديوان ينزلون اليه من البرزخ ، يطيرون طيرا بطيران
الروح .. وتحضره الملائكة والجن .. وبعض الأحيان يحضره النبى ،
وكلامه مع الغوث !!

« وأما ساعة الديوان .. فهى الساعة التى ولد فيها النبى ..
والأنبياء يحضرونه فى ليلة واحدة هى ليلة القدر .. فيحضره فى تلك

الليلة الأنبياء والمرسلون .. ويحضره الملا الأعلى من الملائكة المقربين ..
ويحضره سيد الوجود ومعه أزواجه انظاهرات !!

« ولغة أهل الديوان هي السريانية لاختصارها ، ولأن الديوان
يحضره الأرواح والملائكة ، والسريانية هي لغتهم .. والصغير من
الأولياء يحضره بذاته !!

« وأما القلوب الخبير . فلا تحجير عليه .. فانه يدبر على رأسه ،
فيحضره ولا يغيب عن داره .. لأن الخبير يقدر على التطور على
ما شاء من الصور . ولكم أن روحه تدبر له أن شاء ثلثمائة
وستة وستين ذاتا !!

« وقد يغيب الغوث عن الديوان فلا يحضره .. فيحصل بين أولياء
الله من أهل الديوان ما يوجب اختلاطهم .. فيقع منهم التصرف الموجب
لأن يقتل بعضهم بعضا !!

« وإذا حضر سيد الوجود مع غيبة الغوث ، فانه يحضر معه
أبو بكر وعمر وعثمان وعنى والحسن والحسين وفاطمة .. وتجلس
فاطمة مع جماعة النسوة اللاتي يحضرن الديوان !!

« وأهل الديوان إذا اجتمعوا فيه .. اتفقوا على ما يكون من ذلك
الوقت الى مثله من انعد .. فهم يتنلمون في قضاء الله تعالى في اليوم
المستقبل والليلة انتهى قايه .. ولهم التصرف في العوالم كلها السفلية
والعلوية ، وحتى في الحجب السبعين فهم الذين يتصرفون فيه وفي أهله ،
وفي خواطرهم وما يهيج به ضمائرهم .. فلا يهيج في خاطر واحد
منهم شيء الا باذن الله ، انتصرف .. وإذا كان هذا في عالم الرقا
الذي فوق الحجب السبعين التي هي فوق العرش . فما بالك بغيره من
العوالم !!

« ويكون الديوان في موضع آخر غير غار حراء مرة في العام ..
في موضع يقال له « زاوية أسا » خارج أرض سوس زبينها وبين أرض
غرب السودان .. فيحضره أولياء السودان ويجتمعون في غير هذين
الموضعين السابقين : لأن الأرض لا تضيقهم » (٢٤) !!

ويقول المستشرق الانجليزى « ادوارد لين »^(٢٤) : « ... ويعتقد أن سطح الكعبة مركز القطب الرئيسى ، ويفضل مركزا آخر بباب القاهرة المسمى « باب زويلة » — الذى يسميه العلامة « بوابة المتولى » — لاعتقادهم أنه مركز هذا الكائن المجهول !!

« ومن وراء مصراعى الباب العظيم الذى لا يقفل أبدا : فضاء صغير .. يقال انه مكان القطب ، ويدق المصابون بالصداع مسمارا فى الباب لفك السحر .. كما أن المصابين بوجع الأسنان يخلعون سنا ويولجونها فى أحد شقوق الباب !!

« وللقطب فى مصر ٤ مراكز أخرى أقل شهرة .. أحدها فى قبر السيد البدوى ، والآخر فى مدينة المحلة .. ويعتقد أن القطب ينتقل من مكة الى القاهرة أو من مكان الى آخر فى لحظة .. ويرى الكثير من المسلمين أن الياس — ويخلطه العلامة بالخضر — كان قطب زمانه .. وأنه يولى الأقطاب المتعاقبين اذ يقررون أنه لم يمت .. ويزعمون أنه شرب من عين الحياة .. ويكلف بعض الأولياء القيام ببعض الأعمال الشاقة ، ويقال لهم : « أصحاب الدرك » ..

هذا ما يقوله المستشرق الانجليزى .. الذى جاء الى مصر فى القرن التاسع عشر ، وتصوف وأخذ العهد .. ثم راح يسجل الخزي الخرافى لا على الصوفيين وحدهم .. بل على المصريين عامة .. فانظر كيف جنبى التصوف على مصر وعلى الاسلام !

● والقطب عند الصوفيين .. هو أكمل انسان متمكن فى مقام الفردية ، أو الواحد الذى هو موضع نظر الله فى الأرض فى كل زمان .. وعليه تدور أحوال الخلق .. وهو يسرى فى الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح فى الجسد ، ويفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل .. وقد يسمى « الغوث » باعتبار التجاء الملهوف اليه .. والقطب عند الصوفية نوعان : أحدهما حادث أو حسى .. وهو

ما سبق الحديث عنه .. والآخر .. قديم أو معنوى .. وهو الحقيقة
المحمدية (٢٦) !!

يقول القاشانى : « وهو — أى القطب — اما قطب بالنسبة الى
ما فى عالم الشهادة من المخلوقات .. يستخلف بدلا منه عند موته من
أقرب الأبدال منه .. أو قطب بالنسبة الى جميع المخلوقات فى عالم
الغيب والشهادة ؛ ولا يستخلف بدلا من الأبدال ، ولا يقوم مقامه أحد
من الخلائق .. وهو قطب الأقطاب المتعاقبة فى عالم الشهادة ..
لا يسبقه قطب ؛ ولا يخلف آخر .. وهو الروح المصطفوى المخاطب
بقوله : « لولاك لما خلقت الكون » (٢٧) !!

ويقول التيجانى : « ان حقيقة القبطانية .. هى الخلافة العظمى
عن الحق مطلقا فى جميع الوجود ، جملة وتفصيلا .. حيثما كان الرب
الها كان هو خليفة فى تصريف الحزم وتنفيذه من كل من له عليه الوهية
لله تعالى .. فلا يصل انى الخلق شئ كائنا ما كان من الحق الا بحكم
القطب !!

« ثم قيامه فى انوجود بروحانيته فى كل ذرة من ذرات الوجود ..
فترى الكون كله أشباحا لا حركة لها .. وانما هو الروح القائم فيها
جملة وتفصيلا !!

« ثم تصرفه فى مراتب الأولياء .. فلا تكون مرتبة فى الوجود
للعارفين والأولياء خارجة عن ذوقه .. فهو المتصرف فى جميعها ،
والمد لأربابها .. به يرحم الوجود . وبه يبقى الوجود .. وفى بقاء
الوجود رحمة لكل العباد .. وجوده فى الوجود حياة لروحه الكلية ،
وتنفس يمد الله به العلوية والسفلية .. ذاته مرآة مجردة ، يشهد
فيها كل قاصد مقصده » (٢٨) !!

(٢٦) هذه هى انصوفيه . لأستاذ عن الرحمن الوكيل : ص ١٢٤

(٢٧) كشف الوجوه انفر : تلقاشانى . ج ٢ . ص ١٠٢

(٢٨) جواهر المعانى . معنى بن حرازه ، ج ٢ ، ص ٨١

ويقول : « ومما أكرم الله به قطب الأقطاب : أن يعلمه علم ما قبل وجود الكون وما وراءه ، وما لا نهاية له .. وأن يعلمه علم جميع الأسماء القائم بها نظام كل ذرة من جميع الموجودات ، وأن يخصه بأسرار دائرة الاحاطة .. وجميع فيوضه وما احتوى عليه » (٢٩) !!

كما يقول : « قطب الأقطاب في كل وقت لا تقع بينه وبين الرسول حجابية أصلا .. وحيثما جال رسول الله من حضرة الغيب ومن حضرة الشهادة .. إلا وعين قطب الأقطاب متمكنة من النظر إليه .. لا يحتجب عنه في كل لحظة من اللحظات » (٣٠) !!

فانظر معي وتعجب .. كيف ألهمت الصوفية ذلك القطب . وجعلت منه ربا أكبر .. ربا يعبد ، ويخشى ، ويرهب !!
ويعاون القطب امامان ، هما منه بمنزلة الوزيرين .. أحدهما لعالم الملك ، والآخر لعالم الملكوت !!

كما يعاونه الأوتاد ، والأبدال ، والنقباء !!
فالأوتاد أربعة — وقيل ثلاثة — كلما مات قطب الوقت أقيم مكانه واحد منهم .. وعلمهم يفيض من قطب الأقطاب .. وان ماتوا جميعهم ففسدت الأرض !!

أما الأبدال .. فهم حقيقة روحانية تجتمع اليها أرواح أهل ذلك الوطن الذي رحل عنه وليه .. وعددهم أربعون : اثنان وعشرون منهم بالشنام ٤ وثمانية عشر بالعراق !!

والنقباء .. دون الأبدال ، ويسكنون مصر .. وعملهم أن يحملوا عن الخلق أثقالهم .. وعددهم سبعون !!
وعدد النقباء ثلاثمائة — وقيل خمسمائة — وهم الذين يستخرجون خبايا الأرض (٣١) !!

(٢٩) جواهر المعاني ، ج ٢ ص ٧٩

(٣٠) المرجع السابق ص ٦٣

(٣١) جامع الأصول في الأولياء . للكاتب خاتمي . ص ٩٣ .

أرأيت كيف ابتدعت الخرائات الصوفية هذه المملكة للأساطير ،
وتلك الحكومة الباطنة التي زعموها .. ليستعبدوا بها الناس لما يشتهون ،
ويزرعوا في قلوبهم الخوف والرغبة لأخضاعهم لسلطانهم ؟ !
إذا كان هذا هو حال تلك المملكة الخرافية !!
وإذا كان هذا هو تخصصهم في شؤون البلاد والعباد !!
فماذا أبقوا لله تعالى ؟ !

ومماذا أبقوا للأئمة ورسله ، إذا كان ديوانهم يتصرف في أحوال
الناس على ذلك النحو الذي زعموه ؟ !
وأستغفر الله ، ولا قوة الا بالله : « له الخلق والأمر ، تبارك الله
رب العالمين » (٣٢) .

يقول صاحب كتاب « الصوفية في نظر الاسلام » — جزاء الله
عن الاسلام خيرا — : « قسم الصوفية انولاية لأنفسهم على أساس
الكرامات الى مراتب في الولاية .. أعلاها مرتبة « القطب » وهو كبير
القوم ، ومهبط الرحمة عندهم ، ومصدر البركات .. ولا يتعدد صاحبها
حتى يخلفه غيره !!

« وينى ذلك رتبة « الامامة » وتتكون لائنين عن يمين القطب
وشماله بمنزلة الوزراء منه !!

« وتليهم درجة « الأبدان » السبعة !!

« ومن بعدها .. مرتبة « الأنجاب » الاثنا عشر !!

« ... وأخيرا .. مقام « السيوخ » الأربعين !!

« ويحكى الصوفية .. أن هؤلاء يعقدون المجالس الروحية ليلة
الأربعاء من كل أسبوع ، فتعرض عليهم فيها أمور الناس وأحوالهم ،
فيقسمون فيها الحظوظ والأرزاق : ويكتبون المواليد والوفايات ، ويهبون
لحببيهم وزائري قبورهم تمنغية والبركة والنجاح ، ويقدررون العقوبات
والمناصغات على المعصاة والمذنبين والمعترضين !!

« يقضون في هذا كله .. بم يبعثون بقرارتهم الى « الخلفاء »

و « النقباء » .. فيخبرون بها الناس !!

« ويقسم الصوفية الديار الى مناطق نفوذ ودوائر اختصاص للأولياء .. فمن مكان كذا الى مكان كذا ، يقع في دائرة الولي فلان .. ومن حدود كذا الى حدود كذا في دائرة فلان .. فلا يايق أن يتقدم سائل — قليل الذوق — برجاء الى البعوى بطنطا اذا كان بحكم مولده واقامته يقع في دائرة الدسوقي بدسوق .. وتقس على ذاك !!

« وتقام لهؤلاء المقبورين الموالد في المواسم المعينة من كل عام .. فيلتقى في محيطها خلق كثير .. ويولم انصوفية هذه الموالد على حب أصحابها وينحرون المواشى نخورا لأربابها .. ويرجعون منها بالأموال الوفيرة التي ينزعونها من أقوات الفقراء وحلبى النساء ، مقابل السماح لهؤلاء الأذلاء المستضعفين بالنوم في سرادقاتهم ، وحضور مجالس الذكر التي تكتب فيها الاستغاثات بماء ازعفران والورد .. يتفضل بها الشيوخ على من حولهم زاعمين لهم أن توجيه هذه الاستغاثات الى من في القبور والأضرحة هو أقرب الطرق ليرفعوا الضر عن أنفسهم ، ويكسبوا الكرب والبلاء ، ويستنزوا البركة ويستمدوا المسال والولد ، ويدفعوا عن حقولهم آفات الزرع : ويكيدوا لخصومهم وسارقى ماشيتهم ، ويقتصوا من أعدائهم في أبنائهم وأموالهم ... الخ « (٣٣) .

● خاتم الأولياء :

الوجود — عند فلاسفة الصوفية — كما قدمنا : وحدة واحدة !!
والله تعالى — طبقا لنظرية وحدة الوجود — هو عين خلقه !!
والنبوة — في عقيدتهم — ليست الا تلويها للنفوس البشرية ،
وليست باصطفاء الله تعالى واختياره !!

والوحي — في تصورهم — ليس الا صورا تشرق في النفس وقت
شدة الصفاء !!

(٣٣) انظر : انصوفية في نظر الاسلام ، للأستاذ سميج عاطف الزين ،
نشر دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ص ٨٠ ، ٨١ .

والولاية — فى زعمهم — أفضل من النبوة لأخذها عن الله مباشرة ،
فى حين يأخذ الأنبياء عن جبريل !!

وخاتم الأولياء .. أفضل الكل ، لأن الأولياء والأنبياء يستفيدون
منه !!

يقول أبو حامد الغزالي : « العارفون بعد العروج الى سماء الحقيقة
.. اتفقوا على أنهم لم يروا فى انوجود الا الواحد الحق .. ولكن منهم
من كان له هذه الحالة عرفانا علميا [أى وصل اليها عن طريق البرهان]
ومنهم من صار له ذوقا وحالا [أى وصل اليها عن طريق الكشف
والإلهام] وانتفت عنهم الكثرة بالكلية واستغرقوا بالفردانية المحضة ،
فلم يبق عندهم الا الله . فسكروا سكرا وقع دونه سلطان عقولهم ..
فقال بعضهم : أنا الحق . وقال الآخر : سبحانه ، ما أعظم شأنى .
وقال الآخر : ما فى الجبة الا الله ..

« وكلام العشاق فى حال السكر يطوى ولا يحكى ! فلما خف عنهم
سكرهم وردوا الى سلطان العقل عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد ..
بل يشبه الاتحاد ، مثل قول العاشق فى حال فرط العشق :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا (٣٤)

« وتسمى هذه الحالة بالاضافة الى المستغرق فيها بلسان المجاز :
اتحادا .. وبلسان الحقيقة : توحيدا .. ووراء هذه الحقائق أسرار
لا يجوز الخوض فيها » (٣٥) !!

ويقول : « انذل من نوره : بل هو لا هوية لغيره الا بالمجاز
[الهوية عندهم هى الحقيقة الباطنة للذات الالهية !!] فاذن لا نور
الا هو : وسائر الأنوار انوار من الوجه الذى تليه : لا من ذاتها ،

(٣٤) البيت للحلاج . ويقول فى الذى يليه :
« فاذا ابصرته ابصره فاذا ابصرته ابصرته »

(٣٥) منساة الأنوار . تلغزائى - ص ١٢٢

فوجه كل موجه اليه ومول شطره « فأينما تولوا فثم وجه الله » (٣٦) ..
 فاذن لا اله الا هو ، فان الاله عبارة عما الوجوه مولية نحوه بالعبادة
 والتأليه .. أعنى وجوه القلوب فانها الأنوار والأرواح .. بل كما لا اله
 الا هو ، فلا هو الا هو .. فان هو عبارة عما اليه الاشارة ، وكيفما كان ،
 فلا اشارة الا اليه .. بل كلما أشرنا ، فهو بالحقيقة اشارة اليه « (٣٧) !!
 أليست هذه هي وحدة الوجود التي نادى بها ابن عربى ؟

● ويزعمون أن الحقيقة المحمدية ، هي الذات مع التعيين الأول ،
 ولها الأسماء الحسنى ، وهي اسم الله الأعظم '١
 والرسول ﷺ — فى تصورهم — هو الجامع بين العبودية والربوبية
 الشامل للامكانية والوجوبية !!

ويقولون انه — ﷺ — يحضر كل مجلس أو مكان أراد ، بجسده
 وروحه ، وأنه يتصرف ويسير حيث شاء فى أقطار الأرض وفى الملكوت ،
 وهو بهيئته التى كان عليها قبل وفاته ، فانه لم يتبدل منه شيء (٣٨) !!

وأنوار المكونات كلها — فى عقيدتهم — من عرش ، وفرش ،
 وسماوات وأرض ، وجنات وحجب ، وما فوقها وما تحتها .. اذا جمعت
 كلها وجدت بعضا من نوره — ﷺ — وأنه لما خلق النور المحمدى ،
 جمع هذا النور جميع أرواح الأنبياء والأولياء جميعاً جمعاً أحدياً قبل
 التفصيل فى الوجود العينى ، وذلك فى مرتبة العقل الأول !!

● ولما كان الله تعالى — فى عقيدتهم الزائغة — هو عين خلقه ،
 فانهم يؤمنون بوحدة الأديان كلها .. سواء منها ما أنزله تعالى
 وما ابتدعته الشياطين !!

اسمع الى ابن عربى وهو يحذر أتباعه من الايمان بدين خاص
 فيقول : « فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص وتكثر بما سواه فيفوتك خير
 كثير ، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه .. فكن من ناسك هوى
 [أى القابل الذى تنطبع فيه صور المعتقدات كلها وينفعل بها] لصور

(٣٦) انبقرة : ١١٥ (٣٧) مشكاة الأنوار ، ص ١٢٤

(٣٨) رماح حزب الرحيم ، للفونى ، ج ١ ، ص ٢١٩

المعتقدات كلها .. فان الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد
دون عقد ، فالكل مصيب ، وكل مصيب مأجور ، وكل مأجور سعيد ،
وكل سعيد مرضى عنه « (٣٩) !!

● ولما كان الدين — فى تصورهم — واحدا .. والوجود كله
وحدة واحدة .. والرب عندهم هو العبد ، والعبد هو الرب ..
فلا عذاب فى الآخرة .. ومن الذى يعقل أن يعذب الرب نفسه ؟

يقول ابن عربى :

فلم يبق الا ضادق الوعد ونعده وما لوعيد الحق عين تعالين
وان دخلوا دار الشقاء . فانهم على لذة فيها نعيم مبائين
نعيم جنان الخاد فالأمر واحد وبينهما عند التجلى تبائين
يسمى عذابا من عذوبة طعمه وذلك له كالقشر والقشر صائن (٤٠)

ويعنى ابن عربى بالوعد : نعيم الآخرة .. وبالوعيد عذابها ،
فهو هنا ينفى العذاب مطلقا فى الآخرة .. حتى للمشركين !!
ومن نفس المنطلق يقول الجينى :

وأسلمت نفسى حيث أسلمنى الهوى وما لى عن حكم الحبيب تنازع
فطورا قرانى فى المساجد رادعا وانى ظورا فى الكنائس رافع
إذا كنت فى حكم الشريعة ناصيا غانى فى علم الحقيقة طائع (٤١)

ولهذا نراه عندما يفسر كلمة « لا اله الا الله » .. يقول :
« يعنى : الالهية المعبودة ليست الا أنا .. فأنا الظاهر فى تلك
الأوثان والأفلاك والطبائع . وفى كل ما يعبده أهل كل ملة ونحلة ،
فما تلك الآلهة كلها الا أنا ، ولهذا أثبت لهم لفظ الآلهة ، وتسميته لهم
بهذا اللفظ من جهة ما هم عليه فى الحقيقة .. تسمية حقيقية
لا مجازية .. لانه أراد أن يبين لهم أن تلك الآلهة مظاهر ، وأن حكم
الألوهية فيهم حقيقة : وأنهم ما عبدوا فى جميع ذلك الا هو . فقال :
لا اله الا أنا .. أى ما ثم من يخلق عليه اسم الاله الا وهو أنا ..

(٣٩) الفصوص - ص ١٩١ (٤٠) الفصوص ج ١ - ص ٩٤

(٤١) الانسان الكامل - ج ١ - ص ٢٢

لا اله الا أنا .. أى ما ثم الا أنا : وكل ما أطلقوا عليه اسم الاله
فهو أنا « (٤٢) » !!

● والديوان — عندهم — كما قدمنا هو الذى عليه مدار الكون ..

● والقطب .. هو أكمل انسان متمكن فى مقام الفردية ..
أو الواحد الذى هو موضع نظر الله فى الأرض فى كل زمان ، عليه تدور
أحوال الخلق .. وهو يسرى فى الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة
سريان الروح فى الجسد ، ويفيض روح الحياة على الكون الأعلى
والأسفل ، وقد يسمى « بالغوث » باعتبار النجاء الملهوف اليه « (٤٣) » !!

ولهذا كان علم الأقطاب — فى زعمهم — هو علم الله تعالى ..
أكرمهم به ، فعلمهم ما قبل وجود الكون ، وما وراءه ، وما لا نهاية له ..
بل وعلمهم علم جميع الأسماء القائم بها نظام كل ذرة من جميع
الموجودات ، وخصصهم بأسرار دائرة الاحاطة وجميع فيوضه وما احتوى
عليه « (٤٤) » !!

ويدعى كل منهم القطبانية لنفسه .. يقول ابن الفارض :

فبى دارت الأفلاك فاعجب لقطبها الـ محيط ، والقطب مركز نقطة
ولا قطب قبلى عن ثلاث خلفته وقبليبة الأوتاد عن بدليبة

ويقول الدسوقي :

نعم نشأتى فى الحب من قبل آدم	وسرى فى الأكوان من قبل نشأتى
أنا كنت فى العلياء مع نور أحمد	على الدرة البيضاء فى خلويتى
أنا كنت فى رؤيا الذبيح فداه	بلطف عنايات وعين حقيقة
أنا كنت مع ادريس لما أتى العلا	وأسكن فى الفردوس أنعم بقعة
أنا كنت مع عيسى على المهد ناطقا	وأعطيت داودا حلاوة نغمة

(٤٢) الانسان الكامل ص ٦٩

(٤٣) التعريفات للجرجاني تحت مادة « قطب » ، وانظر جامع
الاصول للكشخاني .

(٤٤) جواهر المعاني ، للتيجاني : ص ٨١

أنا كنت مع نوح بما شهد الورى بحساراً وطوفاناً على كف قدرة
أنا القطب شيخ الوقت فى كل حالة أنا العبد إبراهيم شيخ الطريقة (٤٥)

كان من اللازم أن نلم بهذه الإمامة السريعة التى نستعرض فيها
فكر القوم حول : وحدة الوجود ، والحقيقة المحمدية ، وحقيقة القطب
والديوان ونحن بحسب الحديث عن خاتم الأولياء — بالرغم من أننا قد
شرحنا هذه المسائل فى مواضعها شرحاً وافياً — نظراً لارتباط الموضوع
ببعضه ارتباطاً وثيقاً ، حيث ان المقدمات تسوق دائماً الى النتائج ..
وأفكار القوم فى هذه المسائل تقودنا الى الحديث عن خاتم الأولياء ..
وفلاسفة الصوفية .. يزعمون أن الله تعالى قد أورث علم الأنبياء
للأولياء .. بل ان الأولياء — فى تصورهم — أفضل من الأنبياء ،
لأنهم يتلقون عن الله مباشرة !! والله تعالى — عند ابن عربى — تسمى
بالولى ولم يتسم بالنبى !! ، والأنبياء — عند الجيلانى — أوتوا اللقب
بينما أوتى الأولياء ما لم يؤت الأنبياء !! .. والأولياء يخوضون بحراً
وقف الأنبياء بساحله !! الخ .. الخ .

ولما كان الرسول ﷺ هو خاتم (٤٦) الأنبياء .. فلا بد — فى
عرفهم — أن يكون للأولياء خاتم (٤٦) !!

ومن هنا ابتدعوا خرافة « خاتم الأولياء » وراح كل منهم يزعم
أنه ذلك الولى الخاتم !! فهذا الدسوقي يزعم أن الرسول ﷺ قال له :
« يا إبراهيم ، أنت نقيب على الأولياء » !! ويزعم ابن عربى — فى
الفتوحات — أنه أقيم له حفل كبير — فى رؤيا رآها أثناء نومه —
وأنه قد نصب له فيه كرسي بين يدي الله تعالى .. ومن حوله وقف
عظماء الملائكة والأنبياء .. ثم نصب فى ذلك الحفل خاتماً للأولياء ..
ويقول : « لم يكن الحق — أى الله تعالى — أوقفنى على ما سطره لى من
توقيع ولايتى أمور العالم : حتى أعلمنى بأنى خاتم الولاية المحمدية » !!
.. ويعبر رؤياء تلك بقوله : « ثم عبرت الرؤيا باختتام الولاية بى » !!

(٤٥) الطبقات الكبرى للشعرانى : ج ١ ، ص ١٨٢

(٤٦) بفتح التاء فى المومنين ..

.. وادعت التيجانية لشيخها — أحمد التيجاني — أنه هو الولي الخاتم .. يقول عمر بن سنعيد الفونى — أحد أتباعه : « الفصل السادس والثلاثون فى ذكر فضل شيخنا ، وبيان أنه خاتم الأولياء ، وإمام الصديقين ، نمد الأقطاب والأغواث » (٤٧) !!
فما هى أسطورة « خاتم الأولياء » التى راح كل منهم يدعيها لنفسه ؟

ابتدع هذه الخرافة الحكيم الترمذى (ت ٣٢٠ هـ) .. فقد كان أول من عقد المقارنة بين النبوة والولاية .. مستوحيا فيها معارفه فى علوم الفلسفة ومسائل اللاهوت .. فأوقف بهذه البدعة الولاية بجوار النبوة وجعلها مساوية لها ان لم ترد عليها !!

يقول السلمى عن الترمذى — مبتدع هذه الخرافة — : « نشوه من ترمذ ، وشهدوا عليه بالكفر بسبب تصنيفه كتاب « ختم الولاية » .. كما يقول : « انه يقول ان للأولياء خاتما .. كما ان للأنبياء خاتما ، وأنه يفضل الولاية على النبوة » (٤٨) !!

ويقول عنه ابن تيمية : « فى كلامه من الخطأ ما يجب رده .. ومن أشنعها ما ذكره فى ختم الولاية مثل دعواه فيه أنه يكون فى المقآخرين من درجته عند الله أعظم من درجة أبى بكر وعمر وغيرهما .. ومنها ما ادعاه من خاتم الأولياء الذى يكون فى آخر الزمان ، وتفضيله وتقديمه على من تقدم من الأولياء .. وأنه يكون معهم كخاتم الأنبياء مع الأنبياء » (٤٩) !!

ويغالى ابن عربى فى ترديد هذه الخرافة .. فيزعم أن الرسل لا يستمدون علومهم الا من خاتم الأولياء .. وهذا يستلزم تفضيل الولي الخاتم على الرسل بعامة .. فيقول :

« وليس هذا العلم [أى علم وحدة الوجود] الا لخاتم الرسل

(٤٧) رماح حزب الرحيم ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٥

(٤٨) مفتاح السعادة ، لطائش كبرى زاده ، ج ٢ ص ١٧٠

(٤٩) رسالة حقيقة مذهب الاتحاديين ، لابن تيمية ص ٧٩

وخاتم الأولياء .. وما يراه أحد من الأنبياء أو الرسل الا من مشكاة الرسول الخاتم : ولا يراه أحد من الأولياء الا من مشكاة الولي الخاتم .. حتى أن الرسل لا يرونه — متى رأوه — الا من مشكاة خاتم الأولياء ، فان الرسل واننبوة — أعنى نبوة التشريع — تنقطعان .. والولاية لا تنقطع أبدا ، فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه الا من مشكاة خاتم الولاية « (٥٠) » !!

بل انه يفضل خاتم الأولياء على النبي الخاتم — ﷺ — نفسه !! فيقول : « ولما مثل النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللبن ، وقد كمل سوى موضع لبنة .. فكان ﷺ تلك اللبنة .. غير أنه ﷺ لا يراها الا كما قال : « لبنة واحدة » .. أما خاتم الأولياء ، فلا بد له من هذه الرؤية ، غيرى ما مثل به رسول الله ، ويرى فى الحائط موضع لبنتين .. فلا بد أنه يرى نفسه تتطبع فى موضع تينك اللبنتين ، فيكمل الحائط .. كما هو آخذ عن الله فى السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه .. لأنه يرى الأمر على ما هو عليه .. فانه آخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به الى الرسول « (٥١) » !!

كما يقول : « وفينا من يأخذه عن الله ، فيكون خليفة عن الله بعين ذلك الحكم « (٥٢) » !!

وهكذا ترى أن ابن عربى يفصل خاتم الأولياء على خاتم الرسل والأنبياء .. بأن خاتم الأولياء يأخذ عن الله مباشرة ، بينما خاتم الأنبياء يأخذ عن الله بواسطة الملك .. كما أن الدين قد تم على يد خاتم الأولياء ، وليس خاتم الأنبياء !!

وابن عربى حين يبتدع هذه الخرافة ، يشير الى الحديث الصحيح الذى يمثل فيه الرسول ﷺ ما بعث به هو والأنبياء من قبله ببيت كانت تنقصه لبنة ، وأنه ﷺ هو الذى جاء بهذه اللبنة ، يعنى أنه هو الذى أتم الله به على المسلمين دينهم ..

ولكن ابن عربى .. يزعم هنا أن الدين كان ناقصاً لبنتين ، لا لبنة

(٥٠) الفصوص ج ١ ، ص ٦٢ (٥١) المرجع السابق ص ٦٣

(٥٢) نفس المرجع ص ١٦٢

واحدة .. فأتى الرسول ﷺ بواحدة ، وأتى خاتم الأولياء بها وبلبنة أخرى ، فلم يكمل الدين الا على يد خاتم الأولياء !!

• ويدحض الله افكهم بقوله : « اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » (٥٣) •

لقد أكمل الله الدين وأتم النعمة ببعثة رسوله محمد بن عبد الله ﷺ — خاتم الأنبياء والمرسلين ليكون هاديا لنا وبشيرا ..
لقد حسم الله القضية ، ووضع لنا المنهاج ، وأخذ علينا الميثاق يوم أن طلب منا : « ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » (٥٤) •

لقد أكمل الله الدين وأتم النعمة قبل أن يوجد الحكيم الترمذى ، ومحیی الدين بن عربی بمئات السنين .. فلماذا يبتدعان دينا جديدا لم يقل به اليهود أو النصارى وغيرهم من أهل الملأ والأديان السماوية أو الوضعية ؟ !

يقول ابن تيمية حين ينبزى لدحض مزاعم الترمذى وابن عربی :
« ثم ان هذا خاتم الأولياء صار مرتبة موهومة لا حقيقة لها .. وصار يدعيها لنفسه أو لشيوخه طوائف .. وقد ادعاهما غير واحد ، ولم يدعها الا من كان فى كلامه من الباطل ما لم تقله اليهود ولا النصارى .. كما ادعاهما صاحب الفصوص » (٥٥) •

ذلك لأنهم : « بنوا الأمر على أن الولي يأخذ عن الله بلا واسطة ، والنبي يأخذ بواسطة الملك .. فلهذا صار خاتم الأولياء أفضل عندهم من هذه الجهة » (٥٦) !!

فلا عجب — اذن — وهذا حال خاتم الأولياء .. أن يدعى كل منهم لنفسه هذا المنصب الخطير !!

* * *

(٥١) ال عمران : ٦١

(٥٣) المائدة : ٣

(٥٥) حقيقة مذهب الاتحاديين : لابن تيمية ، ص ٦٢

(٥٦) المرجع السابق ، ص ٦٤

● كرامات .. أم خرافات ؟ !

قلنا : ان الاحرامه هي امر خارق للعادة — شأنها شأن المعجزة — غير أنها ليست مقرونة بدعوى النبوة ، وأن الله تعالى يظهرها على يد عبد صالح ، متحل بهدى النبي ﷺ ، عامل بأحكام الشريعة المطهرة ، ومتأدب بأدابها في اعتقاده وقوله وعمله ..

وذكرنا أن الكرامة ثابتة عند جماهير العلماء خلفاً وسلفاً .. ولكن ما هي الكرامة في تصور الصوفية ؟ !

يقول صاحب « الصوفية في نخل الاسلام » : « لقد كانت المعجزات حقيقة مسلما بها في حق الرسل .. فلا ضرورة لأمثالها ونظائرها في حق مدعى الصلاح من الصوفية !!

« ولو كانت الكرامات دليل صلاح وتقوى — كما يقولون — لكان الصحابة والتابعون لهم باحسان أحق من هؤلاء المتمشيخين المتأخرين الذين تنسب اليهم انكرامات بغير حساب ..

« ولقد حار الصوفية في دفع هذا الاعتراض حتى لم يجدوا آخر الأمر بداً من اختراع بعض الكرامات ينسبونها الى هؤلاء الأطهار .. ليتناقلها الناس عنهم .. وفاتهم أن حياة الصحابة والتابعين قد تركت بالجهاد والشهادة ، وليس بعدها مرتبة في الولاية والكرامة .. وليست بطولتهم الصادقة بحاجة الى أن يلصق بها شيء من الالتواء في الوسائل لرفع أقدارهم .. أو انكرامة بشيء غير الاسلام ..

« أما شيوخ التصوف .. فليس لهم شيء يفخرون به غير ادعاء الكرامات .. فماذا انتزعتها عنهم : فماذا أبقيت لهم ؟

« ولذلك يحرص أتباع التصوف على الدفاع عن كرامات الأسياف .. وهذا تاريخ الصوفية ليس فيه حديث رجل منهم قام لينقذ أمته من غار الاستعمار ، مع أن أتباعه يعدون بالآلوف — بل مئات الآلوف — ولا يعوزهم المال !!

« وهذه التعاليم .. هل تجد فيها دعوة الى الرشد ، أو ثورة على الضعف .. أو نزعة الى العمل ؟ »

« ثم ماذا يفيد المسلمين أن تقتنت عقولهم بحكاية احياء البدوى للموتى .. أو مقدرة الشاذلى على احالة القراب قبراً ؟ ! »

« ان هذا الحديث .. قد يهيج اناسا أغتوا آفهامهم دون الحق بحكم ما ورثوه اضطراباً من تقاليد لم يعنوا بامتحانها » (٥٧) ..

ثم يقول — جزاء الله خيراً : « عمد بعض الصوفيين الى الظهور بالخوارق فى الأوساط الاسلامية تحت ستار « الولاية » .. وقالوا : لا تتحقق ولاية بغير كرامة .. ثم قالوا : ان اكرامة نتيجة العمل بالكتاب والسنة ، وأمانة صدق على صحة السلوك !! »

« ومعنى الولاية فى كمالها — عند الصوفية — تسخير قوى الكون للولى بقوة روحانية .. فلا يمتنع عليه عسير ، ولا يستحيل أمام ارادته أمر .. حتى يقول للشئ : كن فيكون !! »

« أما مظاهر الولاية .. فتكون فى تذارة الثياب ، واطالة الشعر ، ولباس الخرقة والمرقعة ، والتشرد فى الأرض ، وذهول الولى عن نفسه ، وفساد عقله ونكران وجوده !! »

« ولقد غالى الصوفية فى انتحال الكرامات حتى نسبوا الى أشياخهم احياء الموتى ، ورؤية الاله .. فكان هذا من الأسباب التى حملت المسلمين الأولين على القيام فى وجه الصوفية وتنفيرهم .. »

« ثم أتى على الناس حين من الدهر .. تراخى فيه العلماء عن قول الحق ايثارا لرضاء الناس على رضا الله .. فراجت دعوى الكرامة حتى أصبح الناس لا يفهمون الاسلام بغير انخوارق .. وأصبح الرجل فى بلادنا يروى خاشعاً عشرات الكرامات لئلا شيخ يلقتها أبناءه وأحبابه .. ويدعوهم بعد ذلك الى « تنقرب الى الله بزيارة قبر الشيخ .. والتوسل اليه فى قبره أن يشملهم بنظره » وأن يمددهم بمدده « (٥٨) !! »

(٥٧) الصوفية فى نظر الاسلام - مرجع سابق ص ٨١

(٥٨) المرجع السابق ص ٧٩ ، ٨٠

يقول أبو يزيد البسطامي : « لو أن العرش ، وما حواه مائة ألف مرة ألف مرة في زاوية من زوايا قلب العارف ، لما أحس به .. فقلب العبد الخصوصي بيت الله ، وموضع نظره ، ومعدن علومه ، وحضرة أسرارهِ ، ومهبط ملائحته ، وخزانة أنواره ، وكعبته المقصودة ، وعرفاته المشهودة » (٥٩) !!

أي أن قلب الصوفي أوسع من عرش الله !!
ويقول الدباغ : « انى أرى السموات السبع ، والأرضين السبع والعرش ، داخلية وسط ذاتي .. وكذا ما فوق العرش في السبعين حجابا » (٦٠) ..

الملكوت كله .. والسموات السبع ، والأرضين السبع ، والعرش وما فوقه في بطن ادباغ !!

ويدعى الدباغ .. أن معجزات الرسل انما هي بعض كرامات الصوفية .. يقول : « كل ما أعطيه سليمان في ملكه ، وما سخر لداوود ، وما أكرم به عيسى .. أعطاه الله وزيادة لأهل التصرف من أمة النبي ، ومكنتهم من القدرة على ابراء الأكمه والأبرص ، واحياء الموتى » (٦١) !!

ويزعم الدسوقي أن الجنة والنار بيديه .. فيقول : « أنا بيدي أبواب النار أغلقتها ، وبيدي جنّة الفردوس فتحتها .. من زارني أسكنته جنّة الفردوس ، وما كان ولي متصلا بالله الا وهو يناجى ربه كما كان موسى يناجى ربه » (٦٢) !!

بل ويزعم التيجاني أنه يخمن الجنة لمن يطعمه .. فيقول : « أخبرني سيد الوجود يقظة — لا مناما — : كل من أحسن اليك بخدمة أو غيرها ، وكل من أطعمك يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب .. فسألته لكل من أحبني وكل من أحسن لي بشيء من مثقال ذرة ، ومن أطعمني طعامه كلهم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب .. وسألته

١٥٩١ الفصوص - لابن عربي : ص ١١١

(٦٠) الأبريز ، للدباغ : ج ٢ ص ٧٢

(٦١) المرجع السابق ص ١٢

(٦٢) انظر الطبقات الكبرى للشعراني في ترجمته الدسوقي .

لكل من أخذ عني ذكرا أن تغفر لهم جميع ذنوبهم ما تقدم منها وما تأخر ،
وأن يرفع الله عنهم محاسبتهم على كل شيء ، وأن يكونوا آمنين من عذاب
الله من الموت إلى دخول الجنة .. وأن يكونوا كلهم معي في عليين في
جوار النبي .. فقال لي ﷺ : ضمنت لهم هذا ، ضمانا لا تنقطع ،
حتى تجاورني أنت وهم في عليين « (٦٣) !!

وأولياء الصوفية .. أعطاهم الله — في زعمهم — طي الأرض ،
والمشي على الهواء .. ومنحهم كنوز الأرض فانتقلت لهم الأعيان ..
اقرأ معي «قوت القلوب» لأبي طالب المكي .. حيث يتحدث أحد أقطابهم
عما أنعم عليه به ربه فيقول : « أدخلني في الملك الأسفل ، فدورني
في الملكوت السفلي .. فأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى ..
ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوف بي في السموات ، وأراني ما فيها
من الجنان إلى العرش .. ثم أوقفني بين يديه فقال لي : سلني أي
شيء رأيت حتى أحبه لك .. فقلت : ياسيدي : ما رأيت شيئا أستحسنه
فأسألك إياه « (٦٤) !!

أرأيت لهذا الصوفي الذي يدخله الله في الفلك الأسفل . ويدوره
في ملكوته ، ويريه الأرضين وما تحتها إلى الثرى .. ثم يدخله في الفلك
العلوي ويطوف به في السموات .. ويريه جناته وكل ما فيها إلى
العرش .. ومع هذا لا يستحسن شيئا من كل ذلك .. حتى عرش
الله لم يستحسنه !! .. ولهذا نراه يزعم أن الله قال له بعد أن قال
قوله : « أنت عبدى حقبا » .. يالوقاحة !!

ويروى لنا الجبرتي .. أن علي بن حجازي البيهقي . رأى الشيخ
الدمرداش في السماء ، وأنه قال له : لا تخف في الدنيا ولا في الآخرة
.. وأنه كان يزعم رؤيته للنبي ﷺ في خلوته .. وسمعه يقول لأبي بكر
رضي الله عنه : أسع بنا نطل على زاوية الدمرداشي .. وأنه دخل مرة
على السيد البدوي ورأى النبي ﷺ عنده . فغشى أن يكون واهما في

(٦٣) جواهر المعاني في فيض انتيجاني . لملى حرازم . ج ١ . ص ٩٧

(٦٤) قوت القلوب ، لأبي طالب المكي : ص ١٠٢

رؤية النبي ، ولكن الدمرداش الذي كان عند ضريحه قال له : مد يدك الى النبي فهو حاضر عندي « (٦٥) !!

ويزعم الصوفيون أن شيوخهم يقولون لأنبيء كن فيكون .. فيقول على بن حرازم عن أحد شيوخه : « !نه خليفة ، يملكه الله كلمة التكوين ، متى قال للمشيء كن ، كان من حينه » (٦٦) !!

ويقول أبو السعود : « أعطاني الله التصرف منذ خمس عشرة سنة وتركناه تظرفا » ..

ويعلق ابن عربي على هذا بقوله : « وأما نحن ، فما تركناه تظرفا .. وانما تركناه لكامل المعرفة » (٦٧) !!

ويقول الدبّاغ : « رأيت وليا بلغ مقاما عظيما .. وهو أن يشاهد المخلوقات الناطقة والصامتة ، والوحوش والدرات ، والسموات ونجومها ، والأرضين وكرة العالم بأسرها تستمد منه .. ويسمع أصواتها وكلامها في لحظة واحدة .. ويمد كل واحد بما يحتاجه ويعطيه ما يصلحه من غير أن يشغله هذا عن ذاك » (٦٨) !!

أما التيجاني .. فيحدثنا عن نفسه فيقول : « روحه صلى الله عليه وسلم تمد الرسل والأنبياء .. وروحي تمد الأقطاب والعارفين من الأزل الى الأبد .. وإذا جمع الله تعالى خلقه في الموقف ينادي مناد بأعلى صوته يسمعه كل من في الموقف : يا أهل المحشر ، هذا امامكم الذي كان مددكم منه .. كل ما فاض عن ذوات الأنبياء تتلقاه ذاتي ومنى يتفرق على جميع الخلائق » (٦٩) !!

ويصفه أحد أتباعه بقوله : « اذا توجه أغنى وأقنى ، وبلغ المنى » (٧٠) .

(٦٥) عجائب الآثار . للجبرتي . ج ١ ص ٢٢٠

(٦٦) انظر جواهر المعاني ج ٢ ص ٨

(٦٧) الفصوص . ج ١ ص ١٢٩

(٦٨) الأبريز . للدبّاغ ج ٢ ص ٧٣

(٦٩) جواهر المعاني ، ج ١ ص ١٦ ، ١٧

ويصفه آخر فيقول : « لا يتلقين واحد من الاولياء فيضا من حضرة نبي الا بواسطته » (٧٠) !!

ويقول آخر : « نفوذ بصيرته الربانية التي ظهر مقتضاها من اظهار مضمرات ، واخبار بمغيبات ، وعلم بعواقب الحاجات ، وما يترتب عليها من المصالح والآفات » (٧٠) !!

ويقول البسطامي : « رفعتني — أي الله تعالى — فاقامني بين يديه وقال لي : يا أبا يزيد ، ان خلقي يحبون ان يروك .. غفلت : ربني بوجدانيتك ، وألبسني أنانيتك ، وارفعني الى أحديتك .. حتى اذا رأي خلقك قالوا : رأيناك ، لتكون أنت ذاك . ولا أكون أنا هناك » (٧١) !!

بل ان الموتى — حسب تصورهم — لهم القدرة على التصرف في الوجود !!

يقول الشعراني : « ان شيخى أخذ على العهد في القبة تجاه وجه سيدى أحمد البدوى وسلمنى اليه بيده .. فخرجت اليد الشريفة من القبر وقبضت على يدي .. قال سيدى الثناوى : ينون خاطرك عليه واجعله تحت نظرك .. فسمعت سيدى أحمد يقول من القبر : نعم !!

« ولما دخلت بزوجتى وهى بكر .. مكثت خمسة أشهر لم أقرب منها .. فجاء — أى البدوى — وأخذنى وهى معى . وفرش فرشا فوق ركن قبته ، وطبخ لى حلوى . ودعا الأحياء والأموات اليه .. وقال : أزل بكارتها هنا . فكان الأمر تلك الليلة !!

« وتخللت عن حضورى للمولد .. وكان هناك بعض الأولياء ، فأخبرنى أن سيدى أحمد البدوى كان ذلك اليوم يتكشف الستر عن الصريح ويقول : أبطأ عبد الوهاب .. ما جاء » (٧٢) !!

ويقول عن الحريشى : « قصدته فى حاجة ، وانا فوق سطوح مدرسة أم خوند بمصر .. فرأيتة خرج من قبره يمشى من دمياط الى

(٧٠) جواهر المعانى . المرجع السابق .

(٧١) اتلمع ، للطوسي ، ص ٢٨٢

(٧٢) الطبقات الكبرى ، للشعراني . ج ٢ ص ١٢٥

أن صار بينه وبينى نحو خمسة أذرع فقال : عليك بالصبر .. ثم
اختفى « (٧٣) !!

ويعدد ابن عربى أنواع الكرامات فيقول : « ومنها سماع نطق
الجمادات على مراتب نطقها فى العوائد وخرقها » (٧٤) !!
« ومنها مكالمته للملا الأعلى ومحادثته لهم » (٧٥) !!

وماذا يكون سماع الجمادات أو الحديث مع الملائكة فى الملا
الأعلى الى جانب احياء الموتى الذى يزعمه الصوفيون لأوليائهم ؟ !
فهذا أبو عبيد اليسرى يغزو ومعه دابة ، فتموت .. فيسأل الله
أن يحييها ، فإذا بها تقوم تنفض أذنيها !!
وهذا الدمامينى .. يؤتى له بغراخ مشوية : فيقول : طيرى باذن
الله تعالى .. فتطير !!

وهذا الكيالنى .. يضع يده على عظم دجاجة بعد أن أكلها ويقول
لها : قومى باذن الله .. فتقوم !!
ويموت لأحد تلاميذ يوسف الدهمانى ولد . فيجزع عليه ، فيقول
له الشيخ : قم باذن الله .. فيقوم ويعيش طويلا !!
ويسقط منسل من سطح النارقى : فيموت .. فيدعو الله
فيحييه (٧٦) !!

ويحدثنا الكوهنى عن معجزات سلامة الراضى فيقول : « حملت
أحدى زوجات الاخوان .. وفى التاسع مات الجنين ، وبقي عشرة أيام
ميتا يبطن أمه .. وعند انوضع ذاك هذا الأخ شيخنا فقال : كذلك
يافلان ؟ » وبتمامه تم الوضع طبيعيا كان لم يكن هناك وليد مات منذ
عشرة أيام !!

« وكف بصر أحد الاخوان فذاكر حضرة الأستاذ .. فقال له :
إن كتبت الأمر أبصرت .. فرضى بانشرط فمسح على عينه ، فأبصر » !!

(٧٣) الطبقات الكبرى . ج ٢ ص ١٥٤

(٧٤) مواقع التنجيم . لابن عربى ص ٧٥

(٧٥) المرجع السابق ص ٨١

(٧٦) الكواكب الدرة . لعبد الرؤوف المناوى ، ص ١١

« وكان لبعض وجهاء بندر الجيزة ابنة وحيدة أصابتها الحمى ..
وبعد شفائها خرسست فلم تتكلم أبدا .. فعرضوها على الأطباء سنوات
فلم تشف .. فأحضروها لشيخنا ، ونظر اليها نظرة فسألها عن اسمها ،
فنطقت به وذهب خرسها في الحال » (٧٧) !!

انها نفس المعجزات التي من الله بها على عيسى ابن مريم عليه
السلام ، من ابراء الأكمه والأبرص وأحياء الموتى .. فماذا يكون
التحدث الى الملائكة في الملأ الأعلى أو سماع الجمادات الى جانب احياء
الموتى وبراء الأكمه والأبرص !

وأولياء الصوفية .. يتطورون الى الوحوش والحيوانات وغيرها ..
فهذا الغمري — كما يذكر الشعراني — يدخل عليه محمد بن شعيب فيراه
جالسا في الهواء وله سبع عيون !!

وهذا الشيخ أبو علي : « تدخل عليه تجده جنديا .. ثم تدخل عليه
فتجده سبعا ، ثم تدخل فتجده فيلا .. وكان يقبض من الأرض ويناول
الناس الذهب والفضة »

ويزعم الشعراني .. أن بعض الناس تأمروا على ذلك الشيخ
المتطور الى فيل وسبع ، وأنهم قطعوه بسيوفهم وأخذوه في تليس ..
ثم أصبحوا فوجدوه حيا جالسا (٧٨) !!

ما هذا الهراء .. وما هذا الجنون والخيال ؟

أفذه هي الولاية والكرامة في عرف القوم ؟

اللهم انا نبرأ اليك من تصوراتهم الضالة للولاية والكرامة ..
فإن أولياء الله أكرم عليه من أن يعرضهم الى تلك المهازات التي
يلصقونها بهم (٧٩) .

* * *

(٧٧) طبقات الشاذلية الكبرى . للحسن بن محمد النوهني . ص ٢٥٨

(٧٨) الطبقات الكبرى . للشعراني ج ٢ . ص ٨٠ : ٨١

(٧٩) انظر كتابنا « من وحيا القرآن انكريم » نشر دار التراث العربي

ص ٢١ — ٤١ حيث تجد امثلة كثيرة من هذه الخللات التي يدعونها
لأوليائهم بما يعجز العقل عن تصديقه ..

● يقول فضيلة الأستاذ عبد الرحمن الوكيل : « كانت الجاهلية في اسفافها الوثني أقل حماقة من الصوفية .. وتدبر ما قصه الله عن الجاهلية وشركها . تجدهم كانوا يوحّدون الله في ربوبيته توحيدا حرمت حتى من مثله قلوب الصوفية — ان كانت نهم قلوب !!

.. يقول تعالى : « قل لمن الأرض ومن فيها أن كنتم تعلمون » سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله ، قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه أن كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل فاني تسحرون ^(٨٠) . هذا دين الجاهلية .. ونحن الله لعنهم لعنا كبيرا بشركهم : لأنهم أشركوا بالله في الهيئة . فتخسروا إلى غيره بالدعاء .. أما الصوفية .. فتدين بالقتل والمجرمين : وأوغاد الفاحشة أقطابا يتصرفون في الوجود . ويسيطرون بقهرهم على سنن الله الكونية ونواميس الوجود التي غطرها الله وحده . وهو انذى يصرفها وحده . ويتحكمون في أقدار الله فلا ينفذ منها إلا ما يشتهون !!

لماى الشركين أطفئ بغيا ، وأخبت رجسا !
لقد وحدت الجاهلية الله في ربوبيته . وأشركت به في ألوهيته .. أما الصوفية م غنيتهما عنه . وأنبئتتهما للمفانيك !الصعاليك .. بل انفجرت حتى نفت وجود الله الحق ، ونعته بالعدم الصرف !!

أغيمكن أن يقاس الاتحاد الصوفية بشرك الجاهلية ؟
أم ترى هذا أياز عاسقا .. وترى الاتحاد انصوفى دياجير تطفئ وتتراكم وتطول ، حتى لا يعرف الأبد فيها بدايته أو منتهاه ^(٨١) ؟ !

* * *

● ويحدثنا فضيلة الشيخ عبد الحفيظ مشتغري عن بدع الطرق الصوفية فيقول جزاء الله خيرا :
« من هذه البدع : اعتقاد شمل في المايخ وأنهم لا يخطئون ،

(٨٠) المؤمنون : ٨١ — ٨٦

(٨١) هذه هي الصوفية . لا سمح الله عبد الرحمن الوكيل . ص ١٢٥

وأن من اعترض انطرد .. حتى لو كان الاعتراض على معصية شرعية ،
لأنهم حسب زعمهم ظاهرا وباطنا ، والأشياخ عندهم قد تعصى ولكن
الأرواح باقية على طاعتها ، وأن الولي يملك أربعين شخصية ١١

وكل هذا من الضلال والشرك والكفر الصريح عند من يعتقد في
نفسه أو في غيره .. فكل بنى آدم خطاء ، والعصمة لرسول الله ،
والكمال المطلق لله وحده .. وكان الرسول ﷺ يقول لصحبه :
« إذا نسيت فذكروني » ..

« ومنها اعتقاد النفع والضر في المشايخ .. وأنهم يملكون تصرف
الكون .. بل يعتقد بعض المريدين أن بعض الأولياء يخرجون بعد موتهم
من القبور لقضاء مصالح الناس بأجسامهم !! » وينسبون ذلك لمثل
الشيخ الشرقاوى وأنه كان يذهب كل يوم من قبره لابنته ويشترى كل
شيء من السوق ثم يذهب لقبره ١١ .. مع أن سيد الخلق نفسه
— ﷺ — لم يفعلها قط ١١

« ومن البدع قولهم « يجب على المريد أن يكون بين يدي شيخه
كاليت بين يدي المغسل يوجهه كيف يشاء » ١١

وفي هذا الغاء للشخصية .. مع أن سيد الخلق — ﷺ — كان
يعلم الصحابة ويقول : « سلوني ما شئتم .. فانما أنا لكم مثل الوالد
أعلمكم » .. ويقول تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم
لا تعلمون » (٨٢) .

« ومن بدعهم : لبس المرقعات ، والملونات ، والعمائم الحمراء
والخضراء والسوداء .. الى آخر ما يصنعون ، وما هذه الا عينات
مما يصنعون ١١

« ومنها : وضع السبحة في العنق ، وحملها في اليد من غير ذكر ..
بل مجرد الشهرة ولفت الأنظار ١١

« ومنها : الطواف فى البلاد على المريدين لا باسم . التعليم والارشاد لأمر الدين ، ولكن لجمع تبرعات وفرض أتاوات ترهق الناس .. موهمين البسطاء أن الامتناع عن الدفع سيعرض المنزل كله للخراب — خراب الحيار وقصف الأعمار — ومثلهم فى ذلك مشهور : « قطع الورايد ولا قطع العوايد » !! .. أى أن قطع الوريد والتعرض للموت أهون من قلع العادة فى الدفع للمعلوم » !!

ويقول فضيلته : « ومن مصائبهم .. تقضيل أوراد المشايخ عن كتاب الله ، فتراهم يحفظون الورد مع طوله وعرضه جيذا من كثرة تكراره .. ومعظمهم لا يحسن حفظ سورة من قصار السور !! وهذا أقصى أنواع الحرمان والخزلان .. فايثار أى كلام على كلام الله شقاء وتعاسة ..

« ومن بدعهم .. كتابة الأحجية والتعاويذ ، وبالييتها بالمآثورات الإسلامية .. ولكن قد يكتب فيها أسماء الجن والأصنام .. وقد تبرأ الأئمة من ادعاء العصمة ، وقال أبو يزيد البسطامى : « لو نظرتم الى رجل أعطى من الكرامات حتى طار فى الهواء ، أو مشى على الماء » (٨٣) .. فلا تغتروا به حتى تنظروا اليه عند الأوامر والنواهي والحدود الشرعية » .. ومثل ذلك قال أبو القاسم الجنيد ..

« ومنها — أى هذه البدع — : اللحن فى أسماء الله عند الذكر ، والتشويش به فى المساجد ، واللعن فى بقية الفرق كأهل النار : « كلما دخلت أمة لعنت أختها » (٨٤) .. فكل فرقة تدعى أن طريقها الصواب وغيره هو الخطأ !!

« ومنها : الرقص . والتصفيق : والصفارة ، والتهريج .. وقولهم : « العبرة بالقلوب » .. وقولهم : « بيض قلبك وامشى فى ظلها » .. وقولهم : « إذا زادت المحبة سقطت شروط الكلفة والأدب » !!

١٨٣) وهذا ينبع من عيب التمييز والمبالغة فيه . فالعقل يحيل أن يطير انسان فى الهواء أو يمشى على الماء .. وما رأينا انسانا يفعل ذلك الا فى ادعاءاتهم ..

« ويزعمون أن المتصوف يمكنه أن يصل إلى حالة يصل فيها إلى الله فيسقط عنه التكليف .. مع أن الله قال لرسوله ﷺ : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (٨٥) .. أي الموت ..

وقال عن عيسى عليه السلام : « وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا » (٨٦) .. فكانهم يزعمون أنهم أعلى شأنًا من الرسل !!

ولقد سمع الرسول ﷺ أصحابه ذات يوم في سفر يرفعون أصواتهم بالذكر فقال : « أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا .. ولكن تدعون سميعا بصيرا وهو معكم » .. وفي رواية : « هو أقرب إليكم من أعناق رواحلكم » ..

« والسنة : الذكر في خفاء ، والانفراد فيه عن الخلق : « خير الذكر الخفي » .. ويقول تعالى : « وانكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالفضو والأصال ولا تكن من الغافلين » (٨٧) ..

« ومن شركهم : أوامرهم لمريديهم أن يلاحظوا مشايخهم في أثناء الذكر .. وأن يكون المريد منغمض العين ، ولكن قلبه لا بد أن يلاحظ صورة شيخه ليستمد منه المدد ومن رجال السلسلة كلهم والأقطاب والأوتاد والخلفاء والنقباء » (٨٨) ا هـ

* * *

(٨٦) مريم : ٣١

(٨٥) الحجر : ٩٩

(٨٧) الأعراف : ٢٠٥

(٨٨) هذه دعوتنا ، للشيخ عبد التطيف مشتهري - نشر دار الاعتصام ،

ص ٢٣٧ — ٢٤٢ بتصرف ..

الفصل السابع

ادعاء العلم بالغيب .. وانكشاف الحجب

قضية الغيب .. من أخطر القضايا التي اهتم بها الاسلام ..
وحرص القرآن الكريم في كثير من آياته على تأكيد انفراد الله وحده
بعلم الغيب ..

يقول تعالى : « هو الله الذي لا اله الا هو ، عالم الغيب والشهادة ،
هو الرحمن الرحيم » (١) .

ويقول جل شأنه : « والله غيب السموات والأرض واليه يرجع
الأمر كله » (٢) .

فالله تعالى .. هو الاله المعبود الذي لا تتبغى العبادة والألوهية
الا له .. وهو عالم غيب السموات والأرض ، وشاهد ما فيهما مما يرى
أو يحس .. وهو رحمن الدنيا والآخرة ، الرحيم بأهل الايمان خاصة ..
وعنده تعالى خزائن الغيب .. وله وحده علم ما غاب عن خلقه
فلم يدركوه مما استاثرت تعالى بعلمه .. فلا يعلم من ذلك شيئا
الا هو سبحانه ..

ولله وحده منك ما غاب وخفى في السموات والأرض .. وكل
ما فيهما بيده ويعلمه ، لا يخفى عليه منه شيء ، واليه وحده معاد كل
عامل من خلقه .. فيقتضى بين عباده بحكمه وعدله ..
الله وحده .. هو الذي يملك مفاتيح الغيب ، ولا يملكها
أحد سواه ..

وهو وحده انذى يعلم ما في البر وما في البحر ..

(١) الحشر : ٢٢

١٢١ هود : ١٢٣

(١٤ - الله توحيد)

وهو وحده الذى يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام ..
وهو وحده الذى يعلم متى تقوم الساعة .. ويعلم آجال الناس
وأرزاقهم .. والناس لا يدرون ماذا يكسبون فى غدهم ، ولا يعرفون
متى تحين آجالهم ، ولا بأى أرض يموتون ..

يقول تعالى : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم
ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات
الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم
بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ،
ثم إليه مرجعكم ثم يفتكم بما كنتم تعملون » (٣) .

أى أنه تعالى يملك خزائن الغيب ، وعنده علم ما غاب عن خلقه
فلم يدركوه ، مما استأثر تعالى بعلمه ، لا يعلم ذلك الا هو .. ويعلم
أيضا كل ما حواه البر والبحر ، ولا يخفى عليه شئ منه ، وما تسقط
من ورقة فى الصحارى والبرارى ، ولا فى القرى والأمصار ، الا والله
يعلمها .. ولا شئ مما هو موجود أو سيوجد ، الا وهو مثبت فى اللوح
المحفوظ مكتوب فيه .. وهو تعالى يتوفى أرواحنا بالليل فيقبضها من
أجسادنا ، ويعلم ما كسبنا من الأعمال بالنهار .. [وفى هذه الآية
اختجاج على المشركين الذين ينكرون قدرته تعالى على احيائهم بعد
مماتهم ، وبعثهم بعد فنائهم ، فان الذى يقبض أرواحهم فى المنام
ويبعثهم فى النهار ، قادر على احيائهم بعد مماتهم ورد أرواحهم الى
أجسادهم] ثم يوقظنا تعالى من منامنا فى النهار لنبلغ المدة التى حددها
لحياتنا .. ثم إليه تعالى معادنا ومصيرنا ، ثم يخبرنا بأعمالنا ويجازينا
عليها .. ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ..

ثم يقول تعالى : « وهو القاهر فوق عباده » : أى أنه تعالى هو
الغالب على خلقه ، العالى عليهم بقدرته .. لا المقهور المعلوم عليه لذاته ..
كأوثانهم وأصنامهم وكل ما عبد من دون الله ..

ويقول جل شأنه : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » (٤) .

أى أنه تعالى يعلم ما تحمل كل أنثى من خلق الله ، أذكر هو أم أنثى ، وما تنقصه الأرحام من حملها فى الأشهر التسعة ، وما تزداد على هذه الأشهر ، والظاهر — والله أعلم أن المراد بالغيض السقط والولادة لأقل من تسعة أشهر ، والزيادة إبقاؤه أكثر من تسعة أشهر . . وكل شيء عند الله تعالى بقدر محدد ، لا يجاوزه ولا يقصر عنه . . فهو تعالى يعلم ما خفى عن الأبصار وما تشاهده الأبصار . . وهو الكبير الذى كل شيء دونه ، المستعلى على كل شيء بقدرته . . ويتساوى عنده تعالى من أخفى القول منا ومن جهر به ، ومن هو مستخف بمعصية الله فى ظلمة الليل ومن هو ظاهر بالنهار فى ضوءه . . لا يخفى عليه شيء من ذلك . . فالسر وانجهر عنده سواء ، والمستخفى فى بيته والخارج بالنهار عنده سواء . .

ويقول جل وعلا : « ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، ان الله عليم خبير » (٥) .

فالله تعالى — وحده — الذى يعلم الساعة التى تقوم فيها القيامة ، لا يعلم ذلك أحد غيره . . وينزل المطر من السماء ، لا يقدر على ذلك غيره . . وهو وحده يعلم ما فى أرحام الاناث . . وما تعلم نفس حى ماذا تعمل فى غد . . وما تعلم نفس حى بأى أرض تكون منيتها . . ان الذى يعلم ذلك كله هو الله . . دون كل أحد سواه ، لأنه عالم بكل شيء . . خير بما هو كائن وما قد كان . . وهذه هى المعينات الخمس التى استأثر الله عز وجل بعلمها ، وفى الحديث الصحيح : « مفاتيح الغيب خمس ، لا يعلمهن الا الله » . . وتلا الآية . (أخرجه البخارى) . .

ويقول سبحانه : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » (٦) .

فما يغيب عنه تعالى ، ولا يخفى عليه أصغر الأشياء ولا أكبرها ، من زنة النملة الصغيرة أو ذرة التراب أو الهباءة — التي تدخل من كوة النافذة مع شعاع الشمس — لا في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من مثقال الذرة ولا أكبر منها .. إلا هو في كتاب عند الله واضح هو اللوح المحفوظ .. يخبرنا تعالى أنه لا يخفى عليه أصغر الأشياء وإن خفى في الوزن ، ولا أكبرها وإن ثقل وزنه .. وأنه لا يغيب عنه تعالى علم شيء من خلقه ، حيث كان في سمائه وأرضه ..
فالله تعالى .. هو وحده العليم بالأشياء كلها ..

وهو وحده : السميع .. وسمعه تعالى بلا أذن وبلا اهتزاز للهواء ..
يسمع — سبحانه — ما في البحر ، وما فوق السموات حيث لا هواء ولا اهتزاز .. يسمع القريب والبعيد — القريب منا نحن والبعيد عنا ، إذ لا بعيد عنه أو قريب منه — لأنه سبحانه موجود في كل الوجود ..
أنه تعالى يسمع ما يجول بخاطر الإنسان .. فهو يسمع ما لم يتحدث به من حديث أم يصل بعد إلى طور الكلمات ، ولم يخرج بعد إلى حيز الأصوات .. سبحانه وتعالى هو السميع العليم ، فلا تخفى عليه تعالى أصوات خلقه في سمائه أو أرضه .. فهو المدرك للمسموع وإن خفى ، لا يفوت سمعه شيء .. ولا يشغله نداء عن نداء ..

وهو وحده الذي يسمع النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء ..

والله تعالى .. هو البصير .. وبصره تعالى يختلف عن بصرنا .. فنحن عندما نرى ، فلنعرف ما لم يسبق لنا معرفته ، أو لنزداد به معرفة وعلمًا .. فكلما رأينا عرفنا أكثر ..

ولكنه سبحانه وتعالى سبق في علمه ما يراه .. فما يراه يعلمه .. وما يعلمه يراه .. ولا يسبق أحدهما الآخر ..

ونحن نرى بقدر ما تمكنه لنا أجهزة البصر ، وهي العيون ..
ولكنه جل شأنه تعالى عن الشبه ، وتترزه عن المثل .. فلا عين له ولا جهاز
يرى به .. ولكنه يرى بقدرته . وقدرته لا تحد .. ويرى بعظمته ،
وعظمته لا تنتهى .. ولذلك فهو يرى ما خفى وما ظهر ، وما وضع
وما استتر ، فلا يخفى عليه خافية ولا يحتجب عنه أى مستتر .

والله تعالى لا يحد بصره حدود .. فهو سبحانه الذى يشاهد
ويرى . ولا يغيب عنه ما فى السموات العلا ، وما فى الأرض وما بينهما
وما تحت الثرى .. وهو سبحانه الحاضر الذى لا يغيب ..

والله تعالى .. هو اللطيف الخبير ..

لطيف .. يفيض بالخير كل الخير على عباده برفق ورحمة ..

لطيف .. علیم بدقائق الأمور . خافيتها وباطنها .. فهو وحده
العلیم بخفيات الأمور .. أنبر بعباده الذى يلف بهم من حيث
لا يعلمون ، ويهيء مصالحهم من حيث لا يحتسبون .

خبير .. يسمع ويبصر ويعلم .. ويعلمه الذى احتوى الوجود
وما قبله وما بعده .. يأمر فيكون .. وما أمره فى كل انكون ووحداته ،
والانسان فى مختلف حالاته ، الا لأنه الخبير ..

خبير .. يعلم الخير فيما أراد : مما يصلح الوجود والعباد ..

خبير .. يعلم من الانسان كل ما يعمل .. ويعلم كل الجوانب
والدوافع والأهداف وانواعها التى كانت فى الانسان فى عمله ، وكانت
منه فى صنعه ..

خبير .. لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، ولا تتحرك
حركة ولا تسكن ساحة فى سموات والأرض الا ويعلم مستقرها
ومستودعها ..

الله تعالى وحده على كل شئ ، قدير ، لا يعجزه شئ .. أى شئ ..

وفى استناعته جل شأنه أن يفعل ما يشاء ، كيف يشاء وأنى يشاء
.. لا يتقيد فى ذلك بأسباب ، ولا يأخذ الأمر منه أى جهد أو حساب ..

وهو وحده .. الذي يعلم غيب السموات والأرض .. عالم الغيب
والشهادة .. هو الكبير المتعال ..

يقول تعالى : « قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب
الا الله » (٧) .. يستوى في ذلك الملائكة ، والأنبياء والرسل ، والانس ،
والجن (٨) ..

● الملائكة .. لا تعلم الغيب ، يقول تعالى : « واذا قال ربك
للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها
ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال اني أعلم
ما لا تعلمون - وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال
أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين - قالوا سبحانك لا علم لنا
الا ما علمتنا ، انك أنت العظيم الحكيم - قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ،
فلما أنباهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والأرض
وأعلم ما تبشرون وما كنتم تكتمون » (٩) .

قال تعالى للملائكة : اني مستخلف في الأرض خليفة ، يخلفني
في الحكم بين خلقى — وذلك هو آدم — فقالت الملائكة — على سبيل
الاسترشاد والاستخبار ، لا على سبيل الاعتراض والانكار — : أعلمنا
ياربنا ، أجاعل أنت في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء ، وتارك
أن تجعل خلفاءك منا ؟ ونحن نعظمك بالحمد لك والشكر لا — والتسبيح
هو التثنية ، والقديس هو التطهير والتعظيم — فقال تعالى : اني أعلم
ما خفى عليكم من شأن آدم وابليس .. وأعلمه تعالى أسماء كل شيء ،
أسماء ذريته وأسماء الملائكة ، ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة قائلاً :
أخبروني بأسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم أيها الملائكة ، ان كنتم

(٧) النمل : ٦٥

(٨) أفضنا في شرح هذه المسئلة في النفس الخامسة من كتابنا :
« من وصايا القرآن الكريم » الذي قامت بطبعه ونشره دار التراث العربي
فليرجع اليه من يشاء .»

(٩) البقرة : ٣٠ — ٣٣

صادقين في دعوكم أنكم ان استخلفتكم في أرضي سببتموني
وقدستموني ، وان استخلفت فيها غيركم عصاني ذريته ، وأفسدوا في
الأرض وسفكوا الدماء .. فقالت الملائكة : نسبحك ياربنا تسبيحا ،
وننزهك تنزيها ، ونبرئك من أن نعلم شيئا غير ما علمتنا ، فأنت ياربنا
وحدثك العالم للغيوب دون جميع خلقك ، ذو الحكمة انتامة .. فقال
تعالى : يا آدم . أخبر الملائكة باسماء هؤلاء الذين عرضتهم عليهم فلم
يعرفوهم .. فلما أخبرهم آدم بأسمائهم قال لهم ربهم عز وجل :
ألم أقل لكم — أيها الملائكة — أني أعلم غيب جميع السموات والأرض ،
لا يعلمه غيري ، وأعلم ما تظهرون بالسنتكم من قولكم « أتجعل فيها
من يفسد فيها » ؟ وما كنتم تخفونه في أنفسكم من قولكم : « لن يخلق
ربنا خلقا الا كنا نحن أعلم منه وأكرم » .. فانا وحدي لا يخفى علي
أي شيء من الأشياء ..

وانا أن نتساءل .. هل لو كانت الملائكة تعلم الغيب لم أكانت تعجز
عن معرفة الأسماء التي علمها الله تعالى لآدم ، في حين أن مسمياتها
كانت معروضة عليهم ؟ .. بل انهم عجزوا حتى عن قراءة أفكار آدم
عليه السلام وكانت هذه الأسماء قد انطبعت على صفحاتها .. ولهذا لم
يجدوا الا أن يقولوا : « سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا » .. ويرد عليهم
تعالى بقوله : « ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والأرض » .

● والرسول انكرام .. ان الذين اصطفاهم الله تعالى ، وأرسلهم الى
الناس بالهدى والايمان مبشرين ومنذرين .. هؤلاء الرسل لا يعلمون
الغيب ، الا ما ارتضاه الله لهم ، وأوحاه اليهم ليكون دليلا على صدق
رسالتهم ..

يقول الامام الذهبي في تفسير قوله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر
على غيبه احدا . الا من ارتضى من رسول » (١٠) : قال ابن الجوزي :
« عالم الغيب » هو الله عز وجل : لا شريك له في ملكه .. « فلا يظهر »
أي : فلا يطلع « على غيبه » الذي لا يعلمه احد من الناس « الا من

ارتضى من رسول « لأن الدليل على صدق الرسل اخبارهم بالغيب ..
والمعنى : أن من ارتضاه للرسالة أطلعه على ما شاء من الغيب ..
وفى هذا الدليل على من زعم أن النجوم تدل على الغيب . فهو كافر
والله أعلم » (١١) .

● يقول جل شأنه عن آدم عليه السلام : « واذ قلنا للملائكة
اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين .
وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما
ولا تقريا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فآزلهما الشيطان عنها
فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى
الأرض مستقر ومتاع الى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ،
انه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا ، فاما يأتينكم منى هدى
فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١٢) .

يقول تعالى : اذكروا فعلى بكم اذ ائمت عيتم فخلقت لكم ما فى
الأرض جميعا ، فقلت للملائكة : انى جاء فى الأرض خليفة ، فخرمت
أباكم « آدم » بما آتيته من علمى وفضلى وتراهمى .. واسجدت له
ملائكتى فسجدوا جميعهم الا ابليس امتنع عن السجود لآدم . وتخير
عن طاعة الله ، وكان من الجاحدين لنعم الله : الآخرين بالله حين أبى
السجود ، — فسجد الملائكة لآدم تكريما له وطاعة لله ، لا سجود
عبادة لآدم — وقال تعالى : يا آدم اسكن مع زوجتك فى الجنة الخلد وكلا
من ثمار الجنة أكلا واسعا هنيئا لا عناء فيه ولا تعب .. كلا من أى
مكان شئتما فيها ، ولكن لا تقريا هذه الشجرة — وعينها نهما — انكم ان
فعلتم وأكلتم من ثمارها تكونا من المتعدين حدود الله .. فاستزلهما
الشيطان وأوقعهما فى الخطيئة والزلل عن طاعة الله وأغواهما غائلا
منها .. فأخرج الله تعالى آدم وزوجته مما كانا فيه من رعد المينى
وسعة نعيم الجنة .. وقال لهما ولا بليس : اهبطوا الى الأرض .

(١١) الكبائر ، للإمام الذهبى — نشر دار التراث العربى . ص ٢٥

(١٢) البقرة : ٣٤ — ٣٨

بعضكم أعداء بعض ولكم فى الأرض منازل ومساكن تستقرون عليها ، واستمتاع بما فيها من المعاش والرياش ، والزينة واللذة الى حين انقطاع الدنيا .. ثم أوحى تعالى لآدم بكلمات يقولهن ليتوب عليه فتقبلهن وعمل بهن وهى قوله : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » (٢١) .. فتاب ربه عليه حين تنصل من خطيئته نادما على ما سلف من الذنب ، لأنه تعانى التواب على من تاب من ذنبه ، المتفضل بالرحمة والصنح عن الجرم .. وكان حكمه تعالى وقضاؤه : اهبطوا جميعا — آدم وحواء وإبليس — من السماء الى الأرض ، فان يأتكم — يابنى آدم — منى بيان ورشاد ، فمن اتبع بيانى الذى أبغته على لسان رسلى ، فلا خوف عليهم من أهوال يوم القيامة ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم فى الدنيا ..

ونقول : لو كان آدم عليه السلام يعلم الغيب .. هل كان يأكل من الشجرة التى حرمها الله عليه ، فى حين أن خروجه من الجنة مترتب على آكله منها ؟ !

● ويقول تعالى عن نوح عليه السلام : « وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » واصنع الفلك باعيننا ووحينا ولا تخاطبني فى الذين ظلموا ، انهم مغرقون » (٢٢) .

أوحى تعالى ذلك اليه بعد ما دعا عليهم نوح بالهلاك ، والمعنى : ان يصدق بك ويتبعك على دعوتك ! لا من قد آمن من أتباعك ، فلا تأس ولا تحزن عليهم ، فانى مهلكهم ومنتذك منهم ، واصنع السفينة كما تأمرك تحت نظرنا وبحفظنا : وبتعليمنا لك كيف تصنعها .. ولا تسألنى العفو عن هؤلاء الضالين غانى مغرقهم بالطوفان ..

فلما جاء وعد الله بالطوفان ، وغار تنور الخبز الذى جعل الله فورانه علامة على مجيء العذاب .. وأهلك الله الكافرين وفى عدادهم

كنعان بن نوح الذى عصى أباه وهلك مع الهالكين .. نادى نوح ربه قائلاً :
 « رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ..
 قال يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس
 لك به علم ، انى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب انى أعوذ بك أن
 أسألك ما ليس لى به علم ، والا تغفر لى وترحمنى أكن من
 الخاسرين » (١٤) .

يقول نوح عليه السلام لربه : يارب ، ان ابنى من أهلى وقد وعدتنى
 بنجاتهم ، ووعدك الحق الذى لا يخلف ، وأنت الحاكم بالحق ، فاحكم
 لى بما وعدتنى من نجات أهلى . فقال تعالى : انه ليس من أهلك الذين
 وعدتك أن أنجيهم معك ، انه عمل عملاً غير صالح ، لقد أخبرتك عن سبب
 اهلاكي ابنك ، فلا تسألنى بعدها عما قد طويت علمه عنك ، انى أعظك
 أن تكون من الجاهلين فى سؤالك هذا .. فقال نوح : أستجير بك يارب
 أن أتكلف مسألتك مما قد استأثرت بعلمه ، وان لم تغفر لى زلتى ،
 وتنقذنى من غضبك ، أكن من الهالكين ..

لو كان نوح عليه السلام يعلم الغيب .. هل كان يراجع ربه
 فى أمر ابنه ، فى حين أنه مكتوب فى عداد العاصين الهالكين ؟ !

● ويقول جل وعلا عن ابراهيم عليه السلام : « ولقد جاءت
 رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما ، قال سلام ، فما لبث أن جاء
 بعجل حنيذ . فلما رأى ايديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم
 خيفة ، قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط » (١٥) .

جاءت الملائكة ابراهيم بالبشارة ، تبشره باسحاق — وقيل تبشره
 بهلاك قوم لوط — فسلموا عليه سلاما . قال : عايكم السلام ، فما تأخر
 حتى جاءهم بعجل مشوى نصيب وقربه اليهم ليأكلوا .. فلما رأى أنهم
 لا يأكلون من الطعام الذى قدم اليهم أنكر ذلك عليهم ، وأحس منهم
 فى نفسه خوفا .. قالت الملائكة : لا تخف منا انا ملائكة ربك ، أرسلنا
 الى قوم لوط لاهلاكهم ..

لو كان إبراهيم عليه السلام يعلم الغيب .. أكان يذبح العجل للملائكة وهو يعلم أن الملائكة لا تاكل ولا تشرب ؟ !

● ويقول تعالى عن لوط عليه السلام : « ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب • وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون انثسينات ، قال يا قوم هؤلاء بناتى هن اطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى صيفى ، اليس منكم رجل رشيد • قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد • قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد • قالوا يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك ، فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك ، انه مصيبها ما اصابهم ، ان موعدهم الصبح ، اليس الصبح بقريب » (١٦) .

لما جاءت الملائكة لوطا ساءه مجيئهم ، وضاعت نفسه غما بمجيئهم ، خوفا على خيوفه من قومه انفجار أن يفحشوا بهم ، لأنه لم يعرف أنهم ملائكة .. وقال : هذا يوم بلاء وشدة ، شديد شره وبلاؤه • وجاء قوم لوط يسرعون اليه ويهرعون طلبا للفاحشة — وكان أولئك القوم يأتون الذكران فى أدبارهم — قال لهم لوط : يا قوم هؤلاء النساء انكحوهن فهن اطهر لهن • واخشوا الله وخافوا عقابه ، ولا تذلونى فى ارتكاب الفاحشة فى خيوفى ، اليس فيكم — أيها القوم — رجل فيه رشد ينهى عن المنكر ؟ ! .. فقالوا له : لقد علمت أنه لا رغبة لنا فى النساء ولا مطمع لنا فيهن • وانك لتعلم أن حاجتنا فى غير النساء ، وأنا نريد الرجال .. قال لهم لوط حين أبوا الا الفاحشة : لو أن لى أنصارا وأعوانا يعينونى عليكم ، أو انضم إلى عشيرة مانعة تمنعنى منكم ؟ ! — لو كان هذا أو ذاك لحلت بينكم وبين ما تريدونه فى أضيافى .. فقالت الملائكة : يا لوط ، انا رسل ربك ، أرسلنا لاهلاك قومك ، وانهم لن يصلوا اليك ولا الى خيفتك بمكروه ، فهون عليك الأمر ، فاذا كان الليل فاخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ، ولا ينظر منكم أحد وراءه

الا امرأتك فلا تخرج بها لأنها على شريعة قومها وسيصيبها ما أصاب قومك من العذاب ، وان موعد هلاكهم الصبح .. فقال لوط : بل عجلوا لهم الهلاك .. فقالوا : أليس الصبح بقريب ؟ !

لو كان لوط عليه السلام يعلم الغيب .. هل كان يقف ذلك الموقف العصيب مستميتا في الدفاع عن أضيافه ضد رغبة قومه الآثمة ، في حين أنهم ملائكة أرسلهم الله لاهلاك أولئك القوم ؟ !

● ويقول جل شأنه عن يعقوب عليه السلام : « قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، عسى الله أن ياتيني بهم جميعا ، انه هو العظيم الحكيم . وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا تالله تفتنوا تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين . قال انما أشكوا بشى وحزننى الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون . يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تياسوا من روح الله ، انه لا يياس من روح الله الا القوم الكافرون » (١٧) .

عاد اخوة يوسف عليه السلام بعد أن تركوا أخاهم « بنيامين » في مصر في كنف أخاه يوسف عليه السلام .. وقالوا لأبيهم : يا ابانا ان ابنك بنيامين قد سرق وأخذ بسرقة .. فقال لهم : بل زينت لكم أنفسكم أمرا أردتموه ، فصبري صبر جميل لاجزع فيه ولاشكاية فلعل الله أن يرد أولادى على جميعا فهو وحده العالم بأمرى الحكيم في تدبيره .. وأعرض عن أولاده وقال : يا حزننا على يوسف بعد أن هيج فقد بنيامين حزنه على أخيه وذكره بمصابه الأول فالأسى يبعث الأسى .. وابيضت عينا يعقوب من شدة الحزن ففقد بصره بعد أن امتلأ قلبه بالحزن والكمد .. فقال له أولاده : نقسم بالله لا تزال تذكر يوسف حتى تكون ضعيف الجسم مخبول العقل أو تكون من الهالكين بالموت .. فقال لهم : لا أشكو همى وحزننى الا الى الله وحده ، وأعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأنى سأسجد له .. اذهبوا الى الأرض التى تركتم

بها أخوكم بنيامين وتعرفوا خبره وخبر أخوه يوسف .. ولا تقنطوا
من رحمة الله أن يرد علينا يوسف لأنه لا يقنط من فرجه ورحمته
إلا القوم الجاحدون بقدرته ..

في هذا الوقت .. كان يوسف عليه السلام وزيرا على مصر ..
وكان أخاه بنيامين في تنقه ورعايته .. فهل كانت عينا أبوهما تبيضان
ويكف بصرهما من الحزن والبلاء عليهما وهذا هو حالهما ؟ !

● ويقول تعالى عن موسى عليه السلام : « فلما قضى موسى الأجل
وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا اني آنست
نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطنون . فلما
آتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة
ان ياموسى انى أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتز
كانها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، ياموسى أقبل ولا تخف ، انك من
الأمين » (١٨) .

لما وفى موسى لتسليم — عليهما السلام — الأجل الذى كان
بينهما .. سار بأهله مسافرا بهم الى مصر : فأبصر من جانب الجبل
نارا تتقد ، فقال لأهله : انتظروا ! فقد أبصرت نارا لعلي آتيكم منها
بخبر عن الطريق الذى أضللناه : أو آتيكم بقطعة من الحطب فيها النار
تستدفئون بها من البرد .. فلما وصل — عليه السلام — النار ، ناداه
الله تعالى من جانب البرادى الذى هو عن يمين موسى فى ذلك المكان
المبارك عند الشجرة : يا موسى أنا الله رب العالمين ، اطرح عصاك التى
تحملها فآلقها .. فلما رآها تتحرك فأنها جان من الحيات ، ولى هاربا
منها ولم يرجع على عقبه ، غنودى : أقبل ولا تخف من الذى تهرب منه .
فانك فى أمان من أن يضرک ..

ونقول : لو كان موسى عليه السلام يعلم الغيب ، أكان يفرع ويفر
من عصاه غي حين أنها ستعود عصا كما كانت ؟ !

● ويقول جل شأنه عن داوود عليه السلام : « وهل أتاك نبا
الخصم اذ تسوروا المحراب • اذ دخلوا على داوود ففرع منهم ،
قالوا لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق
ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط • ان هذا أخى له تسع وتسعون
نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني فى الخطاب • قال لقد ظلمك
بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على
بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داوود
انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا واناب • فغفرنا له ذلك ، وان له عندنا
لزلفى وحسن مآب » (١٩) •

يقول تعالى لنبيه : هل أتاك يامحمد خبر الخصم اذ دخلوا أشرف
مكان فى دار داوود من غير باب ، فلما دخلوا عليه خاف من دخولهما
من غير المدخل فقالوا له : لا تخف يا داوود ، نحن خصمان ، تعدى أحدهما
على صاحبه بغير حق فاقض بيننا بالعدل ولا تجر ، ولا تسرف فى
حكمك بالميل مع أحدهما على صاحبه ، وأرشدنا الى قصد الطريق المستقيم
• ثم قال أحدهما : هذا أخى فى الدين ، له تسع وتسعون نعجة ،
ولى نعجة واحدة • فقال لى : انزل لى عنها وضمها لى ، وغلبنى فى
مخاطبته لأنه أبين حجة ، وأشد قوة • فقال داوود عليه السلام الخصم
المتظلم من صاحبه : لقد ظلمك صاحبك بسؤاله نعجتك الى نعاجه ،
وان كثيرا من الشركاء ليعتدى بعضهم على بعض ، الا الذين آمنوا
بالله وعملوا بطاعته ، وانتهوا الى أمره ونهيه فلم يتجاوزوه وقليل
ما تجدهم • ثم علم داوود عليه السلام أن الله قد ابتلاه بارسال
الملائكة اليه على هذا النحو • فسأل ربه غفران ذنبه وخر ساجدا لله ،
وتاب عن خطيئته • فعفى الله عنه وصفح له عن خطيئته ، ووعد
بالقربى منه يوم القيامة ، وبحسن المرجع والمنقاب ينقلب اليه (٢٠) •

(١٩) سورة ص : ٢١ — ٢٥

(٢٠) يقول ابن كثير — رحمه الله : قد ذكر المخسرون ههنا قصة
أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم صلى الله عليه
وسلم حديث يجب اتباعه ، فالأولى أن يتنصر على مجرد تلاوة هذه القصة ،
وان يرد علمها الى الله عز وجل : فان القرآن حق ، وما تضمنه حق •

هل كان داوود عليه السلام — لو كان يعلم الغيب — يجلس للقضاء بين الخصمين . وقد أرسل فتنة له فلم يعرف أنهما من رؤساء الملائكة ؟ !

● ويقول تعالى عن سليمان عليه السلام : « وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدد أم كان من الغائبين . لأعذبه عذاباً شديداً أو لأنبخته أو ليأتيني بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين . انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم . وجئتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا اله الا هو رب العرش العظيم » (٢١) هـ

جمع لسليمان عليه السلام جنوده من جميع الأجناس فى مسير لهم ، وتفقد عليه السلام أنواع الدليل فقال : ما الذى جعلنى لا أرى الهدد ؟ الأخطاء بحرى فلم أره وقد حضر ؟ أم هو غائب لم يحضر ؟ .. فلما أخبر أنه غائب أقسم ليعذب الهدد عذاباً شديداً أو ليقتلنه ان لم يأت به حجة واضحة تبين لسامعها صحتها .. فمكث سليمان وقتاً قصيراً حتى جاءه الهدد .. فسأله عليه السلام عن تذلفه وغيبته .. فقال : أحطت بعلم لم تحط به أنت ، وجئتك من سبأ بخبر يقين .. لقد وجدت امرأة تملك سبأ ، وقد أوتيت كل شئ غنى الدنيا من العتاد والآلة ، ولها عرش عظيم من ذهب قرائمه من الجواهر واللؤلؤ ، ووجدت هذه المرأة وقومها يعبدون الشمس فبسجدون لها ، وحسن لهم إبليس عبادتهم هذه فمنعهم بذلك أن يتبعوا دين الله الحق ، فهم لا يهتدون له ولا يسلكونه .. زين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا لله الذى يخرج المخبوء فى السموات والأرض من الغيب والنبات ، ويعلم السر من أمور خلقه والعلانية .. فهو وحده الذى لا معبود سواه ، ولا تصلح العبادة الا له ، مالك العرش العظيم .. الذى تلى عرش — وان عظم — فدونه ..

أكان سليمان عليه السلام — لو كان يعلم الغيب — يبحث عن الهدم حين لم يجده بين الطير فيتوعده بأشد العقاب ؛ وهو غي سبأ يطالع من أحوالها ما يجهل ؟ !

● ويقول جل شأنه عن مريم ابنة عمران : « واذكر في الكتاب مريم إذ انتبخت من أهلها مكانا شرقيا • فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا • قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا • قال انما انا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا » (٢٢) ..

يقول الله انبييه : واذكر في كتاب الله المنزل مريم ابنة عمران حين انفردت واعتزلت عن أهلها ، في موضع قبل منسرق الشمس ، فاتخذت من دون أهلها سترا يسترها عن الناس فأرسلنا إليها جبريل ، ففتشبه لها في صورة آدمى معتدل الخلقة • • فقالت : انى أستجير بالرحمن منك أن تقال منى ما حرمة الله عليك ان كنت تتقى محارم الله — خافته مريم وظنته رجلا يريد ما على نفسه بفعل الفاحشة — فقال لها جبريل : انما انا رسول ربك يا مريم أرسلنى اليك لأمنحك غلاما طاهرا من الذنوب • •

نقول : لو كانت مريم عليها السلام تعلم الغيب • • أكانت تفزع وتتعوذ من جبريل عليه السلام ، في حين أنه روح الله أرسله إليها بالبشرى ؟ !

● وحادثة الافك • • وما أدراك ما حادثة الافك ؟ !

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ اذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه ، فأيتهم خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه • • فأقرع بيننا في غزوة غزاها ، فخرج سهمى ، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجاب • • فآنا أحمل في هودجى وأنزل فيه ، فسرنا حتى اذا غرغ رسول الله ﷺ في غزوته تلك وقفل ، ودنونا من المدينة قاعلين ، آذن ليلة بالرحيل • •

فممت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت الى رحلي .. فاذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع .. غالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه .. وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجى فرحلوه على بغيرى الذى كنت ركبت وهم يحسبون أنى فيه ..

وكان النساء اذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم ، انما ناكل البقرة من الطعام .. فلم يستكر القوم شفة الهودج حين رفعوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ..

فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ، فجنّت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب .. فأممت منزلى الذى كنت به ، وظننت أنهم سيفقدونى فيرجعون الى .. فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت ..

وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى من وراء الجيش ، فادلج فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد انسان قائم ، فأتاني فعرفنى حين رآنى — وكان يرانى قبل الحجاب — فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخرمت وجهى بجلبابى ، والله ما كلمنى كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحته فوطئ على يديها فركبتها .. فانطلق يقود بى الراحلة ، حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة .. فهلك من هلك .. وكان الذى تولى الافك عبد الله ابن أبى بن سلول ..

فقدمنا المدينة فاشتكت حين قدمت شهرا .. والناس يفيضون فى قول أصحاب الافك ، لا أشعر بشئ من ذلك وهو يرينى فى وجعى ثم ينصرف ، فذاك الذى يرينى ولا أشعر ..

حتى خرجت بعد ما نقيت .. فخرجت معى أم مسطح قبل المناصب انى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كان فيه حين أشتكى .. انما يدخل على رسول الله ﷺ فيسلم ، ثم يقول : كيف تيكم ؟ .. — وهو متبرزنا — وكنا لا نخرج الا ليلا الى ليك ، وذلك قبل أن نتخذ (١٥ — الله توحيد)

الكنف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط ،
فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ..

فانطلقت أنا وأم مسطح ، وهى ابنة أبى رهم بن عبد مناف ،
وأما بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق ، وابنها مسطح بن
أثالة .. فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتى ، قد فرغنا من شأننا .. فعثرت
أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح ..

فقلت لها : بنس ما قلت ، أتسبين رجلا شهد بدرا ؟

قالت : أى هنتاه .. أو لم تسمعى ما قال ؟

قلت : وما قال ؟ .. فأخبرتني بقول أهل الافك ، غازدت مرضا
على مرضى .. فلما رجعت الى بيتى ودخل على رسول الله ﷺ —
تعنى سلم — ثم قال : كيف تيكمن ؟ .. فقلت : أأذن لى أن أتى أبوى ؟

قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما ..

قالت : فأذن لى رسول الله ﷺ ، ، فجئت أبوى . فقلت لأمى :
يا أمته ، ما يتحدث الناس ؟

قالت : يابنية ، هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة
عند رجلها يحبها ولها ضرائر ، الا أكثرن عليها ..
فقلت : سبحان الله .. ولقد تحدث الناس بهذا ؟

قالت . فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل
بنوم ، حتى أصبحت أبكى ..

فدعا رسول الله ﷺ عليا بن أبى طالب ، وأسامة بن زيد رضى الله
عنهما — حين استلبث الوحى — يستأمرهما فى فراق أهله ..

قالت : فأما أسامة بن زيد .. فأشار على رسول الله ﷺ بالذى
يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم لهم فى نذسه من الود .. فقال :
يا رسول الله ، أهك .. وما نعلم الا خيرا ..

وأما على بن أبى طالب .. فقال : يا رسول الله ، لم يضيق الله
عليك ، والنساء سواها كثيرا ، وان تسأل الجارية تصدقك (١١)

قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : أى بريرة ، هل رأيت من شئ يرييك ؟

قالت بريرة : لا والذي بعثك بالحق .. ان رأيت عليها أمرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن فتأكله !! .

فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبى بن سلول .. قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : « يامعشر المسلمين ، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ، فوالله ما علمت على أهلي الا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا ، وما كان يدخل على أهلي الا معي » ..

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : يا رسول الله ، أنا أعذرك منه .. ان كان من الأوس خربت عنقه ، وان كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ..

قالت : فقام سعد بن عباد — وهو سيد الخزرج — وكان قبل ذلك رجلا صالحا .. ولكن احتملته الحمية ، فقال لسعد : كذبت لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على قتله !!

فقام أسيد بن حضير — وهو ابن عم سعد بن معاذ — فقال لسعد بن عباد : كذبت لعمر الله ، لنقتله ، فانك منافق تجادل عن المنافقين !!

فتناور الحيان الأوس والخزرج .. حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكثوا ، وسكت ..

قالت : فمكثت يومى ذاك لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم .. قالت : فأصبح أبواى عندي وقد بكيت ليلتين ويوما ، لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لى دمع ، يظنان أن البكاء فائق كبدي .. فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكى ، فاستأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكى معي ..

قالت : فبينما نحن على ذلك ، دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم
ثم جلس .. قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها ، وقد لبث
شهرًا لا يوحى اليه في شأنى !!

قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : « أما بعد ..
يا عائشة ، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ،
وإن كنت ألت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه ، فإن العبد إذا اعترف
بذنبه ثم تاب الى الله تاب الله عليه » ..

قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس
منه قطرة .. فقلت لأبى : أجب رسول الله ﷺ فيما قال !!

قال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ !!

فقلت لأمى : أجيئى رسول الله ﷺ !!

قالت : ما أدرى ما أقول لرسول ﷺ !!

فقلت — وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن — :
انى والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم
وصدقتم به .. فلئن قلت لكم انى بريئة ، والله يعلم انى بريئة
لا تصدقونى بذلك .. ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم انى منه بريئة
لتصدقننى .. والله ما أجد لكم الا قول أبى يوسف قال : « فصبر جميل ،
والله المستعان على ما تصفون » (٢٢) .

قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى .. قالت : وأنا حينئذ
أعلم انى بريئة ، وأن الله مبرئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن
الله منزل فى شأنى وحياً يتلى . ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن
يتكلم الله فى بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى
النوم رؤيا يبرئنى الله بها !!

قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت ،
حتى أنزل الله عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى انه ليتحدر
منه مثل الجمان من العرق .. وهو فى يوم شات من ثقل القول الذى
يتزل عليه !!

قالت : فلما سرى عن رسول الله ﷺ .. سرى عنه وهو يضحك ،
فكانت أول كلمة تكلم بها : « يا عائشة ، أما الله عز وجل فقد بركك » ..
فقالت أمي : قومي انيه .. فقلت : والله لا أقوم اليه ، ولا أحمد
الا الله عز وجل ..

وأُنزل الله تعالى : « ان الذين جاعوا بالافك عصابة منكم ،
لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من
الاثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . ولولا اذ سمعتموه ظن
المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين . ولولا جاعوا عليه
بأربعة شهداء ، فاذ لم ياتوا بالشهداء ، فاولئك عند الله هم الكاذبون .
ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم
فيه عذاب عظيم . اذ تنقونه بالستكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به
علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولولا اذ سمعتموه قلتم
ما يكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله ان
تعودوا لمثله ابدا ان كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات ، والله عليم
حكيم . ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب
اليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله
عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم » (٢٤) ..

نزل وحى السماء بتبرئة عائشة رضى الله عنها من البهتان الذي
قذفها به أهل النفاق « عبد الله بن أبى بن سنول » وجماعته .. ويحمل
تحذيرا للمؤمنين عن الخوض في أغراض المسلمين ..

يقول تعالى : ان الذين جاعوا بالكذب والبهتان جماعة منكم ..
فلا تظنوا ما جاعوا به من الافك شرا لكم عند الله وعند الناس ، بل ذلك
خير لكم عند الله وعند المؤمنين .. لكل واحد منهم جزاء ما اجترم من
الاثم ، والذي تحمل معظم الاثم منهم ، وبدأ بالخوض فيه له عذاب
عظيم يوم القيامة .. هـ حين سمعتم ما قاله أهل الافك في عائشة ،

ظننتم بمن رمى — بضم الراء — بذلك منكم خيرا ؟ — فالؤمن فيه من نور الايمان والعقل والدين ، ما يميز به الصحيح والقبيح ، والصادق والكاذب — هلا قلتم حين سمعتم ما سمعتم : هذا الذى سمعناه من رمى عائشة كذب وبهتان ؟ .. هلا جاء هؤلاء العصابة بأربعة يشهدون على مقاتلتهم فيها ؟ ! .. فاذ لم يأتوا بالشهداء على حقيقة ما رموها به فأونئذ عند الله هم الكاذبون فيما جاءوا به من الافك ..

ولولا فضل الله عليكم — أيها انخاضون فى أمر عائشة — بتركه تعجيل عقوبتكم ، ورحمته إياكم بقبول توبتكم — لمسكم عاجلا عذاب عظيم بسبب ما تكلمتم فيه من أمرها حين تلقيتكم خبر الافك من أهله فقبلتموه على أنه حقيقة .. تتكلمون بالسنتكم بما لا علم لكم به ، ولا تعلمون حقيقة ما تروونه ، وتظنون أن روايتكم له وتلقيه سبل لا اثم عليكم فيه .. فى حين أن روايتكم له أمر عظيم عند الله ، لما فيه من إيذاء رسول الله — ﷺ — وإيذاء زوجته .. هلا حين سمعتموه قلتم : ما يحل ولا ينبغى لنا أن نتكلم بهذا .. ننزهك يارب ، وبراءة إليك مما جاء به هؤلاء ، فهذا القول بهتان عظيم ..

ان الله — تعالى — ينهاكم ويذكركم بأى كتابه لئلا تعودوا لمثل فعلكم فى أمر عائشة أبداً ، ان كنتم تتعظون بعظات الله ، وتنتهون عما نهاكم عنه .. ويفصل — تعالى — لكم حججه ، وهو عليم بأفعالكم ، حكيم فى تدبير خلقه ..

ان الذين يحبون أن يفتشر الزنا ويظهر فى الذين صدقوا بالله ورسوله ، لهم عذاب وجيع فى الدنيا بالحد ، وفى الآخرة بعذاب جهنم ، والله — تعالى — يعلم كذب أهل الافك ، وأنتم لا تعلمون ذلك لأنكم لا تعلمون الغيب ، فلا تتحدثوا بما لا علم لكم به من الافك فتهلكوا ..

ولولا أن الله — تعالى — تتفضل عليكم أيها الناس ورحمكم ، وأنه تعالى ذو رحمة بخلقه ، لهلكتم غيما أفضتم فيه ..

ثم يقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل

الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ،
والله سميع عليم » (٢٥) .

أى : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، لا تسلكوا سبيل الشيطان
وطرقه ، ولا تقتفوا آثاره بأشاعتكم الفاحشة .. ومن يقتف آثار الشيطان
فإنه يأمر بالزنا والمنكر من القول .. ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكم ،
ما تطهر منكم أحد أبدا من دنس ذنوبه وشركه ، ولكن الله يطهر من يشاء
من خلقه ، والله سميع لما تقولونه بأفواهكم ، عليم بكل أموركم
ومحصيها عليكم ..

بقى أن نشير إلى الخير الذي أصاب المسلمين في هذه الحادثة ..
فقد كشف الله بها أهل النفاق الذين خاضوا في الأفك وكانوا مستترين
في صفوف المؤمنين .. كما نزلت أحكام قذف المحصنات لتكون رادعا
لن يخونن في الأعراس بالباطل ..

والمقصود .. أن الغيب لا يعلمه إلا الله وحده .. » فهذه عائشة
أم المؤمنين — رضى الله عنها — الصديقة بنت الصديق ، وأحب نساء
النبي إليه .. لم تعرف بائنا الأفكين في حقها ، حتى أخبرتها أم مسطح
— بعد شهر كامل — والمدينة كلها ترجف بهذا الحديث !!

وهذا علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه — أول من أسلم من
النسبانيان ، الذي لم يسجد لحسنم قذ .. ابن عم رسول الله ﷺ ، وخليفته
في فراشه عند الهجرة ، وصهر الرسول ، وأبو الشهداء .. لم تتضح له
براءة أم المؤمنين ، فانتسار بخلافها فانتسأ كثيرات !!

وهذا أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — خليفة رسول الله ﷺ ،
وصاحبه وحبيبه : وثانى اثنين إذ هما في الغار .. لم يدر كيف يدافع
عن ابنته لدى زوجها ﷺ !!

بل .. هذا رسول الله ﷺ نفسه : لبث عنه الوحي شهرا كاملا ،
فلم يعرف براءة زوجه الحبيبة برغم المحنة الشديدة التي عاشها ،

فراح يستشير أسامة وعلياً ، ويسأل عنها بريرة .. حتى أنزل الله
براعتها من فوق سبع سموات !!
فهل لقائل بعد هذا — مهما كان شأنه — أن يدعى العلم بالغيب ،
أو أن حجابيه قد كشف عنه ؟ (٢٦)

وعن إياس بن سلمة قال : حدثني أبي أنه كان مع النبي ﷺ ..
أذ جاءه رجل بفرس له يقودها عقوق .. ومعه مهرة له يبيعها ، فقال له :
من أنت ؟ .. قال : « أنا نبي الله » قال : وما نبي الله ؟ .. قال :
« رسول الله » .. قال الرجل : متى تقوم الساعة ؟
فقال ﷺ : « غيب ، ولا يعلم الغيب إلا الله » ..
قال : متى تمطر السماء ؟
فقال ﷺ : « غيب ، ولا يعلم الغيب إلا الله » ..
قال الرجل : ما في بطن فرسي هذا ؟
فقال ﷺ : « غيب ، ولا يعلم الغيب إلا الله » ..
قال : أرني سيفك .. فأعطاه النبي ﷺ سيفه ، فهزه الرجل ثم
رده إليه ..

فقال ﷺ : « أما إنك لم تكن تستطيع أنذى أردت » ..
يقول إياس : وكان الرجل قال : أذهب إليه فأسأله عن هذه الخصال
ثم أضرب عنقه (٢٧) ١١.

وروى أن الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة — رجل
من أهل البادية — جاء إلى النبي ﷺ ، فسأله عن الساعة ووقتها ..
وقال : إن أرضنا أجذبت فمتى ينزل الغيث ؟ وتركت امرأتي حبلى ،
فماذا تلد ؟ .. وقد علمت أين ولدت ، فبأي أرض أموت ؟
فأنزل الله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم
ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدري نفس بأي
أرض تموت » (٢٨) ..

(٢٦) من وصايا القرآن الكريم : للمؤلف : ص ١٠٦

(٢٧) أسباب النزول ، للنيسابوري ، ص ٢٣٤

(٢٨) نفس المرجع السابق ، والآية من سورة لقمان : ٢٤

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمهن الا الله تعالى : لا يعلم متى تقوم الساعة الا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام الا الله ، ولا يعلم ما فى غد الا الله ، ولا يعلم بأى أرض تموت الا الله ، ولا يعلم متى ينزل الغيث الا الله » (٢٩) .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : كنت مستقرا بأستار الكعبة .. فجاء ثلاثة أنفار كثير نسحم بطونهم قليل فقه قلوبهم ، قرشى وختناه ثقفيان — أو ثقفى وختناه قرشيان — فتكلموا بكلام لم أفهمه .. فقال بعضهم : أترون أن الله سمع كلامنا ؟ فقال الآخر : إذا رفعنا أصواتنا سمع ، وإذا لم نرفع لم يسمع .. وقال الآخر : ان سمع منه شيئا سمعه كله ..

قال : فذكرت ذلك للنبي ﷺ .. فنزل قوله تعالى : « وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلوبكم ولكن ظننكم ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون » . وكنتم ظننكم الذى ظننكم بربكم ارداكم فاصبحتم من الخاسرين » (٣٠) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : تبارك الذى وسع علمه كل شيء .. انى لأسمع خلام خويلة بنت ثعلبة : ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها انى رسول الله ﷺ : وهى تقول : يا رسول الله ، أبلى شجابى ، ونشرت له بطنى .. حتى اذا كبر سننى وانقطع ولدى ظاهر منى .. اللهم انى أشكو إليك .. مما برح حتى نزل جبريل عليه اسلام بهذه الآيات : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله والله يسمع تحاوركما ، ان الله سميع بصير » (٣١) .

وفى رواية أنما قالت : « الحمد لله الذى توسع لسمع الأصوات

(٢٩) رواه البخارى .

(٣٠) أسباب النزول . للنيسابورى : مرجع سابق ص ٢٥٠ ،

والآية من سورة فصلت : ٢٢ : ٢٢

(٣١) المجادلة : ١

كلها .. جاءت المجادلة فكلمت رسول الله ﷺ : وأنا فى جانب البيت
لا أدرى ما تقول « (٣٢) » .

هذا رسول الله — ﷺ — لم يعلم — فى حديث اياس السابق —
بموعد الساعة ، ولا نزول المطر ، ولا ما تحمل الفرس فى بطنها ،
أو ما تحمل زوج الحارث بن عمرو .. انما أعلمه جبريل عليه السلام
بنية اياس الذى كان ينوى قتله ..

وهذا عبد الله بن مسعود .. لم يسمع حديث القرشى وانثقيان
الذى تكلموا به الى جوار الكعبة ..

وهذه عائشة — رضى الله عنها — لم تسمع حديث خويلة بنت
ثعلبة التى جاءت تشكو زوجها بعد أن ظاهر منها الى رسول الله ﷺ ..
والأمثلة فى ذلك كثيرة انما اقتصرنا على ذكر البعض منها خوفا من
الإطالة وإملال القارىء ..

« ان قضية الغيب من أخطر القضايا ، انها احدى قضايا التوحيد !!
ولقد حسمها الله تعالى بقوله : « لا يعلم من فى السموات والأرض
الغيب الا الله » (٣٢) » .

ولم يترك الرسول ﷺ مناسبة الا وأوضح فيها أن أمر الغيب الى
الله تعالى وحده .. فلا يعلم الغيب سواه ..
حضر ﷺ عرسا من الأعراس .. وتغنت جارية بمدحه فكان مما
غنت أن قالت : « وغينا نبى يعلم ما فى غد » !!
وفى مثل هذه المناسبات يتساهل الناس عادة فيما يتغنى به المغنون ،
ولا يلتفتون الى كل ما يقال ، فالمجال مجال فرح وأنس ..

ولكن الرسول ﷺ .. رأى بثاقب نظره فى غناء هذه الجارية
ما يتعارض مع احدى الحقائق الإسلامية الكبرى ، فنهاها عن مثل
هذا القول ..

(٣٢) رواها النيسابورى فى اسباب النزول ص ٢٧٤

(٣٣) النمل : ٦٥

روى خالد بن ذكوان ، عن الربيع بنت معوذ بن عفراء رضى الله عنها قالت : جاء النبي ﷺ يدخل حين بنى على (٣٢) . . فجلس على فراشي كمجلسك (٣٤) . . فجعلت جوهرات لا يخرين بالدف ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر (٣٦) . . اذ قالت احداهن : « وفينا نبي يعلم ما فى غد » . . فقال ﷺ : « دعى هذه ، وقولى بالذى كنت تغنى به » (٣٧) .

وفى رواية لعماد بن سلمة انه قال : « لا يعلم ما فى غد الا الله » .

لقد حرص رسول الاسلام — ﷺ — على تصحيح العقيدة الاسلامية فى مسألة الغيب ، ولو فى أغنية من الأغنيات ، فما كادت الجارية تنسب اليه — ﷺ — شيئاً من علم الغيب حتى أمرها من فوره بأن تترك هذا القول : « فلا يعلم ما فى غد الا الله » . . وطلب اليها أن تعود الى ما كانت تتغنى به من ذكر أوصاف البطولة والفداء . . فما بالناس نرى الناس — فى هذه الأيام — يتساهلون فى هذه المسألة الخطيرة ، وينسبون علم الغيب لكل من هب ودب ، من أولياء ، وكهنة ، وسحرة ، ومنجمون « ! (٣٨)

وصدق الله العظيم حيث يقول : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » (٣٩) .

● والجن أيضاً لا يعلمون الغيب . . يقول تعالى : « وإسلامان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون أنه ما يشاء من محاريب وتمثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، أعملوا آل داود سكراً ، وقليل من عبادى الشكور . فلما

(٣٤) أى حين تزوجت من اياس بن بكر النيثى .

(٣٥) الخطاب لخالد بن ذكوان راوى الحديث .

(٣٦) أى بعدد محاسنهم .

(٣٧) رواه احمد واببخارى وابيهتى والترمذى .

(٣٨) من وصايا النيران الشريف . للمؤلف . ص ١١٢

(٣٩) يوسف ١٠٦

تقضيها عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الارض تاكل منساته ،
فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب
المهين « (٤٠) » .

يقول تعالى : وسخرنا لسليمان الريح ، تغدو من الصباح الى
انتصاف النهار مسيرة شهر ، وترجع من انتصاف النهار الى الليل
مسيرة شهر ، وأذبنا له عين النحاس وأجريناها له .. ومن الجن من
يطيعه ويأتمر بأمره ، فيعمل بين يديه ما يأمره به ، بتسخير الله ذلك له ،
ومن يعدل من الجن عن أمرنا الذي أمرناه به من طاعة سليمان نذقه
نار جهنم الموقدة .. يعمل الجن لسليمان ما يشاء من القصور الشامخة ،
والأبنية الرفيعة ، ويعملون له التماثيل من النحاس والزجاج ، وينحتون
له ما يشاء من أحواض الماء ، وقدور ثابتات لا يحركن لعظمن ..
وقلنا لهم : اعملوا بطاعة الله يا آل داود ، شكرا له على ما أنعم عليكم ،
وقليل من عبادي الذين يخلصون في توحيدى وطاعتى ، وشكرى على
نعمتى ..

فلما حكمنا على سليمان بالموت غمات .. لم يعدل الجن على موته
الا الأرضة ، تاكل عصاه التى كان متكئا عليها ، فلما سقط سليمان على
الأرض — بانكسار العصا — تبينت الجن أنهم لا يعلمون الغيب ،
اذ لو كانوا يعلمون الغيب لما مكثوا في العذاب المذل حولا كاملا بعد
موت سليمان !!

ولنا أن نتساءل .. هل لو كان الجن يعلمون الغيب ، أكانوا
يستعمرون في عملهم الشاق في بناء المحاريب بين يدي سليمان وهو
ميت .. ثم لا يدلهم على موته الا الأرضة بعد أن أكلت عصاه فخر
ساقطا ؟ !

الحق .. أن الملائكة لا يعلمون الغيب ..
كما أن الأنبياء بدورهم لا يعلمون من الغيب الا بالقدر الذى
ارتضاء الله لهم وأوحاه اليهم ..

والجن كذلك .. لا يعلمون الغيب ، فلا يعلم الغيب الا الله وحده ..
فما بالناس نرى الصوفية ينسبون لأنفسهم من خوارق العادات
ما لم يأت به الأنبياء والمرسلون ، ولم يتأت ملك أو جنى ؟ !

ما بالناس نراهم يزعمون العلم بالغيب ، وأن حجابهم قد كشف عن
شيوخهم ، فيشركونهم بهذا الزعم في خاصية هي لله تعالى وحده ؟ !

لقد أسس الصوفية عقيدتهم على هذا الادعاء ، وأعرضوا عن
الدليل الشرعي المستند الى الكتاب والسنة ، وعن طريق هذا الادعاء
شككوا الناس في مصادر الشرع .. بل وأنكروا بعض الأحاديث النبوية
الثابتة في الكتب الصحيحة ، وأولوا بعضها الآخر وفقاً لأهوائهم !!

● مزاعم .. وأباطيل !!

يقول أبو يزيد البسطامي : « أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا
علمنا عن الحي الذي لا يموت » !!

ويعنى بذلك أن المسلمين قد أخذوا عنهم عن رسول الله ﷺ
الذي أخذه بدوره عن جبريل عليه السلام .. في حين أن الصوفية يأخذون
علمهم عن الله مباشرة !!

وفي عقيدة الصوفية .. أنهم يرون الله تعالى في صحوهم وفي
منامهم .. فيتحدث إليهم ويتحدثون إليه .. يقول البسطامي : « رأيت
رب الغزذ في المنام فقال لي : كل الناس يطلبون مني ، غير أنك
تطلبني » !!

سبحانك ربى : هذا بهتان عظيم !!

فهذا موسى — عليه السلام — نبي الله وكليمه .. مع ما أوتي من
منزلة عالية : ومرتبة سنية .. لما سمع خطاب الله تعالى سأل الله رفع
الحجاب .. فأنبأه تعالى بأنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك
وتعالى ، لأن الجبل نفسه الذي وقف عليه ، والذي هو أقوى وأكبر ذاتاً ،
وأشد ثباتاً من الانسان : لا يثبت عند التجلي من الله الرحمن ..

يقول تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر اليك ، قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » (٤١) .

أى : ولما جاء موسى للوقت الذى وعده الله أن يلقاه فيه ، وناجاه ربه ، قال موسى لربه : يارب أرني نفسك لأنظر اليك ١١ ، قال الله مجيبا له : لن تراني فى الدنيا ، ولكن انظر إلى الجبل ، غانه أكبر منك وأشد ، فان ثبت مكانه فسوف تراني ١٠ . فلما اطلع الرب للجبل صار الجبل ترابا مستويا بالأرض — وما تجلى منه تعالى على قول ابن عباس الا قدر الخنصر — وسقط موسى عليه السلام مغشيا عليه ، فلما أفاق من غشيته قال : أنزهك يارب أن يراك احد فى الدنيا ، تبت إليك من سؤالى لك الرؤية ، وأنا أول المؤمنين من بنى اسرائيل ١٠ .

تجلى تعالى بعظمته للجبل ، فلم يتمالك واقبل فدك على أوله ، ورأى موسى عليه السلام ما يصنع الجبل فخر صعقا . وهذا محمد — ﷺ — رفعه الله إلى أعلا سماء ، ولكنه لم يره ١٠ . عن أبى موسى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ انه قال : « حجاب النور — وفى رواية : النار — لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه — أى أنوار وجهه — ما انتهى إليه بصره من خلقه » (٤٢) .

وقال ابن عباس — رضى الله عنهما — فى قوله تعالى : « لا تدركه الأبصار » (٤٣) « ذاك نوره الذى هو نوره ١٠ اذا تجلى لشيء لا يقوم له شيء » ١٠ .

وعن مسروق رضى الله عنه قال : كنت متكئا عند عائشة — رضى الله عنها — فقالت : يا أبا عائشة : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ١٠ قلت : ما هن يا أم المؤمنين ؟ قالت : من زعم أن محمدا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ١٠ .

(٤٢) متفق عليه .

(٤١) الاعراف : ١١٢

(٤٣) الأنعام : ١٠٢

قال : وكنت متكئا فجلست فقلت : يا أم المؤمنين ، أنظريني ولا تعجليني ، ألم يقل الله عز وجل : « ولقد رآه بالأفق المبين » (٤٤) ، ويقول : « ولقد رآه نزلة أخرى » (٤٥) ؟

قالت : أو لم تسمع أن الله تعالى يقول : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » ؟ .. أو لم تسمع أن الله تعالى يقول : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء ، انه على حكيم » (٤٦) ؟ قالت : ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئا من كتاب الله ، فقد أعظم على الله الفرية . والله تعالى يقول : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » (٤٧) ..

قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول : « قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب الا الله » (*) ..

وروى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنهما قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور .. أنى أراه » ؟ !

وقيل في تفسير قوله تعالى : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (٤٨) : أنه رأى فيما رأى من آيات الله وعجائبه العظمى : جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى في صورته . له ستمائة جناح .. وقد جعل الله ما عاينه الرسول ﷺ ليلة الاسراء من العجائب امتحانا واختبارا للناس : يزداد به ايمان المؤمن ، وكفر الكافر ..

فالله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .. ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ..

والرؤية — ولو في المنام — تقتضى التجسيم والتشبيه .. فكيف يرى الصوفية الله تعالى ؟ : وعلى أى صورة يروونه فيها ؟ ، وبأى لسان يخاطبهم وأى وحي ينزله عليهم !

(٤٥) انجم : ١٢

(٤٧) المائدة : ٦٧

(*) النمل : ٦٥ : والحديث رواه مسلم .

(٤٤) التكوين : ٢٢

(٤٦) انشورى : ٥١

(٤٨) انجم : ١٨

ان الرؤيا فى أغلب أحوالها انعكاس لما يعتل فى أعماق النفس البشرية من أفكار و خيالات .. ثم تطفو حال النوم بحسب تصور الرائي واعتقاده .. فهم انما يرون أعماق نفوسهم و خيالاتهم وأوهامهم .. فما رأوا الله ولا تحدث اليهم ، ولكنه الشيطان يسول لهم ، ويضلهم ويعمى أبصارهم !!

موسى عليه السلام .. لم ير الله تعالى يوم طلب الرؤية بل خر مغشيا عليه وهو يرى كيف صار الجبل عندما تجلى الله له .. ومحمد ﷺ .. لم ير ربه ليلة أسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ثم عرج به الى ما فوق السموات العلا .. ولكن البسطامى يزعم أنه رأى رب العزة فى المنام وقال له : كل الناس يطلبون منى ، غير أنك تطلبنى !!

وتحت زعم كشف الحجب عن شيوخهم .. يدعون أنهم يرون رسول الله ﷺ يقظة ومناما .. فيتلقون منه ما يعينهم على تأويل الأحاديث ، أو التمييز بين الصحيح منها والضعيف !!

يقول محبى الدين بن عربى — فى الفتوحات المكية — : «وزب حديث يكون صحيحا عن طريق رواية حصل لهذا الكاشف الذى عين هذا المظهر فسأل النبى ﷺ عن هذا الحديث فأنكره .. وقال له : لم أقله ولا حكمت به ، فيعلم ضعفه فيترك العمل به على بينة من ربه .. وان كان عمل به أهل النقل لصحة طريقه ، وهو فى نفس الأمر ليس كذلك » !!

وعلى هذا .. يقسمون الدين الى شريعة وحقيقة ، وظاهر وباطن !! وأهل الشريعة — عندهم — ومن بينهم علماء المذاهب الأربعة وفقهاء الشرع وعلماء الحديث ، هم أهل الظاهر !! . وعلى هذا يعتبرونهم طبقة العوام لايمانهم بالنصوص الشرعية دون اللجوء الى التأويل !!

أما أهل الحقيقة — فى زعمهم — فهم أهل الباطن ، وهم الخاصة الذين يعتمدون على تأويل النصوص الشرعية عن طريق الكشف والخواطر والأحلام !!

يقول الجنيد : « لا يبلغ الرجل عندنا مبلغ الرجال حتى يشهد فيه ألف حديق من علماء الرسوم — أى الشريعة — بأنه زنديق ، لأن أحوالهم وراء النقل والعقل » !!

ويقول : « أحب للمبتدئ ألا يشغل قلبه بهذه الثلاث ولا تغير حاله : التكسب ، وطلب الحديث ، والتزوج .. وأحب للصوفى ألا يقرأ ولا يكتب لأنه أجمع لهم » !!

ولهذا يعتقدون — كما قدمنا — أن للقرآن ظاهرا وباطنا .. وأن فى كل آية منه ، وفى كل كلمة ، بل وفى كل حرف معنى باطنى لا يكشفه الله إلا للخاصة من عباده — وهم أهل الحقيقة — فتشرق معانيها فى قلوبهم أوقات وجدهم !!

ويروى ابن عربى فى هذا حديثنا موضوعا عن الرسول ﷺ يقول : « ما من آية فى القرآن إلا ولها ظاهر وباطن وحد ومطلع ، ولكل مرتبة من هذه المراتب رجال ، ولكل طائفة قطب ، وعلى ذلك القطب يدور نلك ذلك الكشف » !!

ثم يعقب على ذلك بقوله : « وقد أجمع أصحابنا أهل الكشف على صحته » !!

وباسم هذا الكشف — الذى يدعونه — يعطون لأنفسهم الحق فى تأويل آيات الله تعالى وفقا لأهوائهم ، فتسمع أحدهم يقول : حدثنى قلبى عن ربه ... !!

وأخر يقول : رأيت رسول الله وحدثنى قال ... !!
ولهم فى ذلك أقوال مأثورة .. يقول قائلهم : أحسن الظن ولا تنتقد .. بل اعتقد !!
ويقول الآخر : من اعترض انطرد ووجد الباب مغلقا .. !!
وهكذا ..

ويقول السهروردى فى كتابه « عوارف المعارف » : « كلام الشيخ بالحق من الحق ، فالشيخ للمريدين أمين الالهام كما أن جبريل أمين الوحي .. فكما لا يخون جبريل فى الوحي ، لا يخون الشيخ فى (١٦ — الله توحيد)

الالهام .. وكما أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ، فالشيخ لا يتكلم عن الهوى » !!

ويقول الشاذلى : « على المرید أن يعتصم بالشيخ ويتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ البحر بقائده .. بحيث يفوض أمره اليه بالكلية ، فلا ينازعه فى الأمر ولا يخالفه » !!

بل ان ذا النون المصرى يقول : « طاعة المرید لشيخه فوق طاعته لربه » !!

فلا عجب ، والأمر كذلك .. أن ينسبوا لشيخوهم من خوارق العادات ما لم يتأت لنبي أو لرسول ..! فينسيون اليهم القدرة على التصرف فى أمور الناس ، يعطونهم ويمنعونهم . يحيون من يشاءون منهم ويميتون ، يسلبون الناس ايمانهم ويمنحونهم اياه ، يمشون على الماء ، ويطيرون فى الهواء ، ويحولون انتراب ذهباً ، ويحيلون الناس مسوخاً وحیوانات !! فاذا كان لشيخوهم هذه القدرات المزعومة .. فماذا يمنع علمهم للغيب وانكشاف حجبه عنهم ؟ !

● يقول الشعرانى عن أبى العباس أحمد المثلث .. انه كان لا يخبر بشيء الا جاء كما قال .. وأنه كان يقول : أنا ما أتكلم باختياري .. وحدث أن أنكر عليه بعض الفقهاء فقال له : يافقيه اشتغل بنفسك فانه ما بقى من غمرك سبعة أيام وتموت .. فكان كما قال (١٩) !!

● ويقول سهل التستري : « أعرف تلامذتى من يوم : « أأست بريكم » (٥٠) — يعنى وهم فى عالم الذر !! — وأعرف من كان فى ذلك الموقف عن يمينتى ومن كان عن شمالى ، ولم أزل من ذلك اليوم أرى تلاميذى وهم فى الأصلاب .. ولم يحجبوا عنى الى وقتى هذا » !! وكان يقول : « أشهدنى الله تعالى ما فى العلا وأنا ابن ست سنين .. ونظرت فى اللوح المحفوظ وأنا ابن ثمان سنين .. وفككت طلسم السماء وأنا ابن تسع سنين .. ورأيت فى السبع المثانى حرفاً معجماً حار فيه الجن والانس ففهمته وحمدت الله تعالى على معرفته ،

(١٩) انطبقات الكبرى ، للشعرانى . ج ١ . ص ١٥٧

(٥٠) الاعراف : ١٧٢

وحركت ما سكن ، وسكنت ما تحرك باذن الله تعالى وأنا ابن
أربعة عشرة سنة « (٥١) !!

● بل ان الشعراني نفسه يزعم أنه استطاع رؤية الأولياء من
الأحياء والأموات .. وأنه رآهم يمشون بأكفانهم ويزحفون لحضور
مولد النبدوى .. فيقول : « وأردت التخلف — عن المولد — سنة من
السنين ، فرأيت سيدي أحمد ومعه جريدة خضراء ، وهو يدعو الناس
من سائر الأقطار . والناس خلفه ويمينه وشماله ، أمم وخلائق
لا يحصون .. فمر على وأنا بمصر فقال : أما تذهب ؟ ، فقلت :
بى وجع .. فقال : الوجع لا يمنع المحب !!

ثم أرانى خلقا كثيرا من الأولياء وغيرهم الأحياء والأموات ، من
الشيخ والزماني بأكفانهم يمشون ويزحفون معه يحضرون المولد !!
ثم أرانى جماعة من الأسرى جاءوا من بلاد الافرنج ، مقيدون
مغلولين يزحفون على متاعدهم .. فقال : انظر الى هؤلاء في هذا
الحال ، ولا يتخلثون !!

فقوى عزمي على الحضور فقلت له : ان شاء الله تعالى نحضر .
فقال : لابد من الترسيم عليك ، فرسم على سبعين عظيمين أسودين
كالأفيال وقال : لا تفارقاه حتى تحضرا به !!

يقول الشعراني : فأخبرت بذلك سيدي الشيخ محمد الشناوي ،
فقال : سائر الأولياء يدعون الناس بقصادهم ، وسيدي أحمد يدعو
الناس بنفسه الى الحضور .. ثم قال : ان سيدي الشيخ محمد السروي
تخلف سنة عن الحضور . فعاتبه سيدي أحمد وقال : موضع يحضر فيه .
رسون الله ﷺ والأنبياء عليهم الصلاة والسلام معه وأصحابهم والأولياء
رضي الله عنهم ، ما تحضره ؟ .. فخرج الشيخ محمد الى المولد فوجد
الناس راجعين وفات الاجتماع . فكان يلمس ثيابهم ويمر بها
على وجهه « !! (٥٢)

(٥١) الطبقات الكبرى ج ١ ، ص ١٨٣

(٥٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٨٦

تأمل قوله : « ان رسول الله ﷺ ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام معه ، وأصحابهم والأولياء رضى الله عنهم » يحضرون الى مولد البدوى !! ويبدو أن لهذا المولد خطراً عظيماً .. فان شخصاً أنكر حضوره فسلب — كما يقول الشعرائى — الايمان .. انظر الى قوله : « ويروى أن شخصاً أنكر حضور مولده ، فسلب الايمان .. فلم يكن فيه شعرة تحن الى دين الاسلام (١١) .. فاستغاث بسيدى أحمد فقال : بشرط أن لا تعود ؟ فقال : نعم .. فرد عليه ثوب ايمانه ثم قال له : وماذا تنكر علينا ؟ .. قال : اختلاط الرجال والنساء .. فقال : ذلك واقع فى الطواف ولم يمنع أحد منه .. ثم قال : وعزة ربى ، ما عصى أحد فى مولدى الا وتاب وحسنت توبته ، واذا كنت أرعى الوحوش والسمك فى البحار وأحميهم من بعضهم بعضاً .. أفيعجزنى الله عز وجل عن حماية من يحضر مولدى » !! (٥٣)

أى ستخف .. وأى هراء !!

● وهذا اسماعيل الامببى .. يزعم الشعرائى : « أن الله تعالى أجرى على يديه الكرامات ، وكلمته البهائم ، وكان يخبر أنه يرى اللوح المحفوظ ، ويقول : يقع كذا وكذا لغلان ، فيجىء الأمر كما قال !! وأنكر عليه شخص من علماء المالكية وافتى بتعزيره ، فبلغ ذلك الامببى فقال : ومما رأيته فى اللوح المحفوظ ، أن هذا القاضى يغرق فى بحر الفرات .. فأرسله ملك مصر الى ملك الافرنج ليجادل القسيس عندهم ، فانه وعد بإسلامه ان قطعهم عالم المسلمين بالحجة ، فلم يجدوا فى مصر أكثر كلاماً وجدلاً من هذا القاضى ، فأرسلوه فغرق فى بحر الفرات » !! (٥٤)

● وهذا داوود بن ماخل : « كان شرطياً فى بيت الوالى بالاسكندرية .. وكان يجلس تجاه الوالى وبينهما اشارة يفهم منها وتوقع المتهم أو براءته .. فان أشار اليه أنه برىء عمل بإشارته : أو أنه فعل ما اتهم به عمل بذلك .. وكانت اشارته أنه ان قبض على لحيته

(٥٣) الطبقات الكبرى ج ١ : ص ١٨٧

(٥٤) المرجع السابق ج ١ ص ١٨٥

وجذبها الى صدره علم أنه وقع ، وان جذبها الى فوق فلم
أنه برىء « !! (٥٥)

● وكان محمد الترويجل — كما يزعم الشعراى — من أرباب
الكشف التام .. رآه انشعرانى مرة بعد مرة من بعيد — نحو مائة
قصبة — فقال له رفيقه : هل يحس بأحد اذا ضربه ، فلما وصل اليه
قال لرفيقه : تخبرنى على ايش « ؟ !! (٥٦)

● كما كان ابراهيم العريان اذا دخل بلدا سلم على أهلها كبارا
وصغارا بأسمائهم كأنه تربى بينهم !!

وابراهيم العريان — هذا — كان يطلع على المنبر ويخطب عريانا ،
فيقول : السلطان ودمياط ، باب اللوق بين القصرين ، وجامع طيلون ،
الحمد لله رب العالمين .. فيحصل للناس بسط عظيم !!

وكان يخرج الريح بحضرة الأكابر .. ثم يقول : هذه خرطة
فلان ، ويحلف على ذلك فيخجل ذلك الكبير منه « !! (٥٧)

● أما محيسن البرلسى : « فكان — كما يزعم الشعراى — من
أصحاب الكشف التام ، فكان يربط عنده عنزا وديكا ، ويجعل النار موقدة
عنده فى أغلب أوقاته حيفا وشتاء .. وكان الخواص اذا شك فى نزول
بلاء على أهل مصر يقول : اذهبوا الشيخ محيسن فانظروا النار التى
عنده ، هل هى موقدة أو مطفية ؟ .. فان كانت مطفية حصل فى مصر
رخاء ونعمة ، وكان الناس فى غاية الراحة .. فأوقد الشيخ محيسن
النار فقال الشيخ : انله لا يبشره بخير .. فأصبح الناس فى شدة فى
مسكنهم لبلاد الهد ، وحصل لهم غاية الضيق « !!

ويقول الشعراى : « وكنت عنده مرة .. فجاء انسان ومزح معه
— وكانت فى رجله أذن من أصحاب الغوبة ، ولم ترل تدود الى أن مات —

(٥٥) الطبقات النبوى ج ١ . ص ١٨٨

(٥٦) المرجع السابق ج ٢ ص ١٤١

(٥٧) نفس المرجع ج ٢ ص ١٤٢

فقال له ذلك الانسان : الذى جعل فى هذه الرجل الأكلة قادر على أن يجعلها فى الأخرى • فقال الشيخ محيسن : ما يستحق ذلك الا الذى زنى بامرأة جاره • فخبّل ذلك الانسان فقلت له : مالك ؟ قال : هذا وقع لى وأنا شاب فى نواحي دميّاط من خمسين سنة • فقلت : الذى يطلع على هذا تمزح معه ؟ فقال : والله ما علم بهذه الواقعة الا الله عز وجل ۱۱ (٥٨)

● وهذا على الخواص • • • كان محل كشفه اللوح المحفوظ عن المخو والاثبات • • فكان اذا قال قولا لا بد أن يقع على الصمة التى قال ۱۱ ويقول الشعرانى : وكنت أرسل له الناس يشاورونه عن أحوالهم ، فما كان قط يحوجهم الى كلام • • بل كان يخبر الشخص بواقعة التى أتى من أجلها قبل أن يتكلم ، فيقول : طلق — مثلا — أو شارك ، أو فارق ، أو اصبر ، أو سافر ، أو لا تسافر • • فيتخير ويقول : من أعلم هذا بأمرى ۱۱ (٥٩)

● وهذا شعبان المجذوب • • • كان من أهل التصريف بمصر ، وكان يخبر بوقائع الزمان المستقبل ۱۱

ويقول الشعرانى : « أخبرنى سيدى على انخواص أن الله تعالى يطلع الشيخ شعبان على ما يقع فى كل سنة من رؤية هلالها • • فكان اذا رأى الهلال عرف جميع ما فيه مكتوباً على العباد ۱۱

وكان اذا اطلع على موت البهائم ينبس حبيحة تلك الليلة جلد البهائم البقر أو الغنم ، أو تسخير الجمال لجهة السلطنة ينبس الشليف والليف • • فيقع الأمر كما نوه به ۱۱

وجاءت الى الشعرانى امرأة من اثريف تريد أن تفسخ نكاح ابنتها لكون زوجها غاب عنها مدة طويلة • • فبانت عنده من غير علمه • • فأرسل الشيخ شعبان نقيه الى الشعرانى مع الفجر يقول له : يقول لك

(٥٨) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٤٢

(٥٩) المرجع السابق ج ٢ ص ١٥٠

الشيخ : لا تفرق بين رأسين في الحلال • فعلم الشعراني أن زوجها سيرجع ، فأخبر المرأة فرجعت عن ذلك ، وجاء الأمر كما قال !!
هذا • • والمراد لم تخاطب الشعراني بكلام • • وما علم بوجودها في بيته • • بل كانت مضمرة في نفسها أن تخبره بذلك بكرة النهار • • ولكن الشيخ شعبان علم بخاطرها !! (٦٠)

فاذا كانت هذه هي أفكار القوم وتصوراتهم • • فلا عجب إذن أن يقول أبو يزيد البسطامي : « قلت يوما سبحان الله ، فناداني الخالق في سرى : هل في عيب تنزهني عنه ؟ قلت : لا يارب • • قال : فنفسك نزه عن ارتكاب الرذائل • فأقبلت على نفسي بالرياضة حتى تنزهت عن الرذائل ، وتحلت بالفضائل • • نصرت أقول : « سبحاني سبحاني ، ما أعظم شأنى • الجنة لعبة صبيان » !!

* * *

هذا هو زعم الصوفية تشيوخها وأقطابها • • في حين أن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ : « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مهنى السوء ، ان أنا لا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (٦١) •

ويقول على إسمان نوح عليه السلام : « ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك » (٦٢) •

نوح عليه السلام — أول الأنبياء • • لا يعلم الغيب • •
ومحمد ﷺ — خاتم الأنبياء • • لا يعلم الغيب • •
وجميع الرسل والأنبياء • • لا يعلمون الغيب • •
والملائكة ، والانس ، والجن • • لا يعلمون الغيب • •
ولكن تشيوخهم — من دون الخلق جميعا — يعلمون الغيب بعد أن انكشفت حجبه عنهم !!

الا من له أدنان للسمع فليسمع • ومن له عقل للتدبر فليتدبر !!

* * *

(٦٠) الطبقات الكبرى ج ٢ • ص ١٨٥

(٦٢) هود : ٢١

(٦١) الأعراف : ١٨٨

الفصل الثامن

تعظيم القبور .. وتقديس المقبورين

● السنة .. والبدعة :

السنة لغة : الوجه ، أو دائرته ، أو الصورة ، أو الجبهة والجبينان ، أو السيرة والطبيعة^(١) .. وكلها معان متقاربة تشترك في الدلالة على صورة معينة حسية أو معنوية ..

ويقول الأزهري : السنة الطريقة المحمودة المستقيمة .. ويقول الشيخ رشيد رضا : قيل انها من قولهم سن الماء اذا والى صبه .. فشبهت العرب الطريقة المستقيمة بالماء المحبوب ، فانه لتوالى اجرائه على شيء واحد يكون كالشيء الواحد^(٢) .

ويقال : السنة : الطريقة والسيرة .. حميدة كانت أو ذميمة .. وسواء قصرنا السنة من ناحية اللغة على السيرة المستقيمة ، أو السيرة مطلقا مستقيمة أو غير مستقيمة .. فانها تنقيد بما تضاف اليه ..

يقول تعالى : « سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا » ولا تجد لمننتنا تحويلا^(٣) .

ويقول ﷺ : « من سن سنة حسنة فله اجرها وأجر من عمل بها ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » .

فالسنة في الأصل : سنة الطريق ، وهو طريق سنه أوائل الناس فصار مسلكا لمن بعدهم .. وهي لا تنفصل عن سننها .. بل ترتبط به باعتباره مصدرها ومنشأ وجودها ..

(١) القاموس المحيط : ولسان العرب .

(٢) تفسير المنار ج ٤ ص ١٤٠ (٣) الاسراء : ٧٧

واختلف معنى السنة في الشرع باختلاف المباحث التي تناولتها ،
وقامت بتحديد ما ..

فعلماء الأصول .. يطلقون السنة على ما صدر من النبي ﷺ من
قول أو فعل أو تقرير ..

وبعضهم يدخل فيها ما علم به ﷺ أو أشار إليه ، وإن لم يتواتر
عند الجمهور ويخصون ذلك بغير القرآن الكريم ..
وقد يدخل فيها بعضهم سنة الخلفاء الراشدين ، ويدخل فيها بعضهم
سنة الصحابة ..

وعلماء الحديث .. يعرفونها بأنها ما أضيف إلى النبي ﷺ من
قول أو فعل أو تقرير ، أو حصة خلقية أو خلقية^(١) .. وما يتصل بالرسالة
من أحواله الشريفة قبل البعثة .. ونحو ذلك ..

وعلماء الفقه .. يختلف تعريفهم للسنة لاختلاف أنظارهم وتفاوت
أفهامهم ..

فمنها .. تعريفهم لها بأنها : « ما في فعله ثواب ، وفي تركه
عقاب لا عقاب » ..
وجعلها بعضهم من قبيل المندوب ، والمندوب ما يحمد فاعله
ولا يذم تاركه ..

وهي عند الحنفية .. الطريقة السلوكية في الدين ، يطالب بإقامتها
بلا افتراض ووجوب .. وقسموها إلى سنن زوائد كسيرة النبي ﷺ في
اللباس والقيام والجلوس : وسنن هدى كالأذان والإقامة ونحوهما ..
وأوجبوا على ترك الثانية الإساءة والكراهة دون الأولى ..
وتطلق السنة على ما يقابل البدعة .. استنادا إلى المقابلة بينهما
في الأحاديث .. وعلى ذلك تشمل السنة كل ما تشتمل عليه الشريعة
من قرآن وغيره : مما ورد عن الرسول ﷺ ، وقد تشتمل ما استند إلى
الشريعة عن طريق إقراره كاجتهاد صحيح ..

(١) بفتح الخاء في الأولى ونسبها في الثانية ..

يقول ابن حزم : « السنة .. هي الشريعة نفسها ، وأقسامها في الشريعة فرض أو نذوب أو إباحت أو كراهة أو تحريم .. كل ذلك قد سنه الرسول ﷺ عن الله عز وجل » (٥)

● والبذعة لغة : اسم هيئة من الابتذاع كالرغعة من الارتفاع ، وهي : كل شيء أحدث على غير مثال سابق .. سواء أكان محمودا أو مذموما ..

والبذع — بكسر الباء : الأمر الذي يكون أولا .. ومنه قوله تعالى : « قل ما كنت بدعا من الرسل » (٦) : أي لست أول من جاء بالوحي من عند الله تعالى وحمل الرسالة الى الناس : بل قد أرسل قبلي مبشرون ومنذرون ، فليست مبتدعا — اسم مفعول — لم يتقدمني رسول ..

ويجوز أن يكون بمعنى مبتدع — اسم فاعل — فيكون معنى الآية : ما كنت مبتدعا فيما أقوله وأدعو إليه من الرسالة ، وليست مخترعا لها .. بل هي من عند الله ..

والبذع بكسر الباء : يستعمل في الخير والشر .. ورجل بذع : أي عمر لم يجرب الأمور ..

وفلان بذع من الأمر : أي هو أول من فعله لم يسبقه إليه أحد .. فبذع هنا بمعنى مبتدع .. ورجل بذع ، وامرأة بدعة : إذا كانا غاية في كل شيء علما أو شرفا أو شجاعة .. أو غير ذلك ..

ورجل أبداع ، ونساء بذع وأبداع ..

وشيء بذع : أي مبتدع وجمعه أبداع وبذع ..

والبديع : من أسمائه تعالى : لأبداعه الأشياء وأحداثه إياها .. فيكون بمعنى مبدع ، أو من بذع الخلق أي بدأه ..

(٥) انظر البذعة ... تحديدها وموقف الإسلام منها . للدكتور عزت على عيد عطية ، نشر دار الكتب التحذية ص ١١٧ — ١٢١ بتصرف .
(٦) الأحقاف : ٩

أما البدعة في اصطلاح الشرع .. فقد اختلفت أنظار العلماء في تحديد معناها .. وتنوعت تعبيراتهم عنها .. فمنهم من توسع في هذا التحديد فاتسع عنده مدلول البدعة وما يندرج تحت هذا المفهوم .. ويمثل هذا الاتجاه بعض العلماء المشهورين ..

فالامام الشافعي - رحمه الله - يقسم البدعة الى حسنة وسيئة ، أو محمودة ومذمومة .. وهي على هذا تشمل كل حادث بعد عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين .. والمحدثات من الأمور عنده ضربان : أحدهما : ما أحدث يخالف كتابا أو سنة أو إجماعا أو أثرا ، فهذه البدعة الضلالة . والثاني : ما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من هذا ، فهي محدثة غير مذمومة ..

ويقول ابن حزم - رحمه الله - : « البدعة في الدين : كل ما لم يأت في القرآن ، ولا عن رسول الله ﷺ ، إلا أن منها ما يؤجر عليه صاحبه ويعذر بما قصد اليه من الخير .. ومنها ما يؤجر عليه صاحبه ويكون حسنا ، وهو ما كان أصله الإباحة .. كما روى عن عمر رضي الله عنه : « نعمت البدعة هذه » وهو ما كان فعل خير جاء النص بعموم استحبابه وإن لم يقرره عمله في النص .. ومنها : ما يكون مذموما ولا يعذر صاحبه : وهو ما قامت الحجة على فساد فتمادي القائل به » .. ويقول أبو حامد الغزالي : « وما يقال أنه أبداع بعد رسول الله ﷺ [وكان يتحدث عن الأكل على السفرة] فليس كل ما أبداع منها عنه ، بل المنهى عنه بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمرا من الشرع مع بقاء علته .. بل الإبداع قد يجب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب » ..

ويقول ابن الأثير في النهاية : « البدعة بدعتان .. بدعة هدى وبدعة ضلال .. فما كان في خلاف ما أمر به الله ورسوله ﷺ ، فهو في حيز النكاح والافتقار .. وما كان واقعا تحت عموم ما ندب الله اليه وحض عليه أو رسوله فهو في حيز المدح ، وما لم يكن له مثال موجود كنوع من السخاء والجود وفعل المعروف فهو من الأفعال الحمودة ، ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما ورد في الشرع به ..

لأن النبي ﷺ قد جعل له في ذلك ثوابا .. فقال : « من سن سنة حسنة كان له أجره وأجر من عمل بها » .. وقال في حسنة : « من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها » .. وذلك اذا كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ ..

ومثل البدعة الحسنة يقول عمر في صلاة التراويح « نعمت البدعة » . ثم قال : وهي على الحقيقة سنة لقوله ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين » ، وقوله : « اقتدوا بالذين من بعدي : أبو بكر وعمر » ..

وعلى هذا التأويل يحمل الحديث الآخر : « كل محدثة بدعة » على ما خالف أصول التشريعة ولم يوافق السنة » ..

ويقول الدهلوي في شرح المشكاة : « اعلم أن كل ما ظهر بعد رسول الله ﷺ بدعة ، وكل ما وافق أصول سنته وقواعدها أو قيس عليها فهو بدعة حسنة ، وكل ما خالفها فهو بدعة سيئة وضلالة » ..

والى هذا الاتجاه مال الشيخ عز الدين بن عبد السلام والنووي وأبو شامة .. فالبدعة فيما يرى هؤلاء ومن وافقهم : « فعل ما لم يعهد في عهد رسول الله ﷺ » .

ومن العلماء .. من ضيق مدلول البدعة ، وما يندرج تحته من الصور والأحكام .. وينقسم هذا الاتجاه الى قسمين ..

قسم لا تتقيد فيه البدعة بشيء سوى مخالفة السنة .. وقسم تتقيد فيه البدعة فضلا عن ذلك بنسبتها الى الدين وجعلها من الشرع .. ويمثل القسم الأول عدد من العلماء تنوعت تعبيراتهم على مدلول واحد .. يقول ابن رجب الحنبلي : « المراد بالبدعة : ما أحدث مما لا أصل له في التشريعة يدل عليه . أما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا ، وإن كان بدعة لغة » .

ويقول ابن حجر العسقلاني : « والبدعة : أصلها ما أحدث على غير مثال سابق ، وتطلق في الشرع في مقابل السنة فتكون مذمومة » ..

كما يقول فى موضع آخر : « والمحدثات جمع محدثة — والمراد بها — أى فى الحديث : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »
.. ما أحدث وليس له أصل فى الشرع — ويسمى فى عرف الشرع بدعة ،
وما كان له أصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة » ..

ويقول ابن حجر الهيتمى : « وهى — أى البدعة — لغة : ما كان
مخترا ، وشرعا : ما أحدث على خلاف أمر الشرع ودليله الخاص
والعام » ..
ويقول الزركشى : « البدعة فى الشرع موضوعة للحادث
المذموم » ..

فالإتجاه العام فى هذا القسم يتمثل فى أن البدعة شرعا : كل
حادث مذموم ، وإيست كل حادث على الإطلاق ، أو كل حادث بشرط
نسبته الى الدين ..

أما القسم الثانى الذى تنقيد فيه البدعة بنسبتها الى الدين وجعلها
من الشرع .. فيتمثل فى رأى الشاذلى فى « الاعتصام » ومن وافقه
على ذلك من العلماء ..

وأساس هذا الإتجاه هو تعريف البدعة بالمحدث المخالف للسنة
الذى جعل ديننا قويا وحرافنا مستقيما .. سواء اقتصرنا فى تعريف
البدعة على ما كان كذلك من العبادات فقط ، أو جعلناه شاملا لما كان
كذلك فى العبادات والعادات معا ..

ويعرف « الشاذلى » البدعة على هذا الأساس بتعريفين :
الأول : البدعة .. طريقة فى الدين مخترة تضاهى الشرعية ،
يقصد بالسلوك عليها ، المبالغة فى التعمد لله تعالى ..

والثانى : أنها طريقة فى الدين مخترة تضاهى الشرعية ، يقصد
بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية ..
ويشرح الشاذلى تعريفه بما يتقضى الإصواء الكاشفة على مراده
منها .. فيقول ما خلاصته :

« الطريقة » : ما رسم للسلوك عليها .. « فى الدين » قيد لإخراج

الطريقة في الدنيا ، كالحداث الصنائع والبلدان التي لا عهد بها فيما تقدم .. « مخترعة » : لا أصل لها في الشريعة ولا تعلق لها بها ، بخلاف ما له تعلق بها مما حدث بعد العصر الأول ، كعلم النحو والتصريف ومفردات اللغة وأصول الدين والفقه .. « تخصاهي الشرعية » : أى تشبهها من غير أن تكون كذلك بل هي مضادة لها ، من جهة وضع الحدود كالاقتصار في المأكل والملبس على صنف دون صنف بلا علة ، أو من جهة التزام الكيفيات والهيئات المعينة كالذكر بهيئة الاجتماع على صوت واحد ، واتخاذ يوم ولادة النبي ﷺ عيداً ، أو التزام عبادات معينة في أوقات معينة لم يوجد لها ذلك التعيين في الشريعة كاللزام صيام يوم النصف من شعبان وقيام ليلة ، وسواء في ذلك ألبس صاحبها على الناس بما ابتدعه ، أو التبتست البدعة عليه بالسنة ، ما دام مصراً عليها مع معرفته ببدعيتها أو إخباره بهذا الابتداع .. والمبتدع بذلك في شيء مما سبق ذكره من الأمثلة ، مشابه للجاهليين في تغييرهم ملة إبراهيم عليه السلام حيث قالوا في أصل الاشرار : « ما نعبدكم الا ليقرّبونا الى الله زلفى » (٧) .. وتناول الحمص (٨) ترك الوقوف بعرفة بقولهم : لا نخرج من الحرم ، اعتداداً بحرمة .. وتناول من طاف منهم بالبيت عرياناً بقوله : لا نطوف بثياب عصينا الله فيها .. ونحو ذلك ..

ومعنى قوله في التعريف الأول : « يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله تعالى » : قيد لإخراج العادات من البدع ، وبيان أن ما ابتدع من الأمور الزائدة على المشروع ، والمنسوبة الى الشرع مقصود بها المبالغة في التعبد ، أو تجديد النشاط الى العبادة ..

أما على التعريف الثاني ، فمعنى قوله : « يقصد بها ما يقصد بالطريقة الشرعية » : أن المبتدع يخترع ما يخترع لإصلاح الدين أو الدنيا على حد زعمه ، كمن يدخل المناخل في قسم البدع ، والبناءات

(٧) الزمر : ٣

(٨) المراد قریش وما ولدت وحلفاؤهم . سمووا بذلك لتحميمهم : أى تشددهم في الأمور .

المشيدة ونحو ذلك : مما يتعلق بالمخترعات المنسوبة الى الدين من العادات ، أى ادعاء ابحاثها كغيرها من الأمور المباحة من الدين « (٩) .

ويستند الشاطبى ومن وافقه .. الى أن الأدلة الكثيرة التى وردت فى نم البدعة والمبتدعة ومن تابعهم ، ليس فيها استثناء البتة ، وليس فيها ما يقتضى أن من البدع ما ليس سيئاً .. وقد ورد فى هذه الأدلة ما يقتضى تخصيص البدعة عن غيرها من المعاصى ..

فالبدعة لا يقبل معها عمل .. عن حذيفة رضى الله عنه قال : « لا يقبل الله لصاحب بدعة صوما ولا صلاة ولا حجا ولا عمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا .. يخرج من الاسلام كما تخرج الشعرة من العجين » (١٠) .

وصاحب البدعة تنزع منه العصمة ويوكل الى نفسه لأنه يترك ما منحه الله من الرسالة الاسلامية الواضحة الى هوى نفسه الذى لا عصمة فيه ..

وأن صاحب البدعة .. ملعون على لسان الشريعة ، فقد لعن رسول الله ﷺ تارك السنة ، وصاحب البدعة شارك بهذا اللعن من كفر بعد ايمانه . وأعرض عن الرسول ﷺ مع معرفته بصدقه .

وأن صاحب البدعة .. يزداد من الله بعدا مهما بالغ فى الطاعة والعبادة ..

وأن البدعة .. مخزنة لعداوة والبغضاء بين أهل الاسلام لأنها سبب التفرق وأساس الاختلاف .

وأنها مانعة من شفاعة نبينا محمد ﷺ كما يدل على ذلك حديث طرد من أحدث فى الدين عن الحوض يوم القيامة ..

وأن على مبتدعيها اثم من عمل بها الى يوم القيامة ..

(٩) انظر : البدعة : تحديدها وموقف الاسلام منها ، مرجع سابق ،

ص ١٩٢ — ٢٠٢ بسرف .

(١٠) رواد ابن ماجه .

وأن المبتدع يلقى عليه الذل فى الدنيا ويلحقه الغضب من الله تعالى .. فقد لعن اليهود بسبب ابتداعهم فى دينهم ..

وأن صاحب البدعة يخشى عليه من سوء الخاتمة لاصراره على المعصية وهو يظن أنه على طاعة ..

وأن وجهه يسود فى الآخرة .. فقد تأول مالك — رضى الله عنه — قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » (١١) فى أهل الأهواء ، ونقل هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما ..

وأنه يجب التبرؤ من صاحب البدعة فى الدنيا .. كما جاء عن ابن عمر فى القدرية ، وعن أبى قلابة ويحيى بن أبى كثير ونحوهم .
وأنه يخشى على صاحب البدعة الفتنة ..

وأن البدع ضلالة ، والمبتدع ضال ومضل .. بخلاف سائر المعاصى فإنها لم توصف فى الغالب بوصف الضلالة الا أن تكون بدعة أو شبه البدعة .. فلا يسمى الخطأ فى الاجتهاد ضلالة لأنه معفو عنه ، كما لا يطلق هذا اللفظ على المتعمد لسائر المعاصى ، وذلك لحكمة قصد إليها ، لأن الضلالة ضد الهدى ، والضلالة تدل على الخروج عن الطريق محسوساً أو معنوياً .. فالمبتدع خارج عن السنة وهو يتوهم أنه سائر فى الطريق المستقيم .. وهو ضال من حيث يظن أنه على الجادة .. والدليل على ذلك : أن كل مبتدع ينتسب إلى الملة يستشهد على بدعته بدليل شرعى ينزله على ما وافق عقله وشهوته ، ولا يقيس له ذلك الا فى الأدلة المتشابهة ..

ثم يقول الشاطبى : « والأمننة كثيرة ، جميعها يشهد بأن الضلال فى غالب الأمر انما يستعمل فى موضع يزل صاحبه لشبهة تعرض له ، أو تقليد من عرضت له الشبهة ، فيتخذ ذلك شرعاً وديناً يدين به مع وجود واضحة الطريق وجادة الصواب » .

ويؤكد الشاطبي موقفه من تخصيص البدعة ؛ فيذكر أنه إذا وقع الذنب موضع الاقتداء قد يسمى استئنا ناعامل صاحبه معاملة من سنبه ، كما جاء فى حديث : « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » . وحديث ابن آدم وأنه أول من سن القتل .. حيث سمي القتل سنة بالنسبة لمن يقتدى به فيه ، لكنه لا يسمى بدعة ؛ لأنه لم يوضع على أن يكون تشريعا . ولا يسمى ضلالا لأنه ليس فى طريق المشروع أو فى مضاهاته له « (١٢) » .

بعد هذا المدخل الضرورى فى تعريف السنة والبدعة .. نتحدث بمشيئة الله عن وجوب طاعة الرسول ﷺ .. فنقول وبالله التوفيق :

● طاعة الرسول .. من طاعة الله :

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله .. وأمرنا تعالى بطاعته والتسليم له فى كل ما يوجهه إلينا .. بل انه تعالى .. ينبهنا الى ما يجب نحوه ﷺ من الطاعة والاتباع ، ومن التبجيل والتوقير والاحترام .. ويكلفنا بالتسليم للرسول ﷺ دون اعتراض وعدم الخروج عن توجيهاته مهما كانت الأحوال ..

يقول تعالى : « .. ورحمتى وسعت كل شيء ، فساكنوها الذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم والاغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون « (١٣) » .

الله تعالى — فى هذه الآيات — يشترط لحصول رضاه وتفضله بالثواب والرحمة فى اندنيا والآخرة : اتباع الرسول ﷺ والرضا والتسليم بكل ما أمر به أو نهى عنه ..

(١٢) المرجع السابق . ص ٢١٠ — ٢١١ بتصرف .

(١٣) الأعراف : ١٥٦ . ١٥٧

كما يربط تعالى بين طاعته سبحانه وطاعة رسوله ﷺ ، ويجعلهما شيئاً واحداً .. فطاعة الرسول ﷺ مندرجة في الأمر بطاعة الله تعالى .. ولا تتحقق طاعة الله إلا بطاعة الرسول لأنها جزء منها .. يقول جل شأنه : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » (١٤) .

بل ويعلق تعالى رحمته بعباده على طاعتهم لله وللرسول فيقول : « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » (١٥) .
ويشير الطائعين لله ولرسوله بالفوز والفلاح .. فيقول جل وعلا : « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » (١٦) .

ويتفق المسلمون على أن طاعته تعالى دون طاعة رسوله ، أو طاعة الرسول دون طاعة الله ، أمر غير مقبول ، بل يجب اتباعه ﷺ فيما أمر به ، وعدم جواز الخروج على ما رسمه من معالم الطريق إلى الله تعالى .. يقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً » (١٧) .

يشير تعالى بذلك .. إلى أن طاعة الرسول ﷺ هدف ينبغي قصده بذاته — بجانب طاعة الله سبحانه وتعالى — وأن طاعته ﷺ لا تقل في أهميتها عن طاعة الله ..

بل إن اتباع الرسول ﷺ هو السبيل إلى نيل محبة الله . والوسيلة الوحيدة لتحقيق رضاه وحصول غفرانه : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم » (١٨) .

ويحذرنا تعالى من الاساءة إلى الرسول ﷺ في حياته ، أو إلى

(١٥) آل عمران : ١٢١

(١٧) النساء : ٥٩

(١٤) آل عمران : ٢٢

(١٦) الأحزاب : ٧١

(١٨) آل عمران : ٣١

سنته بعد وفاته بتقديم غيرها عليها أو بمخالفتها والخروج عليها بقوله :
 « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، واتقوا الله ،
 إن الله سميع عليم . يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت
 النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم
 لا تشعرون » (١٩) .

كما يتوعد — تعالى — المخالفين للرسول ﷺ بأوخم العواقب في
 الدنيا والآخرة .. فيقول : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن
 تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم » (٢٠) .

ويؤكد — سبحانه — أن الخروج — ولو مرة واحدة — عن
 اتباع الرسول ﷺ والتسليم لأمره . هو الضلال الواضح والانحراف
 الذي لا شك فيه .. فيقول : « وما كان لمومن ولا مؤمنة إذا قضى الله
 ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » ومن يعص الله ورسوله
 فقد ضل ضلالا مبينا » (٢١) .

من هذه الآيات وغيرها .. يتبين لنا أن الأمر باتباع الرسول ﷺ ،
 والتقيد من مخالفته في شيء مما جاء به — ركن أساسي من أركان
 الإيمان ، وتنفيذ للتسطر الثاني من شهادة التوحيد « وأشهد أن محمدا
 رسول الله » .. فما دمنا نشهد أنه رسول الله حقا ، وأنه لا ينطق
 عن الهوى . فعلينا — إذن — أن نمتثل لأوامره وأن ننتهي بنواهيه ..

فاتباعه ﷺ .. هو السبيل إلى دخول الجنة .. والابتعاد عن
 هذا الاتباع هو السبيل إلى دخول النار .. يقول الرسول ﷺ في
 الحديث الذي يرويه أبو سعيد الخدري : « والذي نفسي بيده لتدخلن
 الجنة كلكم إلا من أبى وشرده عن الله كثراد البعير » .. قالوا :
 يارسون الله . ومن يابى أن يدخل الجنة ؟ .. قال : « من أطاعني دخل
 الجنة : ومن عصاني فقد أبى » (٢٢) ..

(١٩) الحجرات : ٢٠ . ١ (٢٠) النور : ٦٢ .

(٢١) الأحزاب : ٣٦ .

(٢٢) رواد المنبراني . وابن حبان . وفكره الهيثمي ..

الأوقاف بالغربية ، وإمام المسجد ، وخطيبه ، ومندوب محافظة الغربية ، ومدير مديرية الشباب والرياضة بها ، ومندوب المجلس الشعبى المحلى ، ومندوب الدعوة بمديرية أوقاف الغربية .. ثم أمرت بجبسيهم جميعا على ذمة التحقيق .. وتكليف اللجان التى تتولى مراجعة عمليات فتح وجرد الصناديق لمواصلة أعمالها للكشف عن أية اختلاسات أخرى عن عامى ١٩٨٥/٨٤ ، وما قد تكشف عنه اللجان عن أى انحرافات عن الأعوام السابقة قبل عام ١٩٨١ » ..

ثم تقول الصحيفة: « ومن هنا يتور السؤال .. الى متى التهاون فى الحفاظ على المال العلم ؟ .. والى متى التسلط فى اصدار القرارات التهامية التى تحفظ للدولة أموالها ، مثل قرار تنظيم صرف الحساب التى يمكن تخصيصها من حصيلة صندوق نذور السيد البدوى ؟ » وطالما أنه ثبت لدينا أن صناديق النذور فى المساجد الكبرى ، مثل السيد البدوى ، تدر عائدا كبيرا من الأموال .. فهل من المعقول أن يتم جرد هذه الصناديق بهذه الصورة العادية ؟ .. ولماذا لا يتم الجرد تحت اشراف أخصائيين من الجهاز المركزى ، أو من البنوك الكبيرة ، أو مندوبين من وزارة المالية وغيرها من الأجهزة المختصة فى هذا المجال ؟ .. ا ه .



ونقول : هل عرفتكم الآن — يا أصحاب النذور — لماذا قال الرسول ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما : « اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » ؟ !

هل عرفتكم لماذا قرر الاسلام أن : « من نذر لغير الله فقد أشرك » .. هل وعيتم الدرس — يا من عصيتم الرسول ﷺ وعرضتم أنفسكم للشرك بالله — حين قدمتم النذور والقرايين لغير الله تعالى ؟ !

هل علمتم الآن — يا من استدثتم ، وبعتم أثاث بيوتكم ورهنتم دوركم كى تقدموا النذور والقرايين للموتى حتى تروج التجارة ، ويشفى المريض ، وينجح الطالب ، ويعود الغائب (إي) هل علمتم الى أين تذهب أموالكم ؟ !

هل عرفتُم لماذا يرفع بعض الناس شعار : « قطع الورايد ،
ولا قطع العوايد » ؟ ١٤

وأخيرا .. هل أدركتم الآن — يا عباد القبور — معنى قول
الله تعالى : « هل تثبتكم بالأخسرين أعمالا • الذين ضل سعيهم في
الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (٩٩) .

فاللهم ربنا : أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا
وارزقنا اجتنابه ، واحد قومنا ياربنا فانهم لا يعلمون ..
* * *

● ومن حلف بغير الله ، فقد أشرك :

الحلف بغير الله تعالى .. كأن يقسم بالنبي ﷺ ، أو بالكعبة
الشريفة ، أو بولي من الأولياء ، أو بكبير من الكبراء .. أو يقسم
بالوطن ، أو بالآباء والأجداد ، أو بغير ذلك من المخلوقات فكل ذلك من
الشرك .. وفي الحديث : « ومن حلف بغير الله فقد كفر » ..
وفي رواية : « فقد أشرك » (١٠٠) .

وذلك لأن في القسم تعظيماً للمقسم به .. والذي ينبغي أن
يخض بالتعظيم والتقديس هو الله وحده .. لهذا جاء النهي عن الحلف
بغيره تعالى .. فقال ﷺ : « لا تحلفوا بأبائكم » .. وقال : « من كان
خالفاً فليحلف بالله ، أو ليذر » ..

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « لأن أحلف بالله كاذباً أحب
إلي من أن أحلف بغيره صادقا » .
« ومن المعلوم في الدين : أن الحلف بالله كاذباً كبيرة من الكبائر ..
لكن الشرك — وإن كان شركاً أصغر — أكبر من كل الكبائر في نظر
فقهاء الصحابة رضي الله عنهم » (١٠١) .

(٩٩) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤

(١٠٠) رواه الترمذي وحسنه .

(١٠١) حقيقة التوحيد ، مرجع سابق ص ٦٦ .

فهو ﷺ يعلم فضل الله عليه ، ويعلم واجب كل انسان نحو الله تعالى .. ولو كان الأمر يحتاج من غيره الى عمل أكثر لبين ذلك ، والأمر مقتصر في التبليغ والبيان ..

● الغلو .. يؤدي الى الشرك :

يحدثنا الامام البخاري عن الأصنام الأولى « ود . وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر » .. فيقول نقلا عن ابن عباس رضي الله عنهما : « هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح .. فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم : أن انصبوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا ، وسموها بأسمائهم .. ففعلوا ..

ولم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك ونسى العلم : عبدت » ..

ويقال : انهم لما ماتوا علق الناس على قبورهم .. ثم نحتوا لهم التماثيل .. ثم لما طال عليهم العهد عبدوهم من دون الله .. وهكذا كان الغلو في شأن الصالحين يؤدي دائما الى الشرك والعياذ بالله ..

يقول تعالى : « يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق » (٢٧) .

غالت اليهود في شأن العزيز .. فنسبوه انى الله تعالى !!

وغالى النصارى في شأن المسيح — عليه السلام — فعبدوه مع الله تعالى ، وجعلوا منه ابنا له .. بل وقال بعضهم ان الله هو المسيح عيسى ابن مريم !!

وغالى اليهود والنصارى في شأن اخبارهم ورهبانهم .. فاتخذوهم أربابا من دون الله .. يحللون لهم ما حرم الله . ويحرمون عليهم ما أحله

لهم .. يقول جل شأنه : « قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم
في الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا
عن سواء السبيل » (٢٨) .

ولهذا .. نرى الاسلام يحذرننا أشد التحذير من الغلو في شأن
الأولياء والصالحين .. لأن الناس انما ضلوا وانحرفوا الى عبادة
الأصنام عندما عظموا الموتى فصوروا أصنامهم في صورهم .. ولهذا لعن
الرسول ﷺ المتذذين على القبور المساجد والسرر ..

ونهى ﷺ عن الصلاة الى القبور ، أو اتخاذها عيدا وموسما ..
فسال الله تعالى أن لا يجعل قبره وثنا يعبد ، ونهى أمته أن يتخذوا
منه عيدا ..

وأمر عليه الصلاة والسلام : بتسوية القبور .. ونهى عن اتخاذ
التمثيل ، وغلظ في ذلك تغليظا شديدا ..

● يقول الدكتور يوسف القرضاوى — جزاه الله عن الاسلام
خيرا — : « ... ان غلو بعض المسلمين فيمن يعتقدون صلاحهم ولايتهم
لله تعالى — وبخاصة أصحاب الأضرحة والمزارات — يؤدي الى أنواع
من الشرك .. كالنذر اليهم ، والذبح لهم ، والاستعانة بهم ، والاقسام
بهم على الله تعالى ، ونحو ذلك ..

وقد يفضى بهم انغلو الى الشرك الأكبر — والعياذ بالله — وهو
اعتقاد أن لهم سلطنة وتأثيرا في اوجود وراء الأسباب والسنن الكونية ..
فيدعونهم من دون الله أو مع الله .. وهذا هو الاثم العظيم ،
والضلال البعيد » ..

ولهذا كان : « مما حذر الاسلام منه أشد التحذير تعظيم القبور ..
وبخاصة قبور الأنبياء والصالحين ، ولذلك نهى عن جملة أشياء تفضى
الى تعظيم القبور . منها : اتخاذها مساجد ، والصلاة اليها ، واضاعتها ،
وايقاد السرج عليها . واثنياء عليها وتجسيصها ، والكتابة عليها ،
وتعليقها ورفعها ، واتخاذها عيدا » ..

« والحكمة في نهى الاسلام عن تعظيم القبور أنه ذريعة الى الشرك الأصغر والأكبر [كما رأينا في قوم نوح ، وكما هو مشاهد الى اليوم] فالغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا معبودة .. ولهذا قال ﷺ : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد .. اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » (٢٩) .

« ومما يأسف له كل مسلم غيور على دينه .. أن ما حذر منه الرسول ﷺ قد وقع فيه كثير من أهل الاسلام .. فقد اتخذوا قبور بعض الصالحين أعيادا ، وشيدوها وزخرفوها ، وبنوا عليها المساجد والقباب ، وأوقدوا عليها السرج والقناديل ، ووقفوا لذلك الوقوف ، ونذروا لها النذور ، وطلافوا بها كالكعبة ، واستلموها كالحجر الأسود ، وأوسعوا جدرانها لثماً وتقبيلاً .. ومنهم من يسجد لها . ويعفر الخدود على ترابها ، ويقف خاشعاً مستكيناً يستغيث بأصحابها .. يسألهم — مشافهة — قضاء الديون ، وتفريج الكربات ، وإغاثة اللهفات ، وشفاء المرضى ، والنصر على الأعداء !!

وبعضهم يقدم طلباته مكتوبة في رقاع الى صاحب القبر .. وهذا من الشرك الصريح ، ولا حول ولا قوة الا بالله » ا هـ (٣٠) .

● ويقول فضيلة الشيخ محمود محمد خطاب السبكي (٣١) — رحمه الله — : « ... من البدع المذمومة ما التزموه في المقابر من العادات المقبوضة .. كاتخاذها أعيادا تشد اليها الرحال .. ويجتمع فيها النساء والرجال والأطفال .. ولا سيما في ليلتي العيدين . وأول جمعة من رجب .. وتذبح عندها الذبائح ، وتطبخ أنواع المأكول .. فيأكلون ويشربون ، ويولون ويتغولون ، يلعبون ويسخبون .. ويقرأ لهم القرآن من يستأجرون لذاك من العميان .. ولهم أعمال من دون ذاك هم عليها عاكفون !!

(٢٩) رواه مالك .

(٣٠) حقيقة التوحيد ، مرجع سابق ، ص ٦٤ — ٦٨ بنصرف .

(٣١) في الدين الخالص ، ج ٨ : ص ٨٨ — ٩١ بنصرف .

« وإذا كان ما يأتون من القراءة والذكر هتلك من البدع المنكرة ،
وكان بعض المباحات يعد هناك من الأمور المكروهة أو المحرمة ..
فما القول فى سائر أفعالهم الظاهرة والباطنة ؟ »
ولو لم يرد فى حظر هذه الاجتماعات فى المقابر الا حديث
ابن عباس — رضى الله عنهما — مرفوعا : « لعن الله زائرات القبور
والمتخذين عليها المساجد والسرج »^(٢٢) لكفى .. ولكن ذلك كله قد
صار من قبيل شعائر الدين وآيات اليقين .. توقف له الأوقاف التى
يسجلها ويحكم بحسبها قضاء جاهلون .. ويأكل منها أدعياء العلم
المضلون !!

« وقد كان بعض الصحابة — وغيرهم من علماء السلف — يتركون
بعض السنة أحيانا حتى لا يظن العوام أنها مفروضة بالترامها ، تأسيسا
بالرسول ﷺ فى ترك المواظبة على بعض الفضائل خشية أن تصير من
الفرائض .. فخلف من بعدهم خلف قصروا فى الفرائض وتركوا السنن
والشعائر ، وواخبروا على هذه البدع .. حتى انهم ليتركون لأجلها
الأعياد والجمع !!

« ومن المنكر .. ما يقع من بعض من لا خلاق لهم ، من اعتقادهم
فى قبور الصالحين والأولياء ، وبعض الأشجار والأبواب .. أنها تنفع
أو تضر ، أو تقرب الى الله تعالى ، أو تقضى الحوائج بمجرد التشفع
بها الى الله تعالى !! .. يضوفون بها طواف الحجاج ببيت الله الحرام ..
ويخاطبون الميت بالخطبات المخففة بقولهم : « اقسم ظهرك ياسيد وخذ
عمره » !! أو « تصرف فيه يا امام » !! .. ويهتفون بأسمائهم عند الشدائد !!
« وكل جهة رجل ينادونه .. فأهل مصر يدعون الشافعى والبدوى
والبيومى !! ، وأهل العراق والهند والشام يدعون عبد القادر الجيلانى !! ،
وأهل مكة والطائف يدعون ابن عباس [كان ذلك قبل انتشار المذهب
الوهابى فى المملكة العربية السعودية ، وقد تلاشى ذلك بحمد الله] ،
وينذرون لهم الدور - ويذبحون لهم الذبائح ، ويوقدون لهم السرج ،
ويضعون الدراهم فى صناديقهم !!

(٢٢) أخرجه أحمد والأربعة والحاكم . وصححه ..

« ولا ريب أن هذا من أعمال الجاهلية ، ومخالف لدين الله تعالى ورسوله ، وما كان عليه سلفنا الصالح رضى الله عنهم .. ولو عرف الناذر بطلان ذلك ما أخرج درهما ، فإن الأموال عزيزة عند أهلها .. قال تعالى : « ولا يسألكم أموالكم » أن يسألكموها فيحرقكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » (٢٣) .

« فالواجب على كل عاقل تحذير من يفعل ذلك .. لأنه إضاعة للمال ، ولا ينفعه ما يخرج منه ولا يدفع عنه ضررا .. بل فيه المخالفة والمخاربة لله تعالى ورسوله ﷺ ..

« ويجب رد المال إلى من أخرجه ، وقبضه حرام .. لأنه أكل مال الناذر بالباطل وقد قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » (٢٤) — أى ما لم يبيحه الشرع كالنذر لغير الله ، وكالغصب ، والقمار ، والربا .. ونحو ذلك — وفيه تقرير الناذر على قبض اعتقاده وشنيع مخالفته .. فهو كحلوان الذاهن ومهر البغى .. ولأنه تدليس من هؤلاء القوم وإيهام له أن الولي ينفعه ويضره .. فأى تقرير لنكر أنشد من قبض النذر على الميت . وإى تدليس أعظم من هذا ؟ !

« يقول الصنعاني — بعد كلام فى هذا الموضوع — : « فإن قلت : هذا أمر عم البلاد واجتمعت عليه سكان الأرض شرقا وغربا : وشمالا وجنوبا — فلا بلدة ولا قرية إلا وفيها قبور ومشاهد ، وأحياء يعتقدون فيها ويعظمونها ، وينذرون لها ، ويهتفون باسمائها ، ويحلفون لها ، ويطوفون بفناء القبور ، ويسرجونها ، ويلقون عليها الورود والرياحين ، ويلبسوها الثياب ، ويصنعون كل ما يقدرون عليه من العبادة لها وما فى معناها من التعظيم والخشوع !! .. بل هذه مساجد المسلمين ، غالبها لا يخلو عن قبر أو مشهد يقصده المصلون فى أوقات الصلاة ، يصنعون

(٢٣) محمد : ٢٦ . ٢٧ . وقوله تعالى : « فيحرقكم » : أى يجهنمكم ويطلب منكم كل أموالكم : « ويخرج أضغانكم » : أى يظهر احتقادكم .
(٢٤) النساء : ٢٩

فيه ما ذكر أو بعضه ، ولا يسع عقل عاقل أن منكرا يبلغ ما ذكرت من
الشناعة ويسكت عليه علماء الاسلام !!

« قلت — والقائل هو الصنعاني — : أن أرحمت الانصاف وتركت
متابعة الأسلاف ، وعرفت أن الحق ما قام عليه الدليل ، لا ما اتفق عليه
العالم جيلا بعد جيل .. فاعلم أن هذه الأمور التي ندندن حول انكارها ،
ونسعى في هدم منارها .. صادرة عن العامة الذين اسلامهم تقليد
الآباء بلا دليل .. ينشأ الواحد منهم ، فيجد أهل بلده يلقنونه في
الطفولة أن يهتف باسم من يعتقدون فيه ، ويراهم يندرون له ويعظمونه
.. ويرحلون به إلى محل قبره ويلطخونه بترابه ويطوفون به على قبره
.. فينشأ وقد وقر في قلبه عظمة ما يعظمونه !! »

فنشأ على هذا الصغير ، وشاخ عليه الكبير ، ولا يسمعون
انكارا عليهم !!

بل ترى من يتسم بالعلم ويدعى الفضل معظما لما يعظمونه ..
قابضا للندور ، آخلا ما ينحر على القبور .. فيظن أن هذا هو دين
الاسلام !!

ولا يخفى على أحد يتأمل فلننظر ، ويعرف بارقة من علم الكتاب
والسنة والأثر .. أن سحوت العالم أو العالم — بكسر اللام في الأولى ،
وفتحها في الثانية — على وقوع منكر ليس دليلا على جوازه « (٢٥) » .
« ويقول ابن القيم : « كان النبي ﷺ إذا زار القبور يزورها للدعاء
لأهلها والترحم عليهم والاستغفار لهم .. »

فأبى المشركون إلا دعاء الميت . والاقسام على الله به ، وسؤاله
الحوائج ، والاستعانة به . والتوجه إليه .. بعكس هديه ﷺ ، فإنه هدى
توحيد واحسان إلى الميت . وهدى هؤلاء شرك واساءة إلى نفوسهم
وإلى الميت ..

(٢٥) انظر تنبيه السالكين إلى نيران الاتحاد ص ٢٩ ، والمنهل العذب
المورود ج ٩ ص ١٠٢ . والنص منقول من اندين الخالص ..

وهم ثلاثة أقسام : أما أن يدعوا للميت ، أو يدعوا به ، أو عنده .
ويرون الدعاء عنده أولى من الدعاء في المساجد . . ومن تأمل هدى
رسول الله ﷺ تبين له الفرق بين الأمرين « (٣٦) » .

يقول الله تعالى : « قل هل ننبئكم بالاحسرين أعمالا : الذين ضل
سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (٣٧) .
فإن الله تعالى يأمر رسوله ﷺ قائلا : قل يا محمد : هل نخبركم ،
أيها القوم ، بالذين أتعبوا أنفسهم في عمل ييغون به ربها ، فنالوا به
عطبا وهلاكاً ؟ . انهم الذين لم يكن عملهم على هدى واستقامة ، بل على
جور وضلالة ، لأنهم عملوا بغير ما أمرهم الله به . وهم يظنون أنهم
لله مطيعون ، وفيما ندب إليه مجتهدون !!

ويقول جل شأنه : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » (٣٨) .
أي أطيعوا الله ورسوله في كل أمر ونهى . . وذلك باتتباع الكتاب
والسنة . .

ويقول جل وعلا : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله
ويغفر لكم ذنوبكم » (٣٩) .

أي قل لهم يا محمد : ان كنتم كما ترعونهون تحبون الله ، فمحققوا
قولكم باتتباعي : فان ذاك علامة صدقتكم في محبتكم لله . فيحذف ويعفو
عما مضى من ذنوبكم فهو وحده المغفور لذنوب عباده ، الرحيم بهم . .
كما يقول : « فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا
ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » (٤٠) .

أي : من كان يخاف ربه يوم لقائه . ويراقبه ويرجو ثوابه ،
فليخلص له العبادة ، ولا يجعل له شريكا في عبادته . .

(٣٦) انظر زاد المعاد ج ١ ، ص ١٤٦

(٣٧) الكهف : ١٠٢ - ١٠٤ (٣٨) النساء : ٥٩

(٣٩) آل عمران : ٣١ (٤٠) الكهف : ١١٠

بل انه تعالى . . يقسم بذاته قائلا : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (٤١) .

أى : فوربك يا محمد ، لا يؤمنون حق الايمان حتى يجعلوك حكما فيما تنازعوا واختلفوا فيه من امورهم . ثم لا يجدوا ضيقا في انفسهم مما حكمت بينهم . ويسلموا لقضائك وحكمك تسليما مطلقا ، مع الاذعان والقبول . .

وتحكيم الرسول ﷺ يكون بالرجوع اليه حال حياته . . والى سنته المطهرة الثابتة بعد موته . . فما بال أقوام منا يعرضون عن تحكيم الرسول ﷺ ويأبون الامتثال لأوامره . ويتبعون شياطينهم وكهانهم وشيوخهم ؟ !

لقد ثبت أن الغزو في شأن الصالحين يؤدي بالمغالين من الناس الى الشرك بنوعيه — الاصغر والأكبر — ولهذا نرى الرسول ﷺ ينهى عن البناء فوق القبور أو تجصيصها أو تعظيمها . .

عن جابر رضى الله عنه قل : « نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر — أى يحلى بأشجير — أو يقعد عليه ، أو يبنى عليه » (١٢) . .

لهذا رأى العلماء أنه من البدع المنكرة الكتابة على القبور أو رفعها أعلى من شبر . . أو وضع القباب عليها . نهى الرسول ﷺ عن ذلك في الحديث الذى رواه مسلم . . ولهذا أغتى بعض العلماء بهدم البناء على القبور . وقال نسائي في « الأم » : وجدت بمصر من الولاة من هدم القبور المسنمة — أى المرتفعة — فلم يمنعه أحد . .

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية : من تصح الصلاة في المسجد اذا كان فيه قبر واناس يجتمع فيه نصلاتي الجماعة والجمعة : أم لا ؟ . . وهل يمهّد القبر أو يبنى عليه حشأ أو حاجز ؟ .

(٤١) النساء : ٦٥

(١٢) رواد ابو داود والبيهقي . .

فأجاب رحمه الله : « اتفق الأئمة أنه لا يبنى مسجد على قبر ..
لأن النبي ﷺ قال : « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ،
ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فاني أنهاكم عن ذلك » ..

« وأنه لا يجوز دفن ميت في مسجد ، فان كان في المسجد قبل
الدفن غير ، أما بتسوية القبر ، وأما بنبشه ان كان جديدا .. وان كان
المسجد بنى بعد القبر ، فاما أن يزال المسجد ، وأما أن تزال صورة
القبر .. فالمسجد الذي على القبر لا يصلى فيه قرص ولا نفل ،
فانه منهي عنه » (٤٢) .

ويقول الشوكاني : « الظاهر أن رفع القبور زيادة على القدر
المأذون فيه محرم .. وقد صرح بذلك أصحاب أحمد وجماعة من
أصحاب الشافعي ومالك ..

والقول بأنه غير محذور لوقوعه من السلف والخلف فلا نكير [كما
قال الامام يحيى والمهدى في الغيث] لا يصح .. لأن غاية ما غيه أنهم
سكتوا عن ذلك .. والسكوت لا يكون دليلا اذا كان في الأمور الظنية ،
وتحريم رفع القبر ظن » ..

ويقول فضيلة الشيخ السيد سابق : « ومن رفع القبور الداخل
تحت الحديث دخولا أوليا : القباب والمشاهد المعمورة على القبور ،
وأیضا هو من اتخاذ القبور مساجد ، وقد لعن رسول الله ﷺ فاعل ذلك .

« وكم قد سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها مغاسد يبكي لها
الاسلام .. منها اعتقاد الجهلة فيها باعتقاد الكفار في الأصنام ،
وعظموا ذلك غظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر .. فجعلوها
مقصدا لطلب قضاء الحوائج ، وملجأ لنجاح المطالب .. وسألوا منها
ما يسأل العباد من ربهم .. وشهدوا اليها الرجز . وتمسحوا بها
واستغاثوا !!

(٤٢) الفتاوى الكبرى ، لابن نهيمة ، نشر دار المسرعة ببيروت .

« وبالجملۃ • انهم لم يدعوا شئنا مما كانت الجاهلية تفعله
بالأصنام الا فعلوه • غانا لله وانا اليه راجعون ••

« ومع هذا المنكر النسيح • والكفر الفطيع •• لا تجد من يفض
لله ويغار حمية الدين الحنيف •• لا عالما ولا متعلما ، ولا أميرا
ولا وزيرا ولا ملكا !!

« وقد توارد الينا من الأخبار ما لا يشك معه أن كثيرا من هؤلاء
القبوريين — أو أكثرهم — اذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه حلف
بالله فاجرا •• ناذا قيل له بعد ذلك : بشيخك ومعتقدك المولى العالاني ••
تلثم وأبى واعترف بالحق •• وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن
شركهم قد بلغ فوق شرك من قال : انه تعالى ثانی اثنين أو ثالث
ثلاثة « !! (١١١)

ويقول ابن حجر في « الأزواج » : « وتجب المبادرة لهدم المساجد
والقباب التي على القبور •• اذ هي اضر من مسجد الخرار ، لأنها أسست
على معصية رسول الله ﷺ لأنه نهى عن ذلك • وأمر بهدم القبور
المشرفة ، وتجب ازالة كل تمثيل أو سراج على قبر •• ولا يصح وقفه
ونذره ••

[ونحن لا نقول بقول الداعين الى عدم هذه المساجد — وهي
تعد بالآلوف — « ومن اظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه
وسعى في خرابها » [انقرة : ١١٤] ولتتنا ندعو الى تطهيرها من جميع
مظاهر الشرك ، وذلك بتبشير الناس بالمعتقد السليمة التي قام الاسلام
لتأصيلها ، عن طريق رجال الدعوى والارشاد من القائمين على أمر هذه
المساجد ننسبها لمنقة الناس فيهم] •

وعن عبد الله البجني قال : سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت
بخمسة وهو يقول : « اني ابرأ انى الله أن يكون لى منكم خليل ،

(١١١) غقه المسند • المسند مسبق • نشر دار التراث العربى ،

فان الله عز وجل قد اتخذنى خليلا .. وان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد .. ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، انى أنهاكم عن ذلك » (٤٥) .

وعن عائشة رضى الله عنها : أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بالحبشة فيها تصاوير .. فقال ﷺ : « ان أولئك اذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور .. أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » (٤٦) .

وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ : « لمن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » (٤٧) .

وروى مسلم عن هارون أن ثمامة بن شفي حدثه قال : كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم بروفس .. فتوفى صاحب لنا .. فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسوى ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها ..

وعن أبى الهياج الأسدى قال : قال لى عى بن أبى طالب خرم الله وجهه : « ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ : ألا أدع تمثالا إلا طمسته ، ولا قبرا مشرفا إلا سويته » .. ويقول الترمذى : « والعمل على هذا عند بعض أهل العلم .. يكرهون أن يرفع القبر فوق الأرض إلا بقدر ما يعرف أنه قبر ، لكيلا يوطأ ولا يجلس عليه » ..

ويقول الشافعى : « وأحب ألا يزداد فى القبر ترابه من غيره .. وانما أحب أن يشخص على وجه الأرض شبرا أو نحوه .. وأحب أن لا يبنى ولا يجصص ، فان ذلك يشبه الزينة والخيلاء ، وليس الموت موضع واحد منهما .. ولم أر قبور المهاجرين والأنصار مجصصة » ..

(٤٥) رواه مسلم .

(٤٦) رواه البخارى ومسلم .

(٤٧) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان .

ويقول صاحب « الدين الخالص » : « ... اتخاذ القبور التي لم تتدرس مساجد حرام .. كما يحرم بناء المساجد على القبور .. ويجب هدم كل مسجد بني على قبر .. »
« وانما نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبور وقبر غيره مسجدا .. خوفا من المبالغة في تعظيمه والافتتان به .. وربما أدى ذلك الى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية .. »

« ولما احتاجت الصحابة والتابعون رضي الله عنهم الى الزيادة في مسجد رسول الله ﷺ ، حين كثر المسلمون وامتدت الزيادة الى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه ، ومنها حجرة عائشة مدفن رسول الله ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر ، بنوا على القبر حيطانا مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر شي المسجد فيحصل اليه العوام ، ويؤدي الى المحذور .. »

« ثم بنوا جدارين في ركني القبر الشماليين حرفوهما حتى التقيا فلا يتمكن أحد من استقبال القبر .. »
« وقد حمل بعضهم الوعيد على من كان في ذلك الزمان لقرب العهد بعبادة الأوثان ، وهو تقييد بلا دليل .. لأن التعظيم والافتتان لا يختصان بزمان دون زمان .. وقد يؤخذ من قوله ﷺ : « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد » ، ومما روى ابن عباس قال : « لعن النبي ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » .. أن محل الذم على ذلك أن تتخذ المساجد على القبور بعد الدفن لا لو بني المسجد أولا وجعل انفير في جانبه يدفن فيه واقف المسجد أو غيره فليس بداخل في ذلك .. »

« قال العراقي : والظاهر أنه لا فرق .. وأنه اذا بني المسجد لقصد أن يدفن في بعضه فهو داخل في اللعنة ، بل يحرم الدفن في المسجد .. وان شرط أحد أن يدفن فيه لم يصح الشرط لأنه مخالف لقتضى وقفه مسجدا .. وان قبر ميت في مسجد وطال مكثه سوى القبر حتى لا تظهر صورته ، ويحرم دفن الميت في المسجد .. »

« قال النووي في « المجموع » : وأما حفر القبر في المسجد فحرام شديد التحريم » (٤٨) .

ويحدثنا فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهري عن البدع التي نشأت عن اتخاذ المساجد فوق القبور .. فيقول : « .. هيهات أن يترك أهل البدع مكانا لا يدخلون فيه ببدعهم وظلمات أفكارهم .. حتى يهدروا الشريعة ، وحتى لا ييئس في الدين إلا اسمه !!

« ونسوق بعض البدع نراها عند القبور على أنها ليست من دين الله تطبيقا لحديث : « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » ، وحديث : « أصحاب البدع .. كلاب أهل النار » ..

« من هذه البدع .. وضع الأضرحة والمقابر في المساجد .. ورسول الله ﷺ يقول : « لعن الله اليهود والنصارى : اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ..

« وبناء المساجد على الأضرحة العن وأضل وأجرم .. فكانها لم تبني لله ، بل لأجل من بداخل الضريح .. وقد قال ﷺ : « الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام » (٤٩) .. وقال : « لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها » .. ونرى في هذا الكفاية ..

« وإن من يتعمد الذهاب إلى تلك المساجد ذات القبور .. إنما يذهب من أجل وجوه يقبر من يذهب إليه في المسجد .. فيكون قد دعا مع الله أحدا .. والله يقول : « وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » (٥٠) .. حتى أنك ترى — في هذه الأيام — مسجدين .. أحدهما ليس به قبر ، والآخر به قبر .. وقطعا الخالي من القبور هو الأولى بالصلاة فيه بحكم الشرع — كمسجد الأزهر مثلا — ولكنك تجد الناس يحجمون عن الصلاة فيه ويجتمعون على الصلاة في المسجد

(٤٨) الدين الخالص ، مرجع سابق ج ٢ ص ٢٢٨ — ٢٣٠

(٤٩) رواه أحمد .. (٥٠) الجن : ١٨

ذی القبر .. بل ویفرشون الأرض بجواره تحت قیظ الشمس لأداء الصلاة ، ولا یذهبون الی المسجد الآخر !!

« ترى ما زعمهم فی هذا ؟ .. الله أمرهم بأن یضعوا أنفسهم فی القیظ ویهجروا المسجد الآخر : .. ولأی شیء ؟ !

« أم تراهم أهدى من محمد — ﷺ — وصحابته الذین لعنوا من فعل هذا ؟ !

« ووقف الأموات عنی مقبرة ما ، أو وقف الأطلیان باسم الرحمة أو قراءة القرآن بما هو معهود الآن .. أو إقامة الحیثان وغرس الأشجار والحبار ووضع الرياحین .. من البدع التي یجهلها الكثير ، لأنه تحلیل وحبس للأموات لحساب الأموات على حساب الأحياء — وحتى وان كانوا غیر ذی قریب منهم أولى !!

« أما وضع الجريد على القبر ، فقد كان خصوصية لرسول الله ﷺ .. فعلها مرة على قبرین نُسختین ، ولم یفعلها بعد ذلك لأحد ، ولم یقم أحد من الصحابة بفعلها ..

« وذكر العلماء .. أنها حذنت مجرد شفاعته منه لدى الله لتخفيف العذاب عنهما . وقبل الله رجاءه فیهما لمدة محدودة نفس علیها فی الحديث « ما لم یبیس » .. ای ما دامت الجريدتان خضراوین ..

« أما قراءة القرآن ، واستئجار المقرئين للتلاوة عند القبور ، وفي البيوت فی موضع خروج الروح ، وفي السراذقات ، فهذا عمل قد لا یقبله الله سبحانه وتعالى .. لأن هذا القاریء اذا لم یعلم أنه سیأخذ أجراً على قراءته ما قرأ .. فالقراءة لیست لله ولكنها للمال .. وهذا غصلا عن أنها عمل یتعبد به غیر وجه الله ..

« هذا بالنسبة للقاریء .. أما بالنسبة لاستأجر القاریء ، فمن أين له أن هذا العمل فی میدان الدین ؟ .. وهل ثبت لديه أن الله یقبل هذا العمل ؟

« علاوة على ما غي ذلك من التباهى والرياء والاسراف فى ضياع الوقت .. والحديث يقول : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ..
« واشترط الصلاح فى الولد .. لوصول ثواب الدعاء ، فكيف بجال القارئ الذى لا نعلم له ظاهرا ولا باطنا ؟ »

« واذا كنت مخلصا لهذا الميت .. فتعلم القرآن وتلاوته ، وصل الصلاة فى ميقاتها ، وصم شهرك من غير فسوف ، وأد حقوق ربك كلها وحقوق الخلق بالحسن .. ثم ادع لمن شئت ، فانك مجاب باذن الله ..

« وعلى فرض أن القراءة صحيحة .. فان خديجة — رضى الله عنها — كانت أحب الناس لرسول الله ﷺ ، ومع هذا لم يفعل لها ذلك .. وحمزة عمه سيد الشهداء .. وسعد بن معاذ ، وكثير غيرهم .. لم يثبت أنه قرأ لهم قرآنا ، بل الثابت هو الدعاء ، والاستغفار ، والصدقة ، وأداء ما على الميت من زكاة أو حج أو صيام أو ديون أو عهود وعقود ..

« وغرس الأشجار فى القبور أو نصب الخيام عليها من البدع .. وقد رأى ابن عمر خيمة على قبر فسال : لم ؟ قالوا : نظلله .. فقال : دعوه يظلله عمله .. أما غرس الأشجار فيلحق سابقه فى الحكم بالنسبة لوضع الجريد عليها ..

« ووضع الستور والكساوى والعمائم على الأضرحة من البدع .. وهو فضلا عن أنه اسراف ينهى عنه الشرع ، وزينة فى موطن العبرة .. فأنه تعظيم للموتى لفتنة الأحياء .. والأحياء الذقراء أولى ألف مرة عن تجميد هذا المال .. علاوة على أن وضع الستور من الأمور المنهى عنها .. وقد روى البخارى عن عائشة قالت : « سترت الباب بنمط [أى ستارة أو بساط خامته من نسيج رفيع] ، وجاء النبى ﷺ فرآها فغضب وقال : « يا عائشة ، ان الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين » ..

« ومن البدع المنكرة فى المقابر : وضع الشموع عليها ، وزيارة النساء لها .. وفى الحديث : « لعن الله زوارات القبور ، والمتخذين

عليها المساجد والاسرج » .. لأن وضع النار على من فى القبور من أشد ما يتأذى به الميت ، حتى أن المفتهاء قرروا ألا نضع فى القبر حجرا دخل النار دون ضرورة .. أما زيارة النساء للقبور .. وهى التى شرعت للرجال للعبرة — فخيف بامرأة تخرج الى المقبرة حيث يوجد الشباب والرجل ، فيفتتنون بها أو تفتن بهم ، وتخرج عن الاطار الاسلامى فى أهداف زيارة القبور بما تصنع من غفنة فى موضع العبرة ..

« أضف الى هذا .. ان بعض النساء ضعيفات القلوب ، فيمجرد وصولهن الى المقابر تراهن يلطمن الخدود ويصرخن ويشقن الجيوب ، ويدعين بدعوى الجاهلية .. والحديث يقول : « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودنا بدعوى الجاهلية » ..

« وقد رأى رسول الله ﷺ ابنته فاطمة وقد عادت من خارج البيت .. فقال لها : « هل ذهبت معهن الى المقابر » ؟ قالت : لا يا رسول الله ، وكيف أذهب وقد سمعت تسدك فيها ؟ فقال : « لو ذهبت معهن الى المقابر ما شمت ريح الجنة » ..

« وقد روى أبو داود والترمذى حديث : « لا تتبع الجنابة بصوت ولا نار » .. ولكننا نقول : ان مسئولية هؤلاء النسوة والفتيات اللاتى يتواجدن عند القبور لا تنحصر فيهن فقط ، بل تعم من ورائهن من الرجال أوليائهن الذين يسمحون بهذا العبث ..

« والطواف حول القبور وتسميتها حرما من البدع .. وعلى المسلم أن يعلم أن الطواف وقف على بيت الله الحرام فقط .. يقول تعالى : « وليطوفوا بالبيت العتيق » (٥١) .. ولا يحسح الطواف حول غيره من الأضرحة تشبيها منهم لهذه الأضرحة بقبلة رب العالمين ..

« فكان الطائف يقبر ويؤى أو غيره يقول : ان لى قبليتين وحرمين .. قبلة وحرما اختارهما الله . وقبلة وحرما اخترتهما أنا — نعوذ بالله من ذلك — وقد تعددت نديهم الحرم .. فقموا « الحرم الزينبى » ،

و « الحرم الأحمدي » ، و « الحرم الحسيني » ، و « الحرم الغريبي » ،
و « حرم الشافعي » : و « حرم القنائي » .. الخ !!

« أضف الى ذلك .. أن الشيطان إنما استقر هؤلاء الطائفين
لغرض ما في نفسه سينفذه بعد سنين ، ليبعد الناس تماما عن كعبة الله
الأصلية .. أي أنه اذا كان الطائف بقبر ما — الآن — يعلم أن قبلته
هي الكعبة ، فسيأتي يوم على فعلته هذه أن تكون طوافا دون الكعبة !!

« فعلى المتحرى لدينه والغيور عليه أن يتقى الله ربه ، ولا يعطى
للسيطان أغلا لا يحبس بها أتباعه ، وخاصة وقد افوا أحاديث مكذوبة
بأن زيارة ضريح فلان الولي ثلاث مرات تعدل حجة تامة !! .. وصدق
الحديث الشريف : « ما أحدث الناس بدعة ، الا رفع من السنة مثلها » !!
« ومن أفلح البدع : الخشوع للميت عند زيارته والاستئذان منه
للدخول عليه » ، وكل هذا من عبادة وتعظيم غير الله ..

« وقد يحلف أحدهم بالله خمسين مرة كذبا دون مبالاة ، ولكنك
لو أردت اختباره وطلبت منه الحلف بصاحب الضريح فزع وخاف من
سوء العاقبة التي يزعم أنها ستحل به من الولي : « ومن الناس من يتخذ
من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله » (٥٢) .

« ويقول تعالى في آية أخرى : « يخشون الناس كخشية الله
أو أشد خشية » (٥٣) .

« وقد لا يستطيع أحدهم أن يقدم على عمل ما — مهما دللناه على
الاستخارة الشرعية والاستشارة الدينية — الا بعد أن يمنحه شيخه
سادن الضريح اذنا بالعمل مهما كانت النتيجة .. فجعلوهم بمنزلة
الأخبار والرهبان الذين يدعون أن ما يحلونه هم في الأرض يحله الله
في السماء ، وما يحرمونه يحرمه الله !! « سبحانه وتعالى عما يقولون
علوا كبيرا » (٥٤) .

« ومن هذه البدع الخسنة : التقبيل والاستلام للأضرحة وتقبيل أعتابها !! .. عذا طه من اشرك والنعلق بالمباديات على حساب الروحانيات . وقد يحتج من يشغل ذلك باستلام رسول الله ﷺ للحجر الأسود !!

« ونفى هذا أيضا نقول : ان هذه خصوصية للمجر الأسود فقط .. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « والله اني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع . ولولا اني رايت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك » .. أتري هؤلاء الذين يعجلون الأضرحة والاعتاب : .. اهدي من عمر بن الخطاب وأشد تحققا منه في دين الله ودرجات الايمان ١٤

« ما هو الا الشيطان اراد ان يصددهم عن توحيد الله وافراده بالعبادة .. وانى لأعجب من هؤلاء الذين يقبضون الأعتاب والأخشاب ، ويظنون أنهم على الهدى . بل وتراهم من أشد المتحمسين لأفعالهم .. وما أرى ذلك الا من حمية الشيطان بالدفاع عن عادات وثنية هدمها الاسلام ويحييها هؤلاء .. وانى أسأت احدهم : هل ثبت أن أبا بكر رضي الله عنه قبل قبر رسول الله ﷺ ؟ .. أو هل قبل عمر قبر رسول الله ﷺ وقبر أبي بكر ؟ !

« فانه اذا كان انتمسح دحمودا ، والتقبيل يورث البركات .. فلا شك في أن تقبيل قبر رسول الله ﷺ فيه أعظم البركات .. ولكن هل يجدي هذا في عقول غدا تبليت وزان على قلوب أصحابها عادات مبتدعة ، وقيم هدمها الاسلام ؟ !

« وتقديم العرائض والشكاوى للأولياء من البدع الشاذة .. والله يعلم أن من مات فهو في شغل شاسع بآخرته حيث قال : « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » (٥٥) .

[أي الذين تدعونهم من دون ربكم ما يملكون قشر النواة] .

ويقول تعالى : « ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكترون بشرككم » (٥٦) .

[أى ان تدعوا هؤلاء الناس لا يسمعوا دعاءكم .. ولو سمعوا دعاءكم وفهموا قولكم بأن جعل لهم سمع يسمعون به بعد أن ماتوا ما استجابوا لكم لأنهم لا يستطيعون النطق .. ويوم القيامة يتبرأون من عبادتكم إياهم بعد أن جعلتموهم شركاء لله بتوجيه الدعاء إليهم] .
ويقول جل شأنه : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » (٥٧) .

[أى : من أضل ممن يدعو حجرا أو خشبا أو ميتا ويجعلهم آلهة — بتوجيه الدعاء إليهم — وهم لا يستجيبون دعاءه أبدا الى يوم القيامة ١٤ ، انهم يدعونهم ولكنهم فى غفلة عن دعائهم واستغاثتهم بهم عند المصائب ، لأنهم — بعد أن ماتوا — لا يسمعون ولا ينطقون ولا يعقلون .. وسيكونون عندما يحشر الناس يوم القيامة بين يدي ربهم المحاسب أعداء لهم .. لأنهم سوف يتبرأون منهم ويجحدون بعبادتهم إياهم .. وسيقولون : ياربنا ، ما أمرناهم بعبادتنا وإنا نقبراً اليك منهم .. وتأمل كيف وصف تعالى الدعاء فى هذه الآية بأنه عبادة .. فالدعاء هو مع العبادة] ..

ويقول جل وعلا : « ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً » (٥٨) .

[أى ادعوا الذين تدعونهم .. انهم لا يقدرّون عن دفع الضر عنكم أو تحويله الى غيركم .. وإنما يقدر على ذلك الله وحده ، الذى له الخلق والأمر] ..
ثم يقول فضيلته :

« والجلوس على المقابر أو وطؤها من البدع .. وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك وحذر حيث قال : « لأن يجلس أحدكم على جمرة

فتخلص الى ثيابه ثم تخلص الى بدنه فتحرره . أهون من أن يجلس على قبر » (١٥٩) . . . وكما أن الجلوس على القبر منهي عنه ، كذلك الاتكاء والاستناد حيث قال عمر بن حزم : « رأى رسول الله ﷺ متكئا على قبر فقال : « لا تؤذ صاحب القبر » . . »

« ومن أشد هذه البدع : التبول والتغوط عليها والتقدير لها . . فان لها حرمة ، وقد روى أحمد ومسلم حديث : « زوروا المقابر فانها تذكر الموت والآخرة » . . وزاد أحمد : « فان فيها عبرة » . . فكيف يكون موطن العبرة مقذرا أو مكانا للنجاسات ؟ ! . . وهل يرضى أحد ممن يفعلون ذلك أن يخضع أحد على قبره ما تأنف الانس والملائكة منه ، ولا ترضاه الا بكفرة من الجن » ا هـ (٦٠) .

والشيخ محمد الغزالي — جزاه الله عن المسلمين خيرا : « فشا في بلاد كثيرة بناء المساجد على قبور الموتى ، اعزازا لذكراهم ، وتقربا الى الله — كما يقال — بمحبتهم ومجاورتهم !! ، مع أن النصوص قاطعة بمنع هذا العمل ولعن مرتكبيه . . وكان أولى بهؤلاء البائسين أن يدعوا الموتى الى ما قدموا . وأن يقفوا عند حدود الله فلا يعصون وصاياه . »

« وهذه البدعة . . تسربت الى المسلمين عن النصرانية بعد تحريفها . . فقد صح عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقف على لها « مارية » . وذكرت ما رآته فيها . . فقال رسول الله ﷺ : « أولئك قوم أذا مات منهم العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور . . أولئك شرار الخلق عند الله » . »

« وهذه البدعة . . دخلت النصرانية من الوثنية الأولى . . فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس وغيره من السلف : أن «ودا» و «سواعا»

(١٥٩) رواد مسلمة وابن ماجه وغيرهم .

(٦٠) انظر كتاب « هذه ذنوبنا » . للشيخ عبد الحليف مشتهري —

نشر دار الاعصام . ص ١٩٦ — ٢٠٦ بحريف .

وأخواتهما ، كانوا قوما صالحين من أمة نوح عليه السلام ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم .. ثم صوروا تماثيلهم .. ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم ، فكان ذلك مبدء عبادة الأصنام .

« واغلاقا لباب الفتنة وسدا لذرائع الفساد .. شدد النبي عليه الصلاة والسلام على المسلمين في حظر هذا المسلك ، وعزم عليهم أن ينفذوا أيديهم من الموتى ، وأن يستقبلوا الحياة بجهدهم وعزمهم ، دون تعويل على صالح مات أو بقى .. »

« فالإنسان لا يجدى عليه — أمام ربه — إلا صالح عمله .. »
« وفي هذا الارشاد المبين .. يقول ﷺ : « لا تصلوا الى القبور ولا تجلسوا عليها » .. ويقول : « الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام » .. ويقول : « لعن الله اليهود والنصارى : اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، ألا لا تتخذوا القبور مساجد ، إني أنهاكم عن هذا » .. »
« وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج » .. »

« ونهى رسول الله عن تجصيص القبور والبناء عليها .. وكان يوصى جيوشه — وهو يطارد الوثنية في جزيرة العرب — ألا تدع صنما إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سوته .. »

« وعن المنصور بن سويد قال : « صليت مع عمر بن الخطاب — في طريق مكة — صلاة الصبح فقرا فيها : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » و « لا يلاف قريش » .. ثم رأى أناس يذهبون مذاهب بعد انصرافهم من الصلاة ، فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل : يأمنون المؤمنين ، مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ غمهم يصلون فيه .. »
فقال : « إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ، كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعا .. غم أنكرته الصلاة في هذه المساجد فليصل ، ومن لا فليمض ولا يتعمدها » .. »

« وقد دعا رسول الله ﷺ ربه - « ألا يكون قبره بعده عيداً » -
أي موسماً تلتقى إليه الوفود .. »

« والخبراء بحقائق الأديان وطبائع النفوس يعرفون وجه الحكمة فيما أمر به الله ورسوله من تحريم اتخاذ القبور مساجد .. »

« ان رجاء البركة أول ما يذكره الخارجون على هذه النصوص والمعرفون لها .. لكن هذه البركة المزعومة سرعان ما تتحول الى تقديس للمهانكين واتجاه اليهم بالأدعية والندور .. واستصراخ بهم في الأزمات والنوائب .. فإذا لم يكن الأمر شركا محضا ، فهو مزلة الى مهما كابر المعاندون .. »

« وقد رأيت عشرات من الظلمات المكتوبة ترمى في ضريح الامام الشافعي .. او ترسل اليه بالبريد !! .. وسمعت المئات من سفهاء العامة ، يلهثون بالنجوى الحارة حول قبر الامام الحسين وغيره !! »

« ولم أر أسفه من هؤلاء وأولئك الا النين يعتذرون عنهم من معاليك المتصوفة : وأدعياء المعرفة .. »

« على أن علاج هذه المآثر المبتدعة ، لا سبيل اليه الا بإشاعة العلم والخلق ، وتهذيب العقول وانطباع .. فان النبي صلوات الله وسلامه عليه لم يهدم الأصنام الا بعد أن مكث عشرين عاما يكون الأمة التي تؤمن بالله وتكفر بالطواغيت » (٦١) .



ويرد فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني (٦٢) على زعم البعض بأن المنع من اتخاذ القبور مساجد ، إنما كان لعدة خشية الافتتان بالقبور . ثم زالت برسوخ التوحيد في قلوب المؤمنين ، فزال المنع ، فيقول :

« لا أعلم أحدا من العلماء ذهب الى القول بهذه التشبيهة ، الا مؤلف « أحياء القبور » .. فإنه تمسك بها وجعلها عمدته في رد تلك

(٦١) تبس من الإسلام . الشيخ محمد انغرائي . نشر دار الكتب الإسلامية . ص ٢٠٧ — ٢٠٩ .
(٦٢) في كتابه : . تحذير المساجد من اتخاذ القبور مساجد . نشر المكتب الإسلامي ببيروت . ص ١٢١ وما بعدها .

الأحاديث المتقدمة واتفاق الأئمة عليها .. فقال ما نصه : « وأما النهي عن بناء المساجد على القبور ، فاتفقوا على تعايله بعلتين :
« احدهما : أنه يؤدي إلى تتجيس المسجد ..

« وثانيهما — وهو قول الأكثرين بل الجميع حتى من نص على العلة السابقة — أن ذلك قد يؤدي إلى الضلال والفتنة بالقبور ، لأنه إذا وقع بالمسجد ، وكان قبر ولي مشهور بالخير والمصالح ، لا يؤمن مع طول المدة أن يزيد اعتقاد الجهلة فيه ، ويؤدي بهم فرط التعظيم إلى قصد الصلاة إليه ، إذا كان في قبلة المسجد ، فيؤدي بهم ذلك إلى الكفر والإشراك » ..

« ثم ساق شياً من النقول في العلة المذكورة عن بعض العلماء ، منهم الإمام الشافعي — [حيث يقول (٦٣) ما نصه : « وأكره أن يبنى على القبر مسجد ، وأن يسوى ، أو يصلى عليه ، وهو غير مسوى — يعني أنه ظاهر معروف — أو يصلى إليه .. قال : وان صلى إليه أجزاءه وقد أساء ، أخبرنا مالك أن رسول الله ﷺ قال : « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » قال : وأكره هذا للسنة والآثار ، وأنه كره — والله تعالى أعلم — أن يعظم أحد من المسلمين ، يعني يتخذ قبره مسجداً ، ولم تؤمن في ذلك الفتنة والضلال على ما يأتي بعده »] — ثم قال المؤلف المشار إليه : « فالعلة المذكورة قد انتفت برسوخ الإيمان في نفوس المؤمنين ، ونشأهم على التوحيد الخالص ، واعتقاد نفى الشريك مع الله تعالى ، وأنه سبحانه المنفرد بالخلق والإيجاد والتصريف .. وبانتفاء العلة ينتفي الحكم المترتب عليها ، وهو كراهة اتخاذ المساجد والقباب على قبور الأولياء والصالحين » ١١ (٦٤)

(٦٣) في كتابه « الأم » ..

(٦٤) أحياء القبور من أدلة بناء المساجد والقباب على القبور ، لأحمد الصديق الغماري — ص ١٧ ، ١٩ (مشار إليه بهامش « تحذير الساجد » للألباني .

يقول الألبانى : « والجواب : أن يقال أثبت العرش ثم انقش !! .. أثبت أولاً أن الخشنية المذكورة هي وحدها علة النهي ، ثم أثبت أنها قد انتفتت ، ودون ذلك خبط القتلاد . »

« أما الأول : فإنه لا دليل مطلقاً على أن العلة هي الخشنية المذكورة فقط .. نعم من الممكن أن يقال : إنها بعض العلة ، وأما حصرها فباطل .. لأن من الممكن أيضاً أن يضاف إليها أمور أخرى معقولة كالتشبه بالتصاري .. وكالاسراف في صرف المال فيما لا فائدة فيه شرعاً .. وغير ذلك مما قد يبدو للباحث الناقد .. »

« وأما ما زعمه أن العلة انتفتت برسوخ الايمان في نفوس المؤمنين .. الخ ، فهو زعم باطل أيضاً وبيان من وجوه :

« الأول : أن الزعم بنى على أصل باطل وهو أن الايمان بأن الله هو المفرد بالخلق والايجاد كاف في تحقيق الايمان المنجى عند الله تبارك وتعالى .. وليس كذلك .. فان هذا التوحيد وهو المعروف عند العلماء بتوحيد الربوبية ، كان يؤمن به المشركون الذين بعث اليهم رسول الله ﷺ كما قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » (٦٥) ، ومع ذلك فلم ينفعهم هذا التوحيد شيئاً ، لأنهم كفروا بتوحيد الألوهية والعبادة ، وأنكروه على النبي ﷺ أشد الإنكار ، لقولهم فيما حكاه الله عنهم : « أجعل الآلهة لها واحداً ، ان هذا شيء عجاب » (٦٦) . ومن مقتضيات هذا التوحيد الذي أنكروه ترك الاستغاثة والاستعانة بغير الله ، وترك الدعاء والذبح لغير الله ، وغير ذلك مما هو خاص بالله تعالى من العبادات .. فمن جعل شيئاً من ذلك لغير الله تبارك وتعالى فقد أشرك به ، وجعل له نداً ، وان شهد له بتوحيد الربوبية ، فالإيمان المنجى إنما هو الجمع بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، وافراد الله بذلك .. »

« فإذا تبين هذا ، تعلم أن الايمان الصحيح غير راسخ في نفوس كثير من المؤمنين بتوحيد الربوبية .. »

ويسوق فضيلة الشيخ الألبانى الدليل على كلامه من أقوال الصوفية أنفسهم فينتقل عن مؤلف كتاب « احياء القبور » قوله : « ونراهم — يعنى العامة — يحلفون بالأولياء ، وينطقون فى حقهم بما ظاهره الكفر الصراح بل هو الكفر حقيقة بلا ريب ولا شك .. فكثير من جهلة العوام بالمغرب ينطق بما هو كفر صراح فى حق مولانا عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه ، فان عندنا بالمغرب من يقول عن القطب الأكبر ، مولانا عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه : أنه الذى خلق الدين والدنيا ! .. ومنهم من قال — والمطر نازل بشدة — : يامولانا عبد السلام اللف بعبادك ! .. فهذا كفر » !! (٦٧)

ثم يقول الشيخ الألبانى : « قلت : فهذا الكفر أشد من كفر المشركين ، لأن هذا فيه التصريح بالشرك فى توحيد الربوبية أيضا ، وهو مما لا نعلم أنه وقع من المشركين أنفسهم ! .. وأما الشرك فى الألوهية فهو أكثر فى جهال هذه الأمة — ولا أقول عوامهم — فاذا كان هذا حال المسلمين اليوم ، وقبل اليوم ، فكيف يقول هذا الرجل : « وقد انتفت العلة بفسوخ الايمان فى نفوس المؤمنين » ؟ !

« واذا كان يريد بـ « المؤمنين » المصحابة رضى الله عنهم .. فلا شك أنهم كانوا مؤمنين حقا .. عالين بحقيقة التوحيد الذى جاءهم به رسول الله ﷺ ، ولكن الشريعة الاسلامية شريعة عامة أبدية ، فلا يلزم من انتفاء العلة — لو ثبت — بالنسبة اليهم أن ينتفى الحكم بالنسبة لمن بعدهم ، لأن العلة لا تزال قائمة ، والواقع أصدق شاهد على ذلك ..

« الوجه الثانى : علمت مما سبق من الأحاديث .. أن النبى ﷺ حذر أمته من اتخاذ المساجد على القبور فى آخر حياته .. بل فى مرض موته .. فمتى زالت العلة التى ذكرها ؟ ..

« ان قيل : زالت عقب وفاته ﷺ ، فهذا نقض لما عليه جميع

المسلمين أن خير الناس قرنه ﷺ ، لأن القول بذلك يستلزم — بناء على ما سبق من كلامه — أن الايمان لم يكن قد رسخ بعد في نفوس الصحابة رضي الله عنهم ، وانما رسخ بعد وفاته ﷺ ! • ولذلك لم تزل العلة وبقي الحكم •• وهذا مما لا أتصور أحدا يقول به لوضوح بطلانه ••

« وان قيل : زالت قبل وفاته ﷺ ، قلنا : وكيف ذلك وهو ﷺ انما نهى عن ذلك في آخر نفس من حياته ﷺ ؟ ! •• ويؤيده :

« الوجه الثالث : أن في بعض الأحاديث المتقدمة باستمرار الحكم الى قيام الساعة [كالحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شرار الناس من تدركه الساعة وهم أحياء ، ومن يتخذ القبور مساجد »] (٦٨) •

« الوجه الرابع : أن الصحابة رضي الله عنهم انما دفنوه في حجرته ﷺ خشية أن يتخذ قبره مسجدا •• كما تقدم عن عائشة رضي الله عنها [في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم قالت : ان رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة جعل يلقي على وجهه طرف خميصة (٦٩) له ، فاذا اغتم كشفها عن وجهه وهو يقول : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » •• تقول عائشة : « يخذر مثل الذي صنعوه » — يقول ابن حجر : « وكأنه ﷺ علم أنه مرتحل من ذلك المرض فخاف أن يعظم قبره كما فعل من مضى ، فلعن اليهود والنصارى اشارة الى ذم من يفعل فعلهم » [•

يقول الألباني : « فهذه الخشية اما أن يقال : انها كانت منصبة على الصحابة أنفسهم ، أو على من بعدهم •• فان قيل بالأول ، قلنا : فالخشية على من بعدهم أولى ، وان قيل بالثاني — وهو الصواب عندنا — فهو دليل قاطع على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا لا يرون

(٦٨) رواه ابن خزيمة في صحيحه ، وابن حبان ، وابن أبي شيبة في المصنف ، وأحمد ، والطبراني وأبو يعلى وأبو نعيم •

(٦٩) ثوب خز أو صوف معلم كما في النهاية •

زوال العلة المستلزم زاول الحكم ، لا فى عصرهم ، ولا فيما بعدهم ،
فالزعم بخلاف رأيهم ضلال مبين .. ويؤيده :

« الوجه الخامس : أن العمل استمر من السلف على هذا الحكم
ونحوه ، مما يستلزم بقاء العلة السابقة ، وهى خشية الوقوع فى الفتنة
والضلال ، فلو أن العلة المشار إليها كانت منتفية لما استمر العمل على
معلولها .. وهذا بين لا يخفى والحمد لله ، واليك بعض الأمثلة
على ما ذكرنا ... » (٧٠) ا هـ

وبعد أن يسوق فضيلته بعض الأمثلة من فعل السلف الصالح ..
يقول :

« واعلم أن هذه الآثار ، وإن اختلفت دلالاتها .. فهى متفقة
على النهى فى الجملة عن كل ما ينبئ عن تعظيم القبور تعظيما يخشى منه
الوقوع فى الفتنة والضلال ، مثل بناء المساجد والقباب على القبور
وضرب الخيام عليها ، ورفعها أكثر من النحد المشروع ، والسفر
والاختلاف إليها (٧١) ، والتمسح بها ، ومثل التبرك بآثار الأنبياء
ونحو ذلك .. »

« فهذه الأمور كلها غير مشروعة عند السلف الذين سميناهم من
الصخابة وغيرهم .. وذلك يذل على أنهم كانوا جميعا يرون بقاء علة
النهى عن بناء المساجد على القبور وتعظيمها بما لم يشرع ، ألا وهى
خشية الضلال والافتتان بالموتى — كما نص عليها الشافعى رحمه الله
فيما سبق — بدليل استمرارهم على القول بالحكم المعلول بهذه العلة ،
فإن بقاء أحدهما يستلزم بقاء الآخر ، كما لا يخفى ، وهذا بالنسبة
لن نص منهم على كراهة بناء المساجد على القبور ظاهر .. »

أما الذين صرحوا بالنهى عن غير ذلك ، مثل رفع القبر وضرب

(٧٠) تحذير المساجد من اتخاذ القبور مساجد — مرجع سابق —
ص ١٢٠ — ١٢٩ بتصرف ..
(٧١) أى اكثار التردد لزيارتها .

الخيمة عليه ونحوه — مما أجملنا الكلام عليه آنفا — فهم يقولون ببقاء الحكم المذكور من باب أولى ، وذلك لوجهين :

« الأول : أن بناء المساجد على القبور أشد جرما من رفع القبور وضرب الخيام عليها ، لما ورد من اللعن على البنساء ، دون الرفع والضرب المذكور . »

« والثاني : أن المفروض في أولئك السلف الفهم والعلم ، فاذا ثبت عن أحد منهم النهي عن شيء هو دون ما نهى عنه الشارع ، ولم ينقل هذا النهي عن أحدهم ، فنحن نقطع بأنه ينهى عنه أيضا ، حتى ولو غرض عدم بلوغ النهي إليه لأن نهيه عما هو دون هذا يستلزم النهي عنه من باب أولى ، كما لا يخفى . »

فثبت أن القول بانتفاء العلة المذكورة ، وما بنى عليه كله ، باطل . .
لمخالفته نهج السلف الصالح رضي الله عنهم ، مع مصادمته للأحاديث الصحيحة ، والله المستعان « (٧٢) ١ »

ونقول : لعل ذلك البعض الذي يزعم بأن المنع من اتخاذ القبور مساجد « إنما كان لعله خشية الافتتان بالقبور ، ثم زالت برسوخ التوحيد في قلوب المؤمنين » . . لعل ذلك البعض قد وجد الرد على زعمه فيما نقلناه عن الشيخ ناصر الدين الألباني — جزاه الله عن الإسلام خيرا . .

● بدعة الموالد :

من البدع المردولة التي نهى عنها الرسول ﷺ : اتخاذ مقابر الأولياء والصالحين موسما وعيدا ، ومبيتا وملعبا للأطفال ، وسوقا للبيع والشراء في عطلات الأسبوع « الجمعة » . . وفي المواسم كطلعة رجب والأعياد . . بل تجد عند أضرحة أهل بيت الرسول ﷺ — إذا صح

وجودهم بها — تجد الناس وقد أسموها جرماً ، وقد جعلوا لكل ولي ليلة فيها تقام حضرته !!

أضف الى ذلك تبرج النسوة والصخب والشرك بسؤال الموتى ما لا يقدر عليه الا الله تعالى .. والاختلاط والخلوة المحرمة في مواطن للعبرة والخشية والرعدة من رهبة الموت !!

ويقول بعض الصالحين : « اذا رأيتم أحداً يأكل عند المقابر أو يضحك ، فاعلموا أنه مطموس القلب ، بعيد عن رحمة الله .. لأنه عبث في موطن الخوف » ..

وقد روى غير واحد حديث : « ان الله يكره لكم ثلاث : العبث في الصلاة ، والرفث في الصيام ، والضحك عند المقابر » ..
* * *

● مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والاحتفال به :

يقول الدكتور عزت عطية : « لا خلاف بين العلماء في أن الاجتفال بيوم المولد عمل محدث ، لم يعمد في عصر الرسول ﷺ ولا في عصر أصحابه أو التابعين لهم باحسان ، قال السخاوي : « ان عمل المولد حدث بعد القرون الثلاثة » ..

وأول من أحدثه بالقاهرة « المعز لدين الله الفاطمي » سنة ٣٦٢ هـ ، ودام الاحتفال الى أن أبطله الأفضل أمير الجيوش بدر الجمالي سنة ٤٨٨ هـ في عهد « المستعلي بالله » ، ولما ولي الخلافة « الأمر بأحكام الله » ابن المستعلي أعاد الاحتفال في سنة ٤٩٥ هـ .

وأول من أحدث هذا الاحتفال بـ « اربل » الملك المظفر أبو سعيد ، في القرن السادس أو السابع ، وألف له الحافظ أبو خطاب عمر بن الحسن المعروف بابن حية الكلبى سنة ٦٤٤ هـ كتاباً سماه « التنبؤ في مولد البشير النذير » حسن فيه الاحتفال وأقام على ذلك وجوه الاستدلال ..

وهكذا وجد الاحتفال بهذه المناسبة الكريمة ، وتطورت مظاهره حتى وصلت الى ما هي عليه الآن ..

وقد اختلف موقف العلماء فى الاحتفال بيوم المولد ، فالبعض أجرى عليه أدلة ذم البدع باعتبار حدوثه وترك النبى ﷺ ومن بعده من السلف له .. هذا من ناحية ..

ومن ناحية أخرى : لأنه تخصيص بغير مخصص ، وقد ورد النهى عن مثله ، فقد نهى النبى ﷺ تخصيص يوم الجمعة بصيام ، ولولا أن المفسدة إنما تنشأ من تخصيص ما لا خصوصية له — كما فى الاحتفال بالمولد — لما نهى عنه ، فان الناس إنما يخصون هذا اليوم بالاحتفال لاعتقادهم فيه فضيلة تقتضى ذلك ولا فضيلة فيه ، فأقل أحوال هذا الاحتفال — فى مظهر الشرع — أن يكون مكروها ..

على أن الواجب على الناس فى نظرهم الى الأيام من ناحية التشريف والتكريم وتخصيص بعضها بالعبادة أو الاحتفال به دون البعض الآخر اتباع الكتاب والسنة ، وإن لم يدركوا ما فى ذلك من المصلحة أو المفسدة « (٧٢) » ..

ومن أشهر هؤلاء المانعين : تاج الدين عمر بن على اللخمي السكندري المالكي المعروف بالفاكهاني .. الذى رد هذا الاحتفال وقال بمنعه ، لأنه لا يعلم له أصلا فى كتاب ولا سنة ، ولا نقل عن أحد من علماء الدين ، وانتهى بذلك الى الحكم أن الرجل اذا احتفل بالمولد من عين ماله لأهله وأصحابه وعياله لا يتجاوز فى ذلك الاجتماع على أكل الطعام ، ولا يقتربون شيئا من الآثام .. كان هذا الاحتفال بدعة مكروهة وشفاعة مذمومة ، لأنه محدث لا أساس له من الشريعة ، فاذا ما ضم الاحتفال الى ذلك اجتماعا بين غرباء ، واقتضى بذل المال أو نحوه كرها أو على استحياء .. وصاحبه شيء من الفتن كالطبول والدفوف ، واجتماع الرجال مع النساء ، أو نحو ذلك ، فلا خلاف فى حرمة ..

والفاكهاني يوافق فيما ذكره ابن تيمية والشاطبي ومن نحا نحوهما

(٧٢) البدعة : تحديدها وموقف الاسلام منها — مرجع سابق ،

ممن يرى أن ما تركه الرسول ﷺ مع قيام المقتضى له لا يجوز احداثه من البدع ، والمولد عنده من هذا القبيل (٧٤) .

وفى مقابل هذا الاتجاه .. هناك اتجاه آخر يرى اباحة هذا الاحتفال ، بل ويجبذ القيام به ويستحسنه ، ويمثل هذا الاتجاه النسيوطي .. حيث يرى أن ما حكم الفاكهاني بكراهته ليس كما قال ، بل هو من الاحسان الذي لم يعهد في العصر الأول ، فان اطعام الطعام الخالي من اقتراف الآثام من البدع المنذوبة كما صرح بذلك العز بن عبد السلام في قواعده ..

وأما ما وصفه الفاكهاني بأنه حرام فحرمة ليست لنفس الاحتفال باليوم وتعظيمه واظهار شعار المولد ، وانما لما انضم اليه ، ولو وقع بغض هذه الأمور في الاجتماع لصلاة الجمعة لكان قبيحا شنيعا .. ولا يلزم من ذلك ذم أصل الاجتماع لصلاتها كما هو واضح (٧٥) ..

ويرى ابن حجر .. أن الاحتفال بالمولد بدعة اشتملت على محاسن وضدها .. فمن تحرى في عمله المحاسن وتجنب ضدها كان بدعة حسنة والا فلا (٧٦) ..

أما ابن الحاج .. فقد كان موفقا في توصله الى دليل على تخصيص هذا اليوم باستحباب عبادة خاصة فيه ؛ اظهارا للسرور بالمولد ، وشكرا لله على ما أكرم به من هذا الميلاد ، ألا وهو تعليل الرسول ﷺ استحباب صوم يوم الاثنين بقوله : « ذاك يوم ولدت فيه ، ويوم بعثت أو أنزل على فيه » (٧٧) .. وبهذا الاستدلال رد القول بأن هذا الاحتفال تخصيص لهذا اليوم بغير مخصص .. حيث ثبت لهذا التخصيص أصل من السنة .. أما عن القول بحدوث هذا الاحتفال وترك الرسول ﷺ ومن بعده من السلف له فذاك راجع — فيما يرى ابن الحاج — الى رحمة

(٧٤) المرجع السابق ص ٨٢ ، ٨٣

(٧٥) المرجع نفسه ص ٨٣ (٧٦) نفس المرجع ص ٨٣

(٧٧) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٨ ص ٥٢

النبي ﷺ بأمرته : ورفقه بهم حيث كان يترك العمل خشية أن يفرض على أمته (٧٨) ..

ونحن — نتفق مع الدكتور عزت — في جواز الاحتفال بيوم المولد في صورة شخصية أو أسرية بل في استحباب هذا الاحتفال .. وليس الاحتفال بهذه المناسبة الكريمة من البدع ، لأنه لم يقترن به ادعاء ورود الشرع به ، أو حثه على هذا التخصيص ، أو نسبة ما ليس من الشرع في هذا المجال اليه ..

وعلى ذلك — كما يقول الدكتور عزت — « فهذا الاحتفال ليس مما تحقق فيه تعريف البدعة على أي اتجاه من الاتجاهات في تعريف البدعة لثبوت أصله من السنة وتوارد الأدلة المؤيدة لوقوعه ..

» أما عما يعمل فيه ، أو كيفية ممارسته ، فذلك مشروط بأن يقتصر فيه على ما يفيد الشكر لله تعالى ، من التلاوة ، والأطعم ، والصدقة ، وإنشاء شيء من الأشعار في المدائح النبوية والزهدية المحركة للقلوب إلى فعل الخير والعمل للأخرة .. وهذا مقيد بأن لا يشغل عن فرض أو يعطل عن طاعة أو يسوق إلى إرهاب من كثرة السهر .. لأن الغرض تحصيل السرور عن طريق مشروع ، وإظهار الشكر لله تعالى على أي وجه ..

» أما كشف العورات ، والاختلاط الذرى ، والألعاب الملهية المشتملة على فنون النصب والاحتفال .. فيجب تجريد ذكرى المولد من كل ذلك على أي حال » (٧٩) .

ويصف لنا الجبرتي الفساد الذي كان يحدث على عهد في الموالد .. فيقول في وصفه لمولد العفيفي : « ينصبون خياما كثيرة وضواوين ومطابخ وقهاوى ، ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس ، وخواصهم وعوامهم ، وفلاحى الأرياف وأرباب الملاهى والملاعب ، والغوازي

(٧٨) البدعة ، ص ٨٥

(٧٩) المرجع السابق ، ص ٨٧ ، ٨٨

والبنايا والقرادين والحواة ، فيملئون الصحراء والبستان ، فيطئون القبور ، ويتغوطون ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون ، ويضربون بالطبول والزهور ليلا ونهارا .. ويجتمع لذلك الفقهاء والعلماء ، ويقتدى بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير انكار ، بل يعتقدون أن ذلك قرينة وعبادة ، ولو لم يكن ذلك لأنكره العلماء ، فضلا عن كونهم يفعلونه ، قاله يتولى هدايا أجمعين » (٨٠) .

ويقول فضيلة الشيخ عبد الرحمن الوكيل : « ودعوى حبههم — أى الصوفية — للرسول وآل بيته دعوى الرجس أنه قداسة ، والاثم الكبير أنه روحانية فضيلة !! وكذلك الفرية افتراء الشيعة أنهم أحباء آل بيت محمد — ﷺ — أتري الشيعة والصوفية : اتبعوا الرسول وجعلوه وحده الأسوة والقوة الحسنة ؟ !

» ما ثم ما يحتجون به لدعواهم سوى المعكوف على الأضرحة الذنينة المفتراة لآل البيت ! سوى تلك القباب التى شيدوها معبودة على عظام نخرة .. لا تحرى أهى لحيوان أم انسان ، أم هى أمشاج من عظام شتى ، لا تحرى أهى لمصالح أم طالح ، لمسلم أم يهودى .. فقد شيدتها الفاطمية فى مصر ، لتصرف الناس عن حج بيت الله ، ولتجعل قلوب المسلمين نفسها قبورا خربة .. ثم سمتها بأسماء آل البيت ، وأقامت على سدانيتها وعبادتها الصوفية !

» ما لهم من دليل على حبههم لآل البيت سوى عبادة تلك الأصنام بتقيل أستارها وأحجارها ولثم نحاسها وخشبها ، وتعطير أجوائها والاستشفاع بأعتابها ، واقتراف الأعياد الوثنية فى كل موسم لها .. « وسل الآمين تلك « الموالد » عن عريضة الشيطان فى باحاتها ، وعن الاثم الممتوك فى حاناتها وعن حمم الشهوات التى تتفجر تحت سود ليلاتها !!

» وهكذا تكذ الصوفية فى سبيل أن تجعل دنيا المسلمين كلها مقبرة ، قفراء الا من الوحشة ، جرداء الا من الرهبة والفرع ، خاوية الا من خطايا تقترف باسم الاسلام !

« تكذب في سبيل أن تجعل نفوس المسلمين مقابر .. وغايتهم المقابر .. وآلهتهم العظام البوالي في المقابر ١ ، وتحث المسلمين ليجعلوا الحياة كلها قربانا الى غيابات العدم ، وجيف المقابر !
« فما ينقضى في مصر أسبوع ، الا وتحشد الصوفية أساطير شركها ، وعباد أوثانها عند مقبرة يسبحون بحمد جيفتها ، ويسجدون أذلاء لرمتها .. ويقتربون خطايا المجوسية في حماتها ، ويحتسون آثام الخمر والحشيش ، والأجساد التي طرحها الليل على الاثم فجورا ومعصية !! ويسمونهم للناس : « موالد » أو مواسم عبر وذكريات خوالد !
« وما تجتمع جماعة صوفية أو تنفض .. الا ليبحثوا كيف يحتفون بصنم قبر ، أو رمة قبر !! وما يهوم ليل على صوفى ، أو يفزعه بالنور نهار ، الا وقلبه مستعبد بهوى صنم قبر ، أو رمة قبر ! ..
وما يقعد صوفى أو يقوم ، أو يركب أو يمشى الا وينعق مستغيثا بصنم قبر ، أو رمة قبر !!

« قبور .. قبور !! هذه هي دنيا الصوفية ، لها جهاد الصوفية ، ولرممها عبادتها .. ولها تحيا ، ولها تموت ، وبها تعيش !! وخير ما تتمناه الصوفية ، هو أن يهلك المسلمون جميعا ، حتى يكون في كل ساعة « مولد » مقبرة ، وعيد رمة !!

« فليقتل المسلمون أنفسهم ليمدوا الصوفية بأعياد كثيرة للقبور ، ونذور للجماجم !! ما لهم من دليل على حبهم للرسول وآل بيته سوى تلك « التواشيح » التي يتغزلون بها في العيون الحوالم النعس ، والشفاه الظوامى اللعس ، والأهداب المسبلات في اغراء على لهب من الورد يتوهج في الخدود النضر !!
« تلك هي أدلتهم ، وبها من أدلة !! ، حياة كلها خطايا ، وقلوب أربابها رمم معبودة ، ونفوس آلهتها جيف ، وأفكار كلها للأساطير ، وحياة ميتة ، ووجود يفزع منه العدم ، ودنيا خمول خامد تعصف بها الذلة ، فأين الكفاح في سبيل بناء الحياة » ؟ (٨١) .

(٨١) هذه هي الصوفية ، مرجع سابق ، ص ١٦١ ، ١٦٢

الحق أن الشيخ عبد الرحمن الوكيل .. كان عنيفا وهو يتحدث عن عبادة القبور وتقديس الموتى ، كان عنيفا وهو ينقد المفاسد التي يحدثها الناس في الموالد .. ولكن ما الحيلة وهو يدافع عن سنة رسول الله ﷺ .. وما جر الناس الى هذه العقائد القاسدة الا مخالفتهم لأمره حين اتخذوا فوق القبور المساجد وأوقدوا عليها السرج ؟ !

ويحدثنا فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهري عن بدع الموالد فيقول : « من بدع هذه « الموالد » الاطعام ، وتلاوة القرآن ، وما يسمونه بالذكر !! .. وهذه الأشياء في الأصل من صالحات الاسلام ، لولا ما صاحبها من انحرافات .. فهي مطلوبة في كل وقت بنية القربى الى الله ، لا بنية المولد المحدث ، الذي لم يكن في عهد السلف الصالح . »

« بل وتجد أصوات مكبرات للصوت تتضارب بالذكر ، فتخرج عن دائرة الخشوع والخضوع ، الى دائرة الصخب والضجيج .. وربما كان لهذه المساجد والساحات جيران مرضى ، وطلبة يستذكرون ، وأطفال تفرع من هذه الأصوات المنكرة الصادرة من حناجر عملاء الشيطان !! »

« ومن المحرمات التي تقع فيها — أى الموالد — اضاءة المال بكثرة الوقود وإفارة المصابيح في المساجد والطرق ، واستهلاك الشموع والمصابيح !! »

« ومنها انتهاك حرمة المساجد بتقذيرها ، وباللغو ووجود الأطفال والحفاة الذين ينجسونها حتى يتعذر إقامة الشعائر بها على الوجه المرضي ، ومعلوم أن التشويش في المساجد هرام ولو بتلاوة القرآن !! »

« ومنها تبرج النساء الزائرات للموالد والأضرحة ، مع الاختلاط بالرجال ، وما يحدث من فجور ونشل ومعارك في تلك الليالي في الساحة وما حولها !! »

« ومنها استعمال آلات اللهو والأغاني الخليعة ، والحديث يقول . « من استمع الى قينة صب في أذنه الآنك يوم القيامة » — أى الرصاص المذاب !! »

« والتقرب .. يجب أن يكون لله تعالى ، وأن يكون بالحلال ..
وأولياء الله الصالحون ينفرون من المعصية .. فأين هذا الصخب
والعجب من عمل الولي ؟ .. وهل كان هو على تلك الحال في حياته ؟ !
إن من أراد أن يتقرب من انسان ، تقرب اليه بما يحب أن يفعل حال
حياته .. وقد وصف الله تعالى أوليائه بأنهم : « الذين آمنوا وكانوا
يتقون » (٨٢) . — أي جمعوا بين حسن الاعتقاد وصلاح العمل ..
« ومن بدع الموالد : الترجيع في القرآن كالطرب ، مع شرب
« الجوزة » و « الشيشة » !!

« ومنها الرياء بالانفاق الزائد ، والتنافس بين الأغنياء للمباهاة ،
وتعطيل الناس عن أعمالهم — وخاصة من يفدون من الريف — فضلا
عما يتكبدون من مال هم أحوج ما يكونون اليه ، بالاضافة الى ما يحدثونه
من أزمات خائفة في المواصلات والطعام وما يحدث لهم من كوارث !!
« ومنها : حلقات الذكر المحرف ، وفيها المنشدون الذين يبتغون
المال والشهرة ، ولا يبتغون رضوان الله .. كما يوجد فيها الصارخون
في المساجد ، والمصفقون ، والمصفرون ، والراقصون المائلون الميالون !!
« كما تجد في الطرق المؤدية الى الموالد من يقرأون القرآن على
قارعة الطريق ، وفي الحوانيت لاجتلاب الزبائن ، وعلى الكبارى
وأبواب الأنفاق ، يستجدون بالقرآن عطف الناس ، فأرخصوا ما أغلى
الله ، وحفروا ما عظم من منهج الحياة ودستور الوجود : كتاب الله !!
« وفيها — أي الموالد — تعطيل للعاملين — عمالا وفلاحين وطلبة —
عن أداء واجباتهم بما فيها من افراط في السهر والسفر ، وحملهم على
التكلف بشراء ما يلزم من الشهوات — وقد يكون الكثير من رواد هذه
الموالد ممن لا يركع لله ركعة !!

« وفيها : شد الرحال الى غير المساجد الثلاثة بمكة والمدينة
والقدس .. حيث قال رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة

مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا ..
« ولو لم يكن في الموالد الا اتخاذ القبور عيدا للذبائح والقرابين
والنذور — كفعل المشركين عند أوثانهم — لكفى بذلك تحريما .
« علاوة على ما يحدث في هذه الموالد من توسل بغير الله ،
وسؤال واستعانة بما سواه ، وشرك لا يحصى — مع أن منع المفاسد
مقدم على جلب المصالح — وما دام المسلم لا يستطيع أن يزيل هذه
المنكرات ، فليبتعد عن شهودها حتى لا تصيبه اللعنة ..
« ويقول تعالى : « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض
عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، وأما ينسبك الشيطان فلا تقعد
بعد الذكرى مع القوم الظالمين » (٨٣) .

[أى إذا رأيت المشركين الذين يخوضون في آيات الله بالاستهزاء
والتكذيب ، فلا تجلس معهم حتى يأخذوا في حديث آخر ، غير الاستهزاء
بآيات الله وأحكامه ، وإن أنساك الشيطان النهي عن الجلوس معهم ،
ثم ذكرت ذلك النهي ، فلا تقعد بعد التذكر معهم] .
« ويقول جل شأنه : « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم
آيات الله يكفر بها ويستهزا بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في
حديث غيره ، انكم اذن مثلهم » (٨٤) .

[أى أنزل الله عليكم في القرآن العظيم : بأنه إذا سمعتم من
يسخر ويهزا بآيات القرآن ، فلا تجلسوا معهم حتى يتحدثوا حديثا
غيره ، فانكم ان جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها ، فانكم
مثلهم في ارتكابكم معصية الله ومخالفتكم أمره] .

« فثبت بالآيتين .. أن كل من حضر المعصية — حتى ولو لم
يفعلها — فهو شريك لفاعلها » ..

ثم يقول فضيلته : « والعجب .. أنهم جمعوا جميع موالد من
يسمونهم أولياء تباعا .. فلا يكاد ينفض السامر عن مولد الا استأنفوا

الرحيل لغيره .. وكم فى ذلك من أزمة للمواصلات ، وأزمة للطعام ، وكثرة النشالين ، وأحداث الفجور .. فضلا عن خرافات مضللات للمعقيدة والعبادة والأخلاق « (٨٥) .

* * *

● النذر لغير الله .. من الشرك :

النذر .. عبادة وقربة .. والعبادة لا يجوز أن توجه إلا الى الله تعالى .. يقول سبحانه : « وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ، وما للظالمين من أنصار » (٨٦) .. والمراد بالظالمين فى الآية : المشركون ، فإن الشرك ظلم عظيم ، ومن قصد بالعبادة غير الله تعالى فقد أشرك . وعلى هذا فالنذر لغير الله تعالى ، كالنذر للقبور وأصحابها من الشرك ..

ويقول بعض العلماء (٨٧) : « النذر الذى ينذر له أكثر العوام — على ما هو مشاهد بيننا — كأن يكون لئلا انسان غائب أو مريض ، أو له حاجة .. فيأتى الى مقبرة بعض الصالحين ويقول : ياسيدى فلان ، ان رد الله غائبى ، أو عوفى مريضى ، أو قضيت حاجتى فلك من الذهب كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من الشمع والزيت كذا .. فهذا النذر باطل ، بالاجماع .. وهو حرام لعل ثلاث :

- (ا) أن النذر عبادة ، والعبادة لا تكون الا لله وحده ..
 - (ب) أن المنذور له ميت ، والميت لا يملك شيئا الا ما قدم ، فلا يصح أن يوجه اليه نذر يملكه بعد وفاته ..
 - (ج) اعتقاد الناذر أن تلميذ قدرة على التصرف فى الكون من دون الله ، فهذا كفر والعياذ بالله ..
- ثم يقول : « اذا علمت هذا .. فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها ، وينتقل الى ضرائح الأولياء تقريبا اليهم فحرام باجماع

(٨٥) هذه دعوتنا ، مرجع سابق ، ص ٢٢٠ — ٢٢٤ بتصرف .

(٨٦) البقرة : ٢٧٠

(٨٧) كالكتور يوسف القرضاوى ، والشيخ عبد اللطيف مشتهرى

جزاهما الله عن الاسلام خيرا ..

المسلمين .. وإذا كان هذا النذر حراما ، فلا يلزم الوفاء به ، بل لا يجوز لثلاثة أدلة :
أولها : أنه جاء على غير أمر النبي ﷺ وقد قال : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » ..

وثانيها : أنه نذر لغير الله ، فهو شرك .. والشرك لا حرمة له ، فهو مثل الحلف بالمخلوقات لا يجب الوفاء به ولا كفارة فيه ، وليس فيه الا الاستغفار كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية ..
الثالث : أنه نذر معصية ، وقد بينت السنة أن كل نذر اشتمل على معصية أو شرك ، لا يلزم الوفاء به ، بل لا يجوز الوفاء به ..
ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا : « من نذر أن يطيعه فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » ..
وفيما صح من حديث : « النذر لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج الله به من البخيل » .. فهو ابتداء غير مرغوب فيه .. ولكن إذا حدث على الوجه الشرعي دون شرك ، وكان نذر طاعة لله ، وجب الوفاء به » (٨٨) ..

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي : « من الشرك تقديم القرابين وذبح الذبائح لغير الله تعالى ..
« فقد جرت عادة المشركين في كل أمة ، أن يتقربوا بذبائحهم الى آلهتهم وأصنامهم .. فأبطل الاسلام ذاك وحرّم : « ما أهل لغير الله به » (٨٩) — أي ما ذكر عليه اسم غير الله من صنم أو نحوه ، « وما نبح على النصب » (٩٠) — أي ما نصب من حجر أو شجر أو صنم ليعبد ، أو يعظم أو يتبرك به ..

وأمر أن يكون الذبح لله وحده ، ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يجعل صلاته ونحره لله : « فصل لربك وانحر » (٩١) . وأن يعلن في المشركين

(٨٨) انظر « حقيقة التوحيد » للدكتور يوسف القرضاوي ،
و « هذه دعوتنا » للشيخ عبد اللطيف مشتهري ..

(٨٩) المائدة ٣ ، بلفظ « وما أهل ... » .

(٩٠) المائدة : ٣ (٩١) الكوثر : ٢

أن هديه مخالف لهم في صلاته ونسكه : « قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت » (٩٢) —
والنسك هو الذبح بقصد التبرك ..

« وعن علي رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات : « لعن الله من ذبح لغير الله .. لعن الله من لعن والده .. لعن الله من آوى محدثا » (٩٣) .. لعن الله من غير منار الأرض » (٩٤) .

« وعن طارق بن شهاب ، أن رسول الله ﷺ قال : « دخل الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب » — أي بسبب ذباب (١١) — قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب اليه شيئا ، فقالوا لأحدهما : قرب ، قال : ليس عندي شيء أقرب ، قالوا له : قرب ولو ذبابا ، فقرب ذبابا فخطوا سبيله فدخل النار .. وقالوا للآخر : قرب ، فقال : ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه ، فدخل الجنة » (٩٥) ..

« أثنى النبي ﷺ على هذا الرجل المؤمن ، وأخبر عن دخوله الجنة لأنه صبر على القتل ولم يرض بتقديم أي شيء لغير الله عز وجل ، لأن القضية قضية قبل أي شيء .. ومن قبل أن يقدم لغير الله ذبابا ، أوشك أن يقدم بعد ذلك جملا » (٩٦) ١١

من هذا يتبين لنا أن من نذر لغير الله ، ولو بأهون الأشياء — وهل أهون من الذباب ؟ ١ — فقد أشرك .. لأنه قصد بالنذر — وهو عبادة — غير الله ، فكأنه أشرك في عبادته الله الها آخر ..

(٩٢) الانعام : ١٦٢ ، ١٦٣

(٩٣) أي : حمى مجرما يستحق العقاب بأن تستر عليه أو ناصره بنفوذه وسلطانه .

(٩٤) أي : معالم الأرض وحدودها لا يدخل في ملكه ما ليس من حقه ،
والحديث رواه مسلم . (٩٥) رواه أحمد ..

(٩٦) حقيقة التوحيد ، للدكتور يوسف القرضاوي ، ص ٥٨ — ٦٠

● إلى أين تذهب أموال النذور ؟

لا يخلو ضريح في أى مسجد من صندوق للنذور. يوضع الى جوار الضريح .. وكأنما يدعو الشرك بعضه بعضا !! .. اذ تنتهي .. عادة - مناسك الطواف التي ابتدعها عباد القبور بايداع بعض النحلي أو الأموال في ذلك الصندوق .. واهمين أنهم بذلك الفعل يفوزون بالقربى من الله ، وينالون بركة ساكن الضريح .. وبهذا تقضى لهم الحوائج ، وترفع عنهم الكربات .. بعد أن أدوا ما افترضوه على أنفسهم من طواف بالقبور ، والتماس لبركة ساكنه ، واستشفاع بالمقبور فيه ، وتقديم النذور والقرابين اليه .. وعلى ساكن الضريح أن يؤدي بعد هذه المناسك ما هو مطلوب منه !! وما يرى الضالون أنهم بعقيدتهم الزائغة تلك ، قد خسروا الدنيا والآخرة !!

ويحق لكل منا .. أن يوجه سؤالا منطقيا الى نفسه : الى أين تذهب حصيلة هذه الأموال التي تتجمع في صناديق النذور ؟ .. لما دام مطلوبا منا أن ندفع .. فإن من حقنا أن نسأل !! هل تصرف هذه الأموال على عمارة المساجد التي جمعت منها وتتفق على صيانتها ؟ ؟

هل تصرف في مصارف الزكاة التي افترضها الله تعالى على الناس .. فتؤدي الى الفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل ؟ ؟ هل تصرف في مصارف الصدقة التي حددها الشارع سبحانه .. فتؤدي الى ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفي الرقاب ؟ ؟

هل تؤول الى خزانة الدولة ، فتضاف الى مواردها ليصرف منها على المشاريع العامة كانشاء المدارس وبناء المستشفيات والملاجئ ، وتعبيد الطرق وحماية الجسور ، وتسليح الجيوش ، وسداد الديون .. الخ ، وبهذا يعود خيرا على المجتمع كله ؟ ؟

لو كان الأمر يؤول الى واحد من هذه الأمور ، لأيدنا ذلك الأمر ،
ولقدما الأموال بنفس سخية ابتغاء مرضاة الله ورضوانه !!

ويشاء الله تعالى .. ألا تطول بنا هذه التساؤلات ، هيأتنا الرد
شافيا حين طالعنا احدى صحف الصباح^(٩٧) تحت عناوين مثيرة تقول :
« مفاجأة غريبة يكشف عنها طلب احاطة بالمجلس الشعبى للغربية —
أين تذهب نذور السيد البدوى التى تريد عن مليون جنيه — كل خليفة
حصل على ٥٤ ألف جنيه ، وحامل مفتاح المقصورة تقاضى ٣٦ ألفا ،
ورئيس الخدم ١٢ ألفا فى العام الماضى » !!

ثم تقول الصحيفة : « على امتداد أكثر من ثلاث ساعات ..
شهدت قاعة المجلس الشعبى لمحافظة الغربية مناقشة غريبة ، ومفاجآت
أغرب ، حول طلب الاحاطة الذى تقدم به عدد من أعضاء المجلس ،
بشأن حصيلة صناديق النذور بمساجد المحافظة ، والطريقة التى توزع
بها نذور مسجد سيدى أحمد البدوى بطنطا ..

« ولقد كشفت المناقشات .. عن أن الحصيلة النقدية لصندوق
هذا المسجد فى العام الماضى [١٩٨٤] بلغت مليوناً و ٢٠٠ ألف جنيه ،
وأن النذور العينية فى حدود هذا المبلغ .. بينما كانت حصيلة صناديق
النذور الأخرى — وعددها ٢٢ صندوقاً على مستوى المحافظة —
٥٠ ألف جنيه (١١)

« والغريب فى الأمر .. أنه لا يعود على الدولة من صندوق نذور
المسجد الأحمدى سوى ٣٩٪ فقط من جملة النذور النقدية .. وذلك
طبقاً للمقرر الوزارى المحدد لنسب التوزيع .. أما الجزء الأكبر من
النذور فقد استأثر به عدد محدود من الأفراد (١١)

« وجميع المبالغ التى يحصلون عليها معفاة من الضرائب (١١) ..
فما هى الحكاية ؟

(٩٧) انظر جريدة الاهرام القاهرية ، العدد ٣٥٨١٩ ، الصادر
صبيحة الأحد ١٤ من ربيع الثانى سنة ١٤٠٥ هـ (٦ يناير سنة ١٩٨٥ م) .

وتستطرد الصحيفة فتقول : الحكاية بدأت عندما تقدم عدد من أعضاء المجلس الشعبى للمحافظة بطلب إحاطة .. وكان موضوع طلب الإحاطة هو معرفة إيرادات صناديق النذور بمساجد المحافظة ، والطريقة المتبعة فى توزيع حصيلة صندوق نذور المسجد الأحمدي على وجه الخصوص ..

» وعندما جاء موعد الجلسة المحددة لمناقشة طلب الإحاطة ، عقد المجلس جلسته برئاسة وكيل المجلس ، وشهدا المحافظ والمستشار ومدير الأوقاف بالغربية ..

» ومنذ اللحظة الأولى لبدء المناقشات ، سيطرت الدهشة على جميع الحاضرين .. فقد تقدم مدير الأوقاف ببيان الى المجلس كشف فيه عن حقائق لم يتوقعها أى منهم ..

» وقال المدير فى بيانه : ان حصيلة صندوق المسجد الأحمدي بطنطا بلغت فى عام ١٩٨٤ مليوناً و ٢٠٠ ألف من الجنيهات .. بينما كانت حصيلة ٢٢ صندوقاً غيره على مستوى محافظة الغربية ٥٠ ألف جنيه ..

» وفيما يتعلق بطريقة توزيع حصيلة صندوق نذور المسجد الأحمدي .. فان القرار الوزاري رقم ٢٢ لسنة ١٩٧١ قد حدد النسب والجهات والأشخاص المستحقة لهذه النسب ..

» وطبقاً لما يقضى به هذا القرار .. جاء بيان مديرية الأوقاف موضحاً كيفية توزيع الحصيلة النقدية للصندوق فى العام الماضى (١٩٨٤) .. وهى كما يلى :

» الخليفة الأول	٥٤ ألف جنيه بنسبة ٥٠٪
» الخليفة الثانى	٥٤ ألف جنيه بنسبة ٥٠٪
» حامل مفتاح المقصورة	٣٦ ألف جنيه بنسبة ٣٠٪
» شيخ المسجد	١٨ ألف جنيه بنسبة ١٥٪
» رئيس الخدم	١٢ ألف جنيه بنسبة ١٠٪

« الكاتب (ولم تذكر الجريدة عدد الكتبة) ١٢ ألف جنيه بنسبة ١/١ »
« المؤذن ٦ آلاف جنيه بنسبة ٥٠/١ »
« مقيم الشعائر ٦ آلاف جنيه بنسبة ٥٠/١ »
« قارئ السورة ٦ آلاف جنيه بنسبة ٥٠/١ »
« خادم الدورة (ولم تذكر عددهم) ٦ آلاف جنيه بنسبة ٥٠/١ »
« قراء المقرأة (وعددهم ٢٢ قارئاً) ١٣٢ ألف جنيه بنسبة ٥٠/١ »

— أما وزارة الأوقاف .. فالنسبة المقررة لها ٣٩/١ ؛ وقد بلغ مقدارها ٤٦٨ ألف جنيه « (١١) ثم تقول الصحيفة : « عند ذلك .. ثارت ضجة بالقاعة ، وتوالت تعليقات الحاضرين وهم يتساءلون : كيف يحصل عدد محدود من الأفراد على هذه المبالغ الخيالية ، بينما تحصل الوزارة المستولة عن جميع مساجد الدولة على ٣٩/١ من مجموع الإيرادات النقدية لصندوق نفور المسجد الأحمدي ؟ ! .. وأين تذهب النفور العينية ؟ ! اه .. »

هذا ما نشرته — فى حينه — صحيفة الأهرام القاهرية .. ولنا أن نتساءل : هل كان واحد منا يتوقع هذه الأرقام الخرافية ؟ !

وهل يستقيم مع العقل ، أن يكون اجمالى مرتب وكيل أول الوزارة — قبل الاستقطاعات — ٢١٠٠ جنيه فى العام ، بينما يحصل رئيس الخدم بالمسجد الأحمدي فى نفس العام على ١٢ ألفاً من الجنيهاً معفاة من الضرائب ؟ !

ثم .. آليس من المفارقات العجيبة — التى تدعو الى الدهشة والذهول — أن يحصل خادم الدورة فى أحد المساجد على ستة آلاف من الجنيهاً سنوياً .. بينما تعاني المساجد الأهلية من قلة عدد الدعاة ومقیمی الشعائر ؟ !

المهم .. نشرت الصحيفة هذه الأمور المذهلة .. ولم يقف السيد وزير الأوقاف — الدكتور الأحمدي أبو النور — ساكناً ازاء هذه الظاهرة الخطيرة .. وقرر على الفور تشكيل لجنة لاعادة النظر فى قرار توزيع (٢٠ — الله توحيد)

أموال صندوق نذور السيد البدوي وغيرها من الصناديق ، ونخصيص حصة منها — على الأقل — للصرف على أوجه الدعوة الإسلامية ، مع الاحتفاظ بنسبة للعاملين بالمسجد ..

ثم انتقلت مناقشات هذا الموضوع الى مجلس الشعب بناء على طلبات احاطة تقدم بها بعض الأعضاء .. وناقش المجلس المسألة .. ثم انفضت الدورة دون أن ينتهى المجلس الى قرار حاسم فى هذه المشكلة !!

وتمر الأيام .. وتتلقى بعض أجهزة الدولة سطورا قليلة من أحد المواطنين — الذين كانوا على دراية بكل ما يدور حول القضية — ويكشف فى رسالته للمسؤولين عن حكاية جديدة ، يؤكد فيها أن الأشخاص الذين يحصلون على عشرات الألوف من الجنيئات من حصيلة صندوق النذور بالمسجد الأحمدي — اياه — لم يكتفوا بذلك ، بل انهم كانوا يمدون أيديهم لأموال النذور ومعهم جميع أعضاء اللجنة التى تتولى فتح الصندوق وجرد محتوياته !!

وتتحرك جميع الأجهزة المختصة ، ويقوم خبراء الجهاز المركزى للمحاسبات بمراجعة أوراقهم وملفاتهم ، فتأكدوا من صدق هذه المعلومات .. ويقرر الوزير تشكيل لجنة يرأسها وكيل وزارة الأوقاف بالاسكندرية لدهص ما جاء بتقارير الجهاز المركزى !!

ثم تظهر الفضيحة المذهلة التى فاجأتنا بها صحيفة الأهرام القاهرية — صبيحة الأحد ٥ يناير سنة ١٩٨٦ — تحت عناوين مثيرة تقول : « نذور السيد البدوي مليون و ١٤٣ ألف جنيه فى عشرة شهور ، كيف تتركها للعابثين ؟ — الجهاز المركزى يكشف ضياع ٧٥٠ ألف جنيه ، ووزير الأوقاف يحيل المسؤولين الى التحقيق — النيابة تأمر بحبس وكيل وزارة ، وكل أعضاء اللجنة المسئولة عن جرد الصندوق » (٩٨) ..

(٩٨) انظر جريدة الأهرام القاهرية ، العدد ٣٦١٨٧ ، الصادر صبيحة الأحد ٢٤ من ربيع الثانى سنة ١٤٠٦ هـ (٥ يناير سنة ١٩٨٦ م) .

ثم تقول الصحيفة : ان اللجنة التي أمر السيد الوزير بتشكيلها لفحص ما جاء بتقارير الجهاز المركزي قد أعدت تقريراً .. » انتهت فيه الى وجود عجز كبير في حصيلة الصندوق منها على سبيل المثال :

— أنه نبين من مراجعة أوراق فتح صندوق النذور يوم ١٩٨٢/١١/١٦ : أن عدد أوراق النقد الموجودة به من فئة الجنيه هي ١٦١٨٠٠ ورقة .. ولكن اللجنة التي قامت بفتح الصندوق حذفت الرقم واحد من اليسار والرقم صفر من اليمين .. وأثبتت أن المبلغ هو ٦١٨٠ جنيهاً فقط .. أي بفارق ١٥٥٦٢٠ جنيهاً (١١) .

— كما ثبت من مراجعة أوراق جرد الصندوق نفسه .. أن الصندوق كان بداخله ١٥٨٣٠ ورقة من فئة النصف جنيه قيمتها ٧٩٦٥ جنيهاً ، ولكن اللجنة أثبتت أن المبلغ هو ١٢٥٦٥ جنيهاً .. أي بفارق ٦٧٠٨ جنيهاً (١١) .

» ومعنى ذلك أن العجز في هذا الصندوق فقط هو ١٦٢٣٢٨ جنيهاً ونصف الجنيه (١١) .

» ومن هنا كان لا بد من ازالة هؤلاء الناس جميعاً الى النيابة .. حيث تولى التحقيق الأستاذ رئيس نيابة الأموال العامة ، وتحت اشراف المصامى العام .. وكشفت التقارير أن جملة المبالغ الضائعة تقدر بـ ٧٥٠ ألف جنيه ، وذلك من خلال مراجعة جرد الصناديق عن أعوام ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٩٨٣ فقط ..

» واتضح للنيابة من خلال تقارير الجهاز المركزي واللجنة التي شكلتها الوزارة .. أن هناك نماذج أخرى لاختلاسات أموال الصندوق منها :

— أن صندوق النذور الذي تم فتحه يوم ١٩٨٢/٢/٣٠ كان بداخله ٢١٦٥ ورقة من فئة الخمسة جنيهات قيمتها ١٠٨٢٥ جنيهاً ، وقد قيحت بمحضر لجنة فتح الصندوق بمبلغ ٤٣٣٠ جنيهاً فقط ، أي بفارق ٦٤٩٥ جنيهاً ، ورغم ذلك لم يتم توريد هذا المبلغ (١١)

» وقد وجهت النيابة تهمة الاختلاس الى كل من وكيل وزارة

الأوقاف بالغربية ، وإمام المسجد ، وخطيبه ، ومندوب محافظة الغربية ، ومدير مديرية الشباب والرياضة بها ، ومندوب المجلس الشعبى المحلى ، ومندوب الدعوة بمديرية أوقاف الغربية .. ثم أمرت بجبسيهم جميعا على خدمة التحقيق .. وتكليف اللجان التى تتولى مراجعة عمليات فتح وجرد الصناديق لمواصلة أعمالها للكشف عن أية اختلاسات أخرى عن عامى ١٩٨٥/٨٤ ، وما قد تكشف عنه اللجان عن أى انحرافات عن الأعوام السابقة قبل عام ١٩٨١ » ..

ثم تقول الصحيفة: « ومن هنا يدور السؤال .. الى متى التهاون فى الحفاظ على المال العام ؟ .. والى متى التباطؤ فى إصدار القرارات الهامة التى تحفظ للدولة أموالها ، مثل قرار تنظيم صرف الخشب التى يمكن تخصيصها من حصيلة صندوق نفور السيد البدوى ؟ » وطالما أنه ثبت لدينا أن صناديق النفور فى المسجد الكبرى ، مثل السيد البدوى ، تدر عائدا كبيرا من الأموال .. فهل من المعقول أن يتم جرد هذه الصناديق بهذه الصورة العادية ؟ .. ولماذا لا يتم انجرد تحت اشراف أخصائين من الجهاز المركزى ، أو من البنوك الكبيرة ، أو مندوبين من وزارة المالية وغيرها من الأجهزة المختصة فى هذا المجال ؟ .. ا ه ..

* * *

ونقول : هل عرفتم الآن — يا أصحاب النفور — لماذا قال الرسول ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما : « اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » ؟ !
هل عرفتم لماذا قرر الاسلام أن : « من نذر لغير الله فقد أشرك » ..
هل وعيتم الدرس — يامن عصيتم الرسول ﷺ وعرضتم أنفسكم للشرك بالله — حين قدمتم النفور والقرايين لغير الله تعالى ؟ !
هل علمتم الآن — يامن استحدثتم — ويعتم أثاث بيوتكم ورهنتم دوركم كى تقدموا النفور والقرايين للموتى حتى تروج التجارة ، ويشفى المريض ، وينجح الطالب ، ويعود الغائب (ii) هل علمتم الى أين تذهب أموالكم ؟ !

هل عرفتم لماذا يرفع بعض الناس شعار : « قطع الورايد »
ولا قطع العوايد ؟ ١٩

وأخيرا .. هل أدركتم الآن — يا عباد القبور — معنى قول
الله تعالى : « هل تثبتكم بالأخسرين أعمالا • الذين ضل سعيهم في
الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (٩٩) •

فاللهم ربنا : أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا
وارزقنا اجتنابه ، واهد قومنا ياربنا فانهم لا يعلمون ..

● ومن حلف بغير الله ، فقد أشرك :

الحلف بغير الله تعالى .. كأن يقسم بالنبي ﷺ ، أو بالكعبة
الشريفة ، أو بولي من الأولياء ، أو بكبير من الكبراء .. أو يقسم
بالوطن ، أو بالآباء والأجداد ، أو بغير ذلك من المخلوقات فكل ذلك من
الشرك .. وفي الحديث : « ومن حلف بغير الله فقد كسر » ..
وفي رواية : « فقد أشرك » (١٠٠) •

وذلك لأن في القسم تعظيماً للمقسم به .. والذي ينبغي أن
يخص بالتعظيم والتقديس هو الله وحده .. لهذا جاء النهي عن الحلف
بغيره تعالى .. فقال ﷺ : « لا تحلفوا بأبائكم » .. وقال : « من كان
خالفاً فليحلف بالله ، أو ليذر » ..

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « لأن أحلف بالله كاذبا أحب
إلى من أن أحلف بغيره صادقا » •

« ومن المعلوم في الدين : أن الحلف بالله كاذبا كبيرة من الكبائر ..
لكن الشرك — وإن كان شركا أصغر — أكبر من كل الكبائر في نظر
فقهاء الصحابة رضي الله عنهم » (١٠١) •

(٩٩) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤

(١٠٠) رواه الترمذي وحسنه •

(١٠١) حقيقة التوحيد ، مرجع سابق ص ٤٦

ويعاق الدكتور يوسف القرضاوى على ذلك بقوله : « فالحالف بغير الله لا وفاء له ولا كفارة .. لأن هذا شرك ، والشرك لا حرمة له .. وإنما عليه أن يستغفر الله تعالى .. وأن يقول ما قاله الرسول ﷺ : « من حلف وقال غي حلفه : واللأت والعزى ، فليقل : لا اله الا الله » (١٠٢) .. فبين هذا الحديث أن كفارة الشرك تجديد التوحيد ، لا الاطعام ولا الصيام » (١٠٣) .

* * *

● خلاصة المسألة .. بين المعترضين والمجيزين :

يطلق الصوفيون على أهل السنة : علماء الظاهر ، أو أهل الشريعة .. لأنهم يتمسكون بنصوص الكتاب والسنة ولا يحميدون عنها .. ويطلقون على أنفسهم : أهل الحقيقة ، لأنهم لا يقفون أمام النصوص ، وإنما يصلون الى المعانى الكامنة وراءها ، وذلك بالقاء الله تعالى فى قلوبهم أسرار هذه النصوص .. فهم — على هذا — علماء الباطن ..

ويختلف « علماء الظاهر » — أهل السنة — مع « علماء الباطن » — الصوفية — فى مسألة الأضرحة وما يدور حولها اختلافا كبيرا ، ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا : أن خلافهم حول هذه المسألة ينبع من أعماق الجذور ..

● فبينما يرى أهل السنة أن الأضرحة ليست الا مظهرا من مظاهر الوثنية — ولا يجتمع فى دين الاسلام قبر ومسجد أبدا — كما يقول الفقهاء من السلف الصالح — بل ويذهبون الى أنه اذا بنى المسجد أولا يهجم القبر ، أما اذا كان القبر أولا فيهدم المسجد .. لأن الاسلام سوى بين الجميع — من آل البيت وغيرهم لقول الرسول ﷺ لأقرب أقربائه : « اعملوا فانى لا أغنى عنكم من الله شيئا » — وهذا يستوجب

عدم تمييز آل البيت أو غيرهم ببناء الأضرحة على قبورهم .. أو رفع هذه القبور كما ترفع الأضرحة والمقامات ..

كما لا يصح في نظر أهل السنة نقل الأضرحة الى المساجد ، فالمساجد دور للعبادة ، وحلقات للعلم وليست مدافن للموتى ..

والاسلام بهذا يوقف زحف الوثنية عليه كما زحفت على الأديان السابقة فحولت توحيدها الى شرك .. لأن أصل فكرة عبادة الأوثان — كما يقول أهل السنة — أنها كانت قبورا تبني لتذكر بالصالحين ، ثم نسي الجيل الأول هذا الأمر ، وجاء الجيل الثاني فظن أن القبور قد بنيت في المساجد لتعبد ، فعبدوها .. واقتصر الجيل الثالث على اتخاذ صورة أو تمثال يعبدونه في دورهم دون الذهاب الى دور العبادة .. ولهذا فان الاسلام حين يمنع ارتباط القبر أو الضريح بالمسجد ، فانما يريد بذلك أن ينهى كل مظاهر الوثنية ويقضى عليها .. ويحتج — أهل السنة — باحاديث الرسول ﷺ التي تنهى عن اتخاذ القبور مساجد ..

ولكن الصوفية : يجيزون إقامة المساجد فوق القبور .. محتجين لذلك بأنه عندما مات الرسول ﷺ فانه دفن بحجرة عائشة — رضى الله عنها — وكانت رضى الله عنها تؤدي الصلوات الخمس في حجرتها ، وكان بها قبر الرسول ﷺ .. وصاحبيه : أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، وظلت عائشة رضى الله عنها تقيم صلواتها في نفس الحجرة دون أن تتخذ من مكان القبر قبلة أو تصلى عليه .. وعلى هذا فهم يرون أن الصلاة بمكان به قبر صحيحة ، قياسا على صحة صلاتها — رضى الله عنها — بحجرتها وبها قبور الرسول ﷺ وصاحبيه رضوان الله عليهما !!

● ويرى أهل السنة عدم جواز شد الرحال الا الى المساجد الثلاثة التي ذكرها الرسول ﷺ في حديثه ، وهي : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، والمسجد النبوي الشريف ..

وشد الرحال — كما يراه أهل السنة — هو العزم على السفر وحزم

الحقائب والتوجه بالارادة الكاملة الى أحد المساجد الثلاثة التي وضعتها
الرسول ﷺ في قوله : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد :
المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا » ..

فالنص في هذا الحديث واضح : لا يحتاج الى تأويل أو اضافة ..
فالنهي اذن عن شد الرحال لغير هذه المساجد هو نهى للتحريم ..

وهذا — كما يقولون — يختلف عن شد الرحال من أجل العلم اذا
أراد المسلم أن يتعلم على يد أحد العلماء ، أو يسمع لأحد الخطباء ،
فهذا بعيد عن أمر المساجد .. وتعلم العلم والسعى اليه مطلوب ،
وقد كان الصحابة والتابعون يسافرون بالأيام والشهور لأحد الصحابة
أو التابعين لمعرفة حديث عن الرسول ﷺ ..

ولكن الصوفية ، يرون أن الناس لم يفهموا الحديث على حقيقته ..
اذ معنى الحديث — في نظرهم — أن المساجد كلها متساوية في الفضل
والثواب .. فاذا صلى المسلم صلاة العصر — مثلا — في مسجد معين ،
فثوابه فيه مثل ثوابه في أي مسجد آخر .. الا المساجد الثلاثة المذكورة
في الحديث ، فان الصلاة في المسجد الحرام يتضاعف ثوابها الى
مائة ألف ، والصلاة في المسجد النبوي يتضاعف ثوابها ألف مرة ،
وفي المسجد الأقصى يتضاعف خمسمائة مرة .. أما سائر المساجد
فلا تضعيف فيها ، وكلها متساوية في الفضل !!

ويرون أن شد الرحال لغير هذه المساجد الثلاثة .. لا لطلب مزيد
ثواب في الصلاة .. فهو عمل مباح لا شيء فيه .. فالناس يشدون
الرحال لطلب العلم ، ويشدون الرحال للتجارة ، ويشدون الرحال لزيارة
المساجد الموجودة بها أضرحة !!

وانما تشد الرحال الى الأضرحة ، لا للصلاة في مساجدها ، لأن
الصلاة فيها تساوي الصلاة في مسجد الحى أو القرية التي يسكنونها ..
وانما يأتي مزيد من الثواب — في نظرهم — في الصلاة في هذه
المساجد ، لا من ناحية كونها مساجد ، بل من ناحية زيادة عدد المصلين
فيها .. فكلما زاد عدد المصلين في الجماعة كلما كان ثواب المصلين أكثر ..

كما أن الناس قد يحصلون على مزيد من الثواب لأن هذه المساجد تدعمرت بأنفاس الصالحين عبر القرون .. لكنها — كما يقولون — من حيث المسجدية تتساوى مع أى مسجد إلا المساجد الثلاثة المذكورة فى الحديث !!

* * *

● ويرى أهل السنة : أن زيارة النساء للقبور لا تصح إطلاقاً .. لقول الرسول ﷺ : « لمن الله زوارات القبور ... » فلعنة الله تلاحق زائرة القبر ، وما أجازة الرسول ﷺ من زيارة القبور إنما كان للرجال فقط ..

فإذا كان الرسول ﷺ قد نهى النساء عن الذهاب الى المقابر التى هى أصلاً للمسلمين جميعاً ومن الجائز أن يزوروها .. فالأولى منع ذهابهن الى ما يخالف الشرع وهو الأضرحة ، وما يترتب على هذه الزيارة من مفسد ..

ولكن الصوفية لا يرون فى ذلك بأساً .. ويرون فى زيارة النساء للأضرحة أمراً مشروعاً ، بل ومسئولاً للعظة والاعتبار ، ولقراءة القرآن ، وإهداء ثواب القراءة للموتى ، ولكى يأتنس الموتى كذلك بهن ، فان الموتى يأتنون بزيارة الأحياء لهم !!

ويقولون : بأن من زار قبر ميت — أيا كان هذا الميت — فان الميت يعلم بزيارة من زاره ويراه ويسمع حديثه .. ولو زار المسلم — أو المسلمة — قبر الميت وقرأ له ما تيسر من القرآن ، وأهدى ثواب قراءته للميت ، فان الميت يسمعه وهو يقرأ ويأتنس به ويسعد بزيارته .. كما يسعد كذلك بالقرآن الذى وهب ثواب قراءته لروحه .. فالمتى جميعاً فى قبورهم أحياء — المسلمون منهم والكفار ، والطائعون والمعصاة — يرون من يزورهم ويستمعون لما يقرأونه .. لأن القبر إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النار ، والنعيم أو العذاب لا يكون الا مع الحياة !!

أما ما يقتترن بزيارة الأولياء والصالحين من أشياء لا تليق بالمسلم وتخرج عن الآداب الإسلامية ، فعلى الناس منعها .. فالمرأة التى تدخل

لزيارة هذه القبور وهى سافرة ، يجب منعها من الدخول الى هذه الأماكن ، كذلك يجب منع النساء اللاتى يرفعن أصواتهن بالزغاريد فيها !!

● ويرى أهل السنة : أنه لا يجوز الطواف حول الأضرحة ، أو تقبيلها ، أو تقبيل الأعتاب وما يحدث عادة من العامة عند زيارة الأولياء والصالحين .. فالطواف لا يجوز الا حول الكعبة .. كما أن التقبيل لا يجوز الا لنجر الأسود ..

ويقولون : ان كل دوران يتم حول شئ ما ، يسمى طوافا .. والطواف حول الكعبة يحسب من ابتداء الدوران من نقطة معينة الى أن يعود الطائف الى هذه النقطة .. فهذا الدوران يسمى طوافا .. والقرآن الكريم يقصر الطواف على الكعبة بقوله تعالى : « وليطوفوا بالبيت العتيق » (١٠٤) .. ومعنى هذا : أنه لا يجوز مطلقا الطواف بغير الكعبة كالأضرحة وغيرها .. لأن الطواف عبادة ، ولا بد للعبادة أن تكون وفق ما جاء به الشرع ..

ولكن الصوفية يرون أن الطواف حول الأضرحة ليس طوافا .. وإنما هو تنظيم لحركة المرور .. اذ أن الحركة الصحيحة — فى المكان المستدير — هى الدوران حوله ، والا تصادم الناس لو كان المرور فى اتجاه واحد .. وعلى هذا لا يرون فى الدوران حول الأضرحة طوافا .. ولكنه تنظيم لحركة المرور !!

ويرون أن تقبيل الأضرحة والأعتاب .. ليس الا تعبيرا عن حب ، بالغ أصحابه فى التعبير عنه .. وعلى هذا فهو — فى نظرهم — ليس الا لونا من ألوان فعل الأشياء التى لا تليق ولم يرد بها شرع ، ولكنها لا تكفر صاحبها !!

● ويرى أهل السنة : أنه لا يجوز الاحتفال بمولد الرسول ﷺ ، ولا بمولد غيره من آل البيت أو الأولياء .. لأن هذا مما أحدثه الناس فى الدين ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة لقول الرسول ﷺ :

« اياكم ومحدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة »
ولقوله ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » .
ولو كان الاحتفال بالموالد من الحين لفعله الرسول ﷺ أو الصحابة
أو السلف الصالح رضوان الله عليهم ..

وقد صرح جماعة من أهل السنة بانكار الموالد وخذروا منها ..
وخالفهم في ذلك بعض المتأخرين وقالوا : انها جائزة اذا لم تشتمل على
منكر ، وظنوا أنها من البدع الحسنة .. حتى آل الأمر الى ما نراه
اليوم .. فمع كون هذه الاحتفالات بدعة ، فان أغلبها لا يخلو من
المنكرات كاختلاط النساء بالرجال ، والأغاني والمعازف والمخدرات ..

كما أنه يقع فيها ما هو أعظم من ذلك : كمناشدة الرسول ﷺ
والأولياء والاستغاثة بهم وطلبهم المدد ، واعتقاد أن الولي يعلم ما في
الغيب .. وغير ذلك من الشرك الأكبر ..

ولهذا يرى أهل السنة أن الاحتفال بالموالد ليس من الاسلام في
شيء ، وأنه لا ينبغي للعاقل أن يغتر بكثرة من يفعله من الناس المبتدعين
في سائر الأقطار .. لأن هذه الموالد وما يحدث فيها من منكرات
مخالفة صريحة لشرع الله ..

ولكن الصوفية يرون أن اقامة الموالد ليس الا احتفالات لاجياء
ذكرى الصالحين .. وأن الأصل فيها اجتماع الناس لتذكر حياة أولئكم
الصالحين ، ولأخذ العظات والعبر من حياتهم .. حيث تقرأ فيها قصصهم
فيتأثر الناس بها ، ويأخذون الأسوة من سيرتهم .. ولهذا فهي —
في نظرهم — من الأعمال المشروعة التي يثاب الناس عليها !!

ولا يفكر الصوفية ما يحدث في هذه الموالد من البدع والخرافات
التي لا تليق بالمسلمين .. ويرون أنه يجب تطهيرها مما علق بها من
الخرافات والبدع التي شوهت الكثير من جمالها .. وأن يدعم ما يكون
بها من صالح الأعمال كالعكوف على تلاوة القرآن الكريم ، والاجتماع
على ذكر الله ، واطعام الطعام .. وتذكر وقراءة سير أصحابها حتى
تصبح مواسماً للطاعة ..

● ويرى أهل السنة أن النذر قربة إلى الله تعالى وعبادة له ..
ولابد أن يكون الله تعالى هو المقصود بهذه النذور لا غيره .. وأن أي
نذر أو قربة تتوجه لغير الله فهو شرك ، ومن نذر لغير الله فقد أشرك ..
ويرون أن النذر لو كان لله تعالى ، لأنفقته الناذر في أي مكان
دون الارتباط بصندوق النذور .. إذ لم يعرف في تاريخ السلف
الناس أنهم اتخذوا الأضرحة ، أو صناديق النذور إلى جوارها ..
لأن هذه المظاهر ليست إسلامية بل ومما ينهى عنه الشرع ..

ثم كيف يوضع المال في صندوق للنذور لا يعرف الناس مصارفه
.. في حين أن أمام الناذر وحوله العديد من الفقراء المحتاجين إلى
هذا المال في القرى والأحياء من المدن ؟ !

هذا .. على فرض أن الناذر ينوي النذر لله وهو يضع نذره في
صندوق الولي .. ولكن الأغلب ما يقوله الناس من أن هذا النذر
للولي الفلاني .. وهذا مظهر من مظاهر الشرك ينبغي أن ينتهي
عنه المسلمون ..

كما يرى أهل السنة : أن رفع الدعاء لغير الله تعالى ، والاستغاثة
بصاحب الضريح ، والنذر للأولياء ، والاستغاثة بالمقبرين والحلف بهم ،
واسباغ أوصاف الله تعالى عليهم — كقول القائل : يا إمام يا إلهي
لا بتغفل ولا بتتأمل .. (١١) — وغير ذلك من الأمور التي يفعلها العامة
حول الأضرحة .. كل ذلك من البدع المنكرة التي لا يجوز السكوت عليها
أو الإغضاء من شأنها ..

فالدعاء عبادة ، والنذر عبادة ، والاستغاثة لا تجوز بغير الله ،
فهو تعالى وحده غياث المستغيثين ، والاستغاثة لا يجوز أن تكون بغير
الله ، فهو وحده المعين .. والحلف لا يجوز بغير الله ، فهو وحده
المعبود ولا رب سواه ..

ولكن الصوفية يرون جواز كل هذه الأمور .. بحجة أن عقيدة
الناس سليمة ، وأنهم لا يقصدون في أفعالهم غير الله تعالى .. ولكنهم

عندما يذكرون أسماء الأولياء والصالحين عند قيامهم بهذه الأمور ،
لا يفعلون ذلك الا من قبيل التبرك بذكرهم ، واتخاذهم وسائل وقربات
الى الله تعالى !!

هذه هي أهم مواطن الخلاف بين أهل السنة : علماء الظاهر (أهل
الشرعية) ، وبين الصوفية : علماء الباطن (أهل الحقيقة) فى مسألة
الأضرحة وما يدور حولها .. أوردناها بعد تلخيصها وذكرنا الحجج
التي يحنج بها كلا الفريقين ، حتى لا نتهم بالتحيز ضد الصوفية .

● فتوى صريحة فى مسألة الأضرحة :

نشرت مجلة الاذاعة .. فى عددها الصادر فى يوم السبت السابع
من سبتمبر عام ١٩٥٧ فتوى لفضيلة الشيخ حسن مأمون مفتى الديار
المصرية فى « حكم الشرع فى زيارة أضرحة الأولياء والطواف بالمقصورة
وتقبيلها والتوسل بالأولياء » ..

قال — جزاه الله عن الاسلام خيرا — :
« أود أن أذكر أولا أن أصل الدعوة الإسلامية يقوم على التوحيد
.. والاسلام يحارب جاهدا كل ما يقرب الانسان من مزالق الشرك
بالله ..

ولا شك ان التوسل بالأضرحة والموتى أحد هذه المزالق ..
وهى رواسب جاهلية ..

فلو نظرنا ما قاله المشركون عندما نعى عليهم الرسول ﷺ عبادتهم
للأصنام قالوا له : « ما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زلفى » (١٠٥) ..
فهى نفس الحجة التى يسوقها اليوم الداعون للتوسل بالأولياء لقضاء
حاجة عند الله أو التقرب منه ..

ومن مظاهر هذه الزيارات : أفعال تتنافى كلية مع عبادات
اسلامية ثابتة ..

فالتطواف في الاسلام ، لم يشترع الا حول الكعبة الشريفة ..
وكل تطواف حول أى مكان آخر حرام شرعا ..

والتقبيل في الاسلام ، لم يسن الا للحجر الأسود .. قال فيه
عمر — رضى الله عنه — وهو يقبله : « والله لولا أنى رأيت رسول الله
يقبلك ما فعلت » ..

فتقبيل الأعتاب ، أو نحاس الضريح ، أو أى مكان به ..
حرام قطعا ..

وتأتى بعد ذلك ، مسألة الشفاعة .. وهذه في الآخرة غيرما
في الدنيا ، فالشفاعة ترتبط في أذهاننا بما يحدث في هذه الحياة من
توسط انسان لآخر أخطأ عند رئيسه ومن بيده أمره ، يطلب اليه أن
يغفر له هذا الخطأ ، وان كان هذا المخطئ لا يستحق العفو
والمغفرة ..

غير أن الله سبحانه وتعالى ، قد حدد طريق الشفاعة في الآخرة ..
فهذه الشفاعة لن تكون الا لمن يرتضى الله لهم أن يشفعوا ، ولأشخاص
يستحقون هذه الشفاعة .. وهؤلاء أيضا يحدددهم الله ..

اذن .. فكل هذا متعلق باذن الله وحكمه ..

فاذا نحن سبقنا هذا الحكم بطلب الشفاعة من أى كان .. فان هذا
عبث لأننا لا نستطيع أن نعرف من سيأذن الله لهم بالشفاعة ومن
يشفع لهم ..

وعلى ذلك .. يتضح أن كل زيارة للأضرحة ، والتطواف حولها ،
وتقبيل المقصورة والأعتاب ، والتوسل بالأولياء وطلب الشفاعة منهم ..
كل هذا حرام قطعا ، ومناف للشريعة ، وفيه اشراك بالله ..

وعلى العلماء : أن ينظموا حملة جادة لتبيان هذه الحقائق ،
فان الكثير من العامة — بل ومن الخاصة — ممن لم تتح لهم المعرفة
الاسلامية الصحيحة يقعون غريسة هذه الرواسب الجاهلية التي تتنافى
مع الاسلام .. واذا أخذ الناس بالرفق في هذا الأمر فلا بد أنهم

سوف يستجيبون للدعوة ، لأن الجميع حريصون — ولا شك — على التعرف على حقائق دينهم » ا ه .

هذه فتوى صريحة لفضيلة الشيخ حسن مأمون مفتي الديار المصرية الأسبق .. والآية التي استشهد بها فضيلته نزلت في افراد الله وحده بالعبادة والدعاء .. وهي واضحة جلية في النهي عن اتخاذ الوسطاء والشفعاء من دون الله .. يقول تعالى : « ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون ، ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار » (١٠٦) .

فالعبادة والطاعة لا تكون الا لله وحده .. خالصة له ولا شريك لأحد معه فيها .. أما الحجة التي يسوقها دائما الذين يتجهون بالعبادة والطاعة لغيره تعالى ، فهي قولهم : ما نعبد هؤلاء الأولياء الا ليقربونا الى الله منزلة ، ويشفعوا لنا عنده في حاجتنا .. فالله — تعالى — سوف يفصل بين هؤلاء الناس — الذين يتخذون الأولياء من دونه — فيما يختلفون فيه ، بأن يصليهم جميعا نار جهنم .. الا من أخلص الدين له وحده ، فهو تعالى لا يرشد الى الحق من هو مفتر على الله ، يقول عليه الباطل ، كافر بنعمته ، جاحد لربوبيته ..

ثم يقول جل شأنه : « ان تكفروا فان الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وان تشكروا يرضه لکم ، ولا تذر وازرة وذر أخرى ، ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون ، انه عليم بذات الصدور . واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيا اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا اليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا ، انك من اصحاب النار . أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، انما يتذكر أولوا الالباب » (١٠٧) .

فهو تعالى يقول لعباده : ان تكفروا أيها الناس جميعا ، فان الله

غنى عن ايمانكم وعبادتكم ، ولا يرضى لعباده أن يكفروا به .. وان تؤمنوا بربكم وتطيعوه يرضى شكركم له بذلك ، ولا تؤاخذ نفس بذنب غيرها ، ثم الى ربكم مصيركم بعد وفاتكم ؛ فيخبركم بما كنتم تعملون ، فيجازيكم على ذلك : المحسن منكم باحسانه ، والمسيء بما يستحقه .. فهو تعالى لا يخفى عليه شيء ، فأتقوه فى سر أموركم وعلائيتها ..

وشأن الانسان — دائما — أنه اذا مسه بلاء فى جسده أو ماله — فكان فى جهد وضيق — أن يستغيث بربه الذى خلقه ويرغب اليه فى كشف ما نزل به ، تائباً اليه مما كان عليه ، راجعاً الى طاعته .. ثم اذا كشف عنه ضره ، فأبدله بالسقم صحة ، وبالشدة رخاء .. ترك دعاءه الذى كان فى حال الضر .. وجعل لله تعالى أمثالا وأشباهها ، وأطاع الشيطان فى عبادة الأنداد والشفعاء .. ليزيل من أراد أن يوحد الله عن توحيده ، والدخول فى عبادته والايمان به وحده ..

ثم يقول تعالى متوعدا أولئكم الذين يتخذون من دون الله الأولياء والشفعاء : تمتعوا بكفركم بالله قليلا ، الى أن تستوفى آجالكم وتأتيكم منيتكم ، فانكم من أهل النار المالكين فيها أبدا .. فمهما تمتعتم بهذه الدنيا الفانية ، وتلذذتم بنعيمها الزائل ، فمصيركم الى نار جهنم .. ويعقد تعالى المقارنة بين المؤمنين الذين يقضون ليلهم ، متعبدين لربهم ، ساجدين وقائمين ، وبين الذين يشركون به تعالى ويتخذون له الأنداد والشفعاء .. فيقول : هل الذى جعل لله أندادا وشفعاء ، كهذا القائم لله تعالى ، مطيعا له ساعات الليل ، ساجدا أحيانا وأحيانا قائما ، يحذر عذاب الله فى الآخرة ، ويرجو أن يرحمه تعالى فيدخله جنته ؟ ..

هل يستوى الذين يعلمون ما لهم فى طاعتهم من الثواب ، وما عليهم فى معصيتهم من العقاب مع الذين لا يعلمون ذلك ، فهم يخطبون فى عشواء ؟ !

ما هذان بمتساويين ، وانما يعتبر بحجج الله ويتدبرها ، أهل العقول والحجى ، لا أهل الجهل ونقص العقول ..

الفصل التاسع

فى مسألة التوسل والوسيلة

التوسل — لغة — من وسل يسل — من باب وعد — أى : رغب وتقرب ، ومنه جاء اشتقاق « الوسيلة » .. وهى ما يتقرب به الى الشيء .. توسل اليه بوسيلة ، أى تقرب اليه بعمل ..
يقول ابن منظور : « الوسيلة : هى المنزلة عند الملك ، وهى الدرجة ، والقربة .. وسل فلان الى الله وسيلة : اذا عمل عملا تقرب به اليه ، والواصل : الراغب الى الله ..

قال ليبيد :

أرى الناس لا يدرون ما قدر لهم

على كل ذى رأى الى الله واصل

وتوسل اليه بوسيلة : اذا تقرب اليه بعمل ، وتوسل اليه بكذا : تقرب اليه بحرمة أصرة فعطف عليه .. والوسيلة : الوصلى والقربى ، وجمعها : وسائل (١) .

ويتفق المعنى الشرعى للوسيلة مع المعنى اللغوى لها ..
يقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة » (٢) .
أى : أجيئوا الله بطاعته وامتنال أوامره واجتنب نواهيه ، واطلبوا القربة اليه بالعمل الصالح الذى يرتضيه ..

وعن قتادة : « تقربوا اليه بطاعته » ..

وروى الحاكم بسنده ، عن حذيفة أنه سمع قارئاً يقرأ هذه الآية فقال : القربة .. ثم قال : « لقد علم المخفوضون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد من أقربهم الى الله وسيلة » ..

(١) لسان العرب ، لابن منظور ، مادة (و س ل) .

(٢) المائدة : ٢٥

ويقول جل شأنه : « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة
أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه » (٢) .
أى : يطلبون الزلفة والقربة من الله ، ويرجون بطاعتهم وعبادتهم
رحمته ، ويخافون من عذابه ..

وقد تكون الوسيلة : منزلة خاصة وعلامة مميزة لقرب خاص ،
هو أعلى أنواع القرب .

فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :
« من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة
القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته
.. حلت له شفاعتى يوم القيامة » .

ويبين الحديث الآخر الذى رواه مسلم بسنده عن عبد الله بن
عمرو .. أن الوسيلة فى هذا الحديث هى قوله ﷺ : « منزلة فى الجنة
لا تنبغى إلا لعبد من عباده ، وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لى
الوسيلة حلت الشفاعة » ..

والتوسل الى الله تعالى .. يكون باسم من أسمائه ، أو بصفة
من صفاته .. وهذا هو التوسل المطلوب ..

ويكون بعمل صالح قام به الداعى .. وهو جائز مشروع ومرغوب
فيه .. بل منه الواجب الذى لا يتم الايمان الا به .
كما يجوز أن يكون بطلب الدعاء من رجل صالح يدعو له ، وهو
نوع من الاستشفاع بأحد الأحياء فيما يطلبه العبد من ربه .. وهو
جائز اتفاقاً ..

أما التوسل الى مقبور انقطع عمله وانتهى أمره ، أو الأقسام على
الله تعالى بذاته أو بجاهه فهو الممنوع شرعا ، لأنه نوع من الشرك ..
لأن التوسل هو التقرب الى الله تعالى بما يحب مطلقا ، أو التماسا
لحاجة ما ، نتيجة حتمية للتقوى ، وثمره طيبة للايمان ..
وستحدث عن الأنواع الثلاثة الأخيرة للتوسل ، فى حينه ..

* * *

● الوجه الآخر للعملة :

يعتقد الصوفيون بجواز التوسل والتشفع والاستغاثة بالأنبياء والصالحين ، فى حياتهم وبعد مماتهم .. كما يعتقدون بجواز التبرك بآثارهم وقبورهم ، والتمسح بها وتقبيلها التماسا لبركة ساكنيها وتعظيمهم لهم !!

ويرون أن التوسل والتشفع والاستغاثة كلها بمعنى واحد .. وليس لها غنى قلوب المؤمنين معنى الا التبرك بذكر أحباب الله تعالى .. لما ثبت — عندهم — أن الله يرحم العباد بسببهم ، سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً !!

ويقولون : ان المؤثر الموجد وان كان فى الحقيقة هو الله تعالى .. فان هؤلاء — الموتى — سبب عادى فى ذلك لا تأثير لهم فى ذواتهم ، وذلك مثل السبب العادى ، فانه لا تأثير له !!

ولهذا : لا وجه — عندهم — لمنع التوسل مطلقاً !! (٤)
ويقول الأستاذ موسى محمد على : « وهو — أى التوسل — على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : أن التوسل — أى بالنبي ﷺ — بمعنى أن طالب الحاجة يسأل الله تعالى به ، أو بجاهه ، أو ببركته .. ولا فرق فى هذا النوع بين أن يتوسل بذى القدر الرفيع قبل وجوده ، وبعد وجوده .. فى حياته الدنيا ، أو فى حياته الأخرى .. فيجوز ذلك فى الأمور الثلاثة (٥) ..

والنوع الثانى : التوسل به — صلى الله عليه وسلم — بمعنى طلب الدعاء منه فى حياته ، وبعد موته فى عرصات القيامة بالشفاعة منه ، وفى حياته المتوسطة فى مدة البرزخ (٦) .

(٤) انظر : حقيقة التوسل والوسيلة على ضوء الكتاب والسنة ،
للاستاذ موسى محمد على — ط دار التراث العربى ، ص ١١١ ، ١١٢
(٥) المرجع السابق ص ٣٢ (٦) نفس المرجع ص ٤٢

أما النوع الثالث من أنواع التوسل : فإن يطلب منه ذلك الأمر المقصود ، • بمعنى أنه — صلى الله عليه وسلم — قادر على التسبب فيه بسؤاله ربه وشفاعته إليه ، فيعود الى النوع الثانى من المعنى وان كانت العبارة مختلفة « (٧) •

وينتهى — فضيلته — الى أن : « المراد من الاستغاثة بالأنبياء والصالحين ، والتوسل بهم هو أنهم أسباب ووسائل لنيل المقصود •• وأن الله تعالى هو الفاعل كرامة لهم ، لا أنهم هم الفاعلون — كما هو المعتقد في سائر الأفعال — فان السكين لا يقطع بنفسه ، بل القاطع هو الله تعالى ، والسكين سبب عادى خلق الله تعالى القطع عنده » (٨) • وعلى هذا •• فالمدار عندهم في صحة التوسل : « أنه لا يشترط كونه — أى المتوسل به — حيا في دار الدنيا •• وأن القول بأن التوسل لا يصلح بأحد الا وقت حياته في دار الدنيا قول من اتبع هواه بغير هدى من الله تعالى •• فالتوسل بسيدنا رسول الله ﷺ والتوسل بسائر الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — والتوسل بالصالحين من عباد الله سبحانه ، والاستغاثة بهم جميعا — على النحو الذى عليه الأمة — من اعتقاد أنهم عباد مكرمون ، مقبولو الشفاعة عند الله تعالى بفضله ، هو مما أجمعت عليه الأمة (٩) ودل عليه الكتاب (١٠) ونطقت به صحاح السنة وأقوال العلماء (١١) ولم يتوقف في جوازه ولا في استحبابه ولا في سنيته أحد من أهل العلم والفضل من عهد الصحابة رضى الله عنهم « (١٢) (٩) •

* * *

● الحصاد المرنول :

تعالوا بنا الى مسجد من المساجد التى بنيت فوق الأضرحة في

(٧) المرجع السابق ص ٤٧ • (٨) نفس المرجع ص ٤٩ •
(٩) المرجع السابق ص ٣١ — وعلامات الاستفهام والتعجب وضعناها بمعرفتنا ، لأن فضيلة المؤلف يخرج المتكرين للتوسل بالمقبورين من عداد الأمة ، وينكر عليهم استدلالهم في انكارهم له بالكتاب والسنة •• وكأنما أهل الفضل والعلم هم التصويغيون وحدهم !!

القاهرة أو فى أى مدينة أو قرية ، لكى نرى ما يفعله الناس عند زيارتهم لهذه الأضرحة .. ولنعرف الثمرة التى أنضجتها دعوى الصوفية بجواز الاستغاثة بساكنتى القبور والأضرحة ..

أول ما يحدمك تسمية المسجد .. فهو مسجد الولى الفلانى بعد أن جردوه من صفته كبيت من بيوت الله .. وبدلاً من أن تكون المساجد لله فلا ندعو مع الله أحدا .. أصبحت أماكن للدعاء لكل واحد سوى الله !!

وسوف نرى فى هذه المساجد البدعية ما يذهب بأحلام خوى الأحلام والعقول !!

هذه طائفة من الناس .. تطوف بالضريح مستلمة لأركانها .. ملتزمة البركة من ساكنه !!

وطائفة أخرى تقبل الأعتاب ، وتتمسح بالضريح !! وهذا واحد يتجه الى صاحب الضريح بالسؤال والتضرع ، متذللاً متخشعاً !!

وهذه أخرى تستعين بصاحب الضريح على ضررتها أو جارتها التى ظلمتها !!

وثالث يطلب من ساكن الضريح الشفاعة له ، ورابع يطلب النجاح وخامس يطلب التسفاء من العلل والأسقام ، وسادس يطلب الزواج وأربع لتجارته ... و ... و ... !!

بل ان الأمر قد يصل بالبعض من الناس الى كتابة العرائض التى يخطون فيها شكواهم وحاجاتهم ، ثم يسقطونها فى المقصورة المحيطة بالضريح !!

وبعض الآخر .. يرسل شكواه وحاجته بالبريد ، ويحرص التحرص كله على لصق طابع التمنية بأعلاها ، ثم يوجه العنوان الى شخص ساكن الضريح مقروناً باللقاب التعظيم والتفخيم اللازمة !!

والأدهى من ذلك .. أن يعنون البعض رسائلهم — أى يكتبون العناوين — الى الله تعالى أو رسوله ﷺ عن طريق ساكن الضريح !!

ونتمالك بعض الأنفاس وتجيل النظر، في المتوسلين والضارعين والخاصعين ، فتري أحدهم يدير ظهره للضريح ويستقبل القبلة رافعا يديه بالدعاء .. فتتوسم فيه الخير فما زال في بعض الناس بقية من سلامة العقيدة .. وتدنو منه لتصفى لما يقول حتى يستقر في نفسك الاطمئنان واذا به يصك، سمعك بما يصدك .. اذ يقول : « اللهم بحق ساكن الضريح أن تفعل كذا وكذا » !!

وتسأل الناس : ما هذا الذي تصنعون ؟ !
وسرعان ما يأتيك الجواب : اننا نضرع الى الله ، ونتوسل اليه بهؤلاء الصالحين .. عسى أن يتقبل منا الدعاء !!
وينبرى لك أحدهم قائلاً : ألم تسمع قول الله تعالى :
« **وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** » ؟ !
فاذا قلت : ليس هكذا يكون التوسل ، وليست هذه هي الوسيلة التي يطلبها الله من عباده ..

فيأتيك الجواب : كيف تريد منا الوقوف أمام الله تعالى وتوجيه الدعاء له مباشرة ، ونحن ننوء بأنقالنا .. اننا مهما فعلنا من حسنات فان ذنوبنا ومعاصينا أكثر .. اننا نقصر في أداء حق الله تعالى بارتكاب المعاصي ، ولهذا نستشفع اليه بهؤلاء الصالحين الأطهار ، عسى أن يتقبل منا الدعاء !!

تماما كما قال أسلافهم من قبل حين طافوا بالكعبة عرايا :
« **لا نطوف في ثياب عصيانا لله فيها** » !!
وتقول : أنتم أشد عصيانا لله تعالى من ابليس ؟ ! أقدر عصى ابليس ربه وتمرد على أمره .. فلما أحس بخطورة موقفه اتجه الى الله تعالى مباشرة بالدعاء فقال : « **رب فأنظرني الى يوم يبعثون** » (١٠) ، ولم يقل بجاء جبريل أو بحق ميكائيل .. ولهذا استجاب الله لدعائه فقال : « **فأنك من المنتظرين** » (١١) .

(١٠) الحجر : ٢٦ : وسورة ص : ٧٩

(١١) الحجر : ٣٧ : وسورة ص : ٨٠

إذا قلت هذا .. فان الجواب سوف يأتيك سريعا : أفصح عن نفسك ، فأنت عدو لأولياء الله مبغض لأهله الصالحين !!

ويهم الجمع بالفتك بك .. ولا ينتقذك من بين أيديهم الا تدخل رجل وقور بقوله : يا أخى ، دع الناس وعقيدتهم فهى بحمد الله سليمة .. انهم لا يسألون الا الله تعالى ، وان اتخذوا هذا السبيل أدبا مع الله واستصغارا لأنفسهم .. ألم تسمع الدعاء : « اللهم ارزقنا ايمانا كايमान العوام » .. دعوا الناس وشأنهم !!

فتفهم على الفور أن الرجل واحد من سدنة الأضرحة يدافع عن منصبه .. ولا تجد أمامك من حيلة الا أن تغادر المسجد آسفا حزينا ، حتى تنجو بنفسك ، واسألك يقول : لا حول ولا قوة الا بالله ..

* * *

● حوار آخر صريح :

ترى الواحد منهم .. عاكفا على الضريح ، لا ئذا به ، متوجها الى ساكنه بالدعاء والتذلل والخشوع .. فتريد ارشاده الى ما يصح عقيدته فتقول : خفف يا أخى من غلوائك .. فان ما تفعله هو الشرك الذى يأباه الله تعالى ، ألم يقل جل شأنه : « وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » (١٢) ؟

ألم يقل جل وعلا : « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء » (١٣) ؟

فيلتفت اليك غاضبا .. ويصيح فى وجهك قائلا : فأين أنت من قوله تعالى : « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١٤) ؟ !

أليس فى هذه الآية الدليل كل الدليل ، على أن الشفاعة حق ، وأن لأولئك الأولياء والصالحين جاها عند الله تعالى ؟

ثم يقول : نحن لا نشرك بالله ، بل نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر إلا الله وحده لا شريك له . . . وأن محمدا ﷺ لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا — فضلا عن أولئك الأولياء والصالحين — ولكن أنا مذنّب ، والصالحون لهم جاه عند الله ، وأنا أطلب من الله بهم ، ولا أطلب منهم !!

فتقول له : لقد كان المشركون — أيضا — يشهدون أن الله تعالى هو الخالق الرازق وحده لا شريك له . . . وأنه لا يرزق إلا هو ، ولا يحيى ولا يميت إلا هو ، ولا يدبر الأمر إلا هو . . . وأن جميع السموات السبع ومن فيهن ، والأرضين ومن فيهن كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره . . .

واقرا ان شئت قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون » (١٥) .

وقوله جل شأنه : « قل إن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله ، قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون » (١٦) .

لقد أقر المشركون بهذا كله ، ولكن أقرارهم لم يدخلهم فى التوحيد الذى دعا اليه الرسول ﷺ ، لأنهم جحدوا توحيد العبادة الذى تسمونه اليوم « الإعتقاد » . . .

لقد كان المشركون يتعبدون ، ويحجون ، ويتصدقون ، ويذكرون الله كثيرا . . . ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله تعالى — مثل الملائكة وعيسى ومريم وغيرهم من الصالحين —

ويقولون : نريد منهم التقرب الى الله ونريد شفاعتهم عنده .. فبعث الله اليهم محمدا ﷺ : ليجدد لهم دين أبيهم ابراهيم عليه السلام ، ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق لله ، لا يصلح منه شيء ، لا لك مقرب ولا لنبي مرسل فخلا عن غيرهما ..

ولقد قاتلهم الرسون ﷺ على هذا الشرك ، ودعاهم الى اخلاص العبادة لله وحده ، وليكون الدعاء كله لله ، والذبح كله لله ، والنذر كله لله ، والاستعانة كلها بالله .. وجميع أنواع العبادة كلها له تعالى ..

فاقرارهم بتوحيد الربوبية لم يخلهم في الاسلام .. وقصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء يريدون شفاعتهم والتقرب الى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم ..

فيقول لك : هؤلاء الآيات — التي ذكرت — نزلت فيمن يعبد الأصنام .. فكيف تجعل الصالحين مثل الأصنام .. أم كيف تجعل الأنبياء أصناما ؟ !

وتقول : لقد كان من الكفار من يدعو الأصنام .. ومنهم من كان يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم : « أولئك الذين يدمون ويتفنون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه » (١٧) . ويدعون عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام .. وقد قال تعالى : « ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ، كنا ياكلن الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر انى يؤفكون . قل اتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضررا ولا نفعا ، والله هو السميع العليم » (١٨) .

ويقول تعالى : « ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء آياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت وليتنا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون » (١٩) .

(١٨) المائدة : ٧٥ ، ٧٦

(١٧) الاسراء : ٥٧

(١٩) سبأ : ٤٠ ، ٤١

ويقول جل شأنه : « واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخفوني وأمى الهين من دون الله ، قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، أن كنت قلتة فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيوب » (٢٠) .

أعرفت بعد هذا .. أن الله تعالى قد كفر من قصد الأصنام ، وكفر أيضا من قصد الصالحين .. كما قاتلهم رسول الله ﷺ ؟

فيقول لك : الكفار يريدون منهم ، وأنا أشهد أن الله تعالى هو النافع الضار المدبر ، لا أريد الا منه ، وأعرف أن الصالحين ليس لهم من الأمر شيء ، ولكنى أقصدهم وأرجو من الله شفاعتهم ..

وتقول له : ان هذا هو نفس قول الكفار .. اقرأ قوله تعالى : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » (٢١) .

وقوله جل شأنه : « ويعبدون من دون الله ما لا ينصرهم ولا يشفعهم ويقولون هؤلاء شفعائنا عند الله » (٢٢) ..

فما الفرق بين ما نقوله الآن ، وبين ما قالوه ونعاه عليهم القرآن ؟

فيقول لك : أنا لا أعبد الا الله ، وهذا الالتجاء اليهم ودعائهم ليس بعبادة ..

ثم يدور بينكما الحوار التالى .. تقول له : أتقر بأن الله افترض عليك اخلاص العبادة له ؟ فيجيب بالايجاب ..

وتقول : لقد قال تعالى : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية ، انه لا يحب المعتدين » (٢٣) .. فهل علمت هذا عبادة لله ؟ .. فيقول : نعم !! ، والدعاء مخ العبادة ..

وتقول : اذا أقررت أنه عبادة ، ثم دعوت الله ليلا ونهارا ، خوفا وطمعا .. ثم دعوت فى تلك الحاجة نبيا أو غيره ، هل أشركت فى عبادة الله غيره ؟ .. فلا يسعه الا اقرارك على ما تقول ..

وتقول : فاذا عملت بقول الله تعالى : « فصل لربك وافهر » (٢٤) ، وأطعت الله ونحرت له .. هل هذا عبادة ؟ .. فيقرك على ما تذهب اليه .. وتقول : فان نحرت لمخلوق ، أو نبي أو ولي ، أو غيرهما .. هل أشركت في هذه العبادة غير الله ؟ .. فيجيب بالاجاب .. وتقول : المشركون الذين نزل فيهم القرآن ، هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك ؟ .. فلا يسعه الا أن يوافقك على ذلك ..

وتريد أن تنتهي الحوار معه بقولك : وهل كانت عبادتهم ايساهم الا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك ؟ .. والا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره تعالى .. وأن الله وحده هو الذي يدبر الأمر ، ولكنهم دعوه والتجأوا اليهم للجاه والشفاعة .. ولكنه يستأنف الحوار قائلاً : أتتكرر شفاعة رسول الله ﷺ وتبرأ منها ؟

فتجيبه : لا أنكرها ولا أتبرأ منها .. بل هو ﷺ الشافع المشفع ، وأرجو شفاعته .. ولكن الشفاعة كلها لله تعالى كما قال جل شأنه : « قل لله الشفاعة جميعا » (٢٥) .. ولا تكون الا من بعد إذن الله كما قال تعالى : « من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه » (٢٦) .. ولا يشفع في أحد الا بعد أن يأذن الله فيه كما قال تعالى : « ولا يشفعون الا لمن ارتضى » (٢٧) .. وهو سبحانه لا يرضى الا التوحيد كما قال تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » (٢٨) .. فاذا كانت الشفاعة كلها لله تعالى ، ولا تكون الا من بعد إذنه ، ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه ، ولا يأذن الله تعالى الا لأهل التوحيد .. تبين لك أن الشفاعة كلها لله .. وأنا أطلبها منه فأقول : اللهم لا تحرمني شفاعته ، اللهم شفعه في ، وأمثال ذلك ..

(٢٥) الزمر : ٤٤

(٢٧) الانبياء : ٢٨

(٢٤) الكوثر : ٢

(٢٦) البقرة : ٢٥٥

(٢٨) آل عمران : ٨٥

فيقول : النبي ﷺ أعطى الشفاعة ، وأنا أطلبها منه مما أعطاه الله ..
وتقول : ان الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا .. فقال :
« فلا تدعوا مع الله أحدا » (٢٩) .. فإذا كنت تدعو الله أن يشفع نبيه
فيك فأطعه في قوله : « فلا تدعوا مع الله أحدا » ، وأيضا فإن الشفاعة
أعطىها غير النبي ﷺ ، فصح أن الملائكة يشفعون ، والأفراد يشفعون ،
والأولياء يشفعون .. أتقول : ان الله أعطاهم الشفاعة فأطلبها منهم ؟ ..
فإن قلت هذا ، رجعت الى التعبد للصالحين التي ذكرها الله في كتابه ،
وان قلت لا ، بطل قولك : أعطاه الله الشفاعة وأنا أطلبها منه مما
أعطاه الله ..

فيقول لك : إذا لا أشرك بالله شيئا ، حاشا وكلا .. ولكن الالتجاء
الى الصالحين ليس بشرك !!

وتقول : اذا كنت تقر أن الله حرم الشرك أعظم من تحريم الزنا ،
وتقر أن الله لا يغفره .. فما هذا الأمر الذي حرمه الله وذكر أنه
لا يغفره ؟

فيقول : الشرك عبادة الأصنام ، ونحن لا نعبد الأصنام !!

وتقول : ما معنى عبادة الأصنام ؟ .. أتظن أنهم يعتقدون أن تلك
الأخشاب والأحجار ترزق وتدبر أمر من دعاها ؟ .. فهذا يكذبه القرآن ..
فيقول : لعله أن يكون من قصد خشبة أو حجرا أو بنية على قبر
أو غيره يدعون ذلك ويذبحون له ، ويقولون انه يقربنا الى الله زلفى ،
ويدفع الله عنا ببركته أو يعطينا ببركته !!

فتقول : صدقت .. وهذا هو فعلكم عند الأحجار والأبنية التي
على القبور وغيرها .. فإن كان مرادك من قولك « ان الشرك عبادة
الأصنام » أن الشرك مخصوص بهذا ، وأن الاعتماد على الصالحين
ودعائهم لا يدخل في ذلك ، فهذا يرد ما ذكره الله في كتابه من كفر
من تعلق على الملائكة أو عيسى عليه السلام أو الصالحين ..

فيعود الى قوله : ألم يقل الله تعالى : « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ؟ ..

فتقول له : هذا هو الحق ، ولكن لا يعبدون ، ونحن لم نذكر الا عبادتهم مع الله وشركهم معه .. والا فالواجب عليك حبهم واتباعهم والاقرار بكرامتهم .. ولا يحجد كرامات الأولياء الا أهل البدع والضلال .. ودين الله وسط بين طرفين ، وهدى بين ضالتين ، وحق بين باطلين ..

واعلم يا أخى : أن التوحيد الذي يأمرنا الله به ، هو افراده وحده بالعبادة .. وأن لا تكون العبادة والطاعة الا لله وحده ، خالصة له ، ولا شريك لأحد معه فيها .. ولا بد أن يكون هذا التوحيد بالقلب واللسان والعمل .. فان اختلف شيء من هذا لم يكن الرجل مسلما ، فان من عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند ، كفرعون وابليس وأمثالهما ، أعاذنا الله من ذلك ..

ولقد وعدنا تعالى .. أنه سيفصل يوم القيامة بين أولئكم الذين اتخذوا الأولياء من دونه ، وبين الذين أفردوه وحده بالعبادة والطاعة .. وسيحكم تعالى فيما كانوا فيه يختلفون فيجزي كل بعمله وعقيدته .. نسأل الله أن يهدينا وإياك الى سواء السبيل (٢٠) ..

* * *

ويصف لنا غنسية الشيخ محمد الغزالي هذه الحالة المفزعة التي تردى المسلمون اليها فيقول : « ومما وقع فيه العوام : الاتجاه الى قبور بعض الصالحين ، يطلبون من أصحابها ما لا يطلب الا من الله عز وجل ..

« لعل سر هذا الشرود .. أن الناس يرون في أنفسهم ضعة تقصر بهم عن مناجاة الله مباشرة .. فهم يذهبون بحاجاتهم الى قوم أزكى حالا ليرفعوا عنهم ما لا يمكنهم رفعه بأنفسهم وألسنتهم !!

(٢٠) عن كتاب « كشف المشبهات في التوحيد » ، تلامذ محمد بن عبد الوهاب . يتصرف كثير ..

« وهذه العلة .. هي سر الانصراف عن الله الحق الى عباده الذين يسمعون ، والذين لا يسمعون .. بل الذين يعقلون والذين لا يعقلون !!

« وكم من علة ظاهرها زيادة توقير الله بانتهاك حرمان الله !! ألا ترى أن المشركين كانوا يطوفون بالكعبة عرايا ، نساء ورجالا ، محتجين بأنه لا ينبغي أن يطوفوا في ثياب عسوا الله فيها !!

« فالتخرج من الاتصال بالله دون وساطة .. كان جريمة الوثنية القديمة التي صور القرآن الكريم اعتذارها عن شركها بقوله : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » (٣١) .

« وهذا الاعتذار نفسه .. هو ما يردده سدنة الجاهلية الحديثة في دفاعهم عن قصاد القبور طلبا للشفاء والفلاح ، والتماسا للنجدة والعون !!

« وبدهي أن لا مكان في الاسلام لوسطاء بين الله وخلقه .. فان كل مسلم مكلف ، أن يقف بين يدي الله مهما كانت حالته ، وهو موثق بأن دعاءه ينتهي الى سمع الرحمن من غير تدخل بشر آخر أيا كان شأنه ..

« والعبادة الأولى في الاسلام — وهي الصلاة المقسمة على أجزاء النهار والليل — قوامها هذه الحقيقة المؤكدة التي لا ريب فيها ..

« فكيف يوجب الله على عباده أن يترددوا على ساحته ، ويسألوه — حتما — الهداية الى الصراط المستقيم ، ويسجدوا بين يديه ضارعين طالبين .. وكيف يعتبر التخلف عن هذه الصلوات كفراً به أو اهداراً لحقه ، ثم يسوغ لأحد من الناس بعد أن يقول : أنا محتاج لوسيط يحمل عني الى الله ما أريد ؟ !

« ان هذا لا تفسير له الا الرغبة في الشرك الخفى أو الجلى !!

« وتسال طالب الوساطة : من تختار يكلم لك الله ؟ .. فلو أنه

اختار من الأحياء رجلاً يتوسم فيه الصلاح ليدعو الله له ، لئلا يهان الخطب
.. بيد أن العجيب قصده إلى الأموات الذين انقطعت بالدنيا صلاتهم ،
وأفضوا إلى ما قدموا من عمل !! ولا شعور لهم بهذا المقاصد الجاهل
الذي جاء .. لم ؟ .. ليطلب منهم أو يستشفع بهم !!
ثم يقول فضيلته : « ان التفكير الاسلامي .. سقط في هذه
الوعدة الشائنة من أمد بعيد ، فدارت حول الولاية والأولياء خرافات
شتى ، وجاعت على الناس أيام ظنوا فيها أن مقاليد الكون أصبحت
بأيدي نفر من هؤلاء الهلكى ، يصرفونها — بدلالهم على الله —
كما يشاءون !!

« وزاد الطين بلة .. أن أولئك الأولياء المقصودين تجاوزت أقدارهم
قوانين الأسباب والمسببات المعروفة .. فاضطربت — تبعاً لذلك — نظرة
المسلمين إلى سنن الله الكونية ، وحسبوا تدين لكل من وازب على
شيء من العبادة !!

« وانتهى أمر هذه الأمة المنكودة .. إلى أن فقدت مكانتها العالية
في دنيا تعتمد على المعرفة الحقة بأسرار الطبيعة وقوانين الحياة ..
بعد أن فقدت أيضاً منزلتها عند الله مذ أشركت معه من لا يملك لنفسه
أو لغيره خيراً ولا نفعاً !!

« أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ،
إنا اعتدنا جهنم للكافرين نزلاً » (٢٢) .

ثم يقول فضيلته : « لماذا يكون من الدين الاعتراف بحق
« أناس ما » فى التوسط بين الله وخلقه ؟ !

« ولماذا يكون من الدين الاعتراف بقدرة هؤلاء على اختراق
نواميس الطبيعة وصنع الخوارق الباهرة ؟ !

« ولماذا يعد من شعب الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ،
أن نقر بحقوق هذه الولايات وطاقتها الواسعة فى تصريف الشؤون
ويعث الشجون ؟ !

« الحق أن هذا كله تخليط سمج .. وأن اللجاجة فيه نزعة جاهلية .. ولن تعدم دعيا في الاسلام يخاصم عن هذه الأوهام ، ويحاول تعكير التوحيد الخالص - وهو روح الاسلام ومادته - بلغظ لا عقل فيه ولا اخلاص ، زاعما أن اتخاذ الوسطاء لا ينافي تعاليم الدين .. » ولا غرابة .. فان النصارى يرون التثليث توحيدا !! .. « وكان الانسان أكثر شيء جدلا » (٣٣) ..

تحدث هذه الأمور وغيرها .. فيراها المسلم وغير المسلم .. ويسجلها المستشرقون ليرموا بها المسلمين جميعا ، ويحملوا الاسلام أوزارها .. فلا فرق عندهم بين صوفى وغير صوفى ، فالكل عندهم مسلمون .. والهدف الذى يهدفون إليه هو تشويه الاسلام والكيد للمسلمين .. لذا نراهم يرمون المسلمين جميعا بالحماسة والغباء وعبادة الأساطير !!

واقعد أساعت هذه الأفكار الدخيلة على الاسلام اليه بأكثر مما أساء أعداؤه !!

يقول المستشرق الانجليزى « لين » : « يزور المصريون الأضرحة معتقدين أنهم سينزلون عليهم البركات ، واما بقصد التماس البرء من مرض ، أو طلب النسل .. ويعتبر المسلمون أولياءهم المتوفين شفعاء لهم عند الله ، ويقدمون لهم النذور » !!

ويقول : « وقد جرت العادة .. أن يقوم المسلمون كما كان يفعل اليهود بتجديد بناء قبور أوليائهم وتبييضها وزخرفتها ، وتغطية التركيبة أو التابوت أحيانا بغطاء جديد .. وأكثر هؤلاء يفعلون ذلك رياء كما كان يفعل اليهود » !! (٣٤)

ويقول جولدزيهر : « بقى كثير من عناصر الديانات السابقة

(٣٣) ليس من السلام ، مرجع سابق ، ص ١٦٤ - ١٦٦ ، والآية من سورة الكهف : ٥٤

(٣٤) المصريون المحدثون ، للمستشرق لين ، ص ١٦٧ وما بعدها ..

للإسلام ، واستأنفت حياتها في المظاهر الغديدة الخاصة بتقديس الأولياء .. وفي الحق ليس من شيء أشد خروجاً على السنة القديمة من هذا التقديس المبتدع المفسد لجوهر الإسلام والماسخ لحقيقته ، وإن السنن الصادق الحريص على اتباع السنة لابد أن يعده من قبيل الشرك الذي يستثير كراهيته واشمئزازه !!

وعندما يتحدث عن تقديس العامة للأولياء ، نراه يقول : « وأضرحة الأولياء والأماكن المقدسة الأخرى .. هي موضع عبادتهم التي يرتبط بها أحياناً ما يظهره العامة من تقديس وثني غليظ لبعض الآثار والمخلفات ، بل إن العامة تخص الأضرحة ذاتها بما لا يقل عن العبادة المحضة » !! ويتحدث عن الولي المحلي ، فيقول : « ويخشى الواحد منهم أن يحنث في يمين حلف فيه باسم الولي أكثر مما يحمر خجلاً عندما يحلف بالله باطلاً » !! (٣٥) .

ويقول رونلدسن : « بالرغم من التوحيد المصرح به في القرآن .. فان الأمم الإسلامية لا زالت تحتفظ بكثير من العادات الوثنية .. فان من أهم الصفات في الحياة الدينية للعوام في جميع الأمم الإسلامية هو تقديسهم لقبور الصالحين .. وفي هاتين القضيتين سائر العلماء المحدثون اندفاع انراى العام ، وقد أصبح لكل قوم أئمة محليون يزورون قبورهم وآثارهم ، فيفرح ذلك الامام ويشفع لهم وينجيهم من الفقر والمرض » !! (٣٦)

ويقول جوتييه : « وتقديس الأولياء الى درجة قد تقرب من العبادة الذي نراه انتشر بعد في جميع الأقطار الإسلامية ، يشير في الحقيقة الى رد فعل من الأمم والشعوب التي فتحتها الإسلام ضد العقلية الإسلامية التي لا تسلم بوسطاء أو شفعاء لدى الله ، انه لم يترصد اجلال الأولياء والرسول الى ما يقرب من العبادة — أى ضد هذا التغيير الخطير في العقلية الإسلامية الأولى — الا الطائفة الوهابية » !! (٣٧)

(٣٥) العقيدة والشرعية ، لجولديهر ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٤ .

(٣٦) عقيدة الشيعة ، لرونلدسن ، ص ٢٦٦ .

(٣٧) المدخل : لجوتييه : ص ١٥٨ .

أرأيت كيف أساءت هذه الأفكار الدخيلة على الاسلام اليه بأكثر
مما يسىء اليه أعداؤه ؟ !
فما الذى قاد الناس الى هذه الأفكار المنكرة ؟ ؟
ان الله تعالى يقول : « وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله
أحدًا » (٢٨) .

ويحذرنا الرسول ﷺ من اقامة المساجد فوق القبور ، وينهى عن
ذلك . ويلعن فاعله . .
ولكن : الناس أعرضوا عن أمر ربهم ، وعصوا سنة نبيهم . .
فأصبح هذا حالهم !!
ولو سلمنا — جدلا — للصوفية أن اقامة هذه المساجد فوق القبور
ليس مظهرًا من مظاهر الشرك — بالرغم من تحذير الرسول ﷺ ونهيه
عنه ولعن فاعله — فهل نستطيع التسليم بأن هذا الأمر ليس من
الأبواب التى تؤدى الى الشرك . . والعياذ بالله ؟ !

لم تكن عقيدة « الوسيلة » — بمفهومها لدى الصوفية — إحدى
العقائد التى قام عليها الاسلام ، فكيف أدخلت هذه العقيدة على
الفكر الاسلامي ؟ !

يخبرنا المرحوم الدكتور محمد البهى عن أصل هذه العقيدة
وادخالها على الفكر الاسلامي فيقول :
« نشأت عقيدة « الوسيلة » فى الفكر الاسلامي من اعتقاد
الشيعة بعضمة الامام ، والقول بالتقية والوسيلة . .

« والوسيلة — عند الشيعة — هى اتخاذ الامام واسطة عن طريق
تلقى تعاليمه واتباع رأيه فى الوصول الى الآخرة . . وهى القربى من
الله سبحانه تعالى . .

« وقد جاءت الوسيلة — على هذا النحو — الى الجماعة الاسلامية
عن طريق مدرسة الأفلاطونية الحديثة . . فقد حددت هذه المدرسة

العالم الرفيع فى الوجود الرفيع فى القيمة — من أجل كونه أصلاً لما عداه ، ومشرفاً ومديراً لمغيره وراعياً لتوجيهه — بثلاثة من الموجودات هى : الأول ، والعقل ، والنفس الكلية ..

« ولم تقتصر هذه العقيدة على غلاة الشيعة .. لأننا نراها توجد عند الصوفية المتأخرة .. ويلعب الدور الأول فيها : « المريد » — أو « صاحب الفراسة » — كما توجد عند عوام الفرق الأخرى تقليداً وإلفاً وعادة .. ويمثل هذا الدور فى نظرهم « الأولياء » — وهم أصحاب الكرامات ..

« والاسلام — فى تحديده للأولياء — لم يعرف ذلك التحديد العرفى .. فالولى ثم يزل فى القرآن الكريم هو المتبع لكتاب الله ورسالاته ..

« وأولياء الله — الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون — هم أصحاب الايمان القوى .. بحيث لا يزعجهم فى حياتهم نقص فى الأموال والأنفس والثمرات .. ولا ترعجهم هزيمة ولا طغيان صاحب سلطان ..

« لهذا يحارب الفكر الاسلامى الصوفية المتأخرة لقولها بالاتحاد والخلول .. ويرفع التكليف بناء على فهمها الخاص فى القرآن من أن له ظاهراً وباطناً ، كما يحارب وجوب شد الرحال الى قبور الصالحين أو الأولياء واتخاذهم وسائط بين الله تعالى وعباده » (٣٩) .

* * *

● ما هو التوسل ، وما هى الوسيلة ؟

لقد غاب المعنى الشرعى واللغوى للتوسل — وهو التقرب الى الله تعالى بالعمل الصالح — عن أولئك الذين اتخذوا الأولياء والصالحين وسطاء وشفعاء .. يتجهون بهم الى الله تعالى ، وفى ظنهم أنهم بفعلهم هذا يمثلون لتوجيه القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وابتغوا اليه

(٣٩) الفكر السلامى فى تطوره ، للدكتور محمد البهى ، نشر مكتبة وهبة ، الطبعة الاولى : ص ٧٧ ، ٧٨ بتصرف يسير ..

الوسيلة « .. وظنوا أن الوسيلة المطلوبة هي في التوجه الى المقبورين بالدعاء والاستغاثة وطلب العون والنصرة !!

وسبق أن قلنا : ان التوسل الى الله تعالى يكون بعمل صالح قام به الداعي ، وهو نوع من التقرب اليه تعالى .. وهو أمر جائز ومشروع ومرغوب فيه .. بل منه الواجب الذي لا يتم الايمان الا به ..

يقول الله تعالى في وصف أولى الألباب : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار » ربنا انك من تدخل النار فقد أضرته ، وما للظالمين من أنصار » ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » (٤٠) .

أي هم الذين يذكرون الله قياما في صلاتهم .. وقعودا في مجالسهم .. ومضطجعين على جنوبهم .. فلا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم . بالسنتهم ، وسرائرهم ، وضمايرهم .. في الصلاة ، وفي غير الصلاة ، وفي قراءة القرآن ..

هم الذين يتفكرون في الأمور الدالة على عظمة الخالق ، ويعتبرون بصنعة صانع ذلك المخلوق ، وأنه ليس كمثله شيء .. قائلين : انك يارب لم تخلق هذا المخلوق عبثاً ولا لعباً ، وانما خلقتك لأمر عظيم .. ننزهك يارب عن أن تفعل شيئاً عبثاً .. فقنا ياربنا من عذاب الجحيم ، فان من أدخلته النار من عبادك فقد أهنته غاية الاهانة ، وليس للظالمين من ناصر ينصرهم أو ينقذهم من عذاب الله ..

ويقولون : ربنا اننا سمعنا داعياً يدعو الى الايمان — وهو الرسول ﷺ أو القرآن — فصدقنا بذلك ياربنا ، فاستر عنا خطايانا ، ولا تفضحنا بها يوم القيامة ، وامح بفضلك ورحمتك سيئات أعمالنا ، واقبضنا اليك ، واحشرنا في زمرة الأبرار الذين رضيت عنهم ..

ويقول جل شأنه في وصف المؤمنين « انه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين » (٤١)
 أى أن أهل الايمان يقولون فى الدنيا : ربنا آمنا بك وبرسوك ،
 فاغفر لنا ذنوبنا ، وارحمنا ولا تعذبنا بعذابك ..
 والمقصود .. أن هؤلاء وهؤلاء .. قد قدموا التوسل بالعمل
 الصالح — وهو الايمان — على طلب المغفرة والرحمة .. رجاء الاجابة ..
 وفى الحديث انشريف الذى يرويه عبد الله بن عمر — رضى الله
 عنهما — ما يدل على هذا المعنى .. حيث يقول : « سمعت رسول الله
 ﷺ يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت الى
 غار » (٤٢) فدخلوه .. فأتحدت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ،
 فقالوا : انه لا ينجيكم من هذه الصخرة الا أن تدعوا الله تعالى
 بمصالح أعمالكم ..

« قال رجل منهم . اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران .. وكنت
 لا أغبق (٤٣) قبلهما أهلا ولا مالا .. فنأى بى طلب الشجر (٤٤) يوما فلم
 أرح عليهما حتى ناما .. فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت
 أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا .. فلبثت والقدرح على يدي
 أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون (٤٥) عند قدمي ..
 فاستيقظا فشربا غبوقهما .. اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك
 ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة .. فانفرجت شيئا لا يستطيعون
 الخروج منه ..

« وقال الآخر : اللهم انه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس لى
 — وفى رواية : « كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء » — فأردتها
 على نفسها فامتنعت منى ، حتى ألت بها سنة من السنين (٤٦) فجاءتنى

-
- (٤١) المؤمنون : ١٠٩ . (٤٢) أى : لجلوا اثنى كهف قى الجبل .
 (٤٣) الغبوق : شراب العشى ، وانصبوح شراب الصبح ..
 (٤٤) أى : بعد به طلب الشجر الذى ترعى فيه الماشية ..
 (٤٥) أى : يصيحون من الجوع .
 (٤٦) أى : أصابها سنة مقحطة مجذبة لا تنبت فيها الأرض .

فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بيني وبين نفسي ، ففعلت . .
حتى إذا قدرت عليها — وفي رواية : « فلما قعدت بين رجليها » —
قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ^(٤٧) . . فانصرفت عنها وهي
أحب الناس الى وتركت الذهب الذي أعطيتها . . اللهم ان كنت فعلت
ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه . . فانفرجت الصخرة غير أنهم
لا يستطيعون الخروج منها . .

« وقال الثالث : اللهم اني استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير
رجل واحد ترك الذي له وذهب . . فثمرت أجره ^(٤٨) حتى كثرت منه
الأموال ، فجاءني بعد حين وقال : يا عبد الله ، أد الى أجرى . فقلت له :
كل ما ترى من أجرك من الابل والبقر والغنم والرقيق . فقال :
يا عبد الله ، لا تستهزئ بي . . فقلت : لا أستهزئ بك ، فأخذه كله
فاستاقه فلم يترك منه شيئاً . . اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك
فافرج عنا ما نحن فيه . . فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون » ^(٤٩) .

هؤلاء النفر الثلاثة . . لم يتوسلوا الى الله تعالى بنبي أو ولي ،
ولم يستشفعوا بميت أو حي . . انما توسلوا بصالح أعمالهم . .
والرسول ﷺ . . لم يقص علينا نبأ أولئك النفر لنتسامر بحديثهم
ونسلي أنفسنا برواية سيرتهم . . انما أراد تعليمنا أن التوسل الى
الله تعالى لا يكون الا بالعمل الصالح .

والصحابية رضوان الله عليهم . . فهموا الدرس ووعوه تماماً . .
فلم يتوسلوا الى الله تعالى الا بالأعمال الصالحة . . فهل نفهم نحن
أيضاً الدرس ونعيه ؟ ؟

● كما يجوز أن يكون التوسل بطلب الدعاء من رجل صالح يدغوله
. . وهو نوع من الاستشفاع بأحد الأحياء فيما يطلبه العبد من ربه . .
وهو جائز اتفاقاً . .

(٤٧) كناية من فض البكارة ، وحقه هو الترويج المشروع .

(٤٨) أى : نماه له بالاتجار فيه .

(٤٩) الحديث متفق عليه . .

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه — فيما رواه أنس بن مالك — يستسقى بالعباس بن عبد المطلب — رضى الله عنه — اذا قحطوا ..
ويقول : « اللهم انا كنا نتوسل اليك بنبينا ﷺ ، فتسقيننا .. واننا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا » ..
والعباس رضى الله عنه قائم بينهم يتوسل معهم .. فيسقيهم الله ..

ويروى : أنه بعد أن فرغ عمر رضى الله عنه قام العباس وقال :
« اللهم انه لم ينزل بلاء من السماء الا بذنب ، ولم يكشف الا بتوبة ..
قد توجه بى القوم اليك لى من نبيك ﷺ ، وهذه أيدينا اليك بالذنوب ،
ونواصينا بالتوبة ، وأنت الراعى لا تهمل الضالة ، ولا تدع الكسير
بذاز مضية ، فقد خرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الأصوات
بالشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى .. اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن
يقنطوا فيهلكوا ، فإنه لا يباس من روح الله الا القوم الكافرون » ..
قال : فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال »

والمقصود : استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح ، وأهل
بيت النبوة — ماداموا أحياء ويدعون مع الداعين — ولو كان التوسل
بالموتى جائزا ، لما ترك عمر رضى الله عنه التوسل بالرسول ﷺ
بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ، فى حين أنه كان يتوسل به عندما كان
حيا بينهم .. فلماذا يدع عمر قبر الرسول ويلجأ الى العباس متوسلا به
اذا كان التوسل بالموتى جائزا ؟ !

ولا شك أن رسول الله ﷺ .. أعلى مقاما وأرفع منزلة من جميع
الأنبياء والأولياء والصالحين .. فاذا جاز لعمر رضى الله عنه ترك الدعاء
عند قبره ﷺ والتوسل به ، فان ترك الدعاء والتوسل بغيره من الأنبياء
والصالحين أولى ..

ويروى أن معاوية بن أبى سفيان .. خرج يوما يستسقى ، فلما
جلس على المنبر قال : أين يزيد بن الأسود الجرشي ؟ .. فقام يزيد
ودعاه معاوية فأجلسه أمامه ، ثم قال : « اللهم انا نستشفع اليك بخيرنا

وأفضلنا يزيد بن الأسود .. يائز يد ، ارفع يديك « .. فرفع يزيد يديه ودعا الله تعالى .. فثارت في الغرب سحابة مثل القوس ، وهب لها ريح فسقوا حتى كادوا لا يبلغون منازلهم !!
فلماذا لم يتوسل معاوية بالرسول ﷺ أو بأبي بكر ، أو بعمر ، أو بعثمان ، أو بعلی رضى الله عنهم اذا كان التوسل بالموتى جائزا ؟
في استسقاء عمر .. كان العباس بن عبد المطلب حيا ، وكان يستسقى معهم ..

وكان يزيد بن الأسود حيا حين استسقى به معاوية ، وكان يستسقى معهم ..

لقد كان التوسل الذى جرى عليه السلف الصالح .. أن يدعو المتوسل به ربه ويدعون معه .. فهو من هذه الناحية شفيع لهم ، وسائل لا مسئول .. اذ المسئول والمقصود هو الله تعالى وحده ..
فالتوسل اذن .. يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين ..
الأول : هو أصل الايمان والاسلام — وهو التوسل الى الله تعالى بالايمان بالرسول ﷺ وبطاعته ، والثانى : هو التوسل بدعاء الرسول ﷺ وشفاعته .. وهما جائزان باجماع المسلمين ..

● أما المعنى الثالث للتوسل — الذى جرى عليه الناس فى الأزمنة المتأخرة — وهو التوسل الى الله تعالى بالاقسام عليه بأحد من خلقه .. فهو ممنوع عند الجمهور .. لأنه لم يقع من الصحابة رضوان الله عليهم .. لا فى حياة الرسول ﷺ ، ولا بعد موته .. ولم يثبت فى دعاء من الأدعية الصحيحة ..

يقول ابن تيمية : « .. ويراد بالتوسل معنى ثالث لم ترد به سنة ، وهو الاقسام على الله تعالى بذات الرسول ﷺ والسؤال بذاته .. فهذا هو الذى لم تكن الصحابة تفعله لا فى الاستسقاء ولا فى غيره .. لا فى حياته — ﷺ — ولا بعد مماته .. لا عند قبره ولا غير قبره .. ولا يعرف هذا فى شيء من الأدعية المشهورة بينهم » (٥٠) ..

(٥٠) قاعدة جلية فى التوسل والوسيلة ، لابن تيمية : ط المنار ،

فهذا الاقسام على الله تعالى بذات الرسول ﷺ .. أو بغيره من المخلوقات ، لا يجوز شرعا لقول الرسول ﷺ : « ألا ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفا فليحلف بالله . أو ليصمت » (١) .. فإذا كان هذا في القسم بغير الله على أحد من المخلوقين ، فكيف بالقسم على الله تعالى بأحد مخلوقاته ؟ !

هل يتفق هذا مع الأدب مع الله سبحانه حيث يؤكد القسم طلبه بالقسم ؟ !

وهل يتناسب مع ما ينبغى من الخضوع التام لله جل شأنه ، والتذلل والافتقار له فى كل حين .. فضلا عن حال الرجاء ؟ !

● ويقول الدكتور يوسف القرضاوى (٢) : « من الشرك الأكبر نوع خفى .. يخفى على كثير من الناس .. ومنه دعاء الموتى والمقبورين من أصحاب الأضرحة والمقامات ، والاستعانة بهم وطلب قضاء الحوائج منهم من شفاء المرضى ، وتفريج الكربات ، وإغاثة الملهوف ، والنصر على العدو — مما لا يقدر عليه إلا الله — واعتقاداتهم بأنهم يضرون وينفعون .. وهذا أصل الشرك العام كما قال ابن القيم .. »
« وسبب خفاء هذا الشرك أمران ، الأمر الأول : أن الناس لا يسمون هذا الدعاء والاستعانة والاستغاثة بأصحاب القبور عبادة ، ويظنون أن العبادة إنما تنحصر فى الركوع والسجود والصلاة والصيام ونحوها .

« والأمر الثانى : أنهم يقولون : نحن لا نعتقد أن هؤلاء الأموات الذين ندعوهم ونستغيث بهم آلهة أو أرباب لنا .. بل نعتقد أنهم مخلوقون مثلنا ، ولهم وسائل بيننا وبين الله وشفعاء لنا عنده .. »
« وهذا من جهلهم بالله جل جلاله .. فقد حسبوه مثل المالك الجبارين والاحتام المستبدين .. لا يستطيع الوصول اليهم الا بوسطاء وشفعاء .. وهو نفس الهمم الذى سقط فيه المشركون قديما حين قالوا

(١) رواه البخارى ..

(٢) فى كتابه : « حقيقة التوحيد » ، مرجع سابق ، ص ١٠ — ٤٢

عن آلهتهم وأصنامهم : « ما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زلفى » (٥٣) .
 « يقول تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم .
 ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (٥٤) .
 « ولم يعتقدوا يوما أن آلهتهم وأصنامهم تذاق أو ترزق ، أو تحيي
 أو تميت . . كما قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض
 ليقولن خلقهن العزيز العليم » (٥٥) .

« وقوله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك
 السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن
 يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون » (٥٦) .

« ومع هذا الاعتقاد فى الله تعالى أنه جالط السموات والأرض ،
 وأنه الرزاق المدبر ، المحيى المميت . . والاعتقاد فى الأصنام أنها مجرد
 وسائط وشفعاء لهم عند الله . . مع هذا كله رماهم القرآن بالشرك
 وسماهم المشركين ، وأمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويقولوا :
 « لا إله الا الله » . . فمن قالها فقد عصم دمه وماله الا بحق الاسلام . .
 « ان الله تعالى غنى عن الوسائط والشفعاء . . وهو أقرب الى
 عبده من جبل الوريد ، كما قال تعالى : « واذا سألك عبادى عني فاني
 قريب » (٥٧) .

« وقال : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » (٥٨) .

« وبابه تعالى مفتوح لكل من أراد الدخول . . ليس عليه حاجب
 ولا بواب » ا هـ .

* * *

غير أن البعض . . يتعللون لجواز هذا النوع من التوسل بحديث
 عثمان بن حنيف — رضى الله عنه — الذى أخرجه أحمد والنسائي

(٥٤) يونس : ١٨

(٥٦) يونس : ٣١

(٥٨) غافر : ٦٠

(٥٣) الزمر : ٣

(٥٥) الزخرف : ٩

(٥٧) البقرة : ١٨٦

وابن ماجه : « أن رجلا خريرا أتى النبي ﷺ فقال : ادع الله أن يعافيني .. فقال ﷺ : « ان شئت دعوت ، وان شئت ضبرت فهو خير لك » .. قال : فادعه .. فأمره ﷺ أن يتوضأ فيحسن التوضوء ، ثم يصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد : انى قد توجهت بك الى ربى فى حاجتى هذه لتتقضى ، اللهم فشفعه فى » .. وزاد الحاكم : « فدعا بهذا الدعاء فقام وقد أبصر » ..

لهذا أفتى العز بن عبد السلام بمنعه فى غير النبي ﷺ ، ويعلق عليه الشوكانى فى « تحفة الذاكرين » بقوله : « الحديث صحيح ، وصححه أيضا ابن خزيمة ، وفيه دليل على جواز التوسل برسول الله ﷺ الى الله عز وجل ، مع اعتقاد أن الفاعل هو الله تعالى ، وأنه المعطى المانع .. ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .. فقوله فى الحديث : « أسألك وأتوجه اليك بنبيك ... الخ » .. سؤال بالذات وقسم .. » ..

هذا ما يقوله الشوكانى .. ولكن ابن تيمية وغيره من الحنابلة — بمنعونه مطلقاً .. ويقولون : ان « الباء » فى قوله : « أتوجه اليك بنبيك » للسببية لا للقسم .. والمعنى : أسألك وأتوجه اليك بسبب محمد ﷺ .. فهو من التوسل بمعنى الشفاعة ..

ونضيف : ان الواقعة انما حدثت فى حياة الرسول ﷺ .. وهو الذى أمره بهذا الدعاء .. ولم تحدث بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ، فهو من قبيل الاستشفاع به ﷺ ..

ويقول فضيلة الشيخ أمين محمود خطاب — رحمه الله : « التوسل المشروع بالاتفاق هو التوسل بالعمل الصالح ، وبالعير على أنه شفيع ، وسائل لا مستؤل .. بل المستؤل هو الله تعالى لأنه هو الضرر النافع .. المعطى المانع .. »

« وأما ما يقع من العوام وأشباههم مخالفا لذلك فغير مشروع .. ترى أحدهم اذا نزل به أمر خطير ، ترك دعاء الله تعالى ودعا غيره .. »

فينادى بعض الأولياء كالسيد والدسوقي والسنييدة زينب والشافعي والرفاعي والبيومي ... الخ !!

« ومنه قول بعض العامة : « العارف لا يعرف والشكوى لأهل البصيرة عيب » !!

« وقولهم : « سقت فلانا عليك يارب » !! ، و « توسلت إليك بجاه الولي فلان أو بمقامه » !!

« فهذا عمل مذموم يجب البعد عنه ، وهو لا يبلغ حد الكفر ..

« أما إذا كان المتوسل يعتقد أنه لا يحصل المطلوب إلا به ، ولا يجيب الله دعاء العبد إلا إذا طلب ذلك من المتوسل بهم : كان كفرا والعياذ بالله ..

« قال الشوكاني في « الدر النضيد » : « فان قلت ان هؤلاء القبوريين يعتقدون أن الله تعالى هو الضار النافع ، والخير والشر بيده ، وأنهم ان استغاثوا بالأموات قصدوا انجاز ما يطلبونه من الله .. قلت : وهكذا كانت الجاهلية ، فانهم كانوا يعلمون أن الله هو الضار النافع ، وانما عبدوا أصنامهم لتقربهم الى الله زلفى .. ومن زعم أنه لم يقع منه الا مجرد التوسل ، وهو يعتقد من تعظيم ذلك الميت ما لا يجوز اعتقاده في أحد من المخلوقين ، ويتقرب الى الأموات بالذبائح والندوز ، ويناديهم مستغيثا بهم عند الحاجة ، فهذا كاذب في دعواه أنه متوسل فقط » ا هـ .

« وأما حديث : « توسلوا بجاهي فان جاهي عند الله عظيم » .. فقد تعرض له ابن تيمية بروايات أخرى قال : « وروى بعض الجهال عن النبي ﷺ أنه قال : « اذا سألتكم الله فأسلوه بجاهي فان جاهي عند الله عظيم » .. وهذا الحديث كذب ليس في شيء من كتب المسلمين التي يعتمد عليها أهل الحديث .. مع أن جاهه ﷺ عند الله تعالى أعظم من جاء جميع الأنبياء والمرسلين » ..

وقال : « وقد تقدم أن ما يذكره بعض العامة من قوله ﷺ :

« إذا كانت لكم حاجة فاسألوا الله بجاهي » .. حديث باطل لم يروه أحد من أهل العلم ، ولا هو في شيء من كتب الحديث ..
وقال : « وأما ما يروى عن النبي ﷺ : « إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور ، فاستعينوا بأهل القبور » .. فهو حديث كذب مفترى على النبي ﷺ باجماع العارفين بحديثه ، ولم يروه أحد من العلماء ، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة » (٥٩) .



● ويقول البعض : صحيح أنه لم يثبت في السنة ما يدل على استحباب التوسل بذوات الأنبياء والصالحين .. ولكن ما المانع منه إذا فعلناه على طريق الاباحة ، لأنه لم يأت نهى عنه ؟ ..
ويرد فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني على هذه الشبهة قائلا :

« هذه شبهة ظالما سمعناها ممن يريد أن يتخذ موقفا وسطا بين الفريقين لكي يرضى كلا منهما ، وينجو من حملاتهما عليه .. والجواب : يجب أن لا ننسى في هذا المقام معنى الوسيلة .. اذ هي التي يتوصل بها الى نحصيل المقصود ..

« ولا يخفى أن الذي يراد التوصل اليه ، اما أن يكون دينيا ، أو دنيويا ..

« وعلى الأول ، لا يمكن معرفة الوسيلة التي توصل الى الأمر الديني الا من طريق شرعي ، فلو ادعى رجل أن توسله الى الله تعالى بآية من آياته الكونية العظيمة كالليل والنهار — مثلا — سبب لاستجابة الدعاء .. لرد عليه ذلك الا أن يأتي بدليل ..

« ولا يمكن أن يقال حينئذ باباحة هذا التوسل ، لأنه كلام ينقض بعضه بعضا .. اذ أنك تسميه توسلا ، وهذا لم يثبت شرعا ، وليس له طريق آخر في اثباته ..

« وهذا بخلاف القسم الثانى من القسمين المذكورين فهو الدنيوى ، فان أسبابه يمكن أن تعرف بالعقل أو بالعلم أو بالتجربة ونحو ذلك .. مثل الرجل يتاجر ببيع الخمر ، فهذا سبب معروف للحصول على المال ، فهو وسيلة لتحقيق المقصود وهو المال .. ولكن هذه الوسيلة نهى الله عنها ، فلا يجوز اتباعها بخلاف ما لو تاجر بسبب لم يحرمه الله عز وجل ، فهو مباح .. »

« أما السبب المدعى أنه يقرب الى الله ، وأنه أرجى فى قبول الدعاء ، فهذا سبب لا يعرف الا بطريق الشرع ، فحين يقال : بأن الشرع لم يرد بذلك ، لم تجز تسميته وسيلة حتى يمكن أن يقال انه مباح التوسل به .. »

« وشىء ثان .. وهو أن التوسل — الذى سلمنا بعدم وروده — قد جاء فى الشرع ما يعنى عنه (٦٠) .. »

« لما الذى يحمل المسلم على اختيار هذا التوسل الذى لم يرد ، والاعراض عن التوسل الذى ورد ؟ .. وقد اتفق العلماء على أن البدعة اذا صدمت سنة فهي بدعة ضلالة اتفاقا .. وهذا التوسل من هذا القبيل ، فلم يجز التوسل به ، ولو على طريق الاباحة دون الاستحباب .. » وأمر ثالث .. وهو أن التوسل بالخوات ، يشبه توسل الناس ببعض المقربين الى الملوك والحكام ، والله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء باعتراف المتوسلين بذلك ، فاذا توسل المسلم اليه تعالى بالأشخاص ، فقد شبهه عملا بأولئك الملوك والحكام .. وهذا غير جائز « (٦١) . »

فالتوسل بغير أسماء الله تعالى وصفاته ، أو بغير العمل الصالح الذى يقوم به المتوسل ، أو التوسل بغير دعاء رجل صالح يدعو له .. غير جائز ولا مشروع ، لأنه لم يرد فيه دليل فتقوم به الحجة ..

(٦٠) وهو التوسل باسم من أسماء الله تعالى ، أو بصفة من صفاته ، والتوسل بعمل صالح قام به الداعى ، أو بدعاء رجل صالح يدعو للمتوسل .

(٦١) انظر : التوسل : « أنواعه وأحكامه » ، للشيخ ناصر الدين الألبانى ، ط بيروت ، ١٣٩٧ هـ ، ص ١٣٦ وما بعدها .

وقد أنكره العلماء المحققون في العصور الإسلامية المتعاقبة .. وان كان
الامام أحمد يجيز التوسل بالرسول ﷺ وحده فقط ، كما يجيز الشوكاني
التوسل به وبغيره من الأنبياء والصالحين .. فان أبا حنيفة يمنع ذلك ..
فقد جاء في « الدر المختار » (٦٢) ما نصه : عن أبي حنيفة : لا ينبغي
لأحد أن يدعو الله الا به ، والدعاء المأذون فيه ، المأمور به ما استفيد
من قوله تعالى : « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها » (٦٣) .

ويقول الزبيدي في « شرح الاحياء » (٦٤) : « كره أبو حنيفة
وصحابه أن يقول الرجل : أسألك بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك ،
أو بحق البيت الحرام والمشعر الحرام ، ونحو ذلك .. اذ ليس لأحد
على الله حق .. وكذلك كره أبو حنيفة ومحمد أن يقول الداعي : اللهم
انى أسألك بمعقد العز من عرشك ، وأجازه أبو يوسف لما بلغه
الأثر فيه » .

ويقول بشر بن الوليد : حدثنا أبو يوسف قال أبو حنيفة :
« لا ينبغي لأحد أن يدعو الله الا به ، وأكره أن يقول : بمعقد العز
من عرشك ، أو بحق خلقك » ، وهو قول أبي يوسف .. قال أبو يوسف :
« معقد العز من عرشه هو الله ، فلا أكره هذا ، وأكره أن يقول :
بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام والمشعر
الحرام » ..

ويقول الفدوى : « المسألة بخلقه لا تجوز ، لأنه لا حق للخلق
على الخالق ، فلا تجوز وفقاً » .

● وسئل صاحب « الفتاوى الأمينية » عن حكم نداء الرسول
ﷺ والأولياء والمشايخ .. كأن يقول الانسان : يا رسول الله أنت
المعتمد ، ياسيد يابدوى مدد ، نظرة ياست .. ونحو ذلك ..

(٦٢) الدر المختار ج ٢ ، ص ٦٣٠ (٦٣) الأعراف : ١٨٠

(٦٤) شرح الاحياء ، ج ٢ ص ٢٨٥

فأجاب رحمه الله : « ان من نادى غير الله بالصيغة المذكورة في السؤال ونحوها .. ان اعتقد بأن غير الله تعالى يضرب وينفع ، فهو شرك »
« وان اعتقد التبرك بهم فقط .. فهو حرام وليس بشرك .. »

« قال الله تعالى للنبي ﷺ : « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا » (٦٥)

« كما قال : « قل انى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا » (٦٦) .

« واذا كان النبي ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا ..
فغيره من النبيين والأولياء من باب أولى .. فما مطلوب سؤال الله تعالى
في كل الأحوال .. »

« قال تعالى : « واذا سألك عبادة عنى فانى قريب ، أجيب دعوة
الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلمهم يرشدون » (٦٧) .

« وفي حديث ابن عباس — رضى الله عنهما — أن النبي ﷺ قال :
« اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » (٦٨) .

ثم يقول فضيلته : « ويجوز سؤال الصالحين الأحياء فيما يقدرون
عليه كطلب الدعاء منهم .. لا ما لا يقدرون عليه كشفاء المريض وطلب
الرزق ونحو ذلك .. فان الله تعالى يقول : « وان يمسسك الله بضر
فلا كاشف له الا هو ، وان يرنك بخير فلا راد لفضله » (٦٩) .

« ويقول تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون
كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم
الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، ان عذاب ربك
كان محذورا » (٧٠) له .

(٦٦) الجن : ٢١

(٦٨) أخرجه احمد والترمذى .

(٦٥) الأعراف : ١٨٨

(٦٧) البقرة : ١٨٦

(٦٩) يونس : ١٠٧

(٧٠) الفتاوى الأمينية ، للشيخ أمين محمود خطاب السبكي ،

ج ١ ، ص ٢٢ ، ٢٣ — والآية : من سورة الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

● ويقول فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهري : « ومن الخداع من تراهم يقصدون الى تلك الأماكن ويذكرون لك أننا لا نقول « مدد » ، ولا نقبل الأعتاب ، ولا نتمسح ، ولا نفعل شيئا من البدع التي ذكرتها .. »

« ونقول له : « يا أخى ، لقد علق الله الخير لهذه الأمة على أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .. قال رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا » .. فأين أنت من المبتدعين بالمعروف ونهيهم عن المنكر ؟ »

« بل انا نراك مقرا لما يفعله هؤلاء بركونك اليهم وسلامك عليهم وابتسامك لهم .. والله يقول : « ولا تتركوا الي الذين ظلموا فتمسكم النار » (٧١) .. والقاعدة الفقهية : « أزل المنكر ، فان لم يزل فزل » .. « وان من علامات الساعة رجالا يرون المنكر ولا ينكرونه ، وهم من شرار القوم عند الله ، لأن الساكات على المعصية مشترك فيها ، وكاتم الحق شيطان أخرس .. »

« وبما أن قبور معظم من نسبه الناس الى الولاية مملوءة بالبدع والخرافات ، وأنواع الشرك ، والاستغاثة بغير الله ، والتوسل الى الولي فيما لا يطلب الا من الله ، والاستشفاع به وشدة الرجال اليه ، وكل هذا منعه الاسلام .. فلأجل ذلك ينبغي البعد عن غشيان هذه المساجد والأماكن منعا لتوجه المسئولية والتقصير فيها .. »

« وأخيرا ، لزم التتويه بأن زيارة المقابر الخالية من البدع بغرض أن ينفع الزائر نفسه بالعبرة ، وأن ينفع الميت بالدعاء له والاستغفار مطلوب .. وقد قال تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان » (٧٢) . »

« وانما سنت الزيارة للمقابر لأخذ العبرة والعظة ، وحتى يرى الانسان مصيره الذي لا مفر منه .. لذا وجب أن يكون مكان العبرة

(٧١) هود : ١١٢

(٧٢) الحشر : ١٠

(٢٣ — الله توحيد)

هذا متسما بالهدوء ، ومتحليا بالتجرد من أعمال الدنيا الفانية « (٧٣) ا ه .

ولله در الامام ابن القيم حيث يقول : « ترح بحرين بغربالين ،
وحفر بئرين بابرتين ، وكس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء
بريشتين ، وغسل عبيدين أسودين حتى يصيرا أبيضين : أهون على من
أن أقف على باب غير الله يضيع فيه ماء وجهي » ..

ويقول الشاعر :

لا تسألن بنى آدم حاجة وسئل الذى أبوابه لا تحجب
الله يغضب أن تركت سؤاله وبنى آدم حين يسئل يغضب
وفى الحديث الشريف .. قال رسول الله ﷺ : « من لم يسأل
الله يغضب عليه » ..

● كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتوسل الى ربه ؟

التوسل الى الله تعالى هو التقرب اليه بعمل يرضاه .. وليس
مثل الصلاة والدعاء قربى من الله ..

فالدعاء والتضرع ، والاستعانة والاستغاثة .. كلها من القرب التى
تقرب العبد من ربه ، وتدخل كلها فى معنى التوسل ..
لذا كان رسول الله ﷺ اذا حزبه أمر يفرع الى الصلاة ، ويقول :
« أرخنا بها يا بلال » ..

وكان ﷺ يعرف مقام ربه وقدره ، ولهذا كان يدعو بأسمائه
تعالى وصفاته .. يتوسل اليه ويتضرع ، ويستغيث به ويستنصره ،
خاشعا متذللا ويقول فى دعائه : « أنت رب المستضعفين وأنت ربي » ،
ويقول : « اللهم أنت ربي وأنا عبدك » ..

لم يقل بحقك عليك يارب ، أو بجاهي عندك .. ولم يتوسل —
ﷺ — بالحقيقة المحمدية التي زعموها .. انما كان دعاؤه كله ، دعاء
من يعرف قدره الى جانب قدر الله وعظمته ..

وقدر الرسول ﷺ أرفع الأقدار كلها ، ومنزلته عند الله أعظم
المنازل .. انه — ﷺ أرفع قدرا وأعظم منزلة من جميع المخلوقات ..
أرفع قدرا وأعظم منزلة من الملائكة ، والانس والجن .. ولكنه ﷺ
عرف قدره الى جانب قدر الله وعظمته ، فلم يتجاوز في دعائه الى
ما ليس له ..

فصلى الله وسلم وبارك عليك ياسيدي يا رسول الله ، فقد بعثت
معلما ..

ماتت خديجة رضى الله عنها ، وأبو طالب في عام واحد ..

ولما مات أبو طالب .. نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى
ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب .. فخرج رسول الله ﷺ
الى الطائف ، يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجاء
أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج اليهم وحده ..

ويحدثنا ابن هشام عن هذا فيقول : « لما انتهى رسول الله ﷺ
الى الطائف .. عمد الى نفر من ثقيف .. هم يومئذ سادة ثقيف
وأشرافهم ، وهم اخوة ثلاثة : عبد يابيل بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن
عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير وعند أحدهم امرأة من
قريش من بنى جمح .. فجلس اليهم رسول الله ﷺ ، فدعاهم الى
الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الاسلام ، والقيام معه على
من خالفه من قومه ..

فقال له أحدهم : أنا أمرط ثياب الكعبة ان كان الله أرسلك !!

وقال الآخر : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟ !

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا ، لئن كنت رسولا من الله كما

تقول ، لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على
الله ، ما ينبغي لى أن أكلمك !!

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يتس من خير ثقيف ، وقد قال لهم — فيما ذكر لى — : اذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى .. وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئروهم (٧٤) ذلك عليه (٧٥) .. قال ابن هشام : قال عبيد بن الأبرص :

ولقد أتانى عن تميم أنهم فئروا لقتلى عامر وتعصبوا

لم تفعل تثقيف ما كان يرجوه الرسول ﷺ من النصرة والمنعة .. ولكنهم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونونه ويصيحون به .. حتى اجتمع عليه الناس ، والجأوه الى حائط (٧٦) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه .. ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد الى ظل حبله من عنب (٧٧) فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران اليه ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف ، وقد لقى رسول الله ﷺ — فيما ذكر لى — المرأة التى من بنى جمح فقال لها : ماذا لقينا من أحمائك ؟

يقول ابن هشام : « فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال — فيما ذكر لى : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس .. يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى ؟ أم الى عدو ملكته امرى ؟ .. ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى .. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » (٧٨) .

ويحدثنا ابن هشام عن موقف آخر .. وقف فيه الرسول ﷺ يناشد ربه النصر الذى وعده .. عندما خرجت قريش لمقاتلة المسلمين

(٧٤) أى يثروهم ويجروهم .. (٧٥) الحائط : البستان .

(٧٦) أى شجرة عنب . (٧٧) الأحماء : اقارب الزوج .

(٧٨) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ط دار التراث العربى ،

فى غزوة بدر .. فبعد أن عدل — ﷺ — صفوف المسلمين ، رجع الى العريش الذى أقامود له فدخله ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ليس معه فيه غيره .. يقول ابن هشام :

« ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : « اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » . وأبو بكر يقول : يا نبي الله ، بعض مناشدتك ربك ، فان الله منجز لك ما وعدك .. »
وقد خفق رسول الله ﷺ خفقة وهو فى العريش ، ثم انقبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده ، على ثناياه النقع » (٧٩) .

لقد استنجد الرسول — ﷺ — بالله مباشرة .. وظل يضرع اليه تعالى حتى سقط — فيما يروى — رداءه عن منكبيه ، وأبو بكره رضى الله عنه خلفه يناشده أن يهدأ بالآ ، فان الله تعالى سوف ينجز له وعده بالنصر .. لم يتخذ الرسول بينه وبين الله واسطة ، بل التجأ اليه وحده بالدعاء والتضرع .. ولهذا جاءه المدد ملائكة السماء يقودهم جبريل — عليه السلام — آخذا بعنان فرسه يقوده وعلى ثناياه النقع ..
لم يقل بحقى عليك يارب ، أو بجاهى عندك ، ولم يتوسل اليه — ﷺ — بغير أسمائه وصفاته ..

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعثنى العباس الى رسول الله ﷺ ، فأتيته ممسيا وهو فى بيت خالتي ميمونة .. فقام يصلى من الليل ، فلما صلى ركعتي الفجر قبل صلاة الصبح قال : « اللهم انى أسالك رحمة من عندك تهدي بها قلبى ، وتجمع بها شملى ، وتلم بها شعى ، وترد بها الفتن عنى ، وتصلح بها دينى ، وتحفظ بها غائبى ، وترفع بها شاهدى ، وترزق بها عملى ، وتبيض بها وجهى ، وتلهننى بها رشدى ، وتعصمنى بها من كل سوء .. »

« اللهم أعطنى ايمانا صادقا ، ويقينا ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة .. »

« اللهم انى أسألك الفوز عند القضاء ، ومنازل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء ، ومرافقة الأنبياء .. »

« اللهم انى أنزل بك حاجتى وان ضعف رأبى وقات حيلتى وقصر عملى وافتقرت الى رحمتك .. فأسألك ياكافى الأمور ، وياشافى الصدور ، كما تجيز بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير ، ومن دعوة النبور ، ومن فتنة القبور .. »

« اللهم ما قصر عنه رأبى ، وضعف عنه عملى ، ولم تبلغه نيقتى وأمنيقتى من خير وعده أحدنا من عبادك ، أو خير أنت معطيه أحدنا من خلقك ، فانى أرغب اليك فيه ، وأسألكه يارب العالمين .. »

« اللهم اجعلنا هادين مهتدين ، غير ضالين ولا مضلين ، حربا لأعدائك ، وسلما لأوليائك ، نحب بحبك من أطاعك من خلقك ، ونعادي بعدلوتك من خالفك من خلقك .. »

« اللهم هذا الدعاء عليك الاجابة ، وهذا الجهد وعائك التكلان ، وانا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، ذى الجبل الشديد ، والأمر الرشيد .. أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، والركع السجود ، الموفين بالعهود ، انك رحيم ودود ، وأنت تفعل ما تريد .. »

« سبحان الذى لبس العز وقال به .. سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به .. سبحان الذى لا ينبغى التسبيح الا له .. سبحان ذى الفضل والنعم .. سبحان ذى العزة والكرم .. سبحان الذى أحصى كل شئ بعلمه .. »

« اللهم اجعل لى نورا فى قلبى ، ونورا فى قبرى ، ونورا فى سمعى ، ونورا فى بصرى ، ونورا فى شعرى ، ونورا فى بشرى ، ونورا فى لحمى ، ونورا فى دمى ، ونورا فى عظامى ، ونورا من بين يدى ، ونورا من خلفى ، ونورا عن يمنى ، ونورا عن شمالى ، ونورا من فوقى ، ونورا من تحتى .. »

« اللهم زدنى نورا ، وأعطنى نورا ، واجعل لى نورا » (٨٠) .

هكذا كان الرسول ﷺ يضرع الى ربه .. يتوسل اليه ويستغيث به .. بالخشوع كله ، وبالتواضع كله ، فقد عرف مقام ربه .. فصلى الله وسلم وبارك عليه ، فقد بعثه تعالى للناس معلما ومرشدا .. وهكذا كان شأن المسلمين فى الصدر الأول للاسلام .. يتضرعون الى الله تعالى بالخشية والخضوع ؛ والسكون والهدوء ، وحسن الأدب مع الحق تبارك وتعالى .. رغبة رهبة .. فهو سبحانه رب العالمين ، خالق الخلق ورازقه .. وهو القائل : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » (٨١) والقائل : « انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا » (٨٢) .

* * *

● الدعاء .. فى الاسلام :

يقول الله تعالى : « واذا سألك عبادى عني فانى قريب ، اجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » (٨٣) .
سأل بعضهم الرسول ﷺ : اقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فتناديه .. فقال جل شأنه : اذا سألك — يا محمد — عبادى أين أنا ؟ فانى قريب منهم ، أسمع دعاءهم ، وأجيب دعاء الداعى منهم اذا دعانى ، فليستجيبوا لى بالطاعة ، وليصدقوا أنى أجزل لهم الثواب والكرامة .. وبهذا يهتدوا الى طريق الرشاد ..

وقال جل وعلا : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » (٨٤) .
فالله تعالى يقول : اعبدونى وأخلصوا لى العبادة ، أجب دعاءكم .. فان الذين يتعظمون عن افرادى بالعبادة والألوهية سأدخلهم جهنم صاغرين ..

(٨١) الأعراف : ٥٥

(٨٢) البقرة : ١٨٦

(٨٠) رواه الطبرانى ..

(٨٢) الانبياء : ٩٠

(٨١) غافر : ٦٠

وهو تعالى يسمى الدعاء عبادة .. ولهذا قال رسول الله ﷺ فيما يرويه النعمان بن بشير رضى الله عنه : « ان الدعاء هو العبادة » — ثم قرأ الآية (٨٥) .

وقال ﷺ : « الدعاء مخ العبادة » (٨٦) .

ويقول الله تعالى : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية ، انه لا يحب المعتدين » (٨٧) .

أى أخلصوا الدعاء لربكم ، تذللا واستكانة لطاعته ، لا جهارا ومراءاة ، فهو تعالى — لا يحب المجاوزين الحد فى الدعاء ، برفع الصوت والصياح .. ولهذا يقول النبى ﷺ : « أيها الناس ، ارفقوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا ، انكم تدعون سميعا بصيرا ، وهو معكم ، والذى تدعونہ أقرب الى أحدكم من عنق راحلته » ..

ويقول جل شأنه : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ، ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بينك وبينك سبيلا » (٨٨) .

سمع أبو جهل ائرسول ﷺ يدعو فى صلاته : يا الله ، يا رحمن .. فقال : ان محمدا ينهانا أن نعبد الهين وهو يدعو الها آخر .. فنزلت هذه الآية .. فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ : قل — يا محمد — لهؤلاء المشركين ، المنكرين لاسم الرحمن : ادعوا الله — أيها القوم — أو ادعوا الرحمن بأى أسمائه جل وعلا تدعوا ربكم فانما تدعون الها واحدا ، له الأسماء الحسنى ، ولا تجهر — يا محمد — بقراءتك فى صلاتك فيؤذيك المشركون ، ولا تخفض صوتك حتى لا يسمع أصحابك .. واطلب طريقا وسطا بين الخفض والاعلان . يقول ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يرفع صوته بالقراءة ، فاذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله .. فنزلت هذه الآية ..

(٨٥) رواه أصحاب السنن . (٨٦) رواه انس .
(٨٧) الأعراف : ٥٥ (٨٨) الإسراء : ١١٠

والمقصود .. أن يكون الدعاء .. وأن تكون الصلاة والعبادات كلها بأدب وخشية وخضوع ، وسكون وهدوء ، ورغبة ورهبة ..

● ومن شروط الدعاء .. افراد الله وحده به .. فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف النبي ﷺ يوما فقال : « يا غلام ، انى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك .. اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله .. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ، وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك .. رفعت الأقلام وجفت الصحف » (٨٩) .

● وأن يخاص فى دعائه لله تعالى .. لقوله جل شأنه : « فادعوا الله مخلصين له الدين » (٩٠) .. فانعدام الاخلاص ، أو دخول الرياء على النفس يفسد الدعاء على صاحبه ولا يستجيب الله له .

● وأن يقدم بين يدي دعائه عمل صالح .. ليكون فى ذلك وسيلة الى الاجابة ..

● وأن يتجنب الحرام فى مأكله ومشربه وملبسه .. لأن ملابسة المعصية مقتضية لعدم الاجابة .. يقول تعالى : « انما يتقبل الله من المتقين » (٩١) .

ويروى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس كلوا مما فى الارض حلالا طيبا » (٩٢) ، فقام سعد ابن أبى وقاص — رضى الله عنه — فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال له النبي ﷺ : « ياسعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده : ان العبد ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » ..

(٩٠) غافر : ١٤
(٩٢) البقرة : ١٦٨

(٨٩) رواه الترمذى .
(٩١) المائدة : ٢٧

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« ان الله طيب لا يقبل الا طيبا ، وان الله أمر المؤمنين بما أمر به
المرسلين فقال : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، اني
بما تعملون عليم » (٩٣) وقال : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات
ما رزقناكم » (٩٤) . ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر يمد يديه
الى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه
حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب له ؟ (٩٥)

● وأن لا يدعو باثم ولا قطيعة رحم . . يقول رسول الله ﷺ :
« لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل »
قيل : يا رسول الله ، ما الاستعجال ؟ قال : « يقول قد دعوت وقد دعوت
فلم أر يستجيب لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء » (٩٦) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه ، انه اذا مات
أحدكم انقطع عمله ، وانه لا يزيد المؤمن عمره الا خيرا » (٩٧) .

وعن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ عاد رجلا من
المسلمين قد خفت [أى ضعف] فصار مثل الفرخ [أى ولد الطائر]
فقال له رسول الله ﷺ : « هل كنت تدعو بشيء — أو تسأله اياه ؟ ،
قال : نعم ، كنت أقول : اللهم ما كنت معاقبي به فى الآخرة فعجله
لى فى الدنيا . . فقال رسول الله ﷺ : « سبحان الله ، لا تطيقه —
أو لا تستطيعه — أفلا قلت : اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة
حسنة وقتنا عذاب النار » ؟ . . قال : فدعا الله له فشفاه (٩٨) . .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تدعوا

(٩٣) المؤمنون : ٥١ (٩٤) البقرة : ١٧٢

(٩٥) رواه مسلم والترمذى .

(٩٦) رواه مسلم ، ويستحسر : أى ينقطع عن الدعاء .

(٩٧) رواه مسلم . (٩٨) رواه مسلم .

على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسئل فيها عطاء فيستجيب لكم » (٩٩) .

• وييشرنا أبو الحرداء رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل ، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل » (١٠٠) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه : « ان العبد لا يخطئه من الدعاء الا احدى ثلاث : اما ذنب يغفر له ، واما خير يعجل له ، واما خير يحخر له » .

ويقول ابن مسعود : « سلوا الله تعالى من فضله ، فان الله تعالى يحب أن يسئل ، وافضل العبادۃ انتظار الفرج » .
وفى الحديث القدسى الذى يرويه أبو ذر الغفارى رضى الله عنه يقول تعالى : « يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا » .

« يا عبادى ، كلکم ضال الا من هديته ، فاستهدونى اهدکم . .
« يا عبادى ، کلکم جائع الا من اطعمته ، فاستطعمونى اطعمکم . .
« يا عبادى ، کلکم عار الا من کسوته ، فاستکسونى اکسکم . .
« يا عبادى ، انکم تخطئون بالليل والنهار ، وانا اغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى اغفر لکم . .
« يا عبادى ، انکم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . .

« يا عبادى ، لو أن أولکم وآخرکم ، وانسکم وجنکم : كانوا على اتقى قلب رجل واحد منکم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا . .
« يا عبادى ، لو أن أولکم وآخرکم ، وانسکم وجنکم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منکم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئا . .

« يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم ، قاموا فني صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي ، إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر .. »
« يا عبادي ، إنما هي أعمالكم ، أحصيتها لكم ثم أوفيكم أياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (١٠١)

* * *

« ويحدثنا الإمام الغزالي عن آداب الدعاء (١٠٢) فيقول : « آداب الدعاء ، وهي عشرة :

● الأول : « أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة ، كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل .. قال تعالى : « وبالأَسْحَارِ هم يستغفرون » (١٠٣) .. وقال ﷺ : « ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل : من يدعوني فأستجيب له ؟ ، من يسألني فأعطيه ؟ ، من يستغفرني فأغفر له » .

« وقيل أن يعقوب عليه السلام إنما قال : « سوف أستغفر لكم ربي ، أنه هو الغفور الرحيم » (١٠٤) ليدعو في وقت السحر ، فقيل أنه قام في وقت السحر يدعو وأولاده يؤمنون خلقه ، فأوحى الله عز وجل إليه : أني قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء » ..

● الثاني « أن يغتنم الأحوال الشريفة .. قال أبو هريرة رضي الله عنه : « ان أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله تعالى ، وعند نزول الغيث ، وعند إقامة الصلوات المكتوبة ، فاغتثموا الدعاء فيها » ..

(١٠١) رواه مسلم .

(١٠٢) أحياء علوم الدين : لأبي حامد الغزالي ، ط . الشعب ،

ج ٣ ص ٥٤٩ — ٥٥٧ بتصريف ..

(١٠٤) يوسف : ٩٨

(١٠٣) الذاريات : ١٨

« وقال مجاهد : « ان الصلاة جعلت في خير الساعات ، فعليكم بالدعاء خاف الصلوات » .

« وقال ﷺ : « الدعاء بين الأذان والاقامة لا يزد » ..
« وقال ﷺ أيضا : « الصائم لا ترد دعوته » ..
« وبالحقيقة ، يرجع شرف الأوقات الى شرف الحالات أيضا ..
اذ وقت السحر وقت صفاء القلب واخلاصه ، وفراغه من المشوشات ،
ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على
استقرار رحمة الله عز وجل ، فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى
ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها ، وحالة السجود أيضا أجدر
بالاجابة .. قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ :
« أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد ، فأكثروا فيه
من الدعاء » ..

« وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال :
« انى نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا ، فأما الركوع فعظموا
فيه الرب تعالى ، وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء ، فإنه قمن أن
يستجاب لكم » ..

● الثالث : « أن يدعو مستقبلا القبلة ، ويرفع يديه بحيث يرى
بياض ابطنيه .. روى جابر بن عبد الله رضى الله عنه « أن رسول الله
ﷺ : أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت
الشمس » ..

« وقال سلمان رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « ان ربكم
حيى كريم يستحي من عبده اذا رفعوا أيديهم اليه أن يردّها صفرا » .
« وروى أنس رضى الله عنه « أنه ﷺ : كان يرفع يديه حتى يرى
بياض ابطنيه فى الدعاء ولا يشير بأصبعيه » ..
« وروى أبو هريرة رضى الله عنه « أنه ﷺ مر على انسان يدعو
ويشير بأصبعيه السبابتين ، فقال ﷺ : « أحد أحد » — أى اقتصر
على الواحدة ..

« وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : « ارفعوا هذه الأيدي قبل أن تغل بالأغلال » ..

« ثم ينبغي أن يمسح بهما على وجهه فى آخر الدعاء .. قال عمر رضى الله عنه : « كان رسول الله ﷺ إذا مد يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه » ..

« وقال ابن عباس رضى الله عنهما : « كان ﷺ إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلى وجهه » .

« فهذه هيات اليد ، ولا يرفع بصره الى السماء .. قال ﷺ : « لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم الى السماء عند الدعاء ، أو لتخطفن أبصارهم » ..

● الرابع : « خفض الصوت بين المخافة والجهر .. لما روى أن أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قدمت مع رسول الله ﷺ فلما دنونا من المدينة كبر وكبر الناس ورفعوا أصواتهم .. فقال النبى ﷺ : « يا أيها الناس ، ان الذى تدعون ليس بأصم ولا غائب ، ان الذى تدعون بينكم وبين أعناق ركابكم » ..

« قالت عائشة رضى الله عنها فى قوله عز وجل : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » (١٠٥) « أى بدعائك » .. « وقد أثنى الله عز وجل على نبيه زكريا عليه السلام قال : « اذ نادى ربه نداء خفيا » (١٠٦) .

« وقال عز وجل : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » (١٠٧) .

● الخامس : « أن لا يتكلف السجع فى الدعاء .. فان حال الداعى ينبغي أن يكون حال متضرع ، والتكلف لا يناسبه .. قال ﷺ : « سيكون قوم يعتدون فى الدعاء » ..

« وقد قال عز وجل : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » : قيل معناه التكلف ، للاسجاع ، والأولى أن لا يجاوز الدعوات الماثورة ، فانه قد يعتدى

في دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته .. فما كل أحد يحسن الدعاء ..
ولذلك روى عن معاذ رضى الله عنه أن العلماء يحتاج إليهم في الجنة ،
اذ يقال لأهل الجنة : تمنوا ، فلا يدرون كيف يتمنون حتى يتعلموا
من العلماء •

« وقد كان ﷺ : « اياكم والسجع في الدعاء .. حسب أحدكم
أن يقول : اللهم انى أسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل ،
وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل » ..

« وفي الخبر : « سيأتى قوم يعتدون في الدعاء والطهور » ..
« وهر بعض السلف بقاص يدعو بسجع فقال له : أبغى الله تبارك ؟ ،
أشهد اقد رأيت حبيباً العجمى يدعو وما يزيد على قوله : « اللهم اجعلنا
جيدين ، اللهم لا تنضحنا يوم القيامة ، اللهم وفقنا للخير » ، والناس
يدعون من كل ناحية وراءه ، وكان يعرف بركة دعائه •

« وقال بعضهم : ادع بلسان الذلة والافتقار ، لا بلسان الفصاحة
والانطلاق

« واعلم أن المراد بالسجع ، هو المتكلف من الكلام ، فان ذلك
لا يلائم الخراعة والذلة .. والا ففى الأدعية الماثورة عن رسول الله
ﷺ كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة ، كقوله ﷺ : « أسألك الأمن يوم
الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، والركع السجود ،
الموفين بالعهود ، انك رحيم ودود ، وأنتك تفعل ما تريد » .. وأمثال ذلك ..
« فليقتصر على الماثور من الدعوات ، أو ليلتمس بلسان التضرع
والخشوع من غير سجع وتكلف .. فالتضرع هو المحبوب عند الله
عز وجل » ..

● السادس : « التضرع والخشوع ، والرغبة والرهبة .. قال
الله تعالى : « انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ،
وكانوا لنا خاشعين » (١٠٨) .. وقال عز وجل : « ادعوا ربكم تضرعا
وخفية ، انه لا يحب المعتدين » (١٠٩) •

« وقال ﷺ : « اذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع قضره » ..
 ● الصابع : « أن يجزم الدعاء ، ويوقن بالاجابة ، ويصدق رجاءه
 فيه .. قال ﷺ : « لا يقل أحدكم اذا دعا : اللهم اغفرلى ان شئت ،
 اللهم ارحمنى ان شئت ، ليعزم المسألة فانه لا مكروه له » ..
 « وقال ﷺ : « اذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة ، فان الله لا يتعاظمه
 شيء » ..

« وقال ﷺ : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة ، واعلموا أن
 الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل » ..
 « وقال سفيان بن عيينة رضى الله عنه : « لا يمنعن أحدكم من
 الدعاء ما يعلم من نفسه ، فان الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق
 « ابليس » — لعنه الله — اذ قال : « أنظرنى الى يوم يبعثون »
 قال انك من المنتظرين » (١١٠) .

● الثامن : « أن يلح فى الدعاء ويكرره ثلاثا .. قال ابن مسعود
 رضى الله عنه : « كان عليه الصلاة والسلام اذا دعا دعا ثلاثا ، واذا
 سأل سأل ثلاثا » ..

« وينبغى ألا يستبطن الدعاء ، لقوله ﷺ : « يستجاب لأحدكم
 ما لم يعجل ، فيقول قد دعوت فلم يستجب لى ، فاذا دعوت فاسأل الله
 كثيرا فانك تدعو كريما » ..

« وقال بعضهم : « انى أسأل الله عز وجل منذ عشرين سنة حاجة
 وما أجابنى ، وأنا أرجو الاجابة .. سألت الله تعالى أن يوفقنى لترك
 ما لا يعينى » ..

« وقال ﷺ : « اذا سأل أحدكم ربه مسألة فتعرف الاجابة ،
 فليقل : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، ومن أبطل عنه شيء من
 ذلك فليقل : الحمد لله على كل حال » ..

● التاسع : « أن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل ، فلا يبدأ
 بالسؤال .. قال سلمة بن الأكوع رضى الله عنه : ما سمعت رسول الله

ﷺ يستفتح الدعاء الا استفتحته يقول : « سبحان ربى العلى..الأعلى الوهاب » ..

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : « من أراد أن يسأل الله حاجة ، فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ ، ثم يسأله حاجته ، ثم يفتتح بالصلاة على النبي ﷺ .. فان الله عز وجل يقبل الصلاتين ، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما » ..

وروى في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اذا سألتكم الله عز وجل حاجة فابدأوا بالصلاة على ، فان الله تعالى أكرم من أن يسئل حاجتين ، فيقضى إحداهما ويرد الأخرى » (١١٠) .

● العاشر : « وهو الأدب الباطن ، وهو الأصل في الاجابة : التوبة ، ورد المظالم ، والاقبال على الله عز وجل بكنه الهمة .. فذلك هو السبب القريب في الاجابة » ا هـ .

* * *

سئل ابراهيم بن أدهم : لم ندعوا فلا يستجاب لنا ؟ فقال : « ماتت القلوب في عشرة أشياء : عرفتكم الله ولم تؤدوا حقه ، وقرأتم كتاب الله ولم تعملوا به ، وادعيتكم حب الرسول وتركتم سنته ، وادعيتكم عداوة الشيطان ووافقتموه ، وقلتم : نحب الجنة . ولم تعملوا لها ، وقلتم : نخاف النار . ورهنتم أنفسكم بها ، وقلتم : ان الموت حق . ولم تستعدوا له ، واشتغلتم بعيوب اخوانكم ونبذتم عيوبكم ، واكلتم نعمه ربكم ولم تشكروها ، ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم .. فأنى يستجاب لكم ؟ !

* * *

وبعد .. يقول الله تعالى على لسان نوح عليه السلام : « استغفروا ربكم انه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . ما لكم لا ترجون لله وقارا » (١١١) .

يقول نوح عليه السلام ناصحاً قومه : « يا قوم ، اطلبوا من ربكم مغفرته على كفركم وعصيانكم .. فهو تعالى الغفور ، ومن شأن الغفور غفران الذنوب لمن يرجع اليه .. »

انكم ان فعلتم ، يبارك لكم في أرزاقكم وأولادكم .. فيرسل السماء عليكم بالمطر الغزير ، والخير الوفير .. ويمددكم بالأموال والبنين ، وهما زينة الحياة الدنيا ..

وان من بركة رضاه تعالى عليكم — التي تجدونها باستغفاركم — أن يمتعكم في حياتكم الدنيا ، فيجعل لكم البساتين الوارفة ، تبعمون بجمالها وثمارها .. ويجعل من تحتكم الأنهار تشربون من مياهها ، وتسقون منها زروعكم ومواشيكم ..

وانكم ان لم تفعلوا ما أقوله لكم — من طلب المغفرة من الله تعالى — فانكم لا تكونون قد عظمت الله حق تعظيمه .. أو تؤدوا واجب الشكر على نعمته ..

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والله انى لأستغفر الله وأتوب اليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » (١١٢) .

وعن شداد بن أوس رضى الله عنه : عن النبي ﷺ قال : « سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربى لا اله الا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت .. أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبي : اغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب الا أنت .. »

قال : « ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة » (١١٣) .

والاستغفار .. يجب أن يكون مسبوقاً بالانقلاع عن المعاصي ، والرجوع الى الله تعالى بالتوبة والندم ..

فالتوبة والندم ، والاقلاع عن الذنوب والمعاصي ، ثم الاستغفار الى الله تعالى برجاء التوبة وطمعا في المغفرة .. هو من أفضل الدعاء ..
وقد أخبرنا — تعالى — أن رضاه ومغفرته مصدران من مصادر البركة في الأموال والبنين .. وعاملان من عوامل الاستقرار في المعيشة ، والتمتع بطيبات الحياة الدنيا .. فضلا عن الرضا والرضوان في الحياة الأخرى ..

وعلى النقيض من ذلك .. نقرأ قوله تعالى : « فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى » ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حسرتني أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » (١١٤) .

لقد وعد الله عباده المؤمنين .. بأن يمدهم بالهدى والرشاد ، فمن اتبع منهم هداه وامتنل لأمره ، فلا يقع في المآثم في الدنيا ، فانه لا يشقى بالعذاب في الآخرة ، فضلا عن رعاية الله وحمايته له من الشرور في الدنيا ..

أما من أعرض عن هديه تعالى وطاعته .. فانه يحيا في الدنيا حياة لا سعادة فيها .. فتراه لا يقنع بما قسم الله له ، ولا يستسلم الى قضاء الله تعالى وقدره فيها .. حتى اذا كان يوم القيامة جاء الى موقف الحساب مأخوذا بذنوبه ، عاجزا عن الحجة التي يعتذر الى ربه بها .. وكما كان في دنياه أعمى البصيرة عن النظر في آيات الله ، فان الله تعالى يعميه عن الحجة التي يعتذر بها في الآخرة .. جزاء وفاقا على تعامله عن أحكام ربه في حياته الدنيا ..

ويسأل هذا الشقى ربه — في ذلك الموقف العصيب ، وكله فزع ورعب — : يارب ، كيف أنسييتني حجتى ، وأعجزتني عن المعذرة ،

ووقفتنى أمامك كالأعمى وقد كنت فى الدنيا أبصر ما حولى ، وأجادل
وأدافع ؟

فيجيبه تعالى : بأن الأمر فى شأنك كما وقع : جاءتك دلائلنا ورسالتنا
فى الدنيا فنسيتهما ، وتعاميت عنها ، ولم تؤمن بها .. وكذلك اليوم
تترك منسيا فى العذاب والهوان ..

هذا الجزاء السيئ ، يجزى الله به فى الدنيا المقبلين على المعصية ،
المكذبين بالله وآياته ، ولعذاب الآخرة أشد ألما ، وأدوم مما كان
فى الدنيا ..

« ربنا آتتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب
النار » (١١٥) .

« ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، انك
أنت الوهاب » (١١٦) .

« ربنا هب لنا من أزواجنا ونرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين
إماما » (١١٧) .

« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا
كما حملته على النين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ،
واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم
الكافرين » (١١٨) .

« ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ،
ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتتنا
ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ، انك لا تخلف الميعاد » (١١٩) .

فاللهم ياربنا .. أصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا الى أنفسنا طرفة
عين ، وأصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح دنيانا التى فيها

(١١٥) البقرة : ٢٠١ . (١١٦) آل عمران : ٨ .

(١١٧) الفرقان : ٧٤ . (١١٨) البقرة : ٢٨٦ .

(١١٩) آل عمران : ١٩٣ ، ١٩٤ .

معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا .. وألهمنا رشدنا ،
وأعذنا من شر أنفسنا ، واكفنا بحلالك عن حرامك ، وأغننا بفضلك
عن سواك ..

اللهم لا سهل الا ما جعلته سهلا .. وأنت تجعل الحزن ان شئت
سهلا ، فنعوذ بك ياربنا من الكفر والفقر ، ونعوذ بك من الهم والحزن ،
ونعوذ بك من العجز والكسل ، ونعوذ بك من الجبن والبخل ، ومن غلبة
الدين وقهر الرجال ..

* * *

الفصل العاشر

حلقات الذكر .. أم حفلات للزار ؟ !

من الأمور التي لا يستطيع العقل التسليم بها : الطريقة التي يؤدي بها الصوفيون الذكر !!

والذكر — كما يقول الامام القشيري — « ركن قوى في طريق الحق سبحانه وتعالى .. بل هو العمدة في هذا الطريق ، ولا يصل أحد الى الله تعالى الا بدوام الذكر ..

« وهو على ضربين : ذكر باللسان ، وذكر بالقلب ..
« فذكر اللسان .. يصل به العبد الى استدامة ذكر القلب —
والتأثير لذكر القلب — فاذا كان العبد ذاكرا بلسانه وقلبه ، فهو الكامل في وصفه في حال سلوكه » (١) .

ولا شك أن الاجتماع لذكر الله ، والاستتماع لكتابه ، والتوجه اليه بالدعاء .. عمل صالح ، وهو من أفضل القربات والعبادات في جميع الأوقات ..

ولا شك أيضا .. أن ذكر الله هو من أشرف العبادات ، وأنفس ما يجرى على اللسان من كلمات ، وأزكى ما يمر بالخاطر من صور ، وما يثبت في القلوب من معان .. كما أنه مفتاح الصلة المباشرة بالله الكبير المتعال .. ما ان يشرق معناه في نفس العبد وتتحرك به شفتاه حتى يذكره الله تعالى ببره ولطفه ، ويصحبه بتأييده وعونه (٢) .

فالله تعالى يقول في محكم التنزيل ، في أسلوب آمر :
« يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا . وسبحوه بكرة وأصيلا » (٣) .

(١) الرسالة القشيرية — مرجع سابق ، ص ١٠١

(٢) كما يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالي ، في كتابه « الجانب

العاطفي من الاسلام » .

(٣) الأحزاب : ٤١ ، ٤٢

أى : اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ، فلا تخلوا أبدانكم عن ذكره فى جال من الأحوال ، وسبحوه فى الصباح والمساء : بالتهليل ، والتحميد ، والتمجيد ، والتقديس .. ويقول جل شأنه حاثا عباده المؤمنين على الذكر : « فاذا قضيت الصلاة فانكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم » (٤) .

أى : فاذا فرغتم من صلاتكم ، فاذكروا الله على كل أحوالكم — قياما وقعودا ومضطجعين على جنوبكم — اذكروه بالتعظيم والدعاء .. ويقول ابن عباس — رضى الله عنهما — : ما فرض الله على عباده فريضة ، الا جعل لها حدا معلوما غير الذكر فقال : « فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم » .. بالليل والنهار ، وفى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والصحة والسقم ، والسر والعلانية .. وعلى كل حال ..

كما يقول تعالى مذكرا عباده ومعلما لهم : « فانكرونى أنكركم واشكروا لى ولا تكفرون » (٥) .

أى : اذكرونى بطاعتى ، أذكركم برحمتى ومغفرتى ، واشكروا لى — أيها المؤمنون — فيما أنعمت به عليكم من الاسلام والهداية للدين الحق ، ولا تجحدوا احسانى اليكم فأسلبكم نعمتى ..

ويقول جل شأنه « واذا قرء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » وانكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والاصال ولا تكن من الغافلين » (٦) .

أى : اذا قرء عليكم — أيها المؤمنون — القرآن ، فاصغوا لتلاوته لئلا تتغفوا آياته ، وتعتبروا بهواعظه — يأمرهم تعالى بالانصات والسكوت عند تلاوة القرآن ، اعظاما له واحتراما ، ومخالفة للمشركين الذين قالوا : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » (٧) — واسكتوا ولا

(٥) البقرة : ١٥٢

(٤) النساء : ١٠٣

(٧) فصلت : ٢٦

(٦) الاعراف : ٢٠٤ ، ٢٠٥

تبلغوا عند تلاوته ، ليرحمكم ربكم بتأديبكم بآدابه ، واذكر ربك — أيها السامع للقرآن — في سر ، تخشعا وتواضعا لله ، وخوفا من عقابه ، وليكن دعاؤك باللسان في سر وخفاء ، لا جهارا ، ولا تكن من السامعين اللاهين عن عبر القرآن وعظاته ..

وقد ورد في صحف إبراهيم — عليه السلام — قول الحق سبحانه : « عبدى ، انظر الى السماء وارتقاها ، والأرض واتساعها ، والأفلاك ومدارها ، والشمس وشعاعها ، وما هو ظاهر وكامن ، ومتحرك وساكن ، وما غاب وما خسر ، وما خفي وما ظهر .. الكل يشهد بجلالى ، ويقر بكمالى ، ويعن بذكرى ، ولا يغفل عن شكرى » ..

وفي الحديث القدسي : « من شغله القرآن وذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » ..

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت شفتاه بى » ..

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه : سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : « أن تموت ولسانك رطب بذكر الله عز وجل » ..

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل » ، قالوا : يا رسول الله ، ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد فى سبيل الله الا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ، ثم تضرب به حتى ينقطع ، ثم تضرب به حتى ينقطع » (١) ..

وعن أبي الدرداء رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من اعطاء الورق والذهب ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « ذكر الله عز وجل دائما » ..

(١) رواه أبى شيبة فى المصنف والطبرانى .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبي ﷺ قال : « أربع من أعطيهن فقد أعطى خيري الدنيا والآخرة : قلبا شاكرا ، ولسانا ذاكرا ، ويدنا على البلاء صابرا ، وزوجا لا تبغيه حوبا فى نفسها وماله » (٩) .
وعن أبى هريرة رضى الله عنه : « ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله عز وجل الا حقت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وعن أنس رضى الله عنه : « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى ، لا يريدون بذلك الا وجهه ، الا ناداهم مناد من السماء : قوموا مغفورا لكم ، قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات » .

بل ان الله تعالى ييشر عباده الذاكرين بأنه يذكركم فى الملأ الأعلى ، وفى ملأ خير من ملئهم . . . فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى . . . ان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ هم خير منهم ، وان تقرب منى شبرا تقربت اليه ذراعا ، وان تقرب الى ذراعا تقربت منه باعا ، وان أتانى يمشى أتيتته هرولة » (١٠) .

يقول النووي : قوله عز وجل : « أنا عند ظن عبدى بى » ، قال القاضى : قيل معناه : بالغفران له اذا استغفر ، والقبول اذا تاب ، والاجابة اذا دعا ، والكفاية اذا طلب الكفاية . . .

« وقيل المراد به الرجاء وتأمل العفو ، وهذا أصح . . . »
« وقوله تعالى : « وأنا معه حين يذكرنى » ، أى معه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية . . . وأما قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » (١١) ، فمعناه : بالعلم والاحاطة . . .

« وقوله تعالى : « ان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى » ، قال المازرى : النفس تطلق فى اللغة على معان ، منها : الدم ، ومنها :

(١٠) رواه مسلم .

(٩) رواه الطبرانى .

(١١) الحديد : ٤٤ .

نفس الحيوان وهما مستحيلان في حق الله تعالى .. ومنها : الذات ، والله تعالى له ذات حقيقة ، وهو المراد بقوله تعالى : « في نفسي » ، ومنها « الغيب » وهو أحد الأقوال في قوله : « تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » (١٢) ، أي : ما في غيبي ، فيجوز أن يكون مراد الحديث : أي « اذا ذكرني خاليا » أثابه الله وجازاه عما عمل بما لا يطلع عليه أحد ..

« وقوله تعالى : « وان ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منهم » ، هذا مما استدلت به المعتزلة ومن وافقهم على تفضيل الملائكة على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، واحتجوا أيضا بقوله تعالى : « ولقد كرمتنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفصلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (١٣) .. فالتقييد « بالكثير » احتراز من الملائكة ، ومذهب أصحابنا وغيرهم أن الأنبياء أفضل من الملائكة ، لقوله تعالى في بني إسرائيل : « وفصلناهم على العالمين » (١٤) ، والملائكة من العالمين .. ويتأول هذا الحديث على أن الذاكرين غالبا يكونون طائفة لا نبي فيهم ، فاذا ذكرهم الله تعالى في خلائق من الملائكة كانوا خيرا من تلك الطائفة ..

« وقوله تعالى : « وان تقرب مني شبرا تقربت اليه ذراعا ، وان تقرب الي ذراعا تقربت منه باعا ، وان أتاني يمشي أتيته هرولة » ، هذا الحديث من أحاديث الصفات ويستحيل ارادة ظاهره .. ومعناه : من تقرب الى بطاعتي تقربت اليه برحمتي ، والتوفيق والاعانة ، وان زاد زدت .. فان أتاني يمشي وأسرع في طاعتي ، أتيته هرولة ، أي صيبت عليه الرحمة وسبقته بها ، ولم أحوجه الى المشي الكثير في الوصول الى المقصود .. والمراد أن جزاءه يكون تضعيفه على حسب تقربه » ا هـ (١٥) .

(١٢) المسائدة : ١١٦ (١٣) الاسراء : ٧٠ (١٤) الجاثية : ١٦

(١٥) صحيح مسلم بشرح النووي ، ط الشعب ، ج ٥ ،

ولهذا يروى مسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن
النبي ﷺ قوله : « مثل البيت الذى يذكر الله فيه ، والبيت الذى
لا يذكر الله فيه : مثل الحى والميت » ..
وعند البخارى عنه : « مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره مثل
الحى والميت » ..

والذكر — فى حقيقته — ليس باللسان وحده ، بل لابد أن ينشأ
أولا فى القلب والوجدان ، ثم يفيض على اللسان : حمدا ، وتسبيحا ،
وتتزيها لله تعالى ..
وإيمان المؤمن ، وصدق يقينه .. يجعلانه يذكر ربه فى كل وقت ،
ويراه فى كل شيء .. فى أحداث الحياة ، وفى مشاهد الطبيعة ..
فيأنس به ، ويثق فى قدرته ، ويرجو رحمته ..
ولا ينبغي للمسلم — الحق — أن ينسى ربه أو يغفل عنه ..
والا فماذا يذكر ان نسي ربه ، وبماذا يشتغل ان غفل عنه ؟
والذاكر لربه .. يذكره ربه فى ملا خير من ملاه .. والعافل عن
ذكره تعالى كالميت تماما ، لما ينشئه ذكر الله فى نفس المسلم من
قوة وحياة ، وما يمدده به من زاد ..
وما أعظم أن يقف العبد مع ربه فى جميع أحواله .. يستعينه
ويلجأ اليه حين تحوطه المكاره ، لأن مقاليد الأمور بيده تعالى وحده ،
وهو سبحانه لا يرد أحدا يقف ببابه ..
وما أعظم أن يطلب العبد من ربه الهداية والتوفيق .. وأن يسأله
العفو ويطلب منه المغفرة .. فهو تعالى القائل فى الحديث القدسي :
« يا عبادى ، اكنم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ،
فاستغفرونى أغفر لكم » ..
وأداء الصلاة ، وتلاوة القرآن ، والدعاء والتضرع الى الله ،
والاستغفار ، وغيرها من العبادات .. من ذكر الله سبحانه ..

كما أن السعى فى الأرض لا ابتغاء الرزق .. وتحرى كسبه من الحلال ، ومراقبة الله تعالى فى كل حال .. أيضا نوع من ذكره تعالى .

ويقول الامام الشهيد حسن البنا :
« واعلم يا أخى أن الذكر ليس المقصود به الذكر القولى فحسب ، بل ان التوبة ذكر ، والتفكر من أعلى أنواع الذكر ، وطلب العلم ذكر ، وطلب الرزق اذا حسنت فيه النية ذكر ، وكل أمر راقبت فيه ربك وتذكرت نظره اليك ورقابته فيه عليك ذكر .. »

ولهذا .. كان العارف ذاكرا على كل حالاته ، ولا بد ليكون للذكر أثره فى القلب من مراعاة آدابه ، والا كان مجرد الفاظ لا تأثير فيها .



● الرسول — صلى الله عليه وسلم — يعلمنا كيفية الذكر :

لقد علمنا الرسول ﷺ كيف يكون الذكر .. كما رغبنا فيه ، وذكر أن من أوتيته فقد أوتي خيرا كثيرا ..

أخرج البخارى فى باب « الصلاة » ، وكذا مسلم والنسائى فى « عمل اليوم والليلة » عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور^(١٦) بالدرجات العلا والنعيم المقيم .. يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل من أموال : يحجون ويعتصرون ويجاهدون ويتصدقون ..

فقال : « ألا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم الا من صنع مثل ما صنعتم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ..

قال : « تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين » ..

(١٦) أى الاموال الكثيرة ..

يقول أبو صالح — راوى الحديث — : لما سئل عن كيفية ذكرهن قال : « يقول سبحان الله والحمد لله والله أكبر حتى يكون منهن كلهن ثلاثا وثلاثين » ..

وزاد مسلم فى روايته : « فرجع فقراء المهاجرين الى رسول الله ﷺ فقالوا : سمع اخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله .. فقال ﷺ : « ذلك غضل الله يوتيهِ من يشاء » ..

وقال ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حببتان الى الرحمن : سبحان الله ويحمده ، سبحان الله العظيم » (١٧) .
وكان ﷺ يقول دبر كل صلاة حين يسلم : « لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، لا اله الا الله ولا نعبد الا اياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا اله الا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » (١٨) .

وقال : « سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربى ، لا اله الا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبي فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب الا أنت » (١٩) .

وفى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول اذا قام الى الصلاة من جوف الليل : « اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيام السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق ، ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق والساعة حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت واليك أنبت وبك خاصمت واليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت

(١٨) رواه مسلم .

(١٧) متفق عليه .

(١٩) رواه البخارى .

وما أسربت وما أعلنت ، أنت الهى لا اله الا أنت ، ولا حول ولا قوة الا بك » ..

ويقول أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « سبق المفردون » .. قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ .. قال : « الذاكرين الله كثيرا والذاكرات » (٢٠) .

ويقول الامام ابن كثير فى الذكر :
 ذكرتك لا لأنى نسيتك لحظة وأيسر ما فى الذكر ذكر اللسان
 وكدت بلا وجد أموت من الهوى وبهان على القلب بالخفقان
 فلما أرانى الوجد أنك حاضر شهادتك موجودا بكل مكان
 فخطبتك موجودا بغير تكلم ولاحظت معلوما بكل عيان
 * * *

● رقص .. وطبل .. ومزمار !!

هذا قليل من كثير مما ورد فى فضل الذكر والتسبيح والتحميد والتهليل .. مما لا يستطيع المسلم له انكارا ، أو يجد عليه فى قلبه اعتراضا . غير أن بعض الناس « حسبوا أن الذكر أثر عند الله تعالى وأدنى لرضاه من أى عمل آخر » .. أو ربما حسبوا أن درجة الاحسان لا تقال الا بطول الذكر ، سواء فى الصوامع المعزولة ، أو المجالس الحافلة ..

فكان الاستكثار من الأوراد وأنواع التلاوات .. وانتشرت المسابح فى الأيدي. تعد الأصابع على حباتها ما يمكن عده من أسماء الله الحسنى » (٢١) .

وغاب عن القوم أن الذكر لا يقتصر على التسبيح والتحميد والتهليل .. فقد قال تعالى : « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** » (٢٢) .. فسمى القرآن ذكرا ..

(٢٠) رواه مسلم .

(٢١) للشيخ محمد الغزالي فى كتابه : «الجانب العاطفى من الاسلام» .

(٢٢) الحجر : ١

كما غاب عنهم أن مدارس العلم ، والتفقه في الدين من الذكر ..
فمن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال له :
« يا أبا ذر ، لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير لك من أن تصلي
ألف ركعة » ..

وروى أن رسول الله ﷺ ، دخل المسجد يوما .. فوجد فتوتين
من الناس ، أحدهما تسبح الله تعالى ، والأخرى تتدارس العلم ..
فقال عليه الصلاة والسلام : « أما الأولى .. فإنها تسبح الله ،
ان شاء قبل وان شاء لم يقبل » وعدل وجلس مع الثانية قائلا :
« انما بعثت معلما » (٢٣) .

لقد غاب عن القوم ، أن التفكير في النعم التي أنعم الله بها على
عباده نوع من الذكر .. وأن السعي على المعاش ، وتحري الحلال فيه ..
من الذكر أيضا .. يقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة
من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن
كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فامشوا في الأرض وابتغوا من
فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » (٢٤) .

فسمى — تعالى — الصلاة والسعي إليها ذكرا ، وسمى الانتشار
في الأرض عقيبتها وابتغاء فضل الله ذكرا كثيرا ..

ولقد رأينا كيف كان الرسول ﷺ يذكر ربه ، وكيف كان ذكره —
ﷺ — تضرعا إلى الله تعالى ، ضراعة النبوة والعبودية الخالصة التي
تفتتح لها أبواب السماء ..

فلم يذكره — تعالى — باسم مفرد .. ولا ضرب صدره بذقنه ،
ولا هز رأسه إلى اخص قدمه !!

ولم يتراوح — ﷺ — برأسه يمنا ويسرة ، ولم ينتع من سرته
إلى قلبه ، كما يفعل الصوفية !!

ليس في ذكره منشد ، ولا دف ، ولا شجاعة .. ولم ينصب دائرة
يقف في مركزها كالنصب يرقص الذاكرين بتصديقه ..
انما كان ذكره — ﷺ — صادرا عن قلب مؤمن ضارع .. ملاء
حب الله خشية ورهبة وتقوى .. يتوجه به الى خالقه الأعظم ، مالك
الملك كله في ايمان صادق وتوحيد خالص ..
لقد بعث — ﷺ — للناس معلما ، وهاديا ومرشدا .. فكان في
جميع أحواله الأسوة الحسنة التي يجب أن يتأسى بها المسلمون ..
منذ مبعثه الى أن تقوم الساعة ..
والآن .. تعالوا الى ذكر الصوفية ، لنرى كيف يذكرون
الله تعالى ؟ ؟ ..

يقول فضيلة الشيخ عبد الرحمن الوكيل : « يوجب الصوفية على
الذاكر . » أن يستحضر شيخه ، وأن يستمد منه عند الشروع فيه فيقول :
مدحك يا أستاذي ، وأن يرى استمداده منه عين استمداده من الرسول
ﷺ ، فانه الواسطة اليه .. وأن يستأذن شيخه بقلبه فيقول : دستور
يا أستاذي .. وأن يستأذن أصحاب الطريق والقدم — وهم أصحاب
السلسلة — فيقول : دستور يا أصحاب الطريق والقدم ..
« وهكذا توجب انصوفية على « الدرويش » أن يتلطح بهذه
الوثنية قبل أن يذكر الله .. وأن يستأذن كل هذه « الأصنام » ليتقبل
الله ذكره ويغمره برضاه !!

« حجب صماء . تمور حولها الدياجير ، وتقصف الأعاصير ..
تضعها الصوفية في طريق السالك حتى لا يرى شعاعا من نور » !! (٢٥)
ويقول فضيلته عن كيفية الذكر : « أن يهتر من فوق رأسه الى
أصل قدميه .. وأن يبدأ بـ « لا إله الا الله » ، ويرجع بـ « الله » فيتوسط ،
ويختتم « الا الله » يسارا قبلة القلب .. فان ذكر اسما مفردا
كـ « الله » ، و « هو » ضرب بخفته على صدره .. وأن يذكر مع جماعة
مع رفع الصوت ، وينتفع الكلمة من سرته الى قلبه !!

(٢٥) هذه هي الصوفية ، للأستاذ عبد الرحمن الوكيل — مرجع سابق ،

« هذه البهلوانية الرعناء هي صورة الذكر الصوفى .. ترى هل كان رسول الله — وهو يذكر ربه — يهتز من فوق رأسه الى أصل قدميه ؟ .. أو كان يضرب بذقنه الى صدره ؟ .. أو كان يميل يمينه ويسره ؟ »

« لم يفعل شيئاً من ذلك ، لأنه نبي .. ولأنه رجل أبى الرجولية .. أما رفع الصوت ، فالله تعالى يقول : « ولا تجهز بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً » (٢٦) .

ثم يحدثنا فضيلته عن صيغ الذكر الصوفى ، فيقول : « من آداب المريدين مع شيخه أن يذكر ما لقنه له أستاذه ، فلا يتجاوزوه الى غيره ..

« ولهذا تعددت صيغ الذكر الصوفى تبعاً لتعدد الطرائق وتباين الشيوخ .. فمنهم من يذكر بالاسم المفرد ، ومنهم من يذكر بـ « هو .. هو » .. ومنهم من يذكر بـ « أه .. أه » .. وكل طائفة صوفى يحرم على عبده أن يذكرها بغير ما أذن لهم فيه .. أو أن يذكرها بما ترقص به الطرق الأخرى ، لا اعتقادهم أن بعض أسماء الله تعالى قد يضر ذكرها هذا وينفع ذاك ، أو تضر فى حال وتنفع فى حال أخرى .. والخير بما ينفع الذاكر أو يضره انما هو الشيخ ، لهذا لا يستطيع « الدرويش » أن يذكر « لا اله الا الله » الا اذا أمره بها شيخه ، ولا ينادى ربه بـ « يا لطيف » والا أصابه مس أو خبال ، أو كما يسمونه « لطف » !

« اسمع الى القديس الصوفى « ابن عطاء الله السكندرى » يفترى الاثم الأكبر فيقول : « اسمه تعالى » العفو » يليق بأذكار العوام لأنه يصلحهم ، وليس من شأن السالكين الى الله ذكره .. واسمته تعالى « الباعث » يذكره أهل الغفلة ، ولا يذكره أهل طلب الفناء .. واسمته تعالى « الغافر » يلحق لعوام التلاميذ وهم الخائفون من عقوبة الذنب ، وأما من يصلح الحضرة ، فذكر مغفرة الذنب عندهم يورث الوحشة ..

(٢٦) المرجع السابق ، ص ١٤٤ ، والآية من سورة الاسراء : ١١٠ (٢٥ — الله توحيد)

واسمه تعالى « المتين » يضر أرباب الخلوة ، وينفع أهل الاستهزاء بالدين « اهـ (٢٧) » .

« ويستمر » ابن عطاء الله « فى سرد هذا البهتان حتى يستوفى أكثر أسماء الله .. والله تعالى يقول : « قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن ، أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » (٢٨) » .

« ويقول : « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، ونفروا الذين يلحدون فى أسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون » (٢٩) » .

« اسمه « الغافر » لا يصلح إلا للعوام ؟ »

« كأنما أولئك الطواغيت معصومون من الذنب ، أو آلهة !! .. على حين كان يستغفر الرسول — صلى الله عليه وسلم — ربه فى اليوم مائة مرة ! .. فهل تجد رحمةً بين حق القرآن ، وبين باطل الصوفية ؟! (٣٠) »
 ويعقب فضيلته على ذلك بقوله : « ذلك هو التصوف العملى فى شيعيته : الزهد ، والذكر .. فما العبادة فيه ؟ »

« أهى تلك الركعات أو السجادات التى لا يقر فيها قلب ولا جسد ، ولا تسلم فيها لله خاطرة واحدة ، ولا يخشع فيها شعور ، ولا يضرع دعاء ؟ .. فانما هى لأصنام القبور سجود وتسابيح ، ولجلاليتها الصم عبودية تطفح بالخشية منها والتقوى لها ، واللياذ بها والذهول المستغرق الا عنها !! »

« ألا ترى مساجد الله خرابا ، ومعابد القبور تمور بالخشود المحشودة فيها من كل صوب وحذب ؟ »

« ألا ترى مساجد الله التى طهرها الله من أوثان الأضرحة خاوية على عروشها ، أما المعابد التى جثم على صدرها قبر ميت ، وثوت فيها رمته أو وهمه ، فتبصق — على رحابها الفساح — بالأمين لها رجاء

(٢٧) نقلا عن « مفتاح الفلاح » لابن عطاء الله . ص ٢٢ وما بعدها .. والنص منقول من « هذه هى الصوفية » .

(٢٨) الاسراء : ١١٠ (٢٩) الاعراف : ١٨٠

(٣٠) هذه هى الصوفية ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ ، ١٤٥

بركات القبر والرمة البالية ، أو الوهم الخرافى المشيد عليه القبر ، أو
العظام المتنوعة من حيوانات شتى .. لتتصب النذور على السدنة ؟
« ألا ترى تلك المعابد ينفق على فرشها واضاعتها وتبخيرها الألوف !؟
.. أما مساجد الله فتترك للغربان تسليح عليها ، وللبوم ينعب فيها » !! (٣١)

● ويقول فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى : « سمعت بنفسى
— رغم أنفى — من المهرجين الصاخبين فى مولد الرفاعى وهم ينشدون
ويذكرون بأصوات ليس فيها أسماء ولا ضمائر .. انما هى مجرد حفاجر
مبحوحة تخرج الفحيح منبجا .. ثم تسمع من المنشد يضرع الى من
تخليهم أولياء ، ويعدهم بالاسم ما بين ذكور وإناث ، ويطلب منهم فى
ذلة وخشوع وميوعة واهتزاز ما لا يطلبه الا من الواحد القهار سبحانه !!
« بل دمتى قلبى بعد نفاذ دمع عيني ، حينما سمعتهم يقلدون فى
أناشيدهم صوت المطربات فى حلبة الرقص بالموسيقى التوقيعية .. وهنا
تتهيج الأصوات وتثور الغرائز ويتميل الراقصون .. أماماً وخلفاً ، وعن
اليمن واليسار .. وخلفهم وأمامهم النساء يزغردن ويرقصن ويصفقن
مشجعات مدغدغات لهذه الشهوات !!

« ووالله لقد منعوا النوم من انحى كله بصخبهم وضجيجهم حتى
بعد الفجر .. وصدق من قال فى أمثالهم :

وينبحون النبح كالكلاب طريقهم ليس على الصواب
وليس فيهم من غنى مطيع فلعنسة الله على الجميع
« ولو أنهم قضوا عشر هذا الوقت الصاخب فى تلاوة كتاب الله ،
أو قيام الليل ، أو تعلم أحكام دينه ، أو ذكر سليم خاشع ، لكان خيراً
لهم وأهدى سبيلاً : ولما كانوا عنواناً سيئاً لهذا الاسلام الحائر بين
ظلم أعدائه وضلالة ادعيائه : « ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً » (٣٢) .

(٣١) نفس المرجع السابق : ص ١٤٧
(٣٢) هذه دعوتنا . نلشيخ عبد اللطيف مشتهرى ، مرجع سابق ،
ص ١٢ . والآية من سيرة الكهف : ١٧

● ويحدثنا فضيلة الشيخ محمد الغزالي — جزاه الله عن الاسلام خيرا — عن واقعة حدثت أمامه في زيارته لقطر شقيق .. فما كاد المصلون ينتهون من صلاة الجمعة — في ذلك القطر الشقيق — الا وهرعت الجماهير الغفيرة من أتباع الطرق الصوفية الى معالجة الذكر معالجة بعيدة عن مضمونه ومعناه .. وذلك بما أسماه — فضيلته — طقوسا خرافية .. ويعنى بها « الرقص الدينى » أو ما يعرف بحلقات الذكر .. رآهم — فضيلته — يؤدون « رقصهم الدينى » باجلال واستغراق .. شيئا وشبانا .. والعرق يقطر من جباههم وأجسامهم لطول ما يقفزون ويهتزون يمنا ويسرة ، وينعتقون بألفاظ يحسبونها ذكرا لله ، وما هي الا النسيان التام ، والحجاب الغليظ !!

فلما خرج — فضيلته — من المسجد تاركا وراءه هذه الصورة المنكرة ، واحتوته ميادين العاصمة ، شاهد الأجانب — في ذلك القطر الشقيق — مقبلين على الحياة في عزم وأمل .. يديرون المتاجر السامقة ، وتسيل الثروة والقوة والجمال من بين أيديهم ومن خلفهم . ويحدثنا فضيلته عن الانطباع الذي خرج به ، فيقول : « فبرزت رأسي أسفا واستحياء .. وتذكرت ما قيل من أن الفقر العربى يمشى على أرض من ذهب !!

» وتساءلت : ماذا كان على هؤلاء المصلين — بعد ما فرغوا من الجمعة — لو خرجوا لينتشروا في الأرض ، ويبتغوا من فضل الله كما أمرهم الله ؟

« ان الذين ابتدعوا هذه « الأذكار » أضلوا المسلمين ضلالا مزدوجا !!

» أضلوهم اذ أضافوا الى ما شرع الله هذه الزيادات المتخمة السامة ..

» وأضلوهم اذ صرفوا الهمم عن أعمال اخرى كان الاقبال عليها أرجى في دين الله ، وأدنى الى نفع الناس « (٣٣) .

ثم يقول فضيلته : « والحق أن عوام المسلمين وخاصتهم ، لهم في ذكر الله أساليب تتفاوت بعداً وقرباً عن المعروف من كتاب الله وسنة رسوله !!

« فالذكر ، يقابل النسيان .. أي أنه وصف للقلب لا وصف لللسان .

« والمرء قد يتذكر الشيء تذكرًا جليًا واضحًا يملأ عليه أقطار نفسه ، دون أن تتحرك شفاته أو تختلج في جسمه عضلة .. بل أن يكون بدنه أعون له على الاستذكار ، وظلما هداً واستغرق اكتملت في ذهنه الصور التي يريد أن يتمثلها . وحركة اللسان — عندئذ — إنما تأتي نتيجة — غير محتومة — لاستفاضة الوجدان بما فيه ..

« ورب ساكت لا تسمع منه حرفاً ، وقلبه عامر بذكر الله . ورب يتحدث عن الله بلسانه . ونؤاذه عن الله مشغول أو معزول .. فهو أشبه « بالشرطة » المسجلة للقرآن الكريم ، تردده كما أنزل وليس عليها من حساب في ثواب أو عقاب !!

« ولا أنكر أن الإسلام قد شرعت فيه أذكار شتى .. يقولها مؤمن بلسانه ولا يختفى فيها بجنانه .. ولكن هذا الذكر باللسان لا يتم ويرتفع إلا إذا كان الإنسان مفتاحاً للقلب . ومحركاً له من خمود ..

« وهناك عبارات خاصة ذكرتها السنن الثابتة ، وقرنت بتردادها ثواباً جزيلاً . أو رتبت على تكرارها أجراً رفيعاً .. غير أن هذه الجمل الماثورة لا تعدو في غاياتها الأناشيد الحماسية التي تصنعها الأمم في عصرنا هذا : كي تمجد الأوطان وتحبب إلى النشوس البذل في سبيلها ..

« فجماهير الطلاب والعمال — حين يرفعون عقائرهم بهذه الأناشيد، وحين تشرق أعينهم وتهتز أذرعهم — يظهرون بهذه المشاعر الدائرة لونا من الحب نبلاهم يستحق التقدير .. لكن أحداً من أولئك المنشدين لا يفهم أن خدمة بلاده تنتهي بهذا الصياح مهما قارنه من اخلاص !!

« فدراسة العلم والانتظام في فصوله ، والادمان على كتبه :

هو واجب التلميذ نحو أمته .. واتقان العمل والاستقرار في مصانعه ،
والعكوف على اجادته : هو الواجب الأول للعامل نحو أمته ..

« وتلاوة النشيد القومي ، لا صلة لها البتة بهذه الواجبات
المحتومة .. بل قد ترجأ الى أوقات الراحة بعد استقراغ الجهد من القيام
بالحقوق المقررة .. ولو أن تلميذا اكتفى من حب بلاده بغناء النشيد
القومي مثنى وثلاث .. ما اعتبره الناس الا شخصا أحمق » (٣٤)

ثم يقول فضيلته : « كذلك شرعت — في دين الله — طائفة من
الأدعية والأوراد الماثورة .. تضمنت معاني جليلة من تسبيح الله
وتمجيده وتقديسه .. يهتر لها ضمير المسلم وينشرح بها صدره ..
« والحكمة من شرع هذه الأذكار ، ربط القلوب بالله على نحو
مباشر ، وبطريقة حارة .. وجميل بالمسلم أن يواظب على هذه الماثورات ،
وأن يدع آثارها الكريمة تنطبع في نفسه ..

« بيد أن من الغلط البالغ ، أن يعدو بها قدرها فيحسب أن ترادها
ينغى عن الأعمال التي نيطت بحياته ووزعت على أوقاته ..
« أجل .. قد يسمح من المسلم أن يذكر الله بلسانه على شريطة
الأنفساء في أعمائه وأحواله .. فالذكر الأصيل المفروض : أن يعرف
المراء ربه وقت النشقة فيكرم ، وحين البأس فيقدم ..
« فإذا نسيه في هذه أو تلك ، فهو خاسر .. كما قال تعالى في
كتابه الكريم : « لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل
ذلك فأولئك هم الخاسرون » (٣٥) .

« نعم .. هم خاسرون ولو صاحوا بذكر الله حتى شقوا أجواز
الفضاء »

« ثم ان الذكر — لكي يصبح به فقه وتدبر — لا يكون بالفاظ مفردة
يكررها الانسان مئات وألوفاً .. فان الذكر كلام ، والكلام لا بد —
ليستفاد منه معنى معقول — أن يتكون من جملة كاملة ..

(٣٤) ليس من الاسلام : مرجع سابق ، ص ١٨٧ — ١٨٨

(٣٥) المنافقون : ٩

« هيك أردت أن تذكر شخصاً اسمه عمر ، فهل يحلو ذكره بأن تقول : عمر .. عمر .. عمر .. الخ ؟ !

« وهل إذا قال الله عز وجل : « يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم » (٢٦) ، كان تنفيذ هذا الأمر بترديد بعض النعم التي نعرفها فنقول : خبز .. خبز .. خبز ، أو لحم .. لحم .. لحم !!

« ان فهم كلام الناس على هذا النحو السمج سقوط في التفكير .. فكيف تسلط هذه الأفهام على كلام رب الناس فتنزل به بدل أن يرتفع بها ؟ !

« ومع ذلك ، وجد من العوام جمهور غفير يرقص بكلمات مبتورة ، ويزعم هوسه هذا ذكراً لله !!

« على أننا لا نعطي أحداً من البشر — مهما علا شأنه — أدنى حق في اختلاق صيغ لذكر الله والزام قوم — قليل أو كثير — بها .. بل لا يجوز في الصيغ الواردة نفسها أن ترسم لها أوقات مخصوصة أو أعداد معينة ، مادام الشارع قد أطلقها من هذه القيود ..

« وإذا ساغ لأي من الناس أن يضع لنفسه منهاجاً في القراءة والدعاء والذكر — وفق حاجاته الخاصة — فليس له أن يعتبر ذلك شرعاً عاماً ، وأن يفرض على الناس اتباعه .. ان ذلك لم يحدث في الشعر .. فكيف يحدث في الدين ؟ !

« حدث أن ألف المعري ديواناً أسماه « لزوم ما لا يلزم » ، جعل رويته على عدة أحرف .. والعرب — في قصائدها الطوال والقصار — لا توجب ذلك .. فكان صنيع المعري — هذا — موقوفاً عليه ، ولم ير الشعراء مدعاة لاتباعه فيه ..

« الا أن العقل العام في ميدان الشعر تحول الى حماقة في ميدان الدين .. فوجد من أرباب الطرق من صنع للصباح والمساء أورادا حافلة ، وضمها الى الصلوات الموقوتة ديناً مع الدين !!

« ولا تقولن : الذكر خير ، والاستكثار منه ليس شناعة تستحق الفكر .. فان الذكر خير حقا ، والاستكثار منه — فى حدود ما شرع الله — أمر ندعو اليه ، ولا يتصور أن يعترض مسلم عليه .. »
 « وما شرع الله من ذكر ، أوسع من أن يكون حديث لسان أو ترديد كلام .. ان الذكر الذى ارتضاه الله ديناً ، وقبله من عباده قرية ، أعرق أثراً وأرفع أجراً من هذه الطقوس التى اصطنعها أرياب الطرق فقطعوا بها الطريق .. »

« وحكمة الله فى تشريعه ، تجعل العبادات المرسومة على قدر مرسوم .. لا تصلح النفوس بما دونه ولا بما فوقه .. ومن التهور أن تحسب الاستكثار من شيء ما — لأنه دواء — أمراً محموداً !! »

« ألا ترى أن تناول قرص أو قرصين من « الاسبرين » شفاء من الصداع .. فإذا أردت الانتحار تناولت جملة قاحشة من هذا الدواء ؟ ! »
 « لقد رأينا مدمنى « الأوراد والوظائف » ضائعين فى ميدان العلم والتربية .. ورأينا الاسلام قد تأخر بهم فى ميادين الكفايات والانتاج .. والعلة فى هذا الارتكاس ، أن القوم ضلوا عن هدى رسول الله ﷺ ، فزاغوا عن الصراط المستقيم » (٣٧) .

ويقول فضيلته : « لقد كان من أسباب انهيار الحضارة الاسلامية سوء الموقف من الدنيا وعلومها ، وبناء التربية الدينية على افتار غيبية شاعت بين فريق من المتصوفة والزهاد والفقهاء الصغار !! »
 « ولنفرق بين النوعين فى التذكر والتفكير .. فان الشائع بين جماهير العابدين الذكر العددي .. وهو ذكر تافه لا يفتح أغلاق القلب ، ولا يوسع آفاق النظر .. وصورته أن يردد اللسان اسماً من أسماء الله الحسنی عشرات أو مئات أو آلاف المرات .. وقد تضاحك الظرفاء لأن الذاكر الذى يصيح : « يا اللطيف » أعداداً متتابعة تتحول الكلمة على لسانه « فلى فلى » .. وهى كلمة تشببه بنغام الدواب ، ولا تعنى شيئاً !! »

« ان هذا الذكر قليل الغناء .. وقد استحسنه العباد من عند أنفسهم ، لا من عند الله .. فان الفكر الانساني المتعرف على ربه اشرف من ذاك وأجل .. »

« اذا قال الله تعالى : « انظروا الى ثمره اذا آثر وينعه ، ان في نلكم لايات لقوم يؤمنون » (٣٨) .. فهل هذا الأمر يعنى النظر المحالم ؟ ، أو النظر المقاصر ؟ ، أو النظر العقيم ؟ !

« وهل تكرار هذا النظر التافه ، يفيد يقظة أو ثقافة .. أو يقتق أمام العقل منفذاً يصله بعظمة الله وآياته ؟ ؟

« والواقع أنه ما يوجد في كتاب دين أمر بالنظر في الكون كالقرآن الكريم .. وما يوجد ناس في قرونهم الأخيرة هموا عن النظر في الكون كجمهور المسلمين » اهـ (٣٩) ..

ونقول : ولهذا لم ير الرسول ﷺ العدد — قل أو كثر — قيمة في الذكر .. روت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضى الله عنها ، أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها .. ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة ، فقلل : « ما زلت على الحال التي فارقتك عليها » ؟ . قالت : نعم .. فقال ﷺ : « لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته » (٤٠) .

وعن عمرو بن يحيى قال : سمعت أبي يحدث عن أبيه قال : كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة ، فاذا خرج

(٣٨) الأنعام : ٦٩

(٣٩) الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ، مرجع سابق ،

ص ٦٦ : ٦٧

(٤٠) رواد مسلم

مشينا الى المسجد .. فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال : أخرج اليكم أبو عبد الرحمن بعد ؟ قلنا : لا .. فجلس معنا حتى خرج ..

فلما خرج قمنا اليه جميعا ، فقال له أبو موسى : يا أبا عبد الرحمن ، انى رأيت فى المسجد أنفا أمراً نكرته .. ولم أر — والحمد لله — الا خيرا .. قال : فما هو ؟ .. قال : ان عشت فبستراه ، رأيت فى المسجد قوما جلوسا ينتظرون الصلاة ، فى كل حلقة رجل وفى أيديهم حصى ، فيقول الرجل : كبروا مائة .. فيكبرون مائة ، فيقول : هلوا مائة .. فيهللون مائة ، ويقول : سبحوا مائة .. فيسبحون مائة !!

قال : فماذا قلت لهم ؟ .. قال : ما قلت لهم شيئاً بانتظار رأيك ، وانتظار أمرك .. قال : أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم ، وضمنت لهم ألا يضيع من حسناتهم شيء ؟

ثم مضى ومضينا معه .. حتى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليها فقال : ما هذا الذى أراكم تصنعون ؟ !

قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح ..

قال : فعدوا سيئاتكم ، فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شيء !! ويحكم يا أمة محمد !! ما أسرع هلكتكم !! صحابة نبيكم متوفرون ، وهذه ثيابه لم تبل ، وآنيتها لم تكسر !! والذى نفسى بيده انكم لعلى ملة هى أهدى من ملة محمد ، أو مفتتحو باب ضلالة !!

قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا الا الخير !! قال : وكم من مرید للخير لم يصبه .. ان رسول الله ﷺ حدثنا : أن قوما يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، وأيم الله ما أدرى لعل أكثرهم منكم ..

ثم تولى عنهم !! يقول عمرو بن سلمة : رأيت عامة أولئك الخلق يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج !!

ولهذا يقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « اتبعوا
ولا تبتدعوا ، فقد كفيتم » ..

والبدعة — كما قدمنا — هي الطريقة في الدين منخرفة ، تضاهي
الطريقة الشرعية ، ويقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالشرعية .. أو يقصد
بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله تعالى ..

وما قامت العبادات ، الا على الاتباع المحض لما أمر الله تعالى
به ، وسنه رسوله ﷺ .. وانما الابتداع في العبادات هو الجور
والضلال ..

لقد زعم المشركون حين أرادوا تسويغ عبادة الأصنام أنها وسائل
الى الله تعالى .. وحين طافوا بالكعبة عرايا احتجوا لذلك بأنهم
لا ييغون الطواف بملابس عصوا الله تعالى فيها !!

ولهذا نرى الرسول ﷺ يقول — فيما يرويه مسلم — : « ان خير
الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد — ﷺ — وشر الأمور
محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » ..



● سئل « ابن تيمية » عن اجتماع الناس للذكر والتسبيح والتحميد
والتهليل والتكبير والحوقلة ، والصلاة على النبي ﷺ وما يصحب ذلك
من تصفيق وتمايل وانشاد .. فأجاب رحمه الله :

« الاجتماع لذكر الله تعالى ، واستماع كتابه والدعاء : عمل
صالح ، وهو من أفضل القربات والعبادات في الأوقات ..

ففي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « ان لله ملائكة سيازة
فضلا ، يتبعون مجالس الذكر ، فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم
وحف بعضهم بعضا بأجنتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا
.. فإذا افترقوا عرجوا وصعدوا الى السماء .. فيسألهم الله عز وجل
— وهو أعلم — من أين جئتم ؟ .. فيقولون : جئنا من عند عبادك في

الأرض : يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك .. قال : وماذا يسألونى ؟ .. قالوا : يسألونك جنتك .. قال : وهل رأوا جنتى ؟ قالوا : لا ، أى رب .. قال : فكيف لو رأوا جنتى ؟

قالوا : ويستجيرونك .. قال : ومم يستجيرونى ؟ قالوا : من نارك يارب .. قال : وهل رأوا نارى ؟ .. قالوا : لا .. قال : فكيف لو رأوا نارى ؟

قالوا : ويستغفرونك . فيقول : قد غفرت لهم وأعطيتهم ما سألوا ، وأجرتهم مما استجاروا ..

قال : فيقولون : رب ، فيهم فلان — عبد خطاء — انما مر فجلس معهم .. فيقول : وله غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » (٤١) .

ثم يقول ابن تيمية : « لكن ينبغى أن يكون هذا أحيانا فى بعض الأوقات والأمكنة .. فلا يجعل سنة راتبة يحافظ عليها الا ما سن رسول الله ﷺ المداومة عليه فى الجماعات ، من الصلوات الخمس فى الجماعات ، ومن الجمع والأعياد ونحو ذلك ..

» وأما محافظة الانسان على أوراد له من الصلاة أو القراءة أو الذكر أو الدعاء طرفى النهار وزلفاً من الليل ، وغير ذلك .. فهذا سنة رسول الله ﷺ والصالحين من عباد الله قديما وحديثا .. فما سن عمله على وجه الاجتماع كالمكتوبات فعل كذلك ، وما سن المداومة عليه على وجه الانفراد من الأوراد ، عمل كذلك ..

« كما كان الصحابة رضى الله عنهم يجتمعون أحيانا ، يأمرهم أحدهم يقرأ والباقيون يستمعون .. وكان عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يقول : « يا أبا موسى ، ذكرنا ربنا » .. فيقرأ وهم يستمعون .. وكان من الصحابة من يقول : « اجلسوا بنا نؤمن ساعة » ..

(٤١) كيف لا ؟ وقد اجتمعوا فى مجلس علم يتذكرون الجنة والنار ، ويرجون رحمة الله ويخافون عذابه ، والحديث رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

« وصلى النبي ﷺ بأصحابه التطوع في جماعة مرات .. وخرج على الصحابة من أهل الصفة وفيهم قارئ يقرأ فجلس معهم يستمع .. » وما يحصل عند السماع والذكر المشروع من وجل القلب ، ودمع العين ، واقتشعرار الجسوم .. فهذا أفضل الأحوال التي نطق بها الكتاب والسنة ..

« وأما الاضطراب الشديد ، والغشي ، والموت ، والصيحات .. فهذا ان كان صاحبه مغلوبا عليه لم يلم عليه — كما قد كان يكون في التابعين من بعدهم — فان منشأ قوة الوارد على القلب مع ضعف القلب ، والقوة والتمكن أفضل كما هو حال النبي ﷺ والصحابة .. وأما السكون قسوة وجفاء فهذا مذموم لا خير فيه .. »

« وأما ما ذكر من السماع .. فالمشروع الذي تصلح به القلوب ويكون وسيلتها إلى ربها بصلة ما بينه وبينها .. هو سماع كتاب الله الذي هو سماع خيار هذه الأمة .. لاسيما وقد قال ﷺ : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » .. وقال : « زينوا القرآن بأصواتكم » .. وهو السماع المدوح في الكتاب والسنة .

« لكن ، لما نسي بعض الأمة حظا من هذا السماع الذي ذكروا به .. أتقى الشيطان بينهم العداوة والبغضاء .. فأحدث قوم سماع القصائد والتصفيق والغناء .. مضاهاة لما ذمه الله من المكاء والتصدية ، والمشابهة لما ابتدعه النصارى .. »

« وقابلهم قوم قست قلوبهم عن ذكر الله . وما نزل من الحق ، وقست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، مضاهاة لما عابه الله على اليهود .. » والدين الوسط .. ما عليه خيار هذه الأمة قديما وحديثا ، والله أعلم « (٤٢) » .

● ويقول ابن القيم عن الرقص والتمايل ، وما يصحبه من غناء

(٤٢) الفتاوى الكبرى ، لابن تيمية ، ط دار المعرفة ببيروت ، ج ١ ،

وانشاد ، وسماع وتصفيق ، وضرب بالدفوف وقرع بالطبول ، وعزف بالزامير .. تلك الطقوس التي ابتدعها القوم عند الذكر :

« ومن مكاييد عدو الله ومصايده ، التي كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين ، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين : سماع المكاء والتصدية والغناء بالآلات المحرمة ، الذي يصد المقلوب عن القرآن ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان .. »

« فهو قرآن الشيطان ، والحجاب الكثيف عن الرحمن .. وهو رقية اللواط والزنا ، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى .. »
« كاد به الشيطان النفوس المبجلة ، وحسنه لها مكرا منه وغرورا .. وأوحى اليها الشبه الباطلة على حسنه ، فقبلت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجورا !! »

« فلو رأيتم عند ذياك السماع ، وقد خشت منهم الأصوات ، وهدأت منهم الحركات ، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه ، وانصبت انصبابة واحدة اليه .. فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان ، وتكسروا في حركاتهم ورقصهم رأييت تكسر المخانيث والنسوان !! »

« ويحق لهم ذلك وقد خالط خماره النفوس ، ففعل فيها أعظم ما يفعله حميا الكؤوس .. فلغير الله — بل للشيطان — قلوب تمزق ، وأثواب تشقق ، وأموال في غير طاعة الله تنفق !! »

« حتى اذا عمل السكر فيهم عمله ، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله .. واستفززهم بصوته وحيله ، وأجلب عليهم برجله وخيله .. وخنز في صدورهم وخزأ ، وأزهم الى ضرب الأرض بالأقدام أزا !! »
« فطورا يجعلهم كالحمير حول المدار ، وتارة كالدياب ترقص وسط الحيار !! »

« فيا رحمتا للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام .. ويا سواتنا من أشباه الحمير والأنعام .. ويا ثماتة أعداء الاسلام بالذين يزعمون أنهم خواص الاسلام » (٤٣) ا ه .

(٤٣) اغائة اللهفان من مصايد الشيطان ، لابن قيم انجوزية ،

ط دار التراث العربى ، ص ١٩٣ ، ١٩٤

[ونقول : وهل ما يفعله جهال الصوفية اليوم من التحلق والرقص ،
والتمثيل على أنغام الغناء والصياح ، والاهتزاز والتصفيق بالأيدي
والدبيب بالأرجل — مما يطلقون عليه زورا أنه ذكر لله !! — هل ما يفعله
هؤلاء الأغرار المفتونين إلا الفسوق والعصيان ، وذكر للشيطان من
دون الرحمن] ؟ !

ثم يقول ابن القيم — رحمه الله — واصفا حال هؤلاء القوم :
« قضوا حياتهم لذة وطربا ، واتخذوا دينهم لهوا ولعبا .. مزامير
الشيطان أحب اليهم من استماع سور القرآن !!
« لو سمع أحدكم القرآن من أوله الى آخره ، لما حرك له ساكنا ،
ولا أزعج له قاطنا ، ولا أثار فيه وجدا ، ولا قدح فيه من لواجع الشوق
الى الله زندا !!

« حتى اذا تلى عليه قرآن الشيطان ، وولج زموره سمعه تفجرت
ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت ، وعلى أقدامه فرققت ، وعلى
يديه فصفقت ، وعلى سائر أعضائه فاهترت وطربت ، وعلى أنفاسه
فتصاعدت ، وعلى زغراته فترايدت ، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت !!
« فيا أيها المفتون ، والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان
صفقة خاسر مغبون .. هلا كانت هذه الأتسجان ، عند سماع القرآن ؟ ..
وهذه الأذواق والمواجيد ، عند قراءة القرآن المجيد ؟ .. وهذه الأحوال
السنيات ، عند تلاوة السور والآيات ؟ !

« ولكن كل امرئ يصبو الى ما يناسبه ، ويميل الى ما يشاكره ..
والجنسية علة الضم قدرا وشرعا ، والمشاكلة سبب الميل عقلا وطبعيا !!
« فمن أين هذا الاخاء والنسب ، لولا التعلق من الشيطان بأقوى
سبب .. ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عقد الايمان وعهد
الرحمن خلا ؟ ؟

« أفتتخذونه ونزيتهم أولياء من دوني وهم لكم عدو ، بشئ
للظالمين بدلا « (٤٤) .

وقد أحسن القائل :

تلى الكتاب ، فأطرقوا ، لا خيفة .
وأبى الغناء ، فكألحمير تناهقوا
دف ومزمار ، ونغمبة شاحن
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا
سمعوا له رعداء وبرقاء ، إذ هوى
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن
وأبى السماع موافقا أغراضها
أبى المساعد للهوى من قاطع
ان لم يكن خمر الجسوم ، فإنه
فانظر الى النشوان عند شرابه
وانظر الى تمزيق ذا أثوابه
واحكم فأى الخمرتين أحق بالتح
لكه أطراق ساه لاهى
والله ما رقصوا لأهل الله
فمتى رأيت عبادة بملاهى ؟
تقييده بأوامر ونواهى
زجرا وتخويفا بفعل مناهى
شبهواتها ، ياويحها المتناهى
فالأجل ذاك غدا عظيم الجاه
أسبابه ، عند الجهول السامى ؟
خمر العقبول مماثل ومضاهى
وانظر الى النشوان عند ملاهى
من بعد تمزيق الفؤاد اللاهى
ريم ، والتأثيم عند الله ؟ (٤٥)

ويعقب ابن القيم على هذا بقوله :

« وقد تواتر عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال : « خلفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة — يسمونه التعبير — يصدون به الناس عن القرآن » ..

« فإذا كان هذا قوله فى التعبير ، وتعليقه أنه يصد عن القرآن .. وهو شعر يزهد فى الدنيا ، يغنى به من فيضرب بعض الحاضرين بقضيب على نطح أو مخدة على توقيع غنائهم — فليت شعري ، ما يقول فى سماع « التعبير » عنده كقطة فى بحر ، فقد اشتمل على كل مفسدة ، وجمع كل محرم .. فالله بين دينه وبين كل متعلم مفتون ، وعابد جاهل ..

« قال سفيان بن عيينة : « كان يقال : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل .. فان فتنتهما فتنة لكل مفتون » ..

« ومن تأمل الفساد الداخل على الأمة ، وجده من هذين
الفتونين » (٤٦) .

ويقول ابن القيم في قصيدة طويلة :

ذهب الرجال وحال دون مجالهم
زعموا بأنهم على آثارهم
لبسوا الدروق مرقعاً ، وتقفسوا
قطعوا طريق السالكين وغوروا
عمروا ظواهرهم بأثواب التقى
ان قلت : قال الله ، قال رسوله
أو قلت : قد قال الصحابة والأئمة
أو قلت : قال الآل ، آل المصطفى
أو قلت : قال الشافعي ، وأحمد
أو قلت : قال أصحابهم من بعدهم
ويقول : قلبي قال لي ، عن سره
عن حضرتي ، عن فكرتي ، عن خلوتي
عن صفو وقتي ، عن حقيقة مشهدي
دعوى ، إذا حققتها ألفيتها

تركوا الحقائق والشرائع ، واقتدوا
جعلوا المرافعة ، وألفاظ الخنا
نبذوا كتاب الله خلف ظهورهم
جعلوا السماع مطية لهوهم
هو طاعة ، هو قرينة ، هو سنة
شيخ قديم ، صادم بتحليل
هجروا له القرآن والأخبار والآ
ورأوا سماع الشعر أنفع للفتى

بظواهر الجهال والضلال
شطحا ، وصالوا صولة الأدلال
نبذ المسافر فضلة الأكال
وغلوا ، فقالوا فيه كل مجال :
صدقوا بذلك الشيخ ذي الاضلال
حتى أجابوا دعوة المجتال
ثار ، اذ شهدت لهم بضلال
من أوجه سبع لهم بتوالي

تأثله ما ظفر العدو به ثلها
نصب الحبال لهم ، فلم يقعوا بها
فاذا بهم وسط العرين مخرقى الأ
لا يسمعون سوى الذى يهوونه
ودعوا الى ذات اليمين ، فأعرضوا
خروا على القرآن عند سماعه
واذا تلا القارى عليهم سورة
ويقول قائلهم : أطلت وليس ذا
هذا ، وكم لغو ، وكم صخب لهم

* * *

حتى اذا قام السماع لديهم
وامتدت الأعناق ، تسمع وحى ذا
وتحركت تلك الرؤوس ، وهزها
فهناك الأشواق والأشجان والأ
تأله لو كانوا صحاة أبصروا
لكنما سنكر السماع أشد من
فاذا هما اجتماعا لنفس مرة

* * *

يا أمة لعبت بدين نبيها
أشتمتموا أهل الكتاب بدينكم
كم ذا نعر منهم بفريقكم
قالوا لنا : دين عبادة أهله
بل لا تجيء شريعة بجوازه
لو قلتموا فسق ، ومعصية وتر
ليصد عن وحى الاله ودينه
كنا شهدنا أن ذا دين أتى
والله منهم قد سمعنا ذا الى الآ
..... (٤٧)

خشعت له الأصوات بالاجلال
ك التسنيع من فترنم قوال
طرب ، وأشواق لنيل وصال
حوال ، لا أهلا بذى الأحوال
ماذا دهاهم من قبيح فعال
سكر المدام ، وذا بلا اشكال
نالت من الخسران كل منال

كتلاعب الصبيان فى الأحوال
والله لن يرضوا بذى الأفعال
سرا وجهلا عند كل جدال
هذا السماع ، فذاك دين محال
فسلوا الشرائع تكتفوا بسؤال
ين من الشيطان للأندال
وينال فيه حيلة المحتال
بالحق ، دين الرسل ، لا بضلال
ذان من أفواههم بمقال

وهى قصيدة طويلة .. اكتفينا منها بهذه الأبيات ، لكي ندلل على
فساد عقيدة القوم فى الانشاد والسماع — اللذين ينسبونهما زورا
ويهتانا الى اذكر والمديح — وما هما من ذكر الله أو مديح رسوله
ﷺ ، والاسلام منه براء !!

لقد ذم الله تعالى أهل الكتاب بابتداعهم الرهبانية فى دينهم ..
فقال : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله
فما رعوها حق رعايتها ، فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم
فاسقون » (٤٨) .

فلماذا نبتدع فى دين الله ما لم ينزل به سلطانا ؟ !
لماذا فنسب الى الرسول ﷺ التقصير فى البلاغ ، فندخل فى
عبادتنا ما لم يأتنا به ؟ !
لماذا لا نعود الى كتاب ربنا ، وسنة نبينا .. لنأخذ منهما
لديننا ودنيانا ؟ !

لماذا يتمسك البعض منا بهذه البدع المنكرة .. فى حين نرى
بعض شيوخ الصوفية نفسها ينكر هذه البدع على أصحابها ويعدها من
الدخيل والدسييس الذى تسلك الى الصوفية فأفسدها وأساء اليها ؟ !
سئل فضيلة الشيخ محمد زكي ابراهيم^(٤٩) : عن استخدام الرقص
والطبل والزمر والغناء ، وغيرها من الحركات غير اللائقة فى كثير من
حلقات الذكر !!

كما سئل : عن تحريف أسماء الله تعالى باصدار الأصوات الساذجة
غير المفهومة !!

فأجاب فضيلته : « أما استخدام الرقص ، والطبل ، والزمر ،
والغناء — فيما يسمى حلقات الذكر — فليس من دين الله — قولا
واحدا — سواء عند أئمة انصوفية أو غير الصوفية .. وانما هو من الدخيل
والدسييس الذى تسلك الى التصوف فأفسده وأساء اليه .

(٤٨) الحديد : ٢٧

(٤٩) شيخ الطريقة المحمدية الشافعية ، ورائد العشيرة المحمدية ...

« ينقل الشيخ « ابن الحاج » في « مدخل الشرع الشريف » :
« قلنا : وقد عاب الله نحو ذلك على المشركين من قبل فقال : « وما كان
صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية » (٥٠) — يعنى تصفيرا وتصفيقا —
وهما من لوازم الطبل والزمر والرقص !!

« ان الرقص والطبل والزمر ، لا شك هو لهو ولعب ، فاذا اتخذناه
دينا كان افتراء على الله ، وهو تعالى يقول : « وذر الذين اتخذوا
بينهم لعبا ولهوا » (٥١) .

« ويقول : « الذين اتخذوا بينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا ،
فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون » (٥٢) .
« والله تعالى .. لا يأمر بترك شيء هو قرينة اليه .. فاذا كرر
الأمر كان معنى ذلك أنه شيء يغضب له غضبا مضاعفا ، لما فيه من
تعد عن حدوده تعالى ، وعلى حدوده ..
« يقول شاعر الصوفية :

يا عصبية ، ما ضر أمة أحمد . وسعى على أشسادها الا هي
طار ، ومزمار ، ونغمة شادن . أتكون قط عبادة بملاهي !!
« وانما يعبد الله بما شرع ، وفيما شرع الله تعالى سعة وكفاية ،
ومتعة روحية بغير حدود .. والعبادة جد كلها ، وهو تعالى يقول :
« لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين » بل نقذف
بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » (٥٣)
ومن شاء لهوا مباحا ، فليبتعد به عن العبادة وعن التصوف . (٥٤) .

ثم يقول — جزاه الله خيرا — : « أما تحريف أسماء الله الحسنی
فی حلقات الذكر .. فاجماع أئمة التصوف على أنه حرام موبق ..
وحسبك فيه قوله تعالى : « والله الأسماء الحسنی فادعوه بها ، وذرُوا

(٥٠) الأنفال : ٣٥ (٥١) الأنعام : ٧٠

(٥٢) الأعراف : ٥١ (٥٣) الأنبياء : ١٧ - ١٨٠

(٥٤) راجع مجلة التصوف الاسلامی — العدد ٧٢ — جہادی الأولى

سنة ١٤٠٥ هـ (نبرابر سنة ١٩٨٥ م) ، ص ٢٨ ، ٢٩

الذين يلحدون في أسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون » (٥٥) .. فهذا أمر بالذكر مع نهى شديد عن تحريفه والتحذير من الصلة بمن يحرفونه — أى يلحدون فيه — وإعلان أنهم سيجزون بسوء عملهم ، فيكون هذا الإعلان بمثابة انذار ونهى شديد مكرر حتى تدع من يحرفون أسماءه تعالى .. فكيف يحكم المحرفين أنفسهم ؟ !

« وهذا الإلحاد يشمل نحو قولهم « ها .. ها » أو « هي .. هي » أو « آه .. آه » ، وغير ذلك من الأصوات الباذجة الحمقاء ، التي لا تكون أبدا من كرام الناس ولا أفاضلهم .. لا أسلوبا ولا أداء .. لكن المأخوذ عن نفسه لا يؤاخذ لأنه ممن رفع عنه القلم (١١) — ولهذا وجبت التفرقة الشرعية بين هذا وذلك .. »

« وفي هذا يقول الشيخ « الأتخضري » في أرجوزية الصوفية : أبقوا من اسم الله حرف الهاء فألحدوا في أعظم الأسماء لقد أتوا ، والله ، شيئا أدا تخر منه الشامخات هذا » ويلحق بهذا ، نطقهم باسم الله على غير وصفه الشريف .. من نحو ضم ألله الأولى ، أو كسرهما ، مع قصر ألفه الوسطى ، ومع تخفيف لامه أو تغليظها مما يخرجها عن منطوقه القرآني إلى منطوق سوقى محرم .. وخصوصا مع ما يسمونه « الدوكة » — أى تغليظ الصوت « اه (٥٦) .. »

وبعد .. لقد سمى الله تعالى الامتثال لهديه وطاعته في الحياة الدنيا ذكرا .. واعتبر من أعرض عن الهداية ونبذ الطاعة معرضا عن ذكره ، وكما كان الانسان غافلا في دنياه ، متعاميا عن تعاليم الله وهدى رسوله ، فسوف يكون يوم العرض فاقدا للحجة ، عاجزا عن المدافعة ..

لقد تعامى في الدنيا ، لذا يعميه الله في الآخرة .. وسينجد أمامه

(٥٥) الأعراف : ١٨٠

(٥٦) مجلة التصوف الاسلامي — مرجع سابق ص ٢٩ ..

من العذاب والصغار والهوان ، ما يهون الى جانبه كل عنت وضيق
وشدة مرت به فى حياته الدنيا .. جزاء وفاقا لتغافله وتعاميه عن
هدى الله ورسوله ..

يقول تعالى : « ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره
يوم القيامة أعمى » قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا .
قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى « (٥٧) » .
ولقد سمى الله تعالى القرآن ذكرا فقال : « انا نحن نزلنا الذكر
وانا له لحافظون » (٥٨) .

وسمى الصلاة ذكرا فقال : « وأقم الصلاة لذكرى » (٥٩) .
وسمى السعى فى سبيل الرزق الحلال بعد أداء الصلاة ذكرا فقال :
« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله وانكروا
الله كثيرا لعلكم تفلحون » (٦٠) .

واعتبر — تعالى — الاعراض عن اتباع هداه اعراضا عن ذكره ..
فهل ما نراه اليوم .. من رقص وتمايل وتحفيق وتطويل وتزوير ،
والحاد فى أسمائه تعالى : هو ذلك الذكر الذى يريده الله منا ؟ !

أليس ما نشاهده اليوم من بدع فى الدين هو الاسراف بعينه ؟ !
ألم يتوعد الله المسرفين الغافلين عن آيات ربهم ، المبتدعين فى
دينهم بقوله جل شأنه : « وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ،
ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » (٦١) ؟

هل ما نراه اليوم من هذه البدع المنكرة ، هو الوقار المطلوب
منا لله تعالى ؟ !

اللهم انا نعوذ بك من الزيغ والضلal ، ونسألك الهدى والتقى

والرشاد ..

(٥٨) الحجر : ٩

(٦٠) الجمعة : ١٠

(٥٧) طه : ١٢٤ — ١٢٦

(٥٩) طه : ١٤

(٦١) طه : ١٢٧

ولا نجد ما نقوله للاخوة الذين أزاغهم الشيطان ، فأبعدهم عن الطريق الواضح للإسلام الا أن نقول كما قال الرسول ﷺ لأهل الكتاب ، امتثالا لأمر ربه : « تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا شريك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا آربابا من دون الله » (٦٢) .

تعالوا بنا الى طريق الاسلام الواضح البين .. فلا نعبد غير الله ، ولا ندعو غير الله ، ولا نأمل في غير الله ، وأن نبرأ من كل معبود سواه .. ولا نشرك في عبادتنا له تعالى وثنا أو صنما أو صليبا أو شيئا أو طاغوتا .. وألا يدين بعضنا لبعض بالطاعة في معصية الله .. فلا نعظم ولا نطوف ولا نتوسل بحى أو ميت .. انما نتوسل الى الله تعالى بأسمائه وصفاته ، ونتخذ من أعمالنا الصالحة الوسيلة الى التقرب اليه تعالى بطاعته وامتثال أوامره ..

هذا ما نقوله لاختوتنا الذين ضلوا السبيل .. فان هم أعرضوا عما ندعوهم اليه من الكلمة السواء التى أمر الله نبيه ﷺ باعلانها. واضحة جليلة .. فما علينا الا أن نقول لهم — كما أمرنا الله تعالى من قبل : « اشهدوا بأننا مسلمون » .. آمنا بالله وحده رباً .. وبالرسول ﷺ نبيا ، ومعلما وعاديا ومرشدا .. ولنا فى سنته ﷺ الأسوة كل الأسوة .. وفى سيرته وحياته ومماته ، البقدوة كل البقدوة .. وانا لله وانا اليه راجعون ..

الفصل الحادى عشر

ضلالات .. وانحرافات

يقول الله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولوا الأبواب » (١) .

فالله تعالى .. أنزل القرآن على رسوله ﷺ .. فيه آيات واضحة بينات ، قد أحكم بالبيان والتفصيل : فى الوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، والحلال والحرام ، والعظمت والعبر .. هذه الآيات من أصل الكتاب الذى فيه عماد الدين ، من الفرائض والنسب ، والأحكام ، وسائر الأمور الضرورية ..

والى جانب هذه الآيات المحكمات .. آيات آخر متشابهات فى التلاوة ، مختلفات فى المعانى ..

والمحكم .. هو ما عرف العلماء تأويله ، وفهموا معناه وتفسيره ..

والمتشابه .. ما لم يكن لأحد الى علمه سبيل ، مما استأثر الله عز وجل بعلمه دون خلقه ، كوقت خروج عيسى عليه السلام ، ووقت طلوع الشمس من مغربها ، وقيام الساعة ، وفناء الدنيا .. وما أشبه ذلك ..

ونحن نرى الذين فى قلوبهم ميل عن الحق وانحراف عنه ، يتبعون من أى الكتاب ما تشابهت ألفاظه ، ارادة اللبس ، وطلبوا لتفسيره على أهوائهم الباطلة ، دون الحق الذى أبانه الله تعالى فأوضحه بالمحكم من آياته ..

ولا يعلم معنى التشابه الا الله وحده ..
ولهذا نرى العلماء المتمكنون في العلم يقولون : صدقنا بالتشابه
من الكتاب وان لم نعلم تأويله .. فان كلا من المحكم والتشابه منزل
من عند الله تعالى .. وما يتذكر ويتعظ الا أصحاب العقول ،
ولهذا يقولون : « ربنا لا ترغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك
رحمة ، انك أنت الوهاب . ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ،
ان الله لا يخلف الميعاد » (٢) .

أي يقولون : الهنا وربنا .. لا تمل قلوبنا فتصرفنا عن هداك بعد
اذ هديتنا قوفقتنا للايمان ، وامنحنا يارب من عندك رحمة ، وتوفيقا
وثباتا على الحق ، فانك أنت المعطي عبادك التوفيق والسداد .. ربنا
انك جامع الناس في يوم القيامة - الذي لا شك فيه - فاعفر لنا ياربنا
في ذلك اليوم وارحمنا : فانك لا تخلف وعده لمن آمن بك واتبع رسولاك ..

وهكذا .. نرى الناس ينقسمون في عقائدهم الى ثلاثة أنواع ..
اولوا الألباب .. وهم الذين يتمسكون بالكتاب والسنة ..

والذين في قلوبهم زيغ .. وهم الذين يجرون خلف كل شبهة ..
أما الفريق الثالث .. الذين لا عقيدة لهم ، ولا رأي عندهم ..
المدبذبين بين هؤلاء وهؤلاء .. فلا قيمة لهم ولا وزن .. يعيشون على
هامش الحياة ، يأتون الى الدنيا ويهضون عنها ، وما يحس بهم من أحد ..
فكانهم ما كانوا !!

وليس أخطر على العقائد الدينية من الغموض وعدم الوضوح ..
اذ أنهما يحملان في طياتهما عوامل الهدم لهذه العقائد .. تماما كالسوس
ينخر في أساس البناء الى أن يحيله أنقاضا دارسة ، سرعان ما تترول
وتتلاشى !!

ولهذا كان الاسلام واضحا كل الوضوح .. والمسلم الذي ينتسب

الى عقيدة الاسلام يعرف كل ما يهمه - فى امر الدين الذى انتسب
اليه - بوضوح وجلاء ..

وحين يقول تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم » (٢) .. فان الوضوح
والجلاء من عوامل الكمال لهذا الدين ..

ولذا لم يكتم الرسول ﷺ من امر الدين شيئاً ، ولم يحطه بهالات
من الغموض والأساطير والخيبيات التى يعجز العقل عن تفسيرها ..
بل تركنا على المحجة البيضاء .. ليلها واضح جلى فى وضوح
وجلاء نهارها ..

ولكن الصوفية تقول : ان علمها لا يقرأ فى الكتب ولكنه معانى
يقذفها الله تعالى فى قلوب المريدين .. ومن هنا فتحت الباب واسعا
لادعاء المدعين ، وباطل المبطلين !!

وفى كل عصر ، لا يعدم الناس ادعياء .. بدءاً من فرعون الذى
ادعى الألوهية ، ومروراً بكذاب اليمامة الذى ادعى النبوة .. وانتهاء
الى كل دعى كذاب ، يدعى لنفسه ما ليس لها .. فهكذا حال الدنيا !!

* * *

● شيخ طريقة .. يدعى النبوة :

فى صبيحة أحد الأيام (١) .. طالعتنا صحف الصباح باكتشاف
تنظيم دينى يتعارض مع أحكام الشريعة الاسلامية .. بعد أن ادعى
طبيب من الاسكندرية يدعى « صلاح فهميم بريقع » النبوة واتخذ من
مسكن أحد أتباعه - من الأطباء - مركزاً لعقد ندواته مساء الخميس
من كل أسبوع .. الى أن ألقى القبض عليه وثلاثين من أتباعه - الذين
آمنوا به - من الرجال والنساء !!

وكانت بداية الخيط الذى قاد الى اكتشاف هذا التنظيم .. بلاغا
تقدم به زوج ابنة الطبيب الدجال الى أحد أقسام الشرطة بالاسكندرية
ضد صهره قال فيه : ان الدكتور - الداعى - يتزعم جماعة يؤمنون بأنه
نبي .. بعد تجسد شخصية النبي محمد - ﷺ - فى شخصه !!

(٢) المسألة : ٣

(٤) يوم الاثنين ١٨ من فبراير سنة ١٩٨٥

وقال صاحب البلاغ : بأن صهره يقيم جلسات لأتباعه أسبوعيا بمنزل أحد الأطباء من مريديه .. يقوم خلالها بتفسير القرآن الكريم تفسيراً خاطئاً .. ويقدم بعضاً من الأحاديث المزعومة وعبارات ركيكة أخرى .. يقول عنها انها تنزيلات ووحى أنزل عليه أثناء الصلاة !!

وقال المبلغ : انه واطب على حضور هذه الجلسات لعدة أشهر ، وأنه صدم في نهايتها بهذه الأفكار الخبيثة التي تشوه الاسلام .. ثم قدم مجموعة من الأشرطة التي تؤكد كلامه ، ومسجل عليها جلسات الجماعة !!

كان هذا هو الخيط الأول الذي قاد أجهزة الأمن الى حقيقة هؤلاء الناس وضبطهم ..

بدأ الطبيب الدجال — الذي يبلغ من العمر ٦٦ عاماً — ممارسة نشاطه الهدام لأركان الدين الاسلامي في الستينات على أساس أنه يدعو لاقامة جماعة صوفية .. فأعلن لمجموعة من أصدقائه بأنه من أولياء الله الصالحين .. الذين اصطفاهم الله لهداية المسلمين والدعوة لفعل الخير بينهم من خلال طريقة صوفية باسم « الطريقة القاسمية الشاذلية » .. ولكن بعض المواطنين الذين كانوا على وعى ديني رفضوا فكره وأبلغوا عنه ، فجمد نشاطه !!

ثم عاود الكرة في السبعينات ، وانصرف عنها مرة أخرى .. الى أن بدأ يزاول نشاطه ويدعو لطريقة صوفية جديدة أسماها : « الطريقة الصلاحية الشاذلية المحمدية الزينية » !!

وفي هذه المرة .. انخدع بعض المحيطين به ، وصدقوا ادعاءاته الكاذبة بأنه من أولياء الله المتصلين بالأنبياء والرسل ، وأن الله اصطفاه داعياً للخير بين المسلمين ، واتصاله أيضاً بالسيدة زينب رضي الله عنها !!

ومن هنا بدأت الأفكار المسمومة تظهر على السطح .. حيث أصبحت لقاءاته مع أتباعه ومريديه منتظمة ، فادعى نزول الوحي عليه أثناء الصلاة .. وقال بقدرته على غفران الذنوب .. وما زال يروج هذه

الأفكار حتى أعلن أن النبى محمداً ﷺ قد عاد متجسداً فى شخصه .. ثم قسم أتباعه الى قسمين : ملوك ، وهؤلاء يؤمنون بنبوته .. وصعاليك ، وهؤلاء الذين لم يصلوا بعد الى مرتبة الايمان بنبوته !!

ظل هذا الطبيب الدجال يعقد الندوات كل يوم خميس بمسكنه .. الى أن استضافته طبية من أعوانه منذ عام ١٩٨٣ .. وخصصت له حجرة فى شقتها حيث كان يرتدى جلباباً أبيض ، وينام على سرير بجواره مرآة بطول الحائط ، وحوله أجهزة تصوير الفيديو وأشرطة الكاسيت .. ليأخذ عنه مريدوه من أحاديثه !!

وكان يفسر فى هذه الجلسات الأسبوعية القرآن ويؤوله حسب مزاجه الخاص وأفكاره المسمومة .. حيث حرم على أتباعه الحج الى مكة ، لأن الناس أصبحوا لا يذهبون الا للتجارة .. والحج يكون له هو .. وحرم عليهم الزكاة ، وأداء صلاة الجمعة ، لعدم وجود امام من قريش فى هذا الزمان !!

وعند مداومة أجهزة الأمن لقر ذلك الطبيب الدجال .. عثرت على ١١٧ شريط كاسيت ، و ١١ شريط فيديو .. مسجلاً عليها لقاءاته مع أتباعه الذين اقتنعوا بعقيدته الفاسدة .. كما تم العثور على زجاجة خمر بجوار سريره ، ومستندات شهادات استثمار على أحد البنوك بالاسكندرية تزيد قيمتها عن المليون جنيه !!

وقد تمكن - النبى الدجال - من السيطرة على أتباعه .. والغريب فى الأمر أن بينهم صفوة من الأطباء والمتقنين ، وأصحاب الوظائف الحساسة .. الذين قسمهم الى ملوك وصعاليك (١١) وكان الملوك - وهم الخاصة المقربون منه - يجلسون على « المفوتيات » .. أما أتباعه الآخرون من الصعاليك فيجب أن يجلسوا على الكراسى ، لأنهم فى مرتبة أدنى من الملوك !!

ويجىء على رأس هؤلاء الملوك « سيدى عبد العزيز » .. الذى ادعى الدجال أنه ينزل عليه الوحي فى منامه ، ويأتيه بالأحاديث الباطلة

الكاذبة ، التي يراها فى منامه ثم ينشرها بين أتباعه ويدعوهم فيها الى حفظها بدلا من القرآن الكريم ، لأنه يصعب عليهم حفظه !!

كما تأتى على رأس الملكات .. زوجته التى أسماها « الملكة المعظمة نجاح » ، والملكة « نجوانا » — الطيبة التى استضافته فى بيتها — وقد كتب فيها حديثا ادعى الدجال نسبه الى النبى ﷺ وقال فيه : « لأن فى قلب « نجوانا » عقيدة لا تنتهى ولا تلين ، ولأن حب « نجوانا » لنا هو اليقين ، ولأن من خلق « نجوانا » لا تأخذ الا ما هو فل وما هو ريحان وما هو ياسمين ، ولأن « نجوانا » فى عطائها لنا لا تبخل علينا بالغالى ولا بالثمين .. فاننا « لنجوانا » لمحبين ، وانا « لنجوانا » محافظين ، وانها حقا لأم للمؤمنين ، وامام للمحبين ، وملكة على عرش قوى متين ، فوالله انها لمن الصابرين ، فوالله انها لمن الصادقين ، فوالله انها لمن المتقين ، فوالله انها لبشرى لها انها ستكون يومئذ من الصالحين فى أعلى عِلِينَ » (٥) !!

وكان — شيخ الطريقة الدجال — يقبل الرجل من أتباعه فى فمه ثلاث قبلات .. أما المرأة أو الفتاة فيقبلها فى فمها عشر قبلات .. ومن يرضى عنها يقبلها ٢١ قبلة ، ويسمونها « العدد الأقدس » وهى منتهى رضاه عن أتباعه !!

وتبدأ طقوس الجلسات الأسبوعية .. بأن يبدأ المريدون بخلع أحذيتهم قبل الدخول عليه ، ليقوموا بتقبيل قدمه ويده .. ثم تقرأ الغاتحة قراءة جماعية ، ثم التسبيح ، فالصلاة على النبى ﷺ .. ثم يبدأ « سيدى عبد العزيز » فى التحدث عن الرؤيا التى رآها فى منامه .. وعادة ما يصف شيخه الدجال بأوصاف الرسول ﷺ .. ثم يقوم مثل عضو من الأتباع بعرض الأحلام التى شاهدها فى نومه طوال الأسبوع .. ليقوم شيخ الطريقة مدعى النبوة بتفسيرها ..

(٥) رابع جريدة ازهرام القاهرية الصادرة صبيحة الاثنين ٢٨ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٥ هـ (١٨/٢/١٩٨٥ م) ومجلة اللواء الاسلامى — العدد ٢١٠ — ١٩ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٦ هـ (٢٠/١/١٩٨٦ م)

وهو يتقسم الرؤيا أو الأحلام الى نوعين .. الأولى : الرؤيا الرحمانية ،
وهي التي يرى فيها المرید الرسول ﷺ في الحلم .. والثانية : الرؤيا
الشیطانية ، وهي ما دون ذلك !!

ثم يبدأ — شيخ الطريقة الدجال — في تفسير آيات من القرآن
الکریم .. لا تمت الى أية تفسيرات سابقة عليها بصلة .. وكلها دجل
يخدع فکر الطیب المنحرف !!

وتتبرى واحدة من الجالسات .. وتقص عليه حلما شاهدته فيه نائما
والى جواره الملكة « نجوانا » فيعظم لها أجرها ويستدعيها ليقبلها
عشر قبلات !!

وحدث أن رفضت واحدة — حضرت مع زوجها — أن يقوم الدجال
بتقبيلها ، فأمر الزوج بتطليقها قائلا : « النساء خلقن من ضلع أعوج
لا يعلهن الا الطلاق » .. ولم يجد الزوج أمامه الا الاتفاق مع زوجته
على ادعاء الطلاق ، فيعود الشيخ ويأمر بتغريمه خمسمائة جنيه ،
لكن الرجل لا يجد ما يسد به هذه الغرامة ، فيحاول بيع مصاغ زوجته
التي ترفض ، ويتوجه الزوج الواقع تحت تأثير الشيخ الدجال ليعلن
فشله في ضم زوجته واقناعها بأن القبلة « نعمة » ، فيشن الشيخ حملة
في كل مجالسه على الزوجة بأفزع السباب !!

وفي إحدى الجلسات المسجلة بصوت الدجال .. قال بالحرف
الواحد ليوهم أتباعه أنه نبي : « الماكة » ألفت — قاصدا واحدة من
أتباعه — رأيتي كتلة من النور ، وقالت لي : أنت حضرة النبي ، لأنه
لا توجد كتلة من النور الا في حضرة النبي » !!

ويضيف : « كان فضل الله على عظيم يوم أن جعلني ملكا في
طريق الله ، وأكثر من ذلك الكرم كرما ، وأعظم من ذلك الفضل فضلا :
أن نفحنى رؤيا حضرة النبي عليه الصلاة والسلام وآل بيته الكرام ،
في اليقظة والمنام ، فضمنت الدنيا والآخرة » !!

ويقول الدجال في أحد أتباعه : « الناس الذين لديهم استعداد
طيب للعقيدة ، هم الذين يستعملون قلوبهم ، أما الذين يستعملون

عقولهم ، فالشيطان شريك لهم بنسبة تسعة من عشرة .. ويتساءل الناس : لماذا تنتزل التنزيلات على «سيدى عبد العزيز» دون سواه .. وأريد عليهم بأن له قلبا صافيا شفافا ، ولا تنتزل التنزيلات على كل الناس !!

عرضت قضية الطبيب الدجال الذى اتخذ التصوف عباءة يستتر وراءها على المحكمة .. التى تقدمت بطلب الى الأزهر بتشكيل لجنة من كبار العلماء لمناقشة هذه الأفكار المسمومة .. وتكونت هذه اللجنة برئاسة مدير عام البحوث والنشر بمجمع البحوث الإسلامية .. وقامت اللجنة بسماع ومشاهدة الأشرطة المصبوطة .. ثم قالت فى تقريرها: «ان اللجنة فزعت مما رأت وسمعت .. وهى أى اللجنة تبذى أسفها وألمها لما رددته فى هذا التقرير من ألفاظ وردت على لسان «الدكتور صلاح بريقع» وتابعيه .. وتبرأ الى الله من أفكاره وألفاظه حيث قام بالتطاول على رب العزة ، وسلب بعض اختصاصه ، وتحريف الآيات القرآنية تأويلا فاسدا بما يتفق مع أهدافه التى لا تتفق مع دين الله ، وقام بإدعاء النبوة بالاضافة الى الطعن فى الأنبياء ونفى العصمة عنهم والادعاء بكذب بعضهم ، وعدم اكتمال ايمان بعض هؤلاء الأنبياء .. بل وجعل مكانة مريديه فوق الأنبياء ، ثم طعن فى صحابة رسول الله ﷺ وعرض بأسماء المؤمنين !!

وقال تقرير اللجنة أيضا : « ان فكر هذه الجماعة الضالة .. جعل قائدها « بريقع » على كل شئ قديرا ، يعطى ويمنع ، ويجبى ويميت ، ويحل ويحرم ، يغفر الذنوب ويضاعف الحسنات ، بل انه جعل من زوجة صديقه المسماة بـ « نجوى » الجديرة الوحيدة بلقب أم المؤمنين .. وأعطى لنفسه فقط حق تقبيل النساء بدعوى أنها « قبلات محمدية » .. بل لقد وصلت سموم فكره الى أن جعل الرؤيا والأحلام التى يراها أتباعه بمنزلة الوحي ، وتنزيلا كالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، ونسب الى «انبنى ﷺ كذبا لم يقله !!»

● ثلاثة مهديون .. فى وقت واحد :

كشف وقوع هذه الجماعة فى يد أجهزة الأمن .. أن هناك جماعات منحرفة أخرى .. تنسجى بالعباءة الصوفية ، وتنتشر أفكارها الغربية تحت ستار الدعاوى الإسلامية ..

والمثير أن قائد كل جماعة — من الجماعات الجديدة التى كشف الستار عنها — كان يزعم أنه المهدي المنتظر — بعد أن سقط مدعى النبوة الكاذب فى الاسكندرية وحكم عليه بالسجن خمسة أعوام — وكان كل منهم يدعى أنه يتلقى الوحي ، ثم يستغل ذلك فى إعفاء أتباعه من أركان الإسلام ، والقيام بممارسات غير مشروعة لا تتفق مع مبادئ الدين الإسلامى .. أو أى دين آخر !!

وبينما كانت قضية الطبيب الدجال تنتظر فى ساحة القضاء .. طالعتنا الصحف^(٦) نبأ مؤداه سقوط ثلاث مجموعات أخرى تضم ٤١ عضواً .. اثنتان منها فى القاهرة ، والثالثة فى أسوان !! ومثلما حدث، مع مجموعة الاسكندرية .. ضبطت أجهزة الأمن لدى هذه المجموعات كميات كبيرة من شرائط الكاسيت مسجلة عليها معتقدات وأفكار هذه الجماعات الضالة .. بالإضافة الى عدة كتيبات ونشرات وتعليمات تتضمن تفسيرها للقرآن والسنة ، ومعدة للتوزيع على الجماهير !!

● المجموعة الأولى : يرأسها شخص اسمه « حسين محمد على حامد عبرى » — وشهرته « عبد الله الكاسى » — من مواليد ادفو بأسوان عام ١٩٢٧ .. وكان يعمل مخبراً فى مباحث الآداب بالقاهرة منذ عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٦٣ .. ثم استقال وعمل ملاحظاً للأمن بشركة النصر للتليفزيون .. ويعمل حالياً « كومسيونجى » فى تجارة الورق !!

وكما فعل دجال الاسكندرية .. ادعى « حسين عبرى » أنه ينتسب الى الطريقة الصوفية المعروفة « بالعزمية » — بعد أن وجد

(٦) صبيحة يوم الاربعاء ١٥ من يناير سنة ١٩٨٦

فى القستر وراء عباءة الصوفية النضفاضة وعلمها — الذى لا يؤخذ من الكتب — خير وسيلة لممارسة دنجله ..

وشىخ هذه الطريقة الجديدة — سبق اتهامه عام ١٩٨١ فى قضية مماثلة .. حيث كان يدعى أنه « المهدي المنتظر » .. فقد كان أقل طموحا من « الدكتور بريقع » فلم يدع النبوة .. الا أنه أفرج عنه حيث عاود مباشرة أنشطة جماهيرية واسعة النطاق فى اتجاه اتهام الناس بأنه « المهدي المنتظر » وأنه يتلقى الوحي عن الرسول ﷺ فى علوم دينية وروحية .. حتى نجح فى استقطاب مجموعة تعتق أفكاره وتسعى لترويجها فى القطاعات الجماهيرية !!

اتخذ شىخ هذه الطريقة من محل اقامته « برغلة يولاى » مقرا يعقد فيه لقاءات دورية .. تضم أتباعه ومريديه — ممن ينتمون الى قطاعات جماهيرية مختلفة — يجرى خلالها الاستماع الى دروسه وتفسيراته ، وتداول المواد المسجلة على شرائط كاسيت ، التي تتضمن منهجه وأفكاره .. وتشمل طرح نظرية مؤداها : أن الكون عبارة عن دورات متعاقبة ، ويموجب هذه الدورات ، فإن الله تعالى خلق آدم عليه السلام نبيا ، فظهر فى صورة موسى ومحمد عليهما السلام .. ثم يخلص من ذلك الى أن الرسول ﷺ هو نفسه المهدي المنتظر (١١) ، وأنه فى الدورة الحالية للكون يكون هو شخصا « عبد الله المهدي » — أى أنه حاليا ، ومنذ بضعة وخمسين سنة فى الدورة الحالية — هو المهدي المنتظر !!

يقول « حسين عبرى » : ان هناك عملية تتم ، هى تناسخ الأرواح ، بحيث يولد الانسان أكثر من مرة فى أكثر من فترة زمنية (١١) .. ويقول : ان أول دورة له كانت فى آدم نفسه ، ثم الدورة الثانية فى نوح ، والثالثة فى إبراهيم الخليل ، ثم يوسف عليه السلام ، ثم موسى ، ثم داوود .. الى أن وصل من جميع الأنبياء الى سيدنا محمد ﷺ !! أى أنه هو الروح الواحدة المكررة فى جميع أجساد الأنبياء ، (٢٧ — الله توحيد)

وأنه مات وبعث ١١٢١ مرة !! ويفسر قول الله تعالى : « ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » (٧) .. أن المعاد هو الدورة — المزعومة — وأنها تبشر به شخصيا !! ويقول : « اننى بعثت قبل ذلك فى صورة أبدان أخرى ، وأن البعث المشتمل اليه فى قوله تعالى : « وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث » (٨) : فهذا يوم البعث ولكنكم لا تعلمون .. هو البعث الدنيوى الجسدى ، أى عودة الأنبياء فى دورته الجديدة !!

وينزع أنه هو المقصود بكلمة « الساعة » فى قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتى السماء دخان ميين » (٩) .. أى يوم يأتى هو فى دورة جديدة !!

كما يفسر قوله تعالى : « فقد جاء أشراطها » (١٠) .. على أنها الشرائط التى يسجلها هو بصوته !!

ونظرح المهدي المزعوم .. تفسيراً عجيباً للقرآن الكريم يعتمد على تقسيم آياته الى قسمين .. قسماً « زابوريا » وهو ما أنزل مرتين ، الأولى على الرسول ﷺ ، والثانية على « عبد الله الكاسى » نفسه .. وللقسم الثانى « الغير زابورى » ، وهو ما أنزل على الرسول ﷺ فقط !!

وانتهى شيخ الطريقة الدجال من تفسيره الى حذف بعض آيات القرآن الكريم بزعم أنها « غير زابورية » .. بل والى تعطيل أركان الاسلام باعتبار أنه لم يشملها القرآن « الزابورى » الذى أنزل عليه !!

وكان يقول : « أنا لا أتحدث من خلال فكر أو مذهب معين .. وإنما كل ما أقوله أتلقاه وأأخذه من الله تعالى عن طريق رسوله الموجود الآن فى شخصى والذى هو المهدي المنتظر .. الذى اذا ظهر للناس كافة لا يظهر الا بنصفه الساعة ، وكل الذى يقال عليه هو علم الساعة !! » وينزع المهدي المزعوم .. أنه رأى النبى ﷺ ، وأنه رأى النبى

(٨) الروم : ٥٦

(١٠) محمد : ١٨

(٧) القصص : ٨٥

(٩) الدخان : ١٠

ومعه الأنبياء كلهم .. ثم رأى جبريل يملأ آفاق السماء .. ثم استيقظ من النوم ، فرأى جبريل واقفا أمامه وأخذه الى الملكوت !! .. هذا فى حين أنه يقر بأنه كان يحب قراءة المجلات والصحف ، ولم يحدث أن قرأ كتابا دينيا واحدا .. لأن هذه الكتب معقدة بالنسبة له !! .. كما يزعم هذا الدجال .. أنه كان يرى فى منامه آل البيت ، وأنهم كانوا يعظمونه ، وأن الامامين الحسن والحسين — رضى الله عنهما — جاءاه فى المنام وقبلا قدميه .. ولما حاول أن يمنعهما أبديا الخضوع له !!

وحين يتناول مسألة المسيح الدجال والمهدى المنتظر .. يقول :
ان المسيح قائم وموجود ، وان يأجوج ومأجوج يعيشون فى باطن الأرض (١١) !!

وقد نجح المهدي المزعوم فى السيطرة على أتباعه وسلبهم ارادتهم تماما .. حيث أمكن ابتزازهم مالياً .. كما نجح فى تعطيل أركان الاسلام بالنسبة لهم بعد ايمانهم به ايمانا غريبا لا يصدقه عقل — الأمر الذى دعا أحد أتباعه — وهو مدرس غير متفرغ للترجمة بالجامعة الأمريكية — الى القول بأن شيخه « لم يتحدث عن علم الدورة الانسانية الا ابتداء من عام ١٩٨١ — تقريبا — بكشف من حضرة رسول الله ﷺ .. باعتباره المتلقى » !!

والمتلقى — الذى يزعمه هذا التابع — لم يدرس أى دراسة لعلوم القرآن أو الحديث الشريف .. ولكنه يعايش — على حد زعمه — من حضرة الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام تأويل القرآن بمعناه الحقيقى !!

ويضيف : « لقد اختتمت دوائر الولاية الجزئية بسيدى أحمد

(١١) راجع جريدة « الأخبار » القاهرية الصادرة صبيحة الأربعاء ٣ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٦ هـ (١٥/١/١٩٨٦ م) ومجلة « اللواء الاسلامى » — العدد ٢٠٩ — فى ١٢ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٦ هـ (٢٣/١/١٩٨٦ م) .

الحدري ، بمعنى أنه في كل عصر هناك قطب للزمان يعتبر خليفة عن رسول الله ﷺ . أما في آخر الزمان ، فيكون ختم ذات الولاية الكلية بمن اختتمت به النبوة كلها بنبي الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام . والولاية الكلية في وقتنا هذا هي للإمام « عبد الله محمد المهدي » عليه الصلاة والسلام . فلا ولي غيره » (١٢) !!

وفي ليلة ١٩ ديسمبر ١٩٨٥ . تم القبض على المهدي المزعوم . أثناء عقد اللقاءات الحورية لعناصر مجموعته في منزله برملة بولاق . ثم ضبطت هذه العناصر التي بلغ عددها ٢١ شخصا (١٠ من الذكور ، ١١ من الإناث) وأمرت النياية بحبس الذكور حبسا مطلقا وأفرجت عن الإناث !!

وضبط لديه ٩٧ شريط كاسيت ، منجلا عليها محاضرات تتناول أفكار ومناهج المجموعة ، بالإضافة الى أشرطة أخرى كانت معدة للتوزيع ، ومجموعة كبيرة من المؤلفات والبيانات ، أعدها ويطرح خلالها ملامح منهجه الفكري . ومجموعات من الصور الفوتغرافية له ولعناصر مجموعته ، معظمها التقط له في منزله ، وحرص على ظهور صورته بحيث تبدو في خلفية الصورة لوحة عليها اسم « محمد » ﷺ ، والى جانبيها صورة السيد المسيح عليه السلام !!

كما ضبطت كميات كبيرة من المذكرات والمخطوطات — أعدها شيخ الطريقة — وتتناول العديد من الموضوعات المرتبطة بالمجموعة ، أبرزها مذكرة بعنوان : « بيان موجز عن لهم دور في صحبة مع رسول الله ﷺ » . وتحتوي أسماء ٣٥ شخصا وأمام كل منهم كنيته ، و ٣٦ ورقة تحتوي بيانا الى « كافة البشر في جميع أرجاء الأرض » نقلا عن شيخ الطريقة !!

وضبط أيضا خطاب من أحد أتباعه — وهو المتحدث الرسمي باسمه — يؤكد من خلاله « التزامه حتى السجود الى النار وراء شيخه اذا ما أمره بذلك » . وخطابا مذيلا بتوقيع : « من !عابدة لك (٠٠٠٠) » ،

ويحوى عبارات غزلية وسردا لبعض الرؤى التى تؤكد علاقة كاتبه الرسالة عاطفيا بالمهدى المزعوم .. وخطابات أخرى تحوى موضوعات بممارسات غير مشروعة ، وعلاقات عاطفية موجهة الى شيخ الطريقة بصفته رسول الهدى وسيد العالمين (١٣) !!

● والمجموعة الثانية .. يتزعمها « محمد أحمد عبد الباسط القاضى » — ويبلغ من العمر ستة وأربعين عاما — وهو من أبناء محافظة الاسكندرية ، ويقيم فى فيلا بالمعادي .. وكان يدرس بكلية طب الأسنان ، لكنسه عندما حان موعد التحاقه بالتجنيد بالقوات المسلحة سافر الى ألمانيا ، وتمكن من أن يمتلك عددا من المحلات التجارية .. زعم هذا الشخص أنه أوحى اليه بأنه المهدى من قبل شيخه المرحوم « محمد عثمان عبده البرهان » شيخ الطريقة البرهانية الصوفية ومركزها السودان ولها فرع بمصر ..

وقال انه تمكن من اقناع عدد من الألمان باعتناق الاسلام ، ومن بينهم ثلاث ألمانيات تزوجهن وعشن معه فى شقة واحدة .. ثم اشترى فيلا غى حى المعادي وجاء بزوجاته الى مصر منذ ثلاث سنوات .. وبدأ المهدى المزعوم يحاول ضم المريدين اليه عن طريق الادعاء بقدرته على مكاشفتهم ببعض أمور المستقبل .. كما أقنعهم بأنه يمتلك قوة خفية اسمها « سيف الشيخ البرهان » ، تعطى لحاملها القدرة على تحقيق طلباته ، ومن خلال ذلك بدأ يجرى معايشة مع أية سيدة تقتنع بفكره !!

واستطاع — مهدى المعادي المزعوم — أن يستقطب مجموعة كبيرة من أتباعه ، استلهم مالياً ، الى حد أنهم كانوا ينفقون فى الليلة الواحدة أكثر من ١٥٠٠ جنيه !! ، كما استغل زوجاته الألمانيات فى كسب المال !!

كان المهدى المزعوم ، ينكر تأدية الصلاة وبعض العبادات .. ويبيح معايشة مريديه لزوجات بعضهم البعض .. وزعم أنه لن يموت

أبداً ، وأن هناك تحدياً شخصياً بينه وبين « عزرائيل » !! ، وأنه موجود على الأرض للقضاء على « عزرائيل » ، وسيتمكن من التخلص منه ، وبذلك لن يتم قبض الأرواح ، وسوف يهيمن على الكون !!
وكشفت التحريات عن غرابة وانحراف فكر « المهدي المزعوم » ..
فقد كان يزعم لمريديه أن روح السيد المسيح — عليه السلام — داخله ، وما دام المسيح لم يمت ، ولن يموت حتى يوم القيامة ، فإنه سيظل حياً حتى تقوم الساعة !!

وعن القيامة يزعم أن علاماتها بدأت ، مثل الفيضانات ، وحالات الجفاف ، وقتل المسلمين بعضهم البعض ، وأنه عندما تقوم القيامة ستفنى كل البشرية ما عدا الأردن بسبب المسجد الأقصى ، وأنه لذلك كان يفكر في عمل مشروعات تجارية بالأردن !!

ومن مزاعمه وأفكاره الغريبة : أن الأنثى شيطانة ، لأنها خرجت من ضلع أعوج ، ولأنها أخرجت آدم من الجنة .. وأن جميع الذكور متشابهون في النصف الأسفل ، والاختلاف فقط في النصف الأعلى !!
ويزعم أن لديه القدرة على تغيير ذات أي شخص وتحسينه إلى شخص آخر ، وذلك لتجنيبه الحوادث والكوارث !!

كما يزعم أنه سوف يظهر نجم مذنب يؤكد أنه المهدي المنتظر !! ..
وقد سافر إلى سانت كاترين وظل هناك أربعة شهور ينتظر ظهور هذا النجم المذنب ، ولكنه لم يظهر !!

وكان يدعو إلى تحريم الصلاة ، بزعم أن الله تعالى ليس في حاجة إلى صلاة البشر ، وأنه خلق الملائكة ليصلوا له !!
وعندما هاجمت أجهزة الأمن فيلا المهدي المزعوم في المعادي ، وألقوا القبض عليه وعلى أفراد جماعته (٩ رجال ، ٦ سيدات) عثروا على ٢٢٠ شريطاً من شرائط الفيديو ، و ١٥ شريطاً كاسيت تشمل بعض الأفكار والممارسات ، وأوراق ومذكرات ، وصور للمهدي المزعوم وأعوانه في أوضاع شاذة .. كما عثر على كمية من المخدرات مع اثنين من أفراد المجموعة !!

وقررت نيابة أمن الدولة العليا حبس أفراد المجموعة ، وتحويل أوراق القضية إلى النيابة العامة (١٢) ..

● أما المجموعة الثالثة .. فبرأسها شخص اسمه « محمد سليمان محمود — بدون عمل — ويبلغ من العمر ٦٣ عاما ، ويقيم بناحية متيجة مركز كوم أمبو بأسوان .. ومعه سبعة من معاونيه ..

ويتناول منهجه الدينى : إباحة أنماط دينية منحرفة تحت دعاوى اسلامية .. تنتهى الى اغناء المنخرطين فى المجموعة من تأدية الفرائض الدينية المقررة ، كالصلاة والصوم ، بدعوى انتمائهم لطائفة « الجعافرة » الذين ينتسبون إلى آل البيت (١١) . وادعاء شيخ الطريقة — رئيس المجموعة — أنه المهدي المنتظر ، ومحاولته اثبات ذلك عن طريق مكاتفة مريديه ببعض الأمور المستقبلية التى تتعلق بأوجه حياتهم !!

وأخذ شيخ الطريقة يسوق دعاوى عديدة لتبرير هذا المسلك المنحرف .. أبرزها بأن هذه التصرفات تبدو فى ظاهرها كفرًا ، بينما هى فى باطنها تمثل إيمانًا خالصًا !!

وأخذ يطلق على هذه النظرية « لغز الايمان » ، الى جانب استثماره انتشار الطريقة فى أوساط قبائل الجعافرة فى أسوان .. التى يروج بين أبنائها الاعتقاد بأنهم من نسل الإمام على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — لينتهى من ذلك الى أنه : ما دام المرید ينتسب الى الأشراف — وهم آل البيت — فإنه لا تحتسب عليه أية معاصى مهما ارتكب من محرمات !!

وتبين أن لهذه الجماعة فرعا فى القاهرة — ويقع فى حي الزمالك — حيث كان يقوم باستغلال أحد المساكن فى إقامة لقاءات لعناصر الطريقة بالقاهرة .. يجرى خلالها نفس الأنماط السلوكية ويشارك فيها شيخ الطريقة نفسه ..

وبإذن من نيابة أمن الدولة .. قامت أجهزة مباحث أمن الدولة بخبط وتفتيش هذه العناصر أثناء إقامة المجموعة سرادقا تحت إشراف

(١٢) انظر جريدة « أخبار اليوم » الصادرة فى ١٨/١/١٩٨٦

زعيمها بنجع القوز مركز كوم امبو — وكان يخضر الاجتماع نحو ١٥٠٠ شخص من أتباعها من بينهم حوالي ٣٠٠ سيده — وعثر على مجموعة من شرائط الكاسيت مسجل عليها « الحضرات » التي ينظمها شيخ الطريقة .. كما ضبط أحد أعوانه — بالزمالك — أثناء عقد لقاء بعناصر المجموعة بالقاهرة !!

وادعى — شيخ الطريقة — أنه وجماعته ينتسبون للطريقة الصوفية المغروغة « بالنقشبندية » — في الوقت الذي أكدت فيه المشيخة العامة للطرق الصوفية أن هذه الطريقة لا علاقة لها بالمشيخة ، وأنها خارجة عن المفاهيم الصوفية الصحيحة !!

وقد وجهت النيابة — الى هذه المجموعات الأربع — تهمة استغلال الدين في الترويج لأفكار متطرفة .. بقصد إثارة الفتنة ، وتحقير أحد الأديان السماوية ، والاضرار بالوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي .. وأمرت بحبس الرجال حبسا مطلقا !!



● رأى مشيخة الطرق الصوفية :

يؤكد الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفقازاني — شيخ مشايخ الطرق الصوفية — في حديثه مع مجلة اللواء الاسلامي على أنه مما يؤسف له ظهور هذه الحركات في هذا الوقت .. وأن الاسلام دين واضح .. محدد المعالم ، محدد الأحكام .. ومع ذلك تظهر هذه النزعات والتيارات التي أقل ما توصف به : هو الخروج عن كل ما دعا اليه الاسلام .. والخروج عن كل فضيلة أخلاقية ، ذلك أن هذه الجماعات تدعى أول ما تدعى أنها على حق ، وأنها تأخذ من معين هو معين النبوة .. فيدعى أصحابها الأخذ عن الله .. ويدعى أصحابها المهدية ، هذه أمور كلها تخالف ما دعا اليه المشرع ..

« ولذلك أعتقد أن هذه التيارات مخالفة تماما للكتاب والسنة ..

ولست أشك في أن وراء هذه التيارات في المجتمع المصري دوافع خاصة :
منها حب السيطرة ، والظهور والنفوذ والجاه .. هذا الى جانب أن
بعض المنتمين الى هذه الجماعات يتجهون الى اباحه الجنس ، ويتجهون
الى جمع المال .. وكل هذا يبين لماذا تنشأ ، ولماذا تنتشر ..
فان اباحه الجنس مثلاً تستهوى بعض الشباب ، وجمع المال يستهوى
بعض الناس .. فهذه ليست حركات خاصة لوجه الله ..

« ولذلك فان هذه الحركات لا يمكن أن تنتمي للتصوف ، أو الى
الاسلام .. لأن التصوف اذا أردنا أن نعبر عنه : التصوف خلق
وسلوك ، ولا شك أن التصوف يهذب الخلق ويربى السلوك ..
ويمكن القول بان التصوف منهج في التربية الاسلامية الصحيحة ..
وهذه الجماعات مما تدعيه تخالف الاسلام من حيث التربية الاسلامية ..
فالقراية لأهل البيت لا يترتب عليها أى مزية أو أى وضع خاص ..
ذلك لأن القراية لأهل البيت تعنى أن نعمل بعمل أهل البيت .. وأهل
البيت كانوا قدوة فى العلم والعمل .. ونتذكر هذا قول رسول الله ﷺ :
« لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .. فهذا يدل على أن
أهل البيت ليس لهم ادعاء الخروج عن الشرعية ، وبذلك يخضعون
لما يخضع له سائر المسلمين من أحكام ..

« وليس هناك شك .. فى أن هذه الحركات مريية .. ادعاء أنها
تنسب الى أهل البيت ادعاء لا أساس له من الصحة ، ولما ينطبق عليهم
ما ينطبق على المسلمين من أن يخضعوا لأحكام الكتاب والسنة ..
ولا صلة اطلاقاً بين هذه الجماعات والصوفية ، ولذلك فان ادعاءهم بأنهم
ينتمون الى الطرق ادعاء باطل .. والحقيقة أن الطرق الصوفية تبرأ من
هذا السلوك ..

« صحيح أن بعضهم يدعى الانتماء الى طرق .. وهذا لم يثبت ،
والطرق الصوفية تلتزم أساساً بمنهج التصوف الذى حددنا أنه تربية
وسلوك يستمد من الكتاب والسنة النبوية ..
« ويجوز أن يكون سبق لهم الانتماء للطرق الصوفية ، ثم انصرفوا

عنها أو أبعدوا عنها .. يجوز لهؤلاء الناس أو بعض هؤلاء أن يندسوا في هذه الادعاءات والجماعات .. ولكن من الثابت أن هذه الجماعات التي ظهرت لم تنتسب للطرق الصوفية المعروفة ، وهذا مقطوع به .
ويقول فضيلته :

« لا أشك لحظة في أن الهدف الأساسي لهذه الجماعات .. هو تحقيق مآرب ذاتية أيًا كانت هذه المآرب .. قد يكون المنتسبون لهذه الجماعات من الجهلة بأحكام الدين الاسلامي .. لكن ثبت أن البعض المنتسب اليها من أهل العلم .. فإن بعضهم خريجو دار العلوم ، والبعض الآخر خريج الجامعات .. لأن انضمام بعض المثقفين الى هذه الجماعات شيء غريب ، وربما لا يكون اذا عرفنا أن لهم مآرب ذاتية كما قلت ، مثل اباحة الجنس فيجذب بعض الشباب المنحرف ، أو جمع المال والجري وراء الثروة أو الثروات .. قد يبرر هذا لنا انضمام المثقفين الى هذه الجماعات . والقول بأنهم يدعون المهدية .. ادعاء المهدية أمر كان موجودا على مراحل مختلفة من عصور الاسلام ، وكثير من ادعى المهدية ، لكن هذا لتحقيق منافع شخصية » ..

وعن دور أجهزة الاعلام لمواجهة هذه الظاهرة .. يقول فضيلته :

« وعلى أجهزة الاعلام دور كبير في ايصال الفكرة الاسلامية الصحيحة الى الناس .. كذلك من واجب رجال الدين ايضاً أن المجال الذي يعملون فيه التصدى لهذه الجماعات ، ولكن الصعوبة أن هذه الجماعات غالباً ما تكون متحفظة في نشر التعاليم ، أو جذب الأعضاء في نوع من السرية بدليل أنها لم تكتشف بسهولة .. أو لا بد من مواجهة هذه الأفكار بنشر الدعوة الاسلامية الصحيحة عن طريق رجال الدين ، وعن طريق أجهزة الاعلام .. لا أستطيع أن أحدد أسباباً معينة لظهور هذه الدعوات ، ولكن أقول : ان ما يكتنف هذه التجمعات من اباحة الجنس وجمع الأموال ، أقول ان هذا جعل بعض ضعفاء النفوس يقبل عليها ويمارس نشاطها » .

ويتحدث فضيلته عن ضرورة تعليم الدين بالجامعات ،
فيقول :

« لا شك أن هذا يرجع أيضا .. الى أن الدعوة الإسلامية الصحيحة لا تصل الى الناس بسهولة .. يجب علينا في هذه الظروف أن نغنى بموجهي الدعوة ، وأن يكون لنا ممارسة سليمة للأحكام .. وهذا كله لن يتأتى الا عن طريق غرس تعاليم الدين في الناشئة ، والعناية بالتعليم الديني في المدارس والجامعات .. لو أن التعليم الديني يدرس بصورة فعالة ، ولو أن القيم الإسلامية وجدت طريقها الى الشباب في المدارس والجامعات ، لما وجدنا انضماما منهم لهذه الجماعات .. »

« وهذه الجماعات تجمع الناس أولا على مبادئ قد تكون براءة .. ثم بعد ذلك يبتون حقيقة تعاليمهم .. أو بعد مدة يحسنون الانخلاع من القيم .. يحسنون الاتجاه الى ممارسة الجنس بعد فترة .. فهي تجذب أولا الناس كالجماعات السرية في العصور الوسطى ، دائما كانت تتخذ هذا الأسلوب .. تجعل درجات للمنتسب ، فيبدأون بتعاليم الدين ثم ينتقلون به الى التعاليم الخاصة .. »

« كان هذا موجودا في الدعوة الفاطمية ، وموجودا في الدعوة التي كانت تعرف بالحشاشين .. في جذب الناس .. كانت تعرف في المذاهب الانحلائية التي ظهرت في الاسلام ، والتي قاومها العلماء على مختلف العصور .. فهذه ليست المرة الأولى في تاريخ الاسلام حين تظهر دعوات سرية ، أو من هذا النوع .. بل كان دائما وأبدا ، وفي أوقات مختلفة تظهر هذه الادعاءات فكان يتصدى لها علماء الاسلام ، ويفندونها ويثبتون بطلانها .. »

« أنا لا أقول انها ظاهرة .. فعدد المنتسبين اليها محدود مهما كان .. » فالخير في ومن تبعني الى يوم القيامة « .. ولا ينبغي أبدا أن ننزعج لهم ولهذه الظاهرة أو هذه الحركات .. لأنها أشبه بنقاط بسيطة أو بقطرات في بحر الاسلام ، لكن في نفس الوقت : يجب أن نكون

منتبهين لخطورتها ، وإلى مدى انتشارها لاحتمال أن تنتشر بشكل أكبر في المستقبل .

« وأقول ان من واجبنا دائما : أن نوعى الشباب لخطورة هذه الحركات ولمخالفاتها لأحكام الكتاب والسنة في الاسلام .. وإذا عرفنا الشباب بالاسلام ، لما وجدنا الانضمام لهذه الجماعات والادعاءات » .. ثم يقول فضيلته : « كيف أن شبابا مثقفا متعلما في الجامعة يقبل على هذه الجماعات ؟ »

« لو أن الدين درس في الجامعة بحيث يتفهم شباب الجامعة حقيقة الاسلام .. في هذه الحالة يجزمون عن الانضمام لهذه الجماعات والادعاءات .. »

« الاسلام خلق .. حتى أن جميع أحكام الشريعة الاسلامية ، سواء أكانت أحكام العقائد ، أو أحكام العبادات ، أو الأحكام الأخرى في الدين الاسلامي .. فكل حكم شرعي في الاسلام يقوم على أساس أخلاقي .. فالاسلام حين ينحرف به أصحابه ، ينحرفون به إلى شيء آخر يختلف تماما عن القيم الصحيحة .. وفي هذا لا يكون الاسلام اسلاما ، إنما يصبح شيئا آخر يقصد به مآرب أو منافع ذاتية لا تمت إلى الاسلام بأي صلة .. »

« فمثلا من أخلاق الاسلام التواضع .. ونجد القائمين على هذه الدعوة لا ينتمون إلى التواضع ، لأنهم يقومون بأعمال غريبة .. منها أنهم أصحاب دعوة خاصة ، وأنهم يوحى إليهم ، أو أنهم زعماء لهم مميزات خاصة تجعل الناس يحترمونها أكثر من اللازم لأنهم أصحاب مميزات .. فنجد أن رسول الله ﷺ كان يعيش في وسط قومه كما يعيشون ، ولا يدعى هذه الادعاءات إلا أنه يوحى إليه — وهذا حق — أما في حياته فكاد يكون كما كان في حياة الناس .. »

« ومثل آخر ، التراحم والتواد والمحبة بين الناس .. كل هذه ليست موجودة بين الناس في هذه التجمعات التي تفقد كل هذه القيم الأخلاقية .. مما يقطع بأن قلوب القائمين على هذه الدعوة قد جفت تماما ولم يعد فيها شيء من مبادئ الاسلام الحقيقية .. هذه ملاحظة

نلاحظها على هذه الجماعات ، فلهذا يجب أن نكون محاذرين جدا من انتشار هذه الدعوات ..

ويختتم فضيلته الحديث مع المجلة بقوله :

« وما خفى كان أعظم .. هذا الانقسام بين الواقع الذي يمارسون حياتهم فيه ، وتعاليم الدين الاسلامي ، هذا يدل دلالة واضحة على أن القائمين على هذه الجماعات لا يبحثون الا عن مآربهم الذاتية .. أعمال شاذة ، أو جمع أموال ، والزعامة كما يتوهمون .. وهذه قد ظهرت بوضوح في القيادات التي تقود هؤلاء الناس ، فهذه القيادات تدعى لنفسها الألوهية ، أو أنها يوحى اليها ، أو تدعى المهديّة ، أو تدعى مجرد الزعامة .. فهذا يدل على أن جو هذه الجماعات جو غير اسلامي .. لأنها لو كانت تدعو الى الله ، فانها تدعو على بصيرة .. وكان رسول الله ﷺ يقول : « أدعو على بصيرة انا ومن اتبعني » فالبصيرة هنا غير موجودة لمخالفتهم كثيرا من تعاليم الدين الاسلامي ..

« فهذا يدعو الى التأمل .. ويدعو الى النظر .. وندعو الله أن يؤمننا من هذه الادعاءات .. وهذه الجماعات لا أساس لها حين تقول انها تجمعات صوفية .. لأن التصوف الصحيح هو كما يقول ابن القيم : واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق .. ويقول الكتاني : ان التصوف خلق ، ومن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء .. وهو صفاء النفس ..

فانظر اني التصوف بأنه صفاء للنفس .. أين هو مما نجده عند هذه الجماعات الضالة .. فان نفوسهم ضالة ولهذا قال الامام الغزالي معرفا التصوف : تخلّى وتجلّى وتحلّى .. تخلّى عن الخلق المذموم ، وتحلّى بانخلق انحميد .. فان حصل التخلّى والتحلى ، حصل التجلّى .. وهو معرفة الله سبحانه وتعالى .. وهذا هو التصوف كما نفهمه ، وایس هذا من التصوف في شيء ؟ (١٥) .

(١٥) مجلة اللواء الاسلامي العدد ٢١٠ ، مرجع سبقت الإشارة اليه وقد آثرنا أن نثبت نص الحديث الذي اطلق به فضيلته للمجلة بالكامل — برغم اختلافنا معه في كثير مما جاء فيه — لانه يحل وجهة نظر المشيخة ..

● من ثمارهم .. تعرفونهم :

يقول المسيح عليه السلام — فيما يرويه الانجيل الموجود بين أيدينا : « اخترزوا من الأنبياء الكذبة ، الذين يأتونكم بثياب الحملان ، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة » من ثمارهم تعرفونهم : هل يجتنون من الشوك عنباً ، أو من الحسك تيناً ؟ • هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة • وأما الشجرة الرديئة فتصنع أثماراً رديئة • لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً رديئة ؛ ولا شجرة رديئة أن تصنع أثماراً جيدة • كل شجرة لا تصنع ثمرها جيداً تقطع وتلقى في النار ، فاذن : من ثمارهم تعرفونهم » (١٦) •

هذه الثمار الرديئة التي تتساقط يوماً بعد يوم ، من شجرة عجفاء تستمد عصارتها من جذور عفنة تمتد وتتشعب في تربة الصوفية !!

هذه القلوب الزائغة ، والعقول الضالة • • ثمرة طبيعية لأفكار ابن مسرة ، وابن سبعين ، وابن عربي ، وابن الفارض • • وأشباهم !! ألم تنقسم مجموعة الاسكندرية « بالطريقة الصلاحية الشاذلية المحمدية الزينية » ؟ !

ألم تنقسم مجموعة بولاق الى الطريقة « العزمية » ، ومجموعة المعادى الى الطريقة « البرهانية » ، ومجموعة أسوان الى الطريقة « النقشبندية » ؟ !

ألم تخرج هذه المجموعات من تحت عباءة الصوفية • • مستغلة ما يحوط التصوف الاسلامي في أفكاره وفلسفته من غموض ؟ !

ولا يعنى مشيخة الطرق الصوفية « تأكيداً بأنه لا علاقة لها بهذه الطرق المنحرفة لخروجها عن المفاهيم الصوفية الصحيحة » • • لأن المشيخة لم تبين للناس ما هي المفاهيم الصوفية التي تحب أن يسير الناس عليها • • ولم تجرد الطرق الكثيرة المنتسبة اليها من ابداع

والخرافات التي يتمسك بها البعض واهمين أنها من صميم الدين . .
والاسلام برىء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب !!

وليس غريباً أن تجد مثل هذه الأفكار الشاذة لها زواجا بين العامة
والبسطاء . . ولكن الغريب حقا : أن يؤمن بها الطبيب ، والمهندس ،
والمحامى ، وأستاذ الجامعة ، والمعيد بها ، والمدرس بالثانوى ،
والأخصائى الاجتماعى ، وموظف البنك ، والمدير المالى ، والموظف بالمعاش ،
وبالحكومة ، وبالشركات ، وطالب الجامعة والطالب بالثانوى . . وغيرهم
وهم الذين بلغوا من العلم والثقافة درجة عالية تحصيلهم من التردى فى
هاوية هذه الأفكار الشاذة والمضللة . . لا فرق فى ذلك بين الذكور
والإناث . . ولولا مظنة التشهير لأوردنا قائمة بأسماء ومناصب أعضاء
هذه المجموعات الأربع !!

ولهذا قلنا ان شجرة الأفكار المنحرفة ، قد استمدت عصاريتها من
الجذور العفنة التي تمتد وتتشعب فى تربة الصوفية . .
تعالوا ننبتش هذه التربة ، لنقتش فيها عن هذه الجذور التي تمتد
الثمار الرديئة بعصارة الحياة . .

نم يجد الدفاع عن الدكتور « بريقع » الا أن يقول : « ان بعض
ما جاء فى أحاديث موكله من كلمات وأفكار — قد تستكر من الغامة —
يمكن أخذها على أنها شطحات صوفية لا يجوز مؤاخذته عليها » !!

أى تصوف هذا الذى يتحدث عنه الدفاع ؟ ! انه — بالقطع —
ليس التصوف الذى يعرفه الناس ، ولكنه تصوف الملاحدة الذى انحرف
اليه التصوف الاسلامى فى عصوره المتأخرة . . ذلك الذى ينتسب الى
كل نحلة مارقة ، ينتهب منها أخبث ما تدين به ، ثم يفتريه لنفسه مؤمناً
به ، ويحمل على الايمان به كل من انتسب اليه !!

تصوف الملاحدة . . الذى يدين بوحدة الوجود ، وخرافة وحدة
الأديان !!

ذلك الذى يزعم أن الله سبحانه عين خلقه ، عينهم فى الذات

والصفات والأفعال .. ويزعم أن واهب الحياة ، وخالق الوجود عين
الصخر الأصم والرمة العفنة !!

تصوف الملاحدة .. الذى يزعم أن كفر الكافر وخطيئة الفاجر ،
عين ايمان المؤمن وصالحة الناسك !!

ذلك الذى يزعم أن دين الخليل هو دين أبيه آزر ، وأن ايمان موسى
عين كفر فرعون ، وأن وثنية أبى جهل عين توحيد محمد ﷺ ، فكل
رب العين ورسوله ، كل تعين للذات الالهية غير أنها سميت فى تعين
بمحمد ﷺ ، وفى آخر بأبى جهل .. وهى هى فى مظهرها أو اسمها !!

تصوف الملاحدة .. الذى يزعم أن دين ابليس وايمانه ، عين دين
أمين الوحي وروح ايمانه .. بل يزيد الخطيئة فجورا فيزعم أن ابليس
— اللعين — أعظم معرفة بآداب الحضرة الالهية من أمين الوحي وأسمى
مقاما !!

تصوف الملاحدة .. الذى يزعم أن النبوة كسبية ، وأن الوحي
مصدره النفس ، وآلته قوة المخيلة ، وكلاهما مصدر داخلى فى
الانسان !!

تصوف الملاحدة . . . الذى يدين بالحقيقة المحمدية ، وأنها هى
الذات مع التعين الأول ، ولها الأسماء الحسنى ، وهى اسم الله الأعظم
.. والذى يقول بأن صور الحق هو محمد ﷺ لتحققه بالحقيقة
والواحدية .. والذى يؤمن بأن الواحدية هى مجلى ظهور الذات فيها
صفة . والصفة فيها ذات ، والفرق بينها وبين الأحدية أن الأحدية لا يظهر
فيها شئ من الأسماء والصفات ، أما الواحدية فتظهر فيها الذات
والصفات !!

تصوف الملاحدة .. الذى يزعم أن المهاجر من مكة الى المدينة
كان الله ، ولم يكن معه شئ ثان !! .. والذى يزعم أن شأن الرسول
ﷺ هو شأن الله ، ويقول كاهنه : « شأن محمد فى جميع تصرفاته
شأن الله ، فما فى الوجود الا محمد » !!

تصوف الملاحدة .. الذى يدين بأن الأولياء أفضل من الأنبياء ،
وأن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، لأنه يأخذ عن الله مباشرة ،
فى حين أن خاتم الأنبياء يأخذ عن الله بواسطة ملك الوحي !!
ألم يقل أحد كهان ذلك التصوف المنحرف : « القرآن كله شرك ،
وانما التوحيد فى كلامنا » ؟ !

ألم تقدمهم عقيدتهم — الزائفة — فى صدور العالم عن الله تعالى
بطريق الفيض ، وعن حب الله لنفسه الى اسقاط التكليف الشرعية ..
وأنة ليس هناك مكان للقدرة والارادة فى هذا الصدد ، فالتكليف الشرعى
صورة لارادة الله ، فاذا انعدمت الارادة انعدم التكليف ؟ !
ألم يقدمهم الاعتقاد بالاتحاد وعدم التمايز بين الانسان الكامل
وبين الله ، الى سقوط التكليف الشرعية — لأنه ليس هناك جانبان
وطرفان ، أحدهما يكلف والآخر يقوم بالتكليف — فلماذا التكليف وقد
تمت الغاية ؟ وما التكليف الا وسيلة لغاية ، هو رسم طريق يوصل الى
غاية خاصة .. فاذا بلغ الانسان هذه الغاية ، فلا معنى لرسم الطريق
وطلب سلوكه ؟ !

ألم يقل ابن عربى : « فاذا وقع الجدار ، وانهدم الصور ،
وامترجت الأنهار ، والتقى البحران ، وعدم البرزخ ، صار العذاب
نعيمًا ، وجهنم جنة ، ولا عذاب ولا عقاب ، الا نعيم وأمان بمشاهدة
العيان » (!!) .. فلماذا التكليف الشرعية ما دام العذاب سيصير
نعيمًا .. وجهنم سوف تصير جنة ، ولا عذاب ولا عقاب !!

ألم يقل ابن عربى فى تقديسه للعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة
أن « الحق غيور على عبده أن يعتقد أنه يلتذ بغيره فطهره بالغسل ،
ليرجع بالنظر اليه غيماً غنى فيه ، اذ لا يكون ! لا ذلك (!!) .. فاذا شاهد
الحق — أى الله تعالى — فى المرأة كان شهوداً منفعلاً ، واذا شاهده فى
نفسه من حيث ظهور المرأة عنه ، شاهده فى فاعل .. واذا شاهده فى
نفسه من غير استحضار صورة ما تكون عنه كان شهوده فى منفعل عن
الحق بلا واسطة ، فشهوده للحق فى المرأة أتم وأكمل ، لأنه يشاهد
الحق من حيث هو فاعل منفعل ، ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة ؟ !
(٢٨ — الله توحيد)

ألم يزعم ابن عربى — أيضا — أن الرسول ﷺ أعطاه كتاب
« الفصوص » وقال له : « اخرج به الى الناس ينتفعون به » ، فحقق
الأمية كما حده رسول الله بلا زيادة ولا نقصان .. ثم يقول :
فمن الله ، فاسمعوا ، وإلى الله فارجعوا ؟ !

ألم يقل الدسوقي أن نشأته فى الحب كانت من قبل آدم ، وأنه كان
فى العلياء مع نور أحمد ، وكان فى رؤيا اسماعيل ومع ادريس وعيسى
ونوح .. وأنه هو القطب الكبير ، شيخ الوقت ، وشيخ الطريقة ، الذى
قامت به الأنبياء فى كل أمة ، وأنه لا يوجد مسجد الا وله فيه منبر ، ثم
يقول :

وما شهدت عينى سوى عين ذاتها وأن سواها لا يلم بفكرتى
بذاتى تقوم الذات فى كل ذروة أجدد فيها حلة بعد حلة ؟ !

ألم يطلب منا الأكوسى : ألا نصطدم بهذه الأفكار ، وأن نسلما
لهم بالمعنى الذى أرادوه مما لا نعلمه — لا بالمعنى الذى ينقدح فى
عقولنا المشوبة بالأوهام — لأن أئوالهم — فى زعمه — محمولة على
معنى صحيح لا يعرفه الا أهل الذوق ؟ !

فلا عجب ، إذن ، أن يطلب منا الدفاع عن «الدكتور بريقع» أخذ
هذه الأفكار على أنها شطحات صوفية لا يجوز مؤاخذه أصحابها عليها ،
وان اصطدمت بالشرع واستتكرها الدين !!
وأين العجب فى ذلك اذا كان مستند شيوخهم : « حدثنى قلبى
عن ربى ، قال .. » !!

ونقول لأجهزة الأمن .. التى خبطت هذه الطرق المنحرفة ، والتى حققت
مع شيوخها الأربعة : « لقد أدبتم واجبكم كاملا — نحو حماية المجتمع
حين قدمتم هذه الطرق الضالة الى المحاكمة .. وعليكم — الآن —
مأجورين من الله ، أن تحاكموا أفكار ابن مسرة ، وابن سبعين ،
وابن عربى ، وابن الفارض .. تلك الأفكار التى استوحوها من وثنية
اليونان ، وفكر بوذا وزرادشت !!

حاكموا تصوف الملاحدة .. قبل أن يخرج اليكم من محضنه كل
يوم العشرات والمئات من أمثال : صلاح بريقع ، وحسين عسري ،
ومحمد عبد الباسط ، ومحمد سليمان !!

ونهيىب بمشيخة الطرق الصوفية — أن كانت جريصة على ما يسمى
بالتصوف الاسلامى — أن تدين مظاهر الشرك والوثنية فى تصوف
الملاحدة .. ذلك التصوف الذى نشأ وترعرع فى حقيقة أرسطو
وأفلاطون وأفلوطين !!

ونقول للمشيخة : وأنتم تدينون الطرق الصلاحية ، والعزمية ،
والبرهانية ، والنقشبندية .. أدينوا أيضا تصوف الملاحدة الذى أساء
الى تصوفكم بأكثر مما أساء الى الاسلام نفسه !!

فاللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا
اجتنابه .. وجنبنا — يارب — الشهوات والشبهات ..

« ربنا لا ترغ قلوبنا بعدد اذ هبتنا وهب لنا من لدنك رحمة ،
انك انت الوهاب » (١٧) .

الفصل الثاني عشر

والآن .. تعالوا الى الكلمة السواء !!

يقول الله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (١) .

الخطاب في هذه الآية .. موجه الى الرسول ﷺ ، يأمره فيه تعالى بأن يوجه خطابه الى أهل الكتاب .. يدعوهم : أن هلموا الى كلمة عدل بيننا وبينكم .. بأن لا نعبد غير الله تعالى ، وأن نبرأ من كل معبود سواه .. وأن لا نشرك في عبادته شيئا .. لا وثنا ولا صنما .. ولا صليبا ولا نطاغوتا .. ولا يدين بعضنا لبعض بالطاعة في معصية الله تعالى فيعظمه بالسجود له كما يسجد لربه .. ولا يطيعه فيما يطيع الله تعالى فيه ..

ثم يقول تعالى لنبيه ﷺ : فان هم أعرضوا عما دعوتهم اليه من الكلمة العدل .. فقولوا أنتم أيها المؤمنون : اشهدوا علينا بأننا مسلمون ، خاضعون لله تعالى .. متذللون له بقلوبنا وألسنتنا .. وأهل الكتاب .. هم اليهود والنصارى .

والعبادة ، لغة : هي الطاعة مع الخضوع والانقياد والتذلل وهي شرعا : الخضوع الكامل الممتزج بالحب الكامل ، واغراد الله تعالى وحده بالسؤال والدعاء ، واقامة الشعائر الدينية التي أمر بها ، والانقياد والاذعان التامين لما شرع من أحكام .. والشرك : هو أن يعدل بالله غيره ، فيجعل له شريكا في ربوبيته أو في ملكه ..

* * *

● معنى العبادة :

العبودية .. والعبودية .. والعبدية ، معناها اللغوي : الخضوع والتذلل .. أى استسلام المرء وانقياده لأحد غيره انقياداً لا مقاومة معه ، ولا عدول عنه ، ولا عصيان له .. حتى يستخدمه هو حسب ما يرضى وكيف يشاء ..

يقول ابن فارس فى مادة (عبد) : « العين والباء أصلان صحيحان .. كأنهما متضادان .. والأول من نيتك الأصلين يدل على لين وذل ، والآخر على شدة وغلبة » (٢) .

ويقول ابن سيده : « أصل العبادة فى اللغة التذلل .. والعبادة والخضوع والتذلل والاستكانة قرائب فى المعانى .. وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة .. طاعة كان للمعبود أو غير طاعة » (٣) .

وكل طاعة على جنة الخضوع والتذلل فهى عبادة .. والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه الا المنعم بأعلى أجناس النعم .. كالحياة والفهم ، والسمع والبصر .. والشكر والعبادة لا تستحق الا بالنعمة .. لأن أقل القليل من العبادة يكبر عن أن يستحقه الا من كان له أعلا جنس من النعمة — وهو الله سبحانه — فلذلك لا يستحق العبادة الا الله تعالى ..

وتقول العرب : « بعير معبد » : للبعير السلس المنقاد .
و « طريق معبد » : الطريق المهدى للوطء ..
ومن هذا الأصل اللغوي .. نشأت فى مادة هذه الكلمة معانى العبودية والاطاعة والتأله والخدمة والقيود والمنع ..
ويقول ابن منظور : « العبد » : المملوك خلاف الحر .. تقول : « تعبد الرجل » : اتخذه عبداً أى مملوكاً ، أو عامله معاملة العبد ..
وكذلك : عبد الرجل وأعبده واعتبده (٤) ..

(٢) مغايبى اللغة . لابن فارس : ج ٥ ، ص ٢٠٥

(٣) المخمس . لابن سيده : ج ١٢ ص ٩٦

(٤) نسان العرب : لابن منظور ، ج ٤ مادة (عبد) .

وقد جاء في الحديث الشريف : « ثلاثة لا يقبل الله منهم صلاة : من تقدم قوما وهم له كارهون .. ورجل أتى الصلاة دبارا — أى بعد أن تفوته — .. ورجل اعتبد محررا » (٥) .

ويقول تعالى : « ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلاطين مبينين .. إلى فرعون وملأه فاستكبروا وكانوا قوما عالين .. فقالوا اتؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون » (٦) .

فأله تعالى أرسل موسى وهارون عليهما السلام بحججه وبرهانه الواضح على توحيد الله إلى فرعون وأشراف قومه من القبط ، فاستكبروا عن اتباعها ، وكانوا قوما عالين قاهرين على من فى بلادهم بالظلم ، فقال فرعون وملؤه : أنتبع بشرين مثلنا وقومهما من بنى إسرائيل مطيعون لنا متذللون .. يأترون لأمرنا ويدينون لنا ؟ .. والعرب تسمى كل من دان للملك عابدا له ..

ويقول جل شأنه : « وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل » (٧) .

لما امتن فرعون على موسى عليه السلام قائلا : ألم نربك صغيرا فى بيتنا وعلى فراشنا .. ومكثت عندنا مدة من السنين ، ثم قتلت النفس من القبط وأنت من الكافرين — أى الجاحدين — نعمتنا عليك واحساننا اليك ، فهذا الذى كافأنا به أن قتلت منا نفسه ، وجحدت نعمتنا .. رد عليه موسى قائلا : وهل هذه نعمة تمن بها على ، أن اتخذت بنى إسرائيل عبيدا لك ، وتركتنى فلم تستعبدنى ؟ .. وكان غرض موسى عليه السلام التهمك والاستهزاء بفرعون .. يقول له : تجعل بنى إسرائيل عبيدا لك ، ثم تمنن على بذلك ؟ .. فهذه نقمة وليست نعمة !!

وفيه عن مجاهد : أى قهرتهم واستعملتهم ، وعن ابن جريج : أى قهرت وغلبت واستعملت بنى إسرائيل ..

(٥) رواه أبو داود وابن ماجه والبيهقى .

(٦) المؤمنون : ٤٥ — ٤٧ (٧) الشعراء : ٢٢

والمراد بالعبادة في هاتين الآيتين : هو العبودية والاطاعة . .
فقال فرعون : ان قوم موسى وهارون عابدون لنا — أي عبيد لنا خاضعون
لأمرنا . . وقال موسى عليه السلام : انك عبدت بنى اسرائيل — أي
اتخذتهم وتستخدمهم حسبما تشاء وترضى . .

● والمعنى الثانى للعبادة : أنها الطاعة مع الخضوع . . يقول
ابن الانبارى : « فلان عابد » . . وهو الخاضع لربه المستسلم
المنقاد لأمره . .

يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم
واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون » (١)

أي : ان كنتم منقادين لأمره سامعين مطيعين . . فكلوا مما أباح
لكم أكله وحلله وطيبه لكم . . ودعوا في تحريمه خطوات الشيطان . .
وهو الذى نديهم الى أكله ونهاهم عن اعتقاد تحريمه ، اذ كان تحريمهم
اياه في الجاهلية طاعة منهم للشيطان واتباعا لأهل الكفر منهم بالله
من الأبناء والأسلاف . .

وقيل : ان المناسبة التى أنزلت فيها هذه الآية ، أن العرب قبل
الاسلام كانوا يتعبدون بأنواع من القيود فى المأكلى والمشارب . . مثالا
لأوامر أئمتهم إندنيين ، واتباعا لأوهام آبائهم الأولين . . فلما أسلموا
قال الله تعالى : ان كنتم تعبدوننى فعليكم أن تحطموا جميع تلك القيود
. . وتأكلوا ما أحلته لكم هنيئا مريئا . .

ويعنى ذلك . . انكم ان لم تكونوا عابدا لأحباركم وأئمتكم ،
بل لله وحده . . وان كنتم قد هجرتم طاعتهم الى طاعته . . فقد وجب
عليكم أن تتبعوا ما وضعه لكم من الحدود ، لا بما وضعوه فى الحلال
والحرام . . ومن هنا جاءت كلمة العبادة فى هذا الموضع بمعان
العبودية والاطاعة . .

● ويقال « عبد الطاغوت » . . أى أطاعه . .

يقول تعالى : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوية عند الله ،
من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ،
أولئك شر مكانا وأضل من سواء السبيل » (٩) .

آى : هل أخبركم بشر مما تعيينون به علينا من الايمان بالله
والتصديق بكتبه ورساله جزاء وثوابا عند الله ؟ — فوضع المثوية موضع
العقوبة للتهكم والسخرية — أولئك الذين أبعدهم الله وطردهم من
رحمته ، وسخط عليهم فجعل لهم الخزي والنكال فى الدنيا ومسح
بعضهم قردة ، وبعضهم خنازير . . . وجعل منهم من عبد الشيطان
والأوثان . . . هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الشنيعة ، شر منزلة ممن
نقمتم عليهم يامعشر اليهود ، وأبعد عن سبيل الرشدى والهدى . .

وفى الآية تعريض باليهود باخبارهم بقبيح فعالهم وضميم أخلاقهم
. . كأنه يقول لهم : أهؤلاء المؤمنون الذين تستهزئون منهم شر ،
أم من لعنه الله ؟

ويقول جل شأنه : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله
واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ،
فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (١٠) .

آى : ولقد أرسلنا لكل أمة سلغتا رسولا ، بأن اعبدوا الله وحده ،
وابتعدوا عن الشيطان واحذروا أن يصدكم عن سبيل الله . . فمن هؤلاء
الأمم من هداه الله ووفقه للايمان ففاز وأغلق . . ومنهم من كفر وكذب ،
واتبع الطاغوت فهلك . . فسيروا — أيها المكذبون — فى البلاد التى كانوا
يسكنونها فانظروا ماذا حل بهم من سخط الله وعقابه . والغرض هو
الاعتبار بما حل بالسابقين من الأمم الكافرة ، وتحقيق صحة ما أخبرهم
به الرسول ﷺ .

ويقول جل وعلا : « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها واناابوا

الى الله لهم البشرى ، فبشر عباد • الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب » (١١) •
 أى : ان الذين اجتنبوا عبادة كل ما عبد من دون الله من شيء ، وتابوا الى الله ، ورجعوا الى الاقرار بتوحيده والعمل بطاعته •• لهم البشرى فى الدنيا بالجنة •• فبشر - يامحمد - عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون ارشده واهداه الى الحق ، وأدله على توحيد الله ، ويتركون ما سوى ذلك •• أولئك الناس هم الذين وفقهم الله للرشاد واصابة الصواب ، وأولئك هم أولوا العقول لا الذين يعرضون عن سماع الحق •• ويعبدون ما لا يضر ولا ينفع •• والله تعالى فى هذه الآية يثنى على المؤمنين بنفوذ بصائرهم ، وتمييزهم بين الأحسن من كل شيء ، وانذا وضع الظاهر « فبشر عباد » بدل الضمير « فبشرهم » تسريفا لهم وتكريما باضافتهم الى نفسه ••

فالمراد بعبادة الطاغوت فى كل من هذه الآيات الثلاث •• هو العبودية للطاغوت واطاعته •• ومعنى الطاغوت فى اصطلاح القرآن الكريم ، كل دولة أو سلطة وكل امامة أو قيادة تبغى على الله وتمرد ، ثم تنفذ حكمها فى أرضه وتحمل عباده على طاعتها بالاكراه أو بالاغراء أو بالتعليم الفاسد ••

فاستسلام المرء لمثل تلك السلطة وتلك الامامة والزعامة ، وتعبيده لها ثم طاعته اياها : كل ذلك منه عبادة ولا شك للطاغوت ••
 • ولقد جاءت كلمة « العبادة » فى القرآن الكريم بمعنى الطاعة وحدها ••

يقول تعالى : « ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، انه لكم عدو مبين • وأن أعبدونى ، هذا صراط مستقيم » (١٢) •

أى : ألم أوصكم وأمركم فى الدنيا أن لا تطيعوا الشيطان فى معصية الله ؟ لأن الشيطان لكم عدو ظاهر العداوة ، فقد غرر بآبائكم حتى أخرجهم وزوجه من الجنة •• وألم أوصكم بأن تعبدونى دون سواى

من الآلهة والأنداد ؟ ان اخلاص عبادتي ، وافراد طاعتي هو الدين الصحيح والطريق المستقيم ..

والواضح أنه لا يتأله أحد للشيطان في هذه الدنيا .. بل الكل يلعنه ويطرده من نفسه .. لذلك فان الجريمة التي يصم بها الله تعالى بنى آدم يوم القيامة ليست تأليه الشيطان في الحياة الدنيا .. بل اطاعتهم لأمره ، واتباعهم لحكمه ، وتسريبهم الى السبل التي أراهم اياها ..

ويقول جل شأنه : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون * من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم » (١٣) .

أى : اجمعوا الذين كفروا بالله في الدنيا ، وأشياعهم على الكفر — وليس المراد بالأزواج هنا الزوجات ، انما المراد بهم أشباههم من المجرمين العصاة — احشروهم وآلئهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ، فوجهوهم الى طريق النار الموقدة ..

ثم يقول جلا وعلا : « وأقبل بعضهم على بعض يتساعثون * قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمين * قالوا بل لم تكونوا مؤمنين * وما كان لنا عليكم من سلطان ، بل كنتم قوما طاغين » (١٤) .

أى : أقبل الأتباع على الرؤساء يلوم بعضهم بعضا ويتخاصمون ويتنازعون .. يقول الاتباع : انكم كنتم تأتوننا من قبل الدين والحق فتخدعوننا بأقوى الوجوه .. فيقول الرؤساء : بل لم تكونوا بتوحيد الله مقرين ، وكنتم لغيره عابدين ، وما كان لنا عليكم من حجة فنصدكم بها عن الايمان ، بل كنتم أنتم معتدين انى ما ليس لكم التعدية اليه من معصية الله ومخالفة أمره ..

فاذا ما أنعمنا النظر في هذه المحاوراة التي حكاها القرآن بين العابدين وبين ما كانوا يعبدون .. فانه سوف يتضح لنا أن ليس المراد بالمعبودين في هذا المقام الآلهة والأصنام التي كان يتأله لها القوم .. بل المراد أولئك الأئمة والهداة الذين أضلوا الخلق متظاهرين بالنصح ..

وتمثلوا للناس فى لبوس القديسين المطهرين .. فخدعواهم بسبحاتهم وجبايتهم وجعلوهم تبعاً لهم .. والذين أشاعوا فيهم الشر والفساد باسم النصيح والأصلاح ..

فالتقليد الأعنى لأولئك الخداعين .. والاتباع لأحكامهم هو الذى عبر عنه الله تعالى بكلمة العباداة فى قوله : « اتخذوا أديارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الهاً واحداً ، لا اله الا هو ، سبحانه عما يشركون » (١٥) .

نقد اتخذ اليهود علماءهم ، واتخذ النصارى رهبانهم أرباباً من دون الله ، يطيعونهم فيما يحلون ويحرمون .. كما اتخذ النصارى المسيح ابن مريم ربا .. وما أمر اليهود والنصارى الا أن يعبدوا ويطيعوا ربا واحداً .. لا اله الا هو ، لا أرباباً شتى .. وهو الله المستحق على جميع خلقه الاقرار له بالوحدانية والربوبية .. تنزه الله عما يشرك به هؤلاء هؤلاء ..

فالمراد فى هذه الآية .. باتخاذ العلماء والأديار أرباباً من دون الله ، ثم عبادتهم .. هو الايمان بكونهم مالكي الأمر والتهى ، والاطاعة لأحكامهم بدون سند من عند الله أو رسوله .. وقد صرح بهذا المعنى رسول الله ﷺ نفسه فى الأحاديث الصحيحة .. فلما قيل له : اننا لم نعبد علما منا وأديارنا .. قال : ألم تحلو ما أحلوه .. وتحرموا ما حرموه لا ..

عن عدى بن حاتم قال : أتيت رسول الله ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب — وخان عدى حديث عهد بالاسلام — فقال : « يا عدى ، اطرح هذا الوثن من عنقك » .. فطرحته وانتهيت اليه وهو يقرأ فى سورة براءة .. فقرأ هذه الآية : « اتخذوا أديارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » .. فقلت : يا رسول الله ، انا لا نعبدهم .. فقال : « ليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه .. ويحلون ما حرم الله فتحلون » .. قلت : بلى ، قال : « فتلك عبادتهم » ..

● أما المعنى الثالث للعبادة : فهو التأله والتنسك والتعظيم ..
والعبادة بهذا المعنى تشتمل على أمرين اثنين حسبما يدل عليه
القرآن الكريم ..

الأمر الأول : أن يؤدي المرء لأحد من الشعائر كالسجود والركوع
والقيام والطواف وتقبيل عتبة الباب أو الصريح أو النذر والفسك ..
ما يؤديه عادة بقصد التأله والتنسك .. ولا عبرة بأن يكون المرء يعتقد
الهاً أعلا مستقلاً بذاته .. أو يأتي بكل ذلك إياه وسيلة للشفاعة والزلفى
إليه ، أو مؤمناً بكونه شريكاً للاله الأعلى وتابعاً له فى تدبيره أمر
هذا العالم ..

أما الأمر الثانى : فهو أن يظن المرء أحداً مسيطراً على نظام
الأسباب فى هذا العالم .. ثم يدعو فى حاجته ويستغيث به فى ضره
وآفته ، ويعوذ به عند نزول الأهوال ونقض الأئس والأموال ..

فهذان الأمران من عمل المرء ، كلاهما داخل فى معانى التأله ..
والشاهد لذلك قوله الله تعالى : « قل انى نهيت أن أعبد الذين
تدعون من دون الله لما جاعنى البيئات من ربى وأمرت أن أسلم
لرب العالمين » (١٦) .

هذه الآية .. جاءت بعد قوله تعالى : « وقال ربكم ادعونى
استجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين »
الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ، ان الله لئو فضل
على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ذلكم الله ربكم خالق كل
شئ لا اله الا هو ، فأنى تؤفكون . كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله
يجحدون . الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم
فاحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم ، فتبارك الله
رب العالمين . هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد
لله رب العالمين » (١٧) .

الله تعالى يقول لنا : اعبدونى وأخلصوا لى العبادة ، أجب دعاءكم ، ويتوعد الذين يتكبرون عن افراده بالعبادة والألوهية بدخولهم النار صاغرين .. ثم يحصف تعالى نعمه علينا فيقول : ان الاله الذى لا تتبغى العبادة أو توجيه الدعاء لغيره هو الذى جعل الليل لتهدأوا فيه من التصرف والاضطراب للمعاش .. وتجعل النهار لحطب المعاش والحاجات ، نعمة منه وفضلا : فانه تعالى المتفضل عليكم — أيها الناس — بما لا مثيل له من الفضل ، ولكن أكثر الناس لا يشكرونه بالطاعة له . واخلص الألوهية والعبادة .. الذى فعل هذه الأشياء هو الله خالقكم وخالق كل شيء .. لا معبود تصلح له العبادة غيره فأين تذهبون عنه وتعبدون سواء ؟ كذهابكم عن الحق الى الباطل ، والرشد الى الضلال ذهب الذين كذبوا بحجج الله وآياته .. فأنله تعالى هو الذى جعل لكم الأرض ممهدة لتستقروا عايتها وتسكنوا فوقها .. ورفع السماء فوقكم لمصالحكم وقوام دنياكم .. وهو الذى خلقكم فأحسن خلقكم ، ورزقكم من حلال الرزق ولذيذات المطاعم والمشارب .. الذى فعل هذه الأفعال هو الله ربكم الذى لا تصلح الربوبية لغيره .. فتبارك الله مالك جميع الخلق .. هو الحى انذى لا يموت ، ولا معبود بحق سواء .. فادعوه مخلصين له . الطاعة ، ولا تشركوا فى عبادته شيئا سواء ، فالثناء التام الكامل لله مالك كل شيء ..

ثم يقول لنبيه : قل انى نهيت أن أعبد الذين تدعونهم من دون الله من آلهة وأوثان .. فقد جاعنى من آيات كتاب الله الواضحات الذى أنزله الله على ، وأمرنى ربى أن أذل وأخضع له بالطاعة دون غيره . ويقول جل شأنه على لسان ابراهيم عليه السلام : « واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا .. فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب ، وكلا جعلنا نبيا » (١٨) .

يقول ابراهيم عليه السلام : وأجتنبكم وما تعبدون من دون الله .

من الأوثان والأصنام .. وأدعوا ربى مخلصا له العبادة ، عسى أن لا أشقى بدعائى فيعطينى ما أسأله .. فلما اعتزل ابراهيم قومه ، وعبادة ما كانوا يعبدون من دون الله .. آنس الله وحشته من فراق قومه ، ووهب له ابنه اسحاق وابن ابنه يعقوب .. وجعلهم — كلهم — ابراهيم واسحاق ويعقوب — أنبياء ..

ويقول جل وعلا : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون • وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » (١٩) •

والمعنى — والله أعلم — أى عبد أضل ممن عبد حجرا أو خشبيا وجعلها آلهة ، وهى لا تجيب دعاءه أبدا الى يوم القيامة ؟ — وهذا توبيخ من الله تعالى للمشركين فى سوء رأيهم وقبح اختيارهم ، وفى عبادتهم من لا يعقل ولا يفهم ، وتركهم عبادة الإله القادر ، السميع البصير — فان هذه الآلهة المدعاة فى غفلة عن دعائهم واستغاثتهم عند المصائب ، فهى لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل .. ويوم القيامة حين يجمع الناس لموقف الحساب ستكون هذه الآلهة أعداء لم ، لأنهم يتبرأون منهم وسيكونون جاحدين بعبادتهم لأنهم يقولون : يا ربنا ، ما أمرناهم بعبادتنا ، تبرأنا اليك منهم ، فيتبرأون من عبادتهم ويقولون : « تبرأنا اليك ، ما كانوا آيانا يعبدون » (٢٠) •

ففى هذه الآيات الثلاث .. يصرح القرآن نفسه بأن المراد بالعبادة فيها هو الدعاء والاستغاثة .. ويدهى أن الأحجار والأخشاب لن تنطق فهى لا تعقل .. اما الذين يتبرأون من عبادة المشركين لهم هم الأسلاف من الصالحين الذين قدسهم المشركون واتخذوهم وسائط لدى الله يتجهون اليهم بالدعاء والاستغاثة فيعكفون على قبورهم يطوفون ويتمسحون بها فى ذلة وصغار .. طامعين فى شفاعتهم ووساطتهم • ويقول تعالى : « بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون » (٢١) •

(٢٠) التخصس : ٦٣

(١٩) الأحقاف : ٥ ، ٦

(٢١) سبأ : ٤١

والمراد بعبادة الجن والايمن بهم فى هذه الآية .. يفصله قوله تعالى فى سورة الجن : « والله كان رجال من الانس يعونون برجال من الجن فزادوهم رهقا » (٢٣) .

فان اولئك الرجال من الانس ، كانوا يستجيرون برجال من الجن فى اسفارهم ، فيقولون : « نعوذ بعزير هذا الوادى من شر سفهاء قومه » .. فزاد الانس والجن بفعلهم ذلك اثما ، واستحلالا لمحارم الله ، فالرهق فى كلام العرب : الاثم وغشيان المحارم ..

ويتبين لنا أن المراد بعبادة الجن هو العياذ بهم واللجوء اليهم فى الأهوان ، ونقص الأموال والأنفس .. كما أن المراد بالايمن بهم هو الاعتقاد بقدرتهم على الاعاذة والمحافظة .

كما يقول تعالى : « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل » قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا » (٢٣) .

أى أنه تعالى فى يوم القيامة سوف يحشر العابدين للأوثان ، وما كانوا يعبدون من دون الله ، من الملائكة والانس والجن .. ثم يقول تعالى للمعبودين : أأنتم أضللتم عبادى عن طريق الهدى ، ودعوتموهم الى الغى والضلالة حتى تاهوا ؟ أم عبادى هم الذين ضلوا سبيل الرشـد والحق ؟ . فيقول المعبودون : ننزهك يا ربنا ، ونبرئك مما أضـاف اليك هؤلاء المشركون ، ما يصح لنا أن نتخذ من دونك من نواليه ، أنت ولينا من دونهم ، ولكن متعتهم يا ربنا بالمال والصحة ، حتى نسوا ذكرك ، وكانوا قوما ذاكى قد غلب عليهم الشقاء ..

ثم يقول تعالى : « فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ، ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا » (٢٤) .

لقد كذبهم الذين زعموا أنهم أضلوه في دعواهم أنهم آلهة • •
فما يستطيع أولئك الكفار صرف العذاب عن أنفسهم ولا نصرها من
الله • • ويتوعد تعالى من يشرك به بأنه سوف يذيقه العذاب الشديد
في جهنم •

ويتجلى لنا من هذه الآيات • • أن المقصود بالمعبودين فيها هم
الأولياء والأنبياء والصلحاء • • والمراد بعبادتهم هو الاعتقاد بكونهم
أجل ، وأرفع من خصائص العبدية ، والظن بكونهم متصفين بصفات
الالوهية وقادرين على الاعانة الغيبية ، وكشف الضر والابغاة • • ثم
القيام بين أيديهم بشعائر التكريم والتعظيم ، مما يكاد يكون تالها
وقفوتا • •

ويقول جل شأنه : « ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء
أيامكم كانوا يعبدون • قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا
يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون » (٢٥) •

أي أنه تعالى سوف يحشر الكفار جميعا ، ثم يقول للملائكة :
أهؤلاء كانوا يعبدونكم من دوننا ؟ ، فيتبرأ منهم الملائكة ويقولون :
ننزهك يا رب مما أضاف إليك هؤلاء من الأنداد ، لا نتخذ وليا من
دونك • • بل كانوا يعبدون الشياطين ، أكثرهم يصدقون بأن الجن
بنات الله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا • • فالיום لا تملك الملائكة
للذين كانوا يعبدونهم في الدنيا نفعا ينفعونهم به ، ولا ضرا ينالونهم به ،
ويقول تعالى للذين عبدوا غير الله : ذوقوا عذاب جهنم التي كنتم بها في
الدنيا تكذبون • • وهو قوله تعالى في الآية بعدها : « فالיום لا يملك
بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي
كنتم بها تكذبون » (٢٦) •

والمقصود هنا بعبادة الملائكة • • هو التآله والخضوع لهياكلهم
وتماثيلهم الخيالية ، كما كان يفعل أهل الجاهلية • • وكان غرضهم من
وراء ذلك أن يرضوهم فيستعطفونهم ويستعينوا بهم في شئون حياتهم
الدنيا • •

ويقول جل شأنه : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون » (٢٧) .

فالمشركون يعبدون الأصنام التى يعبدونها ، وهى لاتضر ولا تنفع ، ويقولون : انما نعبدها رجاء شفاعتها لنا عند الله . . فقل لهم — يا محمد — : أتخبرون الله بما لا يكون فى السموات ولا فى الأرض؟ تنزه الله تعالى عن شركهم وكفرهم . .

كما يقول جل وعلا : « ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون ، ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار » (٢٨) .

العبادة والطاعة لا تكون الا لله وحده ، خالصة لا شريك لأحد معه فيها . . أما الذين عبدوا من دون الله الأوثان ، فانهم يقولون لأوثانهم : ما نعبدكم الا لتقربونا الى الله منزلة ، وتشفعوا لنا عنده فى حاجتنا . . وسيفصل الله بين هؤلاء الأحزاب الذين اتخذوا أولياء من دون الله ، سيفصل تعالى فيما يختلفون فيه بأن يصليهم جميعا نار جهنم ، الا من أخلص الدين لله فوحده ، والله تعالى لا يرشد الى الحق من هو مفتر على الله : يقول عليه الباطل ، كافر لنعمه ، جاحد لربوبيته .

المراد — اذن — فى هاتين الآيتين . . هو القائل ، وقد فصل فيهما الغرض الذى كانوا لأجله يقدسونه . . فهم لم يعتقدوا فيهم الخلق والايجاد : ولكنهم اتخذوهم وسائط وشفعاء لدى الله . .

ويتضح لنا من جميع ما تقدم . . أن كلمة « العبادة » فى القرآن الكريم قد استعملت فى بعض المواقع بمعنى العبودية والاطاعة . . وفى أخرى بمعنى الاطاعة فحسب ، وفى الثالثة بمعنى القائل وحده . . كما جاءت شاملة لجميع هذه المعانى الثلاثة . . يقول تعالى : « ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم

ان كنتم صادقين • اهلهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ،
أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم
ثم كيّدون فلا يتنظرون « (٢٩) » .

يقول تعالى : ان الذين تعبدونهم من دون الله من الأوثان والأصنام
مخلوقات مثلكم بل أنتم أكمل منها ، فالأصنام لا تسمع دعاء من دعاها
وسواء لديها من دعاها ومن دعاها • بل الانسان أكمل منها وأشرف لأنه
يسمع ويبصر ويعقل • • وهذه دمي لا يرجى منها شيء من الخير فكيف
تكون آلهة مع الله ؟ • • ويتجدهم قائلاً : ادعوهم لجلب نفع أو دفع
ضرر ان كنتم صادقين في دعوى أنها آلهة ، هذه الأصنام أرجل يمشون
بها في حوائجكم ؟ • • أم لهم أيد يدفعون بها عنكم من يقصدكم بشر
أو مكروه ؟ • • أم لهم أعين يبصرون بها فيعرفونكم ما يغيّب عنكم ؟ • •
أم لهم آذان فيخبرونكم ما لم تسمعوه ؟ • • فإذا كانت آلهتكم ليس
فيها شيء من هذه الآلات ، فما وجه عبادتكم لها ؟ • • فقل — يا محمد —
لهؤلاء المشركين : ادعوا آلهتكم واستتصروا بها على فلا تؤخروني
بالكيد والمكر طرفة عين ، فان الله تعالى قد عصمني منكم • •
ثم يقول تعالى : « والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم
ولا أنفسهم ينصرون » (٣٠) .

أي : أن الذين تعبدونهم من الآلهة ، لا يقدر على نصركم ولا على
نصر أنفسهم • • فأى هذين أحق بالعبادة ؟ من ينصر وليه ، أم من
لا يقدر على نصر نفسه أو وليه ؟ ؟

ويقول جل شأنه : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه ، بل عباد
مكرهون • لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون • يعلم ما بين أيديهم
وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » (٣١) .

أي : وقال الكافرون اتخذ الرحمن ولدا من الملائكة — تنزه الله
عن ذلك — ما الملائكة الا عباد أكرمهم الله ، لا يتكلمون الا بما يأمرهم

(٢٩) الاعراف : ١٦٤ ، ١٦٥ (٣٠) الاعراف : ١٦٧

(٣١) الأنبياء : ٢٦ — ٢٨

به ربهم ، ولا يعملون عملا الا بأمره .. يعلم ما بين أيدي ملائكته مما هم فيه قائلون وعاملون ، ويعلم ما مضى من الأزمان وما عملوا فيه ، لا يخفى عليه شيء .. ولا تشفع الملائكة الا لمن رضى الله عنه ، وهم من خوفه تعالى حذرون أن يعصوه ، ويخالفوا أمره ونهيه ..

ويقول جل وعلا : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا ، أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسئلون . وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يخرصون » (٣٢) .

أى : أن المشركين قد جعلوا الملائكة — الذين هم خلق الله وعباده بناتاً لله فأنثوهم ، أشهد أولئك المشركون خلق ملائكة الله اناثا فوصفواهم بذلك لرؤيتهم اياهم ؟ ستكتب شهادة هؤلاء القائلين ، ويسئلون عن شهادتهم فى الآخرة .. وقال المشركون : لو شاء الرحمن ما عبدنا أوثاننا ، غاله راض عنا لعبادتنا اياها .. ما لهم بحقيقة ما يقولون من علم . وانما يقولونه تخرصا (٣٣) وكذبا ..

ويقول جل شأنه : « ان كل من فى السموات والأرض الا أتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتية يوم القيامة فردا » (٣٤) .

أى : أن جميع من فى السموات من الملائكة ، ومن فى الأرض من الانس والجن .. سوف يأتون ربهم مقرين له بالعبودية .. لقد أحصى الرحمن خلقه كلهم ، وعدهم عدا فلا يخفى عليه منهم أحد .. وجميع خلقه سوف يرد عليه يوم القيامة وحيدا لا ناصر له ، فيقضى الله فيه ما هو قاض ..

ويقول جل وعلا : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شيء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج

(٣٢) الزخرف : ١٩ ، ٢٠

(٣٣) التخرص : هو الكذب الذى لا يستند على دليل .

(٣٤) مريم : ٦٢ — ٦٥

الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب» (٣٥) .

يأمر الله نبيه— ويأمرنا معه— أن نقول: يا الله ، يا مالك الملك ، يا من له ملك الدنيا والآخرة .. تعطى الملك من تشاء فتملكه وتسلطه على من تشاء ، وتسلب الملك ممن تشاء أن تسلبه منه .. وتعز من تشاء باعطائه الملك والسلطان .. وتذل من تشاء بسلب ملكه وتسلط عدوه عليه .. كل ذلك بيدك واليك لا الى غيرك .. ولا يقدر على ذلك أحد سواك .. فأنت — يارب — تدخل ما نقصت من ساعات الليل فى ساعات النهار ، وبالعكس ، فما أنقصت من النهار تجعله فى الليل ، وما أنقصت من الليل تجعله فى النهار .. وتخرج الانسان الحى من النطفة الميتة ، وتخرج النطفة الميتة من الانسان الحى ، وكذلك الأنعام والبهائم . [فانطفة ميتة ثم ينشئ الله منها انسانا حيا ، ومن الانسان الحى تخرج النطفة الميتة ، ويخرج النخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والبيض من الدجاج والدجاج من البيض .. والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن] .. وتجود — يا رب على من تشاء من خلقك ، بغير محاسبة لمن أعطيته لأن جزائئك لا تنقص ..

فالقرآن الكريم .. يعد جميع أولئك المعبودين باطلا .. ويجعل عبادتهم خطأ عظيما سواء تعبدتهم الناس أو أطاعوهم أم تألهوا لهم .

ويقول : ان جميع من طفقتم تعبدونهم .. عباد لله وعبيده .. فلا يستحقون أن يعبدوا ، ولا أنتم مكتسبون من عبادتهم غير الخيبة والمذلة والخزى ..

وأن مالكهم فى الحقيقة .. ومالك جميع ما فى السموات والأرض هو الله الواحد .. وبيده وحده كل الأمر وجميع السلطات والسلطات .. ولأجل ذلك لا يجدر بالعبادة الا هو وحده ..

وبعد أن يقيم القرآن الكريم البرهان على كون جميع من عبدتهم الناس بوجه من الوجوه عبيدا لله وعاجزين أمامه .. يدعو جميع الانس

والجن الى أن يعبدوا الله تعالى وحده بكل معنى من معانى العبادة المختلفة .. فلا تكن العبدية الا له .. ولا يطاع الا هو .. ولا يتأله المرء الا له .. ولا تكن حبة خردل من أى تلك الأنواع للعبادة لوجه غير الله ..

يقول تعالى : « نلکم الله ربکم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . أن تدعوهم لا يسمعوا دعاءکم ولو سمعوا ما استجابوا لکم ، ويوم القيامة يکفرون بشركکم ، ولا ینبئک مثل خبی » (٣٦) .

بعد أن عدد تعالى نعمه على خلقه فى الآيات السابقة على هذه الآية .. يقول : هذا هو معبودکم الذى يستحق العبادة .. وهو الله ربکم : له الملك التام ، الذى لا شىء الا وهو فى ملكه وسلطانه . . . والذين تعبدون من دونه ما يملكون قشر النواة .. ان تدعوا الالهة التى تعبدونها لا يسمعوا دعاءکم لأنها جماد لا تفهم ما تقولون ، ولو سمعوا دعاءکم وفهموا قولکم بأن جعل لهم سمع يسمعون به ، ما استجابوا لکم لأنها ليست ناطقة ، ويوم القيامة تبرأ الالهة التى تعبدونها من أن تكون فى الدنيا شریکا لله .. ولا یخبرک — یا محمد — عن الحقيقة مثل الله ذی الخبرة ، الذى لا یخفى علیه شىء ..

ويقول جل شأنه : « قل اتعبدون من دون الله مالا یملک لکم ضرا ولا نفعا ، والله هو السميع العليم » (٣٧) .

یأمر الله تعالى نبيه أن یقول لأولئك الکفرة الذين اتخذوا الهة غیر الله .. اتعبدون من لا یقدر على دفع ضرر عنکم ، ولا جلب نفع لکم .. وتتركون القادر على کل شىء ؟ .. السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم !!

فالعبادة .. لا تكون الا لله وحده ..
والطاعة .. لا تكون الا لله تعالى وحده ..
والتأیه .. لا یجوز الا لله وحده ..

: وليست العبادة قاصرة على معنى التآله وحده .. أو بمعنى العبدية والاطاعة فحسب .. بل الحق ان القرآن الكريم يعرض دعوته بأكملها .. ومن الواضح أنه ليست دعوة القرآن الا أن تكون العبدية والاطاعة والتآله .. كل أولئك خالصا لوجه الله تعالى ..

ولعله قد وضح لنا — الآن — أن مفهوم « العبادة » الأساسى هو أن يذعن المرء لعلاء أحد وغلبته .. ثم ينزل له عن حرите واستقلاله ، ويترك ازاءه كل المقاومة والعصيان وينقاد له انقيادا تاما .. وهذه هي حقيقة العبدية والعبودية ..

ومن ذلك أن أول ما يتمثل فى ذهن العربى لمجرد سماعه كلمة « العبد » ، و « العبادة » .. هو تصور العبدية والعبودية .. وبما أن وظيفة العبد الحقيقية هي اطاعة سيده وامثال أمره .. فمن الحتمى أن يتبعه تصور الاطاعة ..

ثم إذا كان العبد لم يقف به الأمر على أن يكون قد أسلم نفسه لسيده طاعة وتذلا .. بل كان مع ذلك يعتقد بعلائه ويعترف بعلو شأنه ، وكان قلبه مفعما بعواطف الشكر والامتنان على نعمه وأياديه .. فإنه يبلغ فى تمجيده وتعظيمه ، ويتفنن فى ابداء الشكر على آلائه ، وفى أداء شعائر العبدية له .. وكل ذلك اسمه التآله والتتسك ..

وهذا التصور لا ينضم الى معنى العبدية الا اذا كان العبد لا يخضع لسيده رأسه فحسب .. بل يخضع معه قلبه أيضا .. وهكذا يتضح لنا .. أن حصر معانى كلمة العبادة فى معنى بعينه .. انما هو فى الحقيقة حصر لدعوة القرآن الكريم فى معان ضيقة .. ومن نتائجة المحتومة أن من آمن بدين الله وهو يتصور دعوة القرآن هذا التصور الضيق المحدود .. فإنه لن يتبع تعاليمه الا اتباعا ناقصا محدودا ..

يقول تعالى : « قل يا أيها الناس ان كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين » (٢٨) .

أى : ان كنتم — أيها المشركون فى شك من دينى الذى أدعوكم إليه .. فانى لا أعبد الإلهة والأوثان التى تعبدونها من دون الله .. والتى لا تسمع ولا تبصر ، ولكن أعبد الله الذى يقبض أرواحكم ، فيميتكم عند انتهاء آجالكم .. وأمرنى ربى أن أكون من المصدقين بما جاءنى من عنده ..

ويقول جل شأنه : « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله ، أمر ألا تعبدوا الا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٣٩) .
أى : ما تعبدون — أيها المشركون — من دون الله من الأوثان والأصنام .. الا مسميات لا تستحق الألوهية سميتموها أربابا وإلهة .. ما أنزل الله بها من حجة ، ولكنها اختلاق منكم وافتراء .. وما الحكم والتصرف الا لله وحده .. أمر عباده ألا يعبدوا الا إياه .. هذا هو الدين القويم الذى لا اعوجاج فيه .. ولكن أكثر الناس يجهلون ذلك فلا يعلمون حقيقته ..

ويقول جل وعلا : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد ، فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » (٤٠) .

يامر الله رسوله ﷺ .. أن يقول للمشركين : انما أنا بشر من بنى آدم ، لا علم لى الا ما علمنى الله .. وقد أوحى الى أن معبودكم الذى يجب أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئا ، معبود واحد .. فمن كان يخاف ربه يوم لقائه ، ويراقبه ويرجو ثوابه ، فليخلص له العبادة .. ولا يجعل له شريكا فى عبادته (٤١) .

هذا هو المفهوم الاسلامى السليم لكلمة « العبادة » .. ويقول الدكتور يوسف القرضاوى — جزاه الله عن الاسلام خيرا — فى معنى العبادة التى هى من حق الله وحده :

(٤٠) الكهف : ١١٠

(٣٩) يوسف : ١٠٠

(٤١) وانظر بحث « العبادة » لأبى الأعلى الموددى فى كتابه :

« المصطلحات الأربعة » — نشر دار التراث العربى ، عام ١٩٨٦ فنية المزيدي .

« العباداة » كلمة تتضمن معنيين • • امتزج أحدهما بالآخر فصارا شيئاً واحداً • • هما نهاية الخضوع مع نهاية الحب • •

فالخضوع الكامل ، المترج بالحب الكامل • • هو معنى العباداة • •
فأما حب بلا خضوع ، أو خضوع بلا حب • • فلا يحقق معنى العباداة ، وكذلك بعض الخضوع مع بعض الحب ، فإنه لا يحقق العباداة • • بل لا بد من كل الخضوع ، مع كل الحب • •

والعبادة • • ليست مقصورة على صورة واحدة ، كما يخيل لكثير من الناس • • بل لها أنواع وصور عديدة • •

فمنها • • الدعاء : أى الاتجاه الى الله تعالى بطلب نفع ، أو دفع ضرر ، أو رفع بلاء ، أو طلب نصرة على العدو ، أو نحو ذلك • •

فهذا الاتجاه بالسؤال المنبعث من القلب لله تعالى هو مخ العباداة وروحها ، كما فى الحديث الشريف : « الدعاء هو العباداة » (٤٢) •

ومنها : اقامة الشعائر الدينية مثل الصلاة ، والصيام ، والصدقة ، والحج ، والنفرة : والذبح ، وما شابه ذلك • • فلا يجوز أن توجه هذه الشعائر الا لله • •

فلا يجوز الصلاة لغير الله ، ولا الصيام ، والصدقة ، والنفرة ، والذبح ، وغيرها من الشعائر • •

ومنها : الانتقياد والاذعان الدينى لما شرع الله من أحكام • • أحل بها الحلال ، وحرم الحرام ، وحد الحدود ، ونظم شئون الحياة • • فلا يجوز لمن آمن بالله ربا أن يأخذ عن البشر النظم والأحكام والقيم والقوانين • • يخضع لها ويحكمها فى حياته بغير سلطان من الله • • فهذا ضرب من العباداة (٤٣) •

(٤٢) رواه الترمذى

(٤٣) انظر « حقيقة التوحيد » للدكتور يوسف القرضاوى : نشر مكتبة وهبة ص ٢٢ ، ٢٣

● الشرك ، والكفر ، والالحاد :

بسطنا في الصفحات السابقة معنى كلمة « العبادة » .. ونعرض في ايجاز معنى كلمات : « الشرك » و « الكفر » .. و « الالحاد » ..
اتماما للفائدة .. فنقول وبالله !لعون :

● يقول ابن منظور في « لسان العرب » تعريفا للشرك : أشرك بالله ، جعل له شريكا في ملكه — تعالى الله عن ذلك — والاسم « الشرك » .. قال الله تعالى حكاية عن عبده لقمان ، أنه قال لابنه : « يا بني لا تشرك بالله ، ان الشرك لظلم عظيم » (٤٤) .

والشرك : أن يجعل لله شريكا في ربوبيته — تعالى الله عن الشركاء ، والأنداد — وإنما دخلت التاء في قوله : « لا تشرك بالله » لأن معناه : لا تعدل به غير فتجعله شريكا له ..

وكذلك قوله تعالى : « وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » (٤٥) لأن معناه : عدلوا به .. ومن عدل به شيئا من خلقه فهو كافر مشرك .. لأن الله وحده لا شريك له ، ولأنه لا ند له ولا نديد ..
قال أبو العباس في قوله تعالى : « والذين هم به مشركون » (٤٦) معناه : الذين هم صاروا مشركين بطاعتهم للشيطان ..

وليس المعنى أنهم آمنوا بالله وأشركوا بالشيطان .. ولكن عبدوا الله وعبدوا معه الشيطان — بطاعته — فصاروا بذلك مشركين ..

قال انجوهرى : الشرك ، الكفر .. وقد أشرك فلان بالله ، فهو مشرك ..

وفي الحديث الشريف : « الشرك أخفى في أمتي من حبيب النمل » .. قال ابن الأثير : يريد به الرياء في العمل ، فكأنه أشرك في عمله غير الله تعالى .. ومنه قوله تعالى : « ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » (٤٧) .

(٤٥) الاعراف : ٣٣

(٤٧) الكهف : ١١٠

(٤٤) لقمان : ١٣

(٤٦) النحل : ١٠٠

وفى الحديث أيضا : « من حلف بغير الله فقد أشرك » .. حيث جعل مالا يحلف به مخلوقا به كاسم الله الذى يكون به القسم ..
● والكفر : نقيض الايمان .. والكفر أيضا : كفر النعمة وجحودها ، وهو نقيض الشكر ..
وكفر النعمة : جحودها ونسئرها .. قال تعالى : « انا بكل كافرون » (٤٨) .. أى جاحدون .. ورجل كافر : جاحد لأنعم الله ، وهو مشتق من الستر ..

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « قتال المسلم كفر م وسبابه فسوق ، ومن رغب عن أبيه فقد كفر » ..

وقال بعض أهل العلم : الكفر على أربعة أنحاء : كفر انكار ، بأن لا يعرف الله أصلا ولا يعترف به .. وكفر جحود .. وكفر معاندة .. وكفر نفاق ، ومن لقى ربه بشيء من ذلك لم يغفر له ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ..

فأما كفر الانكار : فهو أن يكفر بقلبه ولسانه ، ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد .. وكذلك روى فى قوله تعالى : « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » (٤٩) .. أى الذين كفروا بتوحيد الله ..

وأما كفر الجحود : فأن يعترف بقلبه ولا يقر بلسانه ، فهو كافر جاحد .. ككفر ابليس وكفر أمية بن أبى الصلت .. ومنه قوله تعالى : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » (٥٠) .. يعنى كفر الجحود ..

وأما كفر المعاندة : فهو أن يعرف الله بقلبه ، ويقر بلسانه .. ولكنه لا يدين به حسدا وبغيا ككفر أبى جهل وأضرابه .. وفى « التهذيب » : يعترف بقلبه ويقر بلسانه م ويأبى أن يقبل .. كأبى طالب حيث يقول :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديننا
لولا الملامة أو حذار مسية لوجدتني بسببها بذاك ميينا
وأما عن كفر النفاق : فإن يقر بلسانه ، ويكفر قلبه ، ولا يعتقد
بقلبه ..

كتب عبد الملك بن مروان الى سعيد بن جبير يسأله عن الكفر
فقال : « الكفر على وجوه : فكفر هو شرك ، يتخذ مع الله الها آخر ..
وكفر بكتاب الله ورسوله .. وكفر بادعاء ولد الله .. وكفر مدعى
الاسلام ، وهو أن يعمل أعمالا بغير ما أنزل الله ، ويسعى فى الأرض
فسادا ، ويقتل نفسا محرمة بغير حق .. »

وقوله سبحانه : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم
الكافرون » (٥١) .. معناه : أن من زعم أن حكما من أحكام الله الذى
أتت به الأنبياء — عليهم السلام — باطل .. فهو كافر .
وسئل ابن عباس — رضى الله عنهما — عن هذه الآية فقال :
« وليسوا كمن كفر بالله واليوم الآخر » ..

وقد أجمع الفقهاء .. أن من قال : ان المحصنين لا يجب أن يرجما
إذا زنيا وكانا حريين ، كافر .. وانما كفر من رد حكما من أحكام
النبي ﷺ لأنه مكذب كافر ..

وفى الحديث : أن رسول الله ﷺ قال فى حجة الوداع : « لا ترجعن
بعدى كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض » .

وقال ﷺ : « من قال لأخيه : يا كافر .. فقد باء به أحدهما ..
لأنه إما أن يصدق عليه أو يكذب ، فان صدق فهو كافر ، وان كذب
عاد الكفر اليه بتكفيره أخاه المسلم . »

ومن أنكر فرضية أحد أركان الاسلام .. كان كافرا بالاجماع ..
ومن أنكر شيئا معلوما من الدين بالضرورة ، كان كافرا — أعادنا
الله من ذلك ..

● أما معنى الاتحاد : فالإلحاد هو الميل ، والعدول ، والجور .
 يقال : لحد في الدين والحد : أى مال وعدل .. ويقال : مال وجاز ..
 ويقول ابن السكيت : الملحد : العادل عن الحق المدخل فيه ما ليس
 فيه .. يقال : قد ألحد في الدين ولحد : أى حاد عنه .. وألحد الرجل :
 أى ظلم في الحرم ، وأصله قوله تعالى : « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم » (٥٢)
 ومعنى الإلحاد فى اللغة : الميل عن القصد .. ولحد على من
 شهادته ، يلحد لحدا : أثم .. ولحد إليه بلسانه : مال ..
 ويقول الأزهري فى قوله تعالى : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمي »
 وهذا لسان عربى مبین » (٥٣) .

.. قال القراء : قرئ يلحدون — بفتح الياء والحاء مع تسكين
 اللام — أراد يميلون إليه .. ويلحدون — بضم الياء وكسر الحاء — :
 يعترضون .. قال : وقوله سبحانه : « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم » ..
 أى باعتراض ..

وفى الحديث الشريف : « احتكار الطعام فى الحرم إلحاد فيه »
 أى ظلم وعدوان .. وأصل الإلحاد .. الميل والعدول عن الشيء (٥٤) .

● عقيدة أهل التوحيد فى الإله المعبود ، وفى الرسول الخاتم :

يقول الله تعالى : « هو الله الذى لا إله الا هو ، عالم الغيب
 والشهادة ، هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله الا هو الملك
 القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحانه الله
 عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنی ،
 يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » (٥٥) .

(٥٣) النحل : ١٠٣

(٥٢) الحج : ٢٥

(٥٤) انظر : « منهاج الصالحين » من أحاديث وسنة خاتم الانبياء

والمرسلين « للاستاذ عز الدين بليق ، ص ٦٤ — ٦٨ بتصرف ،

(٥٥) الحشر : ٢٢ — ٢٤

فأالله تعالى : هو المعبود الذى لا تثبغى العبادة والألوهية الا له ..
هو عالم غيب السموات والأرض ، وشاهد ما فيهما مما يرى
ويحس ..

هو رحمن الدنيا والآخرة .. رحيم بأهل الايمان به ..
هو المعبود الذى لا تصلح العبادة الا له .. الملك الذى لا ملك
فوقه ..

هو الظاهر من كل ما يضيف اليه المشركون ، ويصفونه مما ليس من
صفاته ..

هو — تعالى — الذى يسلم خلقه من ظلمه .. والذى يؤمن خلقه
من ظلمه .. الرقيب الحافظ لكل شيء .. الشديده فى انتقامه ممن انتقم
من أعدائه .. المصلح أمور خلقه ، يضرفهم فيما فيه صلاحهم ..
الذى تكبر عن كل شيء .. تنزه تعالى عن شرك المشركين ..

وهو المصدق لرسله باظهار المعجزات على أيديهم .. القهار
العالى الجنب الذى يذل له من دونه ..

هو تعالى — المعبود الخالق الذى لا معبود تصلح له العبادة
غيره ، ولا خالق سواه .. الذى برأ الخلق فأوجدهم بقدرته ، والذى
صور خلقه كيف شاء ..

له تعالى الأسماء الحسنى .. يسبح له جميع ما فى السموات
والأرض ، ويسجد له طوعا وكرها .. وهو — تعالى — الشديده الانتقام
من أعدائه .. الحكيم فى تدبيره خلقه ، وتصريفهم فيما فيه صلاحهم ..

هذه الأسماء الحسنى .. التى ذكرها تعالى وغيرها توقيفية ..
ويجب الاقتصار على ما ورد فى الكتاب والسنة ، مما سمى الله به نفسه
فى كتابه ، أو سماه بها رسوله ﷺ .. فلا يجوز أن نخترع له أسماء
كأن نقول : الله « مهندس الكون » .. أو « طبيب القلوب » .. الخ ..

وأهل التوحيد .. يؤمنون بأن الله تعالى : « واحد لا شريك له ،
فرد لا مثيل له ، صمد لا ضد له ، منفرد لا ند له ، واحد قديم لا أول له ،

أزلى لا بداية له ، مستمر الوجود لا آخر له : أبدى لا نهاية له ، قيوم لا انقطاع له ، دائم لا انصرام له .. لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال ، لا يقضى عليه بالانقضاء وتصرم الآباد ، وانقراض الآجال ، بل هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم » (٥٦) .
يؤمن أهل التوحيد : بأنه تعالى : « ليس بجسم مصور ، ولا جوهر محدود مقدر ، فإنه لا يماثل الأجسام لا فى التقدير ولا قبول الانقسام ، فإنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ، ولا بعرض ، بل لا يماثل موجوداً ولا يماثله موجود ، ليس كمثله شيء ، ، وأنه لا يحده المقدار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تحويه الجهات ، ولا تكتنفه السموات ، وأنه مستو على العرش ، على الوجه الذى قاله ، وبالمعنى الذى أراده ، استواء منزهاً عن المماساة والاستقرار ، والتمكن والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون فى قبضته ، وهو فوق العرش ، وفوق كل شيء الى تخوم الثرى ، فوقية لا تريده قرباً الى العرش والسماء ، بل هو رفيع الدرجات على العرش .
كما أنه رفيع الدرجات على الثرى ، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب الى العبيد من جبل الوريد ، فهو على كل شيء شهيد ، اذ لا يماثل قربه قرب الأجسام ، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام ..

وأنه لا يحل فى شيء ، ولا يحل فيه شيء ، تعالى أن يحويه مكان ، كما تقدس عن أن يحده زمان ، بل كان قبل أن يخلق الزمان والمكان ، وهو الآن على ما عليه كان ..

وأنه — تعالى — بائن عن خلقه بصفاته ، ليس فى ذاته سواه ، ولا فى سواه ذاته ..

وأنه مقدس عن التغيير والانتقال ، ولا تحله الحوادث ولا تعثره العوارض ، بل لم يزل ولا يزال فى نعوت جلاله منزهاً عن الزوال ، وفى صفات كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال ..

(٥٦) بداية الهداية ، لابی حامد الغزالي ، نشر دار التراث العربى ،

وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول ، مرئى الذات بالأبصار ،
نعمة منه ولطفاً بالأبرار في دار القرار ، واثماً للنعيم بالنظر إلى
وجهه الكريم » (٥٧) .

يؤمن أهل التوحيد بأنه تعالى : « حي قادر ، جبار قاهر ،
لا يعتريه قصور ولا عجز ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعارضه فناء
ولا موت ، انه ذو الملك والملكوت ، والعزة والجبروت ، له السلطان
والقهر ، والخلق والأمر ، والسموات مطويات بيمينه ، والخلائق
مقهرون في قبضته » .

وأنه — تعالى — منفرد بالخلق والاختراع ، متوحد بالايجاد
والابداع ، خلق الخلق وأعمالهم ، وقدر أرزاقهم وآجالهم ، لا يشذ
عن قبضته مقدور ، ولا تعزب عن ارادته تصارييف الأمور ، لا تحصى
مقدورات ، ولا تنتهى معلوماته » (٥٨) .

يؤمن أهل التوحيد بأنه تعالى : « عالم بجميع المعلومات ، محيط
بما يجرى من تخوم الأرض إلى أعلى السموات ، ولا يعزب عن علمه
مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، يعلم دبيب النملة السوداء على
الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، يدرك حركة الذر في الهواء ،
يعلم السر وأخفى ، ويطلع على خواجس الضمائر ، وحركات الخواطر ،
وخصيات السرائر ، يعلم قديم أزلى ، لم يزل موصوفاً به في أزل الأزل ،
لا يعلم مجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال » (٥٩) .

يؤمن أهل التوحيد بأنه تعالى : « مرید للكائنات ، مرید للمحادثات ،
فلا يجرى في الملك والملكوت قليل ولا كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ،
نفع أو ضرر ، ايمان أو كفر ، عرفان أو نكر ، فوز أو خسر ، زيادة أو
نقصان ، طاعة أو عصيان ، كفر أو ايمان ، الا بقضائه وقدره ، وحكمه
ومشيئته ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا يخرج عن مشيئته
لشقة ما ظن : ولا غلطة خاطر ، بل هو المبدى المعيد ، والفعال لما يريد ،

(٥٧) بداية الهداية . مرجع سابق ، ص ١٩ ، ٢٠ .

(٥٨) المرجع نفسه ص ٢١ . (٥٩) نفس المرجع ص ٢١ .

لا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، ولا مهرب لعبد عن معصيته الا بتوفيقه
ورحمته ، ولا قوة له على طاعته الا بمحبته وارادته ، لو اجتمع الانس
والجن والملائكة والشیاطین على أن يحركوا فی العالم ذرة أو يسكتوها
عجزوا عنه ..

وأن ارادته قائمة بذاته ، فی جملة صفاته ، لم يزل كذلك موصوفا
مريدا فی أزله ، سبقت ارادته وجود الأشياء فی أوقاتها التي قدرها ،
فوجدت فی أوقاتها كما أرادہ فی أزله ، من غير تقدم أو تأخر ، ووقعت
على وفق علمه وارادته ، من غير تبدل ولا تغير ، دبر الأمور لا بترتيب
أفكار وتريخ زمان ، فلذلك لم يشغله شأن عن شأن « (٦٠) » ..

يؤمن أهل التوحيد بأنه تعالى : « سميع بصير ، يسمع ويرى ،
لا يعزب عن سمعه مسموع وان خفى ، ولا يغيب عن رؤيته مرئى وان
دق : ولا يحجب سمعه بعد ، ولا يدفع رؤيته ظلام ، يرى من غير
حدقة وأجفان ، ويسمع من غير أصمخة وآذان ، كما يعلم بغير قلب ،
ويبطل بغير جارحة ، ويخلق بغير آلة ، اذ لا تشبه صفاته صفات الخلق ،
كما لا تشبه ذاته ذات الخلق » (٦١) .

يؤمن أهل التوحيد بأنه تعالى : « متكلم آمر ناه ، واعد متوعد ،
بكلام أزلى قديم : قائم بذاته ، لا يشبه كلام الخلق ، وليس بصوت
يحدث من انسلال هواء ، ولا حرف ينقطع باطباق شفة أو تحريك
لسان ، والقرآن والتوراة والانجيل والزيور كتبه المنزلة على رسله ..
وأن انقرآن مقروء بالأسنة ، مكتوب فی المصاحف ، محفوظ فی القلوب ،
وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله ، لا يقبل الانفصال والافتراق
بالانتقال الى القلوب أو الأوراق ، وأن موسى سمع كلام الله بغير
صوت ولا حرف ، كما يرى الأبرار ذات الله — يوم القيامة — من غير
جوهر ولا عرض ، واذا كانت له هذه الصفات كان حيا عالما ، قديرا
مريدا ، سميعا بصيرا ، متكلم بالحياة والقدرة ، والعلم والارادة ،
والسمع والبصر ، والكلام لا بمجرد الذات » (٦٢) .

(٦٠) بداية انهداية ، المرجع السابق ص ٢٢ .

(٦١) المرجع نفسه ص ٢٢ ، ٢٣ (٦٢) نفس المرجع ص ٢٣

يؤمن أهل التوحيد بأنه تعالى : « لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه ، وأكملها وأتمها وأعدلها ، وأنه حكيم في أفعاله ، عادل في أقضية ، لا يقاس عدله بعدل العباد ، إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره ، ولا يتصور الظلم من الله ، فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى لا يكون تصرفه فيه ظلما ، وكل ما سواه من جن وانس ، وشيطان وملك ، وسماء وأرض ، وحيوان ونبات ، وجوهر وعرض ومدر ، هو محسوس حادث ، اخترعه بقدرته بعد عدم اختراعا ، وأنشأه بعد أن لم يكن شيئا ، إذ كان في الأزل موجودا وحده ، ولم يكن معه غيره ، فأحدث الخلق بعد أن لم يكن اظهرا لقدرته ، وأنشأه بعد أن لم يكن شيئا . .

وأنه — تعالى — متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ، ومتصف بالانعام والإصلاح لا عن لزوم ، فله الفضل والاجسان ، والنعمة والامتنان ، إذ كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ، ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب ، ولو فعل ذلك لكان ذلك منه عدلا . ولم يكن قبيحا ولا ظلما ، وأنه يثيب عباده على الطاعات بحكم الكرم والوعد ، لا بحكم الاستحقاق واللزوم ، إذ لا يجب عليه فعل ، ولا يتصور منه ظلم ، ولا يجب عليه لأحد حق ، فان حقه في الطاعات واجب على الخلق بإيجابه على لسان أنبيائه لا بمجرد العقل ، ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة ، بلغوا أمره ونهيه ، ووعدوه ووعدوه : فأوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به « (٦٣) .

* * *

● الله تعالى في عقيدة الاسلام : « ليس كمثله شيء » (٦٤) . .
ومما يقتضيه العقل : أن خالق العالم لا يشبه خلقه ، فالصانع لا يشبه

(٦٣) بداية انهداية ، المرجع السابق ص ٢٣ ، ٢٤

(٦٤) الشورى : ١١

الصنعة ، والتكيف والتحديد لا يكونان الا فى المخلوق لأنهما صفتان للمحدث (٦٥) .

ولهذا يعتقد أهل التوحيد : أن الله تبارك وتعالى متصف بصفات الجلال والكمال من الحياة ، والقدرة ، والعلم والارادة : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (٦٦) .

وأنة تعالى هو المخترع لجميع المخلوقات : العرش وما حوى ..
والسّموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى ..

وأنة خلق الخلق من غير احتياج اليهم .. ولم يدركه تعالى نصب فى ايجاده لهم .. قال تعالى : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » (٦٧) .. أى تعب ونصب .

وأنة ليس فى خلقه علة لمعلول .. وليس تقديم بعضها على بعض لحق واجب ، ولا تأخير متأخر منها لاضطرار لازم ، ولا تقى جمع الضدين نعجز واقع ، ولا تناهى مخلوقاته وانحصارها لضعف لاحق .. بل كان ذلك منه تعالى لاختيار وحكمة يعلمها هو عز وجل .. وأن كل نعمة منه منة وفضل ، وكل محنة وضلالة عدل منه وحكمة ..

وأنة لا يدرك بالعقل .. ولا يتصور بالوهم .. قال تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (٦٨) .. بل السبيل الى معرفته العجز عن ادراكه ، كما قال أبو بكر رضى الله عنه : « سبحانه من لا يوصل الى معرفته الا بالعجز عن معرفته » ..

وفى ذلك يقول الامام مالك رضى الله عنه : « كل ما يقع فى القلب فالله بخلافه ، وذلك أن كل ما يقع فى القلب انما هو خلق من خلق الله تعالى .. ولا يشبهه الخالق المخلوق » ..
ويقول الشافعى رضى الله عنه : « آمنت بالله كما أمر الله »

(٦٥) انظر « اتحاف الكائنات » — لفضيلة الشيخ محمود خطاب

السبكى ..

(٦٧) سورة ق : ٢٨

(٦٦) الملك : ١٤

(٦٨) الانعام : ١٠٣

فهو الواحد الأحد ، الموجود بلا ابتداء ، الباقي بلا انتهاء ، الظاهر بصفاته وأفعاله ، الباطن بكنهه وذاته : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » (٦٩) .. وهو الغنى عما سواه ، المحتاج إليه كل ما عداه : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد » (٧٠) .. كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان ولا يزال على ما هو عليه .. تنزهه عن المكان والجهة وصفات الحوادث والتغيرات والأعراض ..

كما يعتقد أهل التوحيد : أن الله تعالى هو المتصرف في خلقه بمقتضى حكمته وقدرته وإرادته .. فكل ما يصدر في العالم من حركات وسكنات وخواطر وغيرها — دق أو عظم — بمحض خلقه تعالى وإيجاده .. وتصرفات العباد الاختيارية ليس لهم فيها الا انكسب .. قال تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » (٧١) .. فأثبت الرمي للنبي ﷺ من جهة المباشرة والاختيار .. وحقيقته للرب من حيث الإيجاد والاختيار ..

وأیضا .. لو انفرد واحد من العالم بإيجاد ذرة لكان شريكا له .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا : « قل هو الله أحد » (٧٢) ، « والهيكم إله واحد » (٧٣) ، « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » (٧٤) ، « والله خلقكم وما تعملون » (٧٥) ..

ولو لم يكن للعباد كسب ما صح تكليفه ولا خطوب بنجوى قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » (٧٦) .. وقوله : « وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون » (٧٧) .. كما يعتقد أهل التوحيد : أن ترتب الثواب على الطاعات ، والعقاب على المخالفات أمر ثابت بالشرع لا دخل للعقل فيه ..

(٧٠) فاطر : ١٥
(٧٢) الاخلاص : ١
(٧٤) الانبياء : ٢٢
(٧٦) الشورى : ٣٠

(٦٩) الحديد : ٣
(٧١) الانفال : ١٧
(٧٣) البقرة : ١٦٣
(٧٥) الصافات : ١٦
(٧٧) الزخرف : ٧٢

وأن ربط المسيبات بأسبابها العادية إنما هو لحكمة اقتضتها إرادة الله الأرنية : كوجود الرئ عند شرب المساء ..

ولله تعالى خرق العوائد .. نقد يوجد السبب ولا يوجد المسبب وبالعكس .. قال تعالى : « يا غار كوني بردا وسلاما على إبراهيم » (٧٨) . وأنه لا مانع لما أراد .. ولا زاد لما قضى ..

وأن كلام الله تعالى قديم ليس يحرف ولا صوت .. وأن القرآن كلامه عز وجل .. أنزله على نبينا محمد ﷺ كما أنزل التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، والزبور على داود ، والصحف على إبراهيم وموسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ..

وأن الله تعالى قد أرسل لعباده أنبياء ورسل .. مبشرين ومنذرين .. لا يعلم عددهم إلا الله تعالى .. قال سبحانه : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » (٧٩) .

وأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وعلى آله وسلم خاتم الأنبياء .. أرسله الله تعالى للناس كافة .. قال تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (٨٠) .

وقال جل شأنه : « وما أرسلناك إلا كافة للناس » (٨١) . ويعتقد أهل التوحيد : أن لله تعالى ملائكة : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » (٨٢) .. وهم لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة ..

وأن سؤال القبر ونعيمه تطائعين ، وعذابه المعاصين : حق .. وأن البعث ، والحساب ، والميزان ، وأخذ الخلق كتبهم بأيديهم ، وغير ذلك مما هو ثابت بالكتاب والسنة : حق .. وأن الشفاعة العظمى في فصل الغناء مختصة بسيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ..

(٧٩) غافر : ٧٨

(٨١) سبا : ٢٨

(٧٨) الانبياء : ٦٩

(٨٠) الأحزاب : ٤٠

(٨٢) التحريم : ٦

وأن من مات مسلماً يخلد في الجنة .. ومن مات على غير الإسلام
يخلد في النار ..

وأن مرتكب المعاصي — غير الكفر — ليس بكافر ..
وأن المؤمنين سيرون ربهم في الجنة بلا كيف ولا انحصار ..
قال تعالى : « وجوه يومئذ ناظرة • ألى ربها ناظرة » (٨٢) .
ولأهل السنة — أهل التوحيد — المتمسكون بكتاب ربهم وسنة
نبيهم صفات يتصفون بها ..

منها : الصدق ، وقول الحق ، والأمانة ، والوفاء ، واتباع السنة ،
وترك الابتداع ، وبذل الجهد في الطاعة ، والاعتراف بالتقصير ،
والتوكل والتسليم ، والرضا بالقضاء والقدر ، والاخلاص في السر
والعلانية ، والاعتدال في حالتى الرضا والغضب ..

ومنها : كظم الغيظ ، والعفو عن الظالمين ، والاحسان ولو الى
المسيء ، وبذل النصيحة من غير غش ، والتواضع بلا ذلة وتماوت ،
والترحم والاشفاق ، وإيثار الغير ، والتوادد والتعاطف .. وذلك كما
وصفهم الله تعالى بقوله : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ،
يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة
ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله » (٨٤) .

وقوله سبحانه : « الذين يتفقون في السراء والضراء والكاظمين
الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » (٨٥) .

وقوله جل شأنه : « أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً
سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر
السجود » (٨٦) .

وقوله جل وعلا : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم
خصاصة » (٨٧) .

(٨٤) التوبة : ٧١

(٨٦) الفتح : ٢٩

(٨٢) القيامة : ٢٢ ، ٢٣

(٨٥) آل عمران : ١٢٤

(٨٧) الحشر : ٩

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد : اذا
اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » (٨٨) .
ويقول أبو حامد الغزالي : « بعث الله النبي الأمي القرشي «محمدا»
ﷺ برسالته الى كافة العرب والعجم ، والجن والانس .. فنسخ
بشريته الشرائع الا ما قرر ، وفضله على سائر الأنبياء ، وجعله
سيد البشر ، ومنع كمال الايمان بشهادة التوحيد — وهى قول : لا اله
الا الله — ما لم تقترن به شهادة الرسول وهو قولك : « محمد رسول
الله » .. وألزم الخلق تصديقه فى جميع ما أخبر عنه من أمر الدنيا
والآخرة ..

« وأنه لا يتقبل ايمان عبد حتى يوقن بما أخبر عنه بعد الموت ..
وأوله : سؤال منكر ونكير ، وهما شخصان مهيبان هائلان ، يقعدان
الميت فى قبره سويا ، ذا روح وجسد ، فيسألانه عن الترحيد والرسالة ،
ويقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ وهما فتانا القبر ،
وسؤالهما أول فتنة بعد الموت ..

« وأن تؤمن بعذاب القبر : وأنه حق وحكمة وعدل على الجسم
والروح على من يشاء ..

« وتؤمن بالميزان ذى الكفتين واللسان ، وصفته فى العظم مثل
طباق السموات والأرض ، وتوزن فيه الأعمال بقسرة الله تعالى ،
والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل ، تحقيقا لتمام العدل ، وتطرح
فيه صحائف الحسنات فى صورة حسنة فى كفة النور ، فيثقل بها
الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله ، وتطرح صحائف السيئات
فى كفة الظلمة ، فيخف بها الميزان بعدل الله ..

« وأن تؤمن بأن الصراط حق ، وهو جسر ممدود على متن جهنم ،
أخذ من السيف ، وأدق من الشعر ، تزل عنه أقدام الكافرين بحكم الله
فتهوى بهم الى النار ، وتثبت عليه أقدام المؤمنين فيساقون الى
دار القرار ..

« وأن تؤمن بالحوض المورود .. حوض « محمد » ﷺ ، يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة ، ويعد جواز الصراط ، من شرب منه شربة لم يظماً بعدها أبداً ، عرضه مسيرة شهر ، أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، حوله آباريق عددها نجوم السماء ، فيه ميزابان من الكوثر .. »

« وأن تؤمن بالحسنات وتفاوت الخلق فيها : إلى مناقش في الحساب ، وإلى متسامح فيه ، وإلى من يدخل الجنة بغير حساب — وهم المقربون — فيسأل من يشاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ، ومن يشاء من الكفار عن تكذيب المرسلين ، ويسأل المبتدعة عن السنة ، ويسأل المسلمين عن الأعمال .. »

« وتؤمن باخراج الموحدين من النار بعد الانتقام ، حتى لا يبقى في جهنم منهم موجد بفضل الله تعالى .. »
« وتؤمن بشفاعة الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء ، ثم سائر المؤمنين .. كل حسب جاهه ومنزلته عند الله تعالى ، ومن بقى من المؤمنين ولم يكن له شفيع أخرج بفضل الله ، فلا يخلد في النار مؤمن ، بل يخرج منها كل من في قلبه مثقال ذرة من الايمان .. »

« وأن تعتقد فضل الصحابة ورتبتهم ، وأن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي — رضي الله عنهم ، وأن تحسن الظن بجميع الصحابة ، وتثنى عليهم كما أثنى الله عليهم ورسوله أجمعين .. »

« فكل ذلك مما وردت به الأخبار ، وشهدت به الآثار .. فمن اعتقد جميع ذلك موثقاً به كان من أهل الحق ، وعصاة السنة ، وفارق رط الضلال ، وحزب البدعة .. فنسأل الله اليقين ، والثبات في الدين ، لنا ولكافة المسلمين .. انه أرحم الراحمين » (٨٩) ..

* * *

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم .. اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر .. لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد .. حتى جلس الى النبي ﷺ فأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه (٩٣) » وقال : يا محمد ، أخبرني عن الاسلام ؟

فقال رسول الله ﷺ : « الاسلام : أن تشهد ان لا اله الا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلاً » .

قال : صدقت . فتعجبنا منه ، يسأله ويمدقه !! (٩٤) .

قال : فأخبرني عن الايمان ؟

قال : « أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم

الآخر . وتؤمن بالقدر خيره وشره » .

قال : صدقت .. فأخبرني عن الاحسان ؟

قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » .

قال : فأخبرني عن الساعة ؟ قال : « ما المسئول عنها بأعلم من

السائل » ..

قال : فأخبرني عن أماراتها ؟ . قال : « أن تلد الأمة رببتها ، وأن

تري الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان » (٩٥) .

ثم انطلق ، فلبثت ملياً (٩٦) .. ثم قال : « يا عمر ، أتدري من

السائل » ؟ . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فانه جبريل أتاكم

يعلمكم أمر دينكم » (٩٦) .

(٩٣) أي كهيئة الجنس للشهد في الصلاة .

(٩٤) وجه العجب ان انسؤال يدل على عدم علم السائل ، والتصديق

يدل على علمه .

(٩٥) أي تكثر السراري حتى تند الأمة السرية بنتا لسيدها ، وينت

السيد في معنى السيد ، والعالة : هم الفقراء ، والرعاء — بكسر أوله

وبالد : جمع زاع ، والشاء : الغنم .

(٩٦) أي زمنا طويلا ، وكان ذلك ثلاثة أيام .

(٩٧) رواه مسلم .

ما أجوجنا اليوم — معشر المسلمين — الى الكلمة البشواء !!
ما أجوجنا الى كلمة التوحيد ، فلا نعبد الا الله .. ولا نشرك به
شيئا ، ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله !!
ما أجوجنا لأن نقول للأمم كلها : اشهدوا بأننا مسلمون !!
يقول تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين
أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يختر بايات
الله فان الله سريع الحساب » (٩٠) .

فالدين الذي شرعه الله ، وبعث به رسله ، والذي لا يقبل غيره
هو الاسلام .. وما اختلف النصارى — الذين أوتوا الانجيل — في
أمر عيسى عليه السلام — الا من بعد ما علموا الحق عن يقين ، تعديا من
بعضهم على بعض وطلبا للرياسة والملك والسلطان ..

ويتوعد تعالى من يجحد حججه وبراهينه التي نصبها لمن عقل
واعتبر .. بأنه تعالى محص على كل انسان أعماه ، ومجازيه عليها
بغير كلفة ولا مؤنة ، ولا معاناة للحساب .
ومعنى « سريع الحساب » — والله أعلم — أنه يحاسب الخلائق
قاطبة في أقرب زمان ، لأنه لا يشغله شأن عن شأن ..
ويقول جل شأنه : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه
وهو في الآخرة من الخاسرين » (٩١) .

يؤكد تعالى .. أن من طلب ديناً غير الاسلام — فإنه تعالى لن
يقبل منه ذلك ، ويكون العبد بذلك قد خسر رحمة الله عز وجل .
ويقول جل وعلا : « ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في
الآخرة من الخاسرين » (٩٢) .

أى أن من يجحد وحدانية الله ، ونبوة محمد ﷺ ، ويرتد عن
الاسلام فقد بطل ثواب عمله ، وهو يوم القيامة من الهالكين .

فالإسلام : هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ..

والإيمان : هو الإيمان بالله تعالى ، وبملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، وبالقضاء خيره وشره ..

والإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه .. فإنه إن لم تكن تراه فإنه سبحانه يراك ..

الإيمان اذن : هو التصديق بالقلب ، والاقرار باللسان ، والعمل بالجوارح ..

ولهذا يقول الرسول ﷺ : « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل » ..

لذا .. عندما أعلن بعض الأعراب إيمانهم .. رد الله زعمهم بقوله : « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولا يدخل الإيمان في قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ، إن الله غفور رحيم » إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون « (٩٨) .

كان ذلك .. عندما قدم ناس من الأعراب الى المدينة في سنة مجدية .. وامتنوا على الرسول ﷺ باسلامهم .. فقالوا : يا رسول الله ، جئناك مؤمنين ولم نقاتك كما قاتك بنو غلان وبنو فلان ..

وأخذوا يمتنون عليه بالإيمان وعدم القتال .. فنزلت الآية وفيها يقول تعالى : يقول لك الأعراب : صدقنا بالله ورسوله فنحن مؤمنون .. فقل لهم يا محمد : لستم بمؤمنين حقيقة ، فلا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا .. لأن الإسلام قول ، والإيمان قول وعمل .. وحتى الآن لم يدخل العلم بشرائع الإيمان وحقائق معانيه في قلوبكم ..

وان تطيعوا الله ورسوله — أيها الأعراب — فتأتمروا بأمره

وتنتهوا عما نهاكم عنه ، لا يظلمكم الله من أجور أعمالكم شيئاً ، ولا ينقصكم من ثوابها مثقال ذرة .. فهو تعالى غفور لمن تاب من سالف ذنبه وأطاعه ، وهو جل شأنه رحيم بخلقه أن يعاقبهم بعد توبتهم ..

فالؤمنون — كاملو الايمان — هم الذين صدقوا الله ورسوله .. ثم لم يشكوا في وحدانيته تعالى ، ولا في نبوة رسوله ﷺ ، ولا في الفرائض التي افترضها الله عليهم ..

وتعلمنا الآية .. أن الايمان أعلى مرتبة من الاسلام .. فالايमान اعتقاد وقول وعمل .. أما الاسلام فانه الاستسلام والانقياد الظاهر . ولهذا نراه تعالى يؤدبهم وينبئهم الى أن المؤمن الحقيقي هو من صدق ايمانه بعمله .. لا من انتحل الايمان بالكلام ، وامتن بايمانه على الرسول ﷺ ..

يقول تعالى — بعد هذه الآية : « يمينون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا على اسلامكم ، بل الله يمين عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين . ان الله يعلم فيب السموات والأرض ، والله بصير بما تعملون » (٩٩) .

أى : ان هؤلاء الأعراب .. يمينون عليك — أيها الرسول — بأن أسلموا .. فقل لهم : لا تمنوا على اسلامكم ، بل الله تعالى يمين عليكم — أيها القوم — أن وفقكم للايمان به ورسوله ، هذا ان كنتم صادقين في قولكم أنكم آمنتم ..

فالله تعالى — يعلم ما غاب عنكم في خبايا السموات والأرض — لا يخفى عليه الصادق من الكاذب .. يعلم ما تكنه صدوركم وتحدثون به أنفسكم .. وهو — تعالى — بصير بأعمالكم التي تعملونها جهرا كانت أم سرا ، وهو مجازيكم على جميع ذلك ..

وبعد .. فهل نحن مسلمون حقاً : فلا نعبد إلا الله تعالى ، ولا نطيع إلا رسوله ﷺ ؟ ..

هل نقوم بالفرائض التي افترضها الله علينا ، تماما كما افترضها علينا ؟

هل نحن مؤمنون حقا بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر .. ونؤمن بالقضاء خيره ، وشره ؟
هل نحن محسنون حقا : فنعبد الله كأننا نراه .. ونؤمن في قرارة أنفسنا أنه ولو أننا لا نراه : غانه تعالى يرانا ؟

* * *

● وقفة لا بد منها :

هنا .. يجب أن نتوقف قليلا لكي نراجع أنفسنا ، وننظر في أحوالنا ونتدبر أمورنا .. حتي نرى ما إذا كنا نسير على نفس الطريق الذي سلكه أسلافنا في الصدر الأول للإسلام .. أم أننا تنكبنا هذه الطريق ؟ !

لقد جاهد الأسلاف العظام لاقامة الاسلام على نفس الدعائم التي أنزلها الله تعالى والأسس التي وضعها رسوله .. ولهذا تركوا لنا الاسلام قويا ، عزيز الجانب ، يملأ أركان الدنيا بعدله وسماحته ..
فهل حافظنا على هذه الأمانة التي تركها لنا أسلافنا أم ضيعناها ؟
هل تمسكنا بالرسالة التي حملها لنا الرسول صلى الله عليه وسلم ، أم فرطنا فيها ؟؟

لقد أمر الله تعالى بني اسرائيل أن يدخلوا الى المدينة المقدسة خاضعين خاشعين ، مقربين بآثامهم ، داعين الله تعالى أن يحط عنهم خطاياهم وأوزارهم .. وأمرهم — تعالى — بأن يقولوا في دعائهم « حطة » .. أي يا رب احطط عنا ذنوبنا ..

ولكن الذين ظلموا منهم بدلوا قولا غير الذي أمرهم به ربهم فزادوا عليه حرفا واحدا .. فقالوا « حنطة » — بدلا من « حطة » .. فاستهزأوا بذلك القول من نبيهم ودخلوا المدينة وهم يزحفون على أستاههم !!

يقول تعالى : « واذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث

شتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيأتكم ، ستزيد
المحسنين • فبيل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم » (١٠٠) •
فماذا كان جزاؤهم ؟ • • لقد أنزل الله عليهم الرجز من السماء
— طاعونا يستأصلهم — جزاء وفاقا لبغيهم وظلمهم وعصيائهم لأمر
ربهم وتبديلهم لما طلب منهم • •

يقول تعالى : « فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا
يظلمون » (١٠١) •

ثم يقول جل شأنه : « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة
البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم
لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبههم بما كانوا يفسقون • وإن قالت أمة
منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ، قالوا معصرة
التي ربكم ولعلهم يتقون • فلما نسوا ما ذكروا به أنجيناهم الذين يهترون
عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون • فلما
عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » (١٠٢) •

حرم اليهود العمل على أنفسهم في يوم السبت ، فأقرت الشريعة
هذا التحريم • • وأراد الله تعالى ابتلائهم واختبارهم • • فكانت
الأسماك الضحمة تخرج من البحر — بالقرب من قرية أيلة على بحر
القلزم — يوم السبت الذي نهوا عن العمل فيه ، وتظهر قرية منهم
ثم تغيب في سائر الأيام • • فاحتال أهل هذه القرية على انتهاك محارم
الله • •

ووقفت جماعة منهم تحذرهم وتنهاتهم عن معصية الله وانتهاك
شريعته • • فتصدت لها أخرى قائلة : لم تنصحون قوما سوف
يهلكهم الله في الدنيا بعصيائهم أمره ، أو يعذبهم في الآخرة عذابا
شديدا ؟ • • فقالت الأولى للثانية : إنما نعذر لنعذر عند الله بأداء
ما فرضه علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكي يتوبوا من
معصيتهم وينزعوا عما هم فيه • •

(١٠٠) الأعراف : ١٦١ ، ١٦٢ (١٠١) الأعراف : ١٦٢

(١٠٢) الأعراف : ١٦٣ — ١٦٦

فلما ضيعوا أمر الله ، واستحلوا ما حرم عليهم .. أهلك الله تعالى الذين ظلموا بعذاب أليم لعصيانهم وخروجهم عن طاعته ، فمسخهم قردة ذليلين حقيرين مهانين ، جزاء وفاقا على تمردهم عن طاعة الله ، وتكبرهم عما نهوا عنه .. وأنجى تعالى الذين وقفوا ينهون قومهم عن معصية الله ..

هكذا وقع الغضب والسخط على اليهود لتبديلهم فى أوامر الله تعالى وعصيانهم لها ..

كما رأينا — من حديث عدى بن حاتم الذى مر بنا — كيف وصف تعالى طاعة اليهود والنصارى لأخبارهم ورهبانهم فيما حللوه لهم وحرّموه عليهم بعبادتهم إياهم ، واتخاذهم أربابا من دونه تعالى ..

ذعن عدى بن حاتم — رضى الله عنه — قال : « أتيت النّبي ﷺ وفى غنقى صليب من ذهب — وكان عدى حديث عهد بالاسلام — فقال : « ما هذا يا عدى ؟ ! اطرح عنك هذا الوثن » .. وسمعتة يقرأ فى سورة براءة : « اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم » (١٠٢) .. ثم قال : أما انهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكن كانوا اذا أحلوا لهم شيئا استحلوه ، واذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه » (١٠٤) .

وسئل حذيفة — رضى الله عنه — عن هذه الآية : هل عبدوهم ؟ فقال : لا ، ولكن أحلوا لهم الحرام فاستحلوه ، وحرّموا عليهم الحلال فحرّموه ..

ويقول القرطبى : جعلوا أخبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم فى كل شيء ..

والمقصود : أن التشريع والتحليل والتحریم لله وحده .. وليس لمخلوق أياً كان وضعه أن يبدل فى حكم الله أو يغير فيه ..

فما بالنا — نحن المسلمين — نسير على نفس الدرب ، ونستهين بأوامر الله ، فنعرض أنفسنا فى كل لحظة لغضبه وسخطه ؟ !

هل اتخذنا عند الله عهدا أن يخرق لنا السنن التى أجراها على الأمم

التي عصته من قبلنا ، فلا يعذبنا بذنوبنا ، ولا يسلط علينا من لا يرجعنا ؟
هل وقع في وهمنا أن مجرد اقرارنا بكلمة التوحيد دون العمل
بمفهومها .. يمنحنا الحق في مخالفته تعالى وعصيان أوامره ؟ !
يقول تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة
الذين من قبلهم » (١٠٥) .

الله تعالى يوجهنا — برحمته وكرمه — الى النظر في أحوال
الأمم السابقة ، والاعتبار بما أنزله عليها من السخط والعذاب حين عتت
عن أمره ، وعصت أحكامه وتمردت عليها .. فهل نظرنا .. وتفكرنا ..
وأعبرنا ؟ ؟

افنا — للأسف — لم ننظر .. ولم نتفكر .. ولم نعتبر !!
اذن .. فلنستمع جميعا للذخيرة يسوقه الله تعالى لنا .. لنعلم جميعا
أن الله تعالى لن يخرق من أجلنا السنن التي أجراها على الأمم السابقة
حين عصته .. يقول تعالى .. مخاطبا نبينا ﷺ : « وما أرسلنا في
قرية من نبي الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم
بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس أباعنا الضراء
والضراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون . ولو أن أهل القرى آمنوا
واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم
بما كانوا يكسبون . أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون .
أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحاى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر
الله ، فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون . أو لم يهد للذين يرثون
الأرض من بعد أهلها أن لو شاء أصبناهم بننوبهم ، ونطبع على قلوبهم
فهم لا يسمعون . تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاعتهم
رسولهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله
على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم
لفاسقين » (١٠٦) .

بخبر الله تعالى نبيه ﷺ : أنه ما أرسل إلى أمة من نبي قبله ،
الا أخذ المكذبين منهم بالشدة وضيق العيش ونسوء الحال .. حتى
يتوبوا ويرجعوا ويتضرعوا إلى ربهم ، وينيبوا إليه من ذنوبهم ..
فاذا هم فعلوا .. فان الله تعالى يغير حالهم إلى السعادة والرخاء
مكان الشدة والبلاء .. ليشكروا النعمة التي أنعم الله عليهم ..
هذه سنته تعالى مع جميع الأمم ..

وهو تعالى .. يبذل الأمم العاصية مكان الشدة والبلاء النعمة
والرخاء — في أول الأمر — حتى يكثرُوا وتكثر أموالهم وأولادهم ..
وهذا استدراج منه لهم حتى يقولوا : هذه الأحوال قد أصابت من قبلنا
من آباءنا ونانت أسلافنا .. ونحن في ذلك مثلهم ، يصيبنا ما أصابهم
من الشدة والرخاء .. فاذا استمر عصيانهم واصرارهم على الكفر
والتكذيب .. أخذهم الله بالعذاب بغتة وهم لا يعلمون بميعاد مجيئه ،
ولا يدرون أوان حلوله (١٠٧) .

ثم يقول تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم
بركات من السماء والأرض » ..
أسمعتهم اخوتي ؟ !

لو انكم صدقتم بالله ورسوله ، واتقيتم ربكم بفعل الطاعات
وترك المحرمات .. لأغدق الله عليكم القطر من السماء ، وأخرج لكم
نبات الأرض .. فيجمع لكم بين خيرات السماء والأرض ..
والله تعالى .. يخبرنا أن الأمم السابقة كذبت رسلها ، فأهلكهم
الله بذنوبهم ..

ثم يلفتنا إلى بدهية لا يجب أن تغيب عنا أبدا ..
هل يأمن المكذبون أن يأتيهم عذاب الله ونكاله وهم نائمون ؟؟
هل يأمنون أن يأتيهم العذاب في حال شغلهم وغفلتهم وهم
لا همون ؟ ؟

(١٠٧) مختصر تفسير الطبرى ، اختصار وتعليق الشيخ محمد على
الصابوني ، والدكتور صالح أحمد رضا ، نشر دار التراث العربى بالقاهرة
ص ٢٧٥ .

هل يأمنون استدراج الله لهم - برحاء العيش - وصحة الأبدان ؟؟
الحق .. أنه لا يآمن ذلك الا من كتب الله عليهم الهلاك - بكفرهم
وعصيانهم وتمردهم عن أوامره تعالى وأحكامه .. فيفسروا بذلك
سعادتهم وأنفسهم !!

لساذا لا نقبين .. أن لو يشاء الله تعالى لفعل بنا ما فعله بمن
قبلنا .. فيعجل لنا العذاب بعد أن أغلقنا قلوبنا وعطلنا خواصنا ..
فلا نستمتع لوعظة ، ولا نرتدع بما وقع للأمم السابقة ؟ !

ان لنا في هذه الأمم التي قص الله علينا نبأها في كتابه الكريم ..
قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط وشعيب .. ان لنا فيهم الدليل القوي
على أن النصر دائما يكون لرسول الله على أعدائه ..

لقد جاعتهم رسالهم بالحجج الواضحات .. فما آمنوا بما جاءهم
به الرسل .. بل عاندوا وكفروا ، وأصروا على معصية الله وايداء رسله
بالقول والفعل .. ولهذا طبع تعالى على قلوبهم فلا يؤمنوا أبدا !!

وكما طبع الله على قلوبهم بظلمهم ومعصيتهم وكفرهم ، كذلك
يطبع على قلب كل ظالم ، وكل عاصي ، وكل كافر .. والعدل كل العدل ،
هو ما أنزله الله بساحتهم ، فما كان لهم من وفاء بما وصاهم الله به
من توحيده والعمل بطاعته .. فكان العدل — اذن — أن ينزل تعالى بهم
العذاب والهلاك ، بعد أن اختاروا لأنفسهم طريق الفسق عن أمر ربهم
والخروج عن طاعته وترك عهده ووصاياه ..

* * *

لقد ذم الله اليهود فقال : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل
على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .
كانوا لا يمتثلون أمر منكر فلو أنهم لبئس ما كانوا يفعلون » (١٠٨) .
قاله تعالى .. قد أبعد اليهود وطردهم من رحمته ولعنهم على
لسان أنبيائه ورسله — في الزبور والانجيل — بل لعنوا بكل لسان ..

فقد لعنوا على عهد موسى في التوراة .. ولعنوا على عهد داوود في الزبور .. واجنوا على عهد عيسى في الانجيل .. ولعنوا على عهد محمد ﷺ في القرآن ..

وذلك اللعن .. كان بسبب عصيانهم لأوامر الله ومجاوزتهم حدوده .. وكانوا لا ينهى بعضهم بعضا عما يفعلونه من المعاصي وركوب المحارم ، وقتل الأنبياء والرسل ..

فبئس فعلهم وصنيعهم ، وتركهم النهى عن معاصي الله ومحارمه .. وقد مر بنا .. كيف أنزل الله عذابه بالذين قالوا لأصحابهم من المؤمنين : « لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا » (١٠٩) .
فنهوا الصالحين عن تقديم النصيحة لمن يعصون ربهم ، متعللين في نفهم بأن العذاب سوف يلحق أولئك العصاة في الدنيا ، وأنه واقع بهم لا محالة في الآخرة .. فلم الوعظ وتقديم النصيحة إذا كان الهلاك والعذاب هو مصيرهم ومآلهم ؟ !

منطق معكوس ، وحجة واهية !! ولهذا استحق أولئك النفر العذاب والنكال ينزل بهم ويسويهم بالعاصين والمتكبرين .. لأنهم ارتضوا لأنفسهم النهى عن فعل المعروف والكف عن تقديم النصيحة .. فتخبروني بربكم .. أين نحن اليوم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ !

لقد أصبحت هذه الفريضة أمرا مستهجنًا .. فلا يجد الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر من الناس الا الاعراض والاستهزاء .. فضلا عن الزجر والتوبيخ والعقاب !!

لقد أسكننا الله تعالى الأرض لعمارته واستخلفنا فيها .. ولم يتركنا وشأننا .. بل أرسل الرسل إلينا لهدايتنا والأخذ بأيدينا الى طريق الرشاد ..

وبين تعالى لنا الحلال والحرام .. حتى نسلك طريق الهداية ، ونتجنب طريق الخلال .. يقول تعالى : « يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات » (١١٠) .

ويقول عن الحرام : « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » (١١١) .

فما بالناس نستحل الحرام ، ونستبدل الخبيث بالطيب ؟ !
لقد شرع الله لنا الشرائع . . . وسن لنا القوانين ، ووجهنا الى الأخذ بها فقال : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (١١٢) .

وقال جل شأنه : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » (١١٣) .

وقال جل وعلا : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » (١١٤) .

أى أن من ترك حكم الله الذى أنزله فى كتابه مستحلاً تركه فهو كافر ، والآية وان نزلت فى اليهود فهى تشمل أيضاً غيرهم من الأمم . .

ومن ترك الحكم بما أنزل الله . . . فهو ظالم جائر عن حكم الله . .

ومن ترك الحكم بما أنزل الله . . . فهو فاسق خارج عن طاعة ربه . . .

والله تعالى . . . جمع فى هذه الآيات لمن ترك الحكم بما أنزل بين الكفر ، والظلم ، والفسق . .

فمن جحد ما أنزله تعالى فقد كفر . . . ومن أقرب به ولم يتحاكم اليه فهو ظالم وفاسق . . .

فما بالناس نرتضى الكفر على الايمان . . . والظلم على العدل . . . والفسق على الطاعة ؟ !

لقد أرسل الله تعالى رسوله ﷺ الينا ، رحمة منه وفضلاً . . . حتى يأخذ بأيدينا الى صراطه المستقيم . . . ولم يرسله متحكماً فى

(١١٢) المائدة : ٤٤ .

(١١٤) المائدة : ٤٧ .

(١١١) الاعراف : ٣٣ .

(١١٣) المائدة : ٤٥ .

الناس أو مستيطرا عليهم .. ولم يبعثه جبارا فى الأرض .. انما أرسله هاديا ومعلما ومرشدا ..

يقول تعالى : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (١١٥) .

ويقول : « لست عليهم بمسيطر .. الا من تولى وكفر » (١١٦) .

ويقول : « وما أنت عليهم بجبار » (١١٧) .

بل انه تعالى .. يقسم بذاته غافيا الايمان الحق عن الناس ما لم يجعلوا الرسول ﷺ حكما فيما يتنازعون أو يختلفون فيه من جميع أمورهم .. ثم لا يجدوا ضيقا فى أنفسهم مما حكم به ، ويسلموا لقضائه وحكمه التسليم المطلق ، مع الاذعان والقبول التامين .. يقول تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (١١٨) .
فالذى لا يرجع الى الرسول ﷺ .. ناقص الايمان ..

والذى يجد فى صدره ضيقا فيما تقضى به سنته ﷺ .. ناقص الايمان .

والذى لا يسلم لقضائه وحكمه ﷺ — التسليم الكامل المطلق ، ولا يذعن له الاذعان التام ويقبله عن طيب نفس — ناقص الايمان كذلك ..
هل نحتكم — اليوم — الى الرسول ﷺ فيما نختلف فيه ؟
هل تقبل قلوبنا حكمه .. فلا نجد فى أنفسنا حرجا مما قضى به ؟
هل نسلم له — ﷺ — التسليم الذى يطلبه الله منا ؟
أقولها — والأسى يملؤنى — ان الناس اليوم لم يرتضوا بحكم الله وشريعته قانونا يحكم حياتهم .. ولم يحتكموا الى الرسول ﷺ فى أمور دينهم ودنياهم .. بل يحتكمون دائما الى أهوائهم ومصالحهم مكتفين فى جميع الأحوال بالقشور الزائفة تحكم حياتهم .. تاركين سنة نبيهم وراء ظهورهم .. فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ..
يقول تعالى : « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من

الكتاب ومهيمننا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون • وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون • افحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » (١١٩) •

لقد أنزل الله القرآن بالصدق الذي لا شك في أنه من عنده تعالى • • مصدقا لما تقدمه من الكتب المنزلة على رسله وأنبيائه • • وجعله تعالى مؤتمنا على كتب الله المتقدمة عليه ، حاكما وشاهدا عليها ، فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل ، لأنه مما حرقه وبذله أحبار اليهود والنصارى • •

وفي ذلك يقول ابن عباس رضى الله عنهما : « القرآن شاهدنا على التوراة والانجيل ، وحاكم على ما قبله من الكتب » • كما يقول ابن كثير : « جمع الله في القرآن محاسن ما قبله • • وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فلهذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها ، وتكفل تعالى بحفظه » • •

الله تعالى يطلب من رسوله ﷺ — في هذه الآية — أن يحكم بين أهل الكتاب والمشركين بما أنزله تعالى عليه في القرآن في الحدود والجروح وسائر الأحكام • • وأن يعرض عن اتباع أهوائهم فيما يدعونه اليه عن الذي جاءه من عند الله من الحق ، فيترك العمل بكتابه اتباعا لأهواء هؤلاء الجهلة الأشقياء • •

والله تعالى • • قد جعل لكل أمة شريعة يعملون بها • • وطريقا بينا واضحا يسلكونه ، ولو أراد — جل شأنه — لجعل شرائعهم واحدة ولم يجعل لكل أمة شريعة خاصة • • وواقع الأمر • • أن شرائع الأنبياء ، إذا كانت مختلفة فان دينهم

واحد .. لأن الدين عند الله هو الإسلام .. دين التوحيد .. وإنما اختلفت هذه الشرائع تيسيرا على العباد ، فإن ما يصلح فى عصر قد لا يصلح فى عصر آخر .. ولهذا قال تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » .. فالله تعالى خالف بين شرائع الأمم ليختبرهم ، فيعرف المطيع من العاصي ، والعامل من المخالف .. أما الدين : فهو واحد .. وأما الهدف فما اختلف أبدا : « اعبدوا الله ، ما لكم من الله غيره » (١٢٠) .

يأمرنا تعالى — فى هذه الآيات — أن نتبادر ونتسابق الى فعل الصالحات التى تقربنا من رضوانه .. فاليه سبحانه مصيرنا جميعا ، فيخبرنا بأعمالنا ويفصل بيننا بقضائه العادل .. وحينئذ يتبين الحق من المبطل ، والبر من الفاجر ..

ويطلب تعالى من رسوله أن يحكم بينهم بحكم الله الذى أنزله اليه فى كتابه ، وألا يتبع أهواء اليهود ، وأن يحذرهم أن يصدوه عن العمل بما أنزل الله اليه .. فإن هم أعرضوا عن قبول حكمه ، فليعلم أنهم لم يتولوا عن الرضا به الا من أجل شقائهم وتعاسيتهم بسبب ذنوبهم السالفة .. وان أكثر الناس لخارجون عن طاعة ربهم الذى معصيته ، فيطلبون حكم الجاهلية من عبدة الأوثان ويتركون حكم الله جل وعلا .. وأى حكم أحسن من حكم الله لمن أيقن بوحدانيته وأقر بربوبيته ..

فلماذا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا .. ونستورد فلسفتنا وأفكارنا من أرسطو وأفلاطون وأفلاطون .. ونقول بوحدة الوجود ، والحقيقة المحمدية ، وخاتم الأولياء ؟
اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..



خاتمة

« الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » (١) .

يقول الله تعالى : « والعصر • ان الانسان لفى خسر • الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » (٢) .
يقسم تعالى بالدهر •• والله هو خالق الدهر ••

ويقول سبحانه فى الحديث القدسي : « يؤذيني ابن آدم : يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار » ••
فكأنه تعالى يقسم بذاته •• فالزمن لا يصنع بالناس خيرا ولا شرا ، مما يفرح الناس به أو يحزنون •• وانما يسوق ذلك رب الزمان والمكان ••
ويؤكد لنا جل شأنه بهذا القسم العظيم ، أن الناس جميعا فى هلكة ونقصان ••

ثم استثنى — تعالى — من الهالكين : الذين صدقوا الله ، وأقروا له بالوحدانية ، وأدوا فرائضه ، واجتنبوا معاصيه •• ووصفهم — جل شأنه — بأنهم الذين يوصى بعضهم بعضا بلزوم العمل بكتابه ، واجتناب ما نهى عنه ، وأنهم يتواصون بالصبر على العمل بطاعة الله تعالى ••
لقد حكم — تعالى — بالخسران على جميع أفراد البشر ، الا من اتصف بهذه الخصال الأربع : الايمان ، والعمل الصالح ، والاتواصى بالمعروف ، والتواصى بالبر •

ويقول الامام الشافعى رضى الله عنه : « لو لم ينزل الله سوى هذه انسورة لكفت الناس » • فقد جمعت خصال الايمان والعمل الصالح ••

وعلى هذا •• أوصى نفسى كما أوصى قومى بالحق ••
والحق •• أن الاسلام دين التوحيد ، وليس التوحدة ••

الحق .. أن الله تعالى واحد أحد ، فرد صمد .. خلق الأشياء وليس هو عينها ..

الحق .. أن الله تعالى هو المدبر الحكيم .. يدبر شئون الخلق منذ أوجدهم إلى أن يقبضهم إليه .. هو وحده المدبر ، وليس ديوان الصوفية أو مجلس الأقطاب .

« فلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (٢) .

الحق .. أن الرسول ﷺ بشر مثلنا .. اصطفاه الله علينا ، فأكرمه بالنبوة ، واختصه بالرسالة .. وحقيقته — ﷺ — أنه خير خلق الله كلهم .. « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي » (٤) .

وأولياء الله هم « الذين آمنوا وكانوا يتقون » (٥) .. آمنوا بالله ربنا فعبدوه دون سواه .. واتقوه — تعالى — فالتزموا بالعمل بكتابه وسنة رسوله ، وانتهوا عما نهى عنه ، ولا دخل لهم في الكرامات التي يجريها الله على أيديهم ، اظهارا منه تعالى لكرامتهم بين الناس .. الحق .. أن الاستعانة ، والاستغاثة ، والتوجه بالدعاء ، والنذر لغير الله .. كل ذلك من الشرك .

كما أوصى نفسى — امتثالا لأمر الله — بالصبر على ما لقيت من أذى حين ظهر كتابى السابق « من وصايا القرآن الكريم » ، وتحدثت فيه عن بعض جوانب التصوف في معرض التدليل على انفراد الله تعالى وحده بمعرفة الغيب .. فما كاد ذلك الكتاب يطرح بين أيدي القراء ، الا وقامت ضجة مفتعلة ، واكبها اتهام ظالم لى بكراهية الأولياء ، والعداء للصوفية !!

فى حين أنى التزمت فى كل ما سطرته — فى ذلك الكتاب — بالحرص على اتخاذ موقف الحياد التام بين أنصار التصوف وخصومه ،

(٤) الكهف : ١١٠

(٣) الانعام : ١٠٢ ، ١٠٣

(٥) يونس : ٦٣

فعرضت لكل طرف من الأطراف رأيه ، ثم علقت على ذلك الرأى بما يوضحه للمقارىء غير المتخصص !!

قامت تلك الضجة .. على غير أساس — سوى الاختلاف بين وجهات للنظر — فى موضوع هو للخرافة والأسطورة أقرب منه الى الحقيقة .. بعد أن ألصق بالاسلام — زورا — الكثير من الخرافات والأساطير التى تنكرت تحت عباءة التصوف الاسلامى .. فأساعت الى التصوف نفسه أكثر مما أساعت الى الاسلام !!

وقد دفعتنى تلك الضجة المفتعلة وما صاحبها من حملة ظالمة .. الى مناقشة بعض المسائل التى حفل بها الفكر الصوفى — فى صورته المتأخرة — والى الموازنة فى تعرضى لهذه المسائل بين غلو الانتصار ، ومغالاة الخصوم .. فكان هذا الكتاب !!

وأحمد الله تعالى .. على أن تلك الأمور التى واجهتنى عند ظهور كتابى السابق لم تؤثر على آرائى ، أو تغير من اصرارى على الالتزام بالحياد التام ، والموضوعية الكاملة فى كل ما أتعرض له من مسائل فى موضوع التصوف الاسلامى .. ذلك الموضوع الشائك الذى طال من حوله الجدل !!

وماذا يكون التحرش أو انتهم والسباب ، والافتراء بالباطل .. الى جانب ما يلاقىه كل من يدعو الى طريق الله الواضحة من ايذاء ؟ ! ان الأمر لأتفه من أن يعرقل الخطو ، أو أن يعلق بالذاكرة .. وعند الله وحده أحسب ما لاقيت !!

وواضح — فى هذا الكتاب — اننى لم أنطلق فى كل ما منطرته الا من المنطلق الاسلامى وحده .. ولم أحرص الا على التمسك بافراد الله وحده بالالوهية والربوبية : فى ذاته وصفاته .. فهو تعالى وحده المنفرد فى ذاته ، المتفرد فى صفاته .. وليس كمثله شئ وهو السميع البصير ..

* * *

ومن الظلم للكاتيب هذه المسطور .. اتهامه بالعداء الاولياء والصالحين .. فقد قرأت ووعيت تماما قول الله تعالى : « **الا ان اولياء**

الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون • النين آمنوا وكانوا يتقون • لهم
البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو
الفوز العظيم » (٦) •

ولهذا أعرف حق المعرفة خطورة معاداة الأولياء والصالحين • • فليس
لعاقل أن يتعرض لمجاربة الله جل شأه حين يقدم على معاداة صنف من الناس
اختصهم الله تعالى بالكرامة والهداية • • ليس لعاقل أبدا أن يعرض
نفسه لذلك وهو يعرف الحديث القدسى الذى يقول فيه تعالى :
« من آذى لى ولما فقد استحل محاربتى » (٧) • • فليس لى بمجاربة
الله تعالى من طاقة ؟ !

ومن الظلم والتجنى — أيضا — اتهام كاتب هذه السطور بمجاربة
الصوفية ، والعداء للمتصوفين !!

لقد ولد — كاتب هذه السطور — فى بيئة صوفية خالصة • •
وكان أبى — يرحمه الله — من أبناء الطريقة الخلوتية • • سلك الطريقة
ومتلمذ على يد شيخها الأسبق فضيلة الشيخ « عبد الجواد محمد
الدومى » ، وكان الدومى رحمه الله رجلا صالحا من علماء الأزهر الأجلاء ،
وكان اماما وخطيبا لمسجد « السباعى » بالسبتية • • وقد تتلمذ بدوره
على يد عالم جنيل من علماء الصعيد هو فضيلة الشيخ « عبد الجواد
المنسفى » • • رحمهما الله ورضى عنهما • •

كان الرجلان من أفاضل العلماء تقى وورعا • • وعليهما تتلمذ أبى
وسلك الطريق • •

ولقد قضى أبى حياته كلها يفخر ويعتر بأن « سيدنا الشيخ »
هو الذى أطلق على ولیده — كاتب هذه السطور — الاسم الذى يحمله
منذ ولد الى أن يلقى الله تعالى • • وكان يرى فى مبادرة شيخه الى
هذه التسمية علامة من علامات الصلاح والفلاح التى يرتجىها لولیده !!
بل لقد هم — كاتب هذه السطور — فى صدر شبابه ، وللشباب

(٦) يونس : ٦٢ — ٦٤

(٧) رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى وأبو نعيم وابن عساکر عن
عائشة رضى الله عنها • •

نزوات لعل الله يغفرها ويتجاوز عنها ، هم بأن يسلك الطريق التي سبقه اليها أباه وخاله ، وأن ينتسب الى الصوفية .. ولكن شاعت عناية الله أن تجنبه خوض هذه التجربة فكان في ذلك الخير الكثير الذي يحمد الله عليه ..

والطريقة الخلوتية — التي انتسب اليها أبي — طريقة مؤيدة بالشرعية الغراء .. وليس فيها تكليف بما لا يطاق .. ولا نعدو الحقيقة حين نقول انها أفضل الطرق الصوفية ، لأن ذكرها « لا اله الا الله » .. وهو أفضل ما يقول العبد ، كما في الحديث الشريف .. ويقول الصوفيون : ان الرسول ﷺ لقن ذلك الذكر لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه .. فعن يوسف الكوراني العجمي بسنده : أن علياً رضي الله عنه وكرم وجهه سأل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، دلني على أقرب الطرق الى الله وأسهلها على عباده ، وأفضلها عند الله تعالى .. فقال : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا اله الا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين في كفة ، ولا اله الا الله في كفة ، لرجحت بهم لا اله الا الله » .. ثم قال ﷺ : « يا عني ، لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول : لا اله الا الله » ..

ويقولون : ان علياً رضي الله عنه قال : كيف أذكر يا رسول الله ؟ .. فقال ﷺ : « أغمض عينيك واسمع مني الذكر ثلاث مرات ، ثم قل أنت ثلاث مرات وأنا أسمع » ..

فقال عليه الصلاة والسلام : « لا اله الا الله » ثلاث مرات مغمضاً عينيه رافعاً صوته وعلى يسمع ، ثم قال علي كرم الله وجهه : « لا اله الا الله » ثلاث مرات مغمضاً عينيه رافعاً صوته والنبي ﷺ يسمع ..

كما يقولون : ان علياً كرم الله وجهه لقن ذلك الذكر للحسن البصري ، الذي لقنه لتلميذه حبيب العجمي — وهو لقن داود بن نصير الطائي ، وهو لقن معروف الكرخي ، وهو لقن سرياً السقطي ، وهو لقن أبا القاسم الجنيد .. الذي تفرعت عنه سائر الطرق الصوفية المشهورة ..

والجنيد بن محمد البغدادي — وهو أبو القاسم الخزاز الصوفي
(ت ٢٩٧ هـ) — صوفي من العلماء بالدين ، ولد ونشأ ببغداد ، وقد عده
العلماء شيخ مذهب التصوف ..

ويقال انه حج الى مكة ثلاثين حجة .. وكان رفيع المقام ، ولكنه
كان يأخذ في يده « مسبحة » ، ف قيل له في ذلك ، فقال : طريق وصلت
به الى ربي لا أفارقه ..

ومن كلامه : « طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة ، ومن لم يحفظ
القرآن ، ولم يكتب الحديث ، ولم يتفقه .. لا يقتدى بنا » ..
لذا عرف بسيد الطائفة ، وطاووس العلماء ..

وتنسب الطريقة الخلوتية الى محمد ميرام الخلوتي . عن عمر
للخلوتي ، عن أخى محمد الخلوتي ، عن ابراهيم الزاهد التكلاني ،
عن جمال الدين التبريزي ، عن شهاب الدين محمد الشيرازي ، عن
ركن الدين محمد النجاشي ، عن قطب الدين الأبهري ، عن أبي العجيب
السهروردي ، عن عمر البكري ، عن وجيه الدين القاضي ، عن محمد
البكري ، عن محمد الدينوري ، عن مشاد الديبوري ، عن الجنيد بن
محمد البغدادي — سيد الطائفة الذي انتهت اليه الطرق المشهورة ..
وقد أخذ أبي العهد علي يد شيخه عبد الجواد محمد الدومي ،
الذي ورث المشيخة عن شيخه عبد الجواد المنسفي ، عن أحمد
الصاوي ، عن أحمد الدردير ، عن محمد بن سالم الحفناوي ، عن
مصطفى البكري ، عن عبد اللطيف الحلبي ، عن مصطفى أفندي
الأدرنوي ، عن علي قرا باشا أفندي ، عن اسماعيل الجارومي ، عن
عمر الغوادي ، عن محيي الدين القسطنطيني ، عن شعبان القسطنطيني ،
عن خير الدين التوقادي ، عن جلي سلطان الاقداي الشهير (بجمال
الخلوتي) عن محمد بن بهاء الدين الأرزنجاني ، عن يحيى الباكوبي ،
عن صدر الدين الخنائي ، عن الحاج عز الدين ، عن محمد ميرام الخلوتي
الذي تنسب اليه الطريقة الخلوتية ..

وشيخ الطريقة — الحالي — هو فضيلة الشيخ عامر عبد الرحيم
سعيد ، الذي ورث المشيخة عن الشيخ محمد الطاهر الحامدي ، عن

السيد / محمد أحمد الرملى ، عن الشيخ عبد الجواد محمد الصومى —
شيخ أبى ..

ولم يتخذ الخلوتية لهم زياً يميزهم عن غيرهم .. فى حين أن
لكل طريقة لوناً خاصاً ، فنرى للأحمدية اللون الأحمر ، وللرفاعية اللون
الأسمر ، وللبرهمية الأخضر ، وللشاذلية أعلام مختلفة ، وللمرغنية
الأبيض ... الخ .

ولهم فى الطريق أصول هى : الجوع وممارسة الصوم ، والعزلة
تمهيداً للخلوة ، والصمت ، والسهر للذكر والفكر — وأقله ثلث الليل
الأخير حتى طلوع الشمس — ودوام الذكر الذى يلقيه الشيخ
الى المرید ..

وأول الذكر بالاسم الأول وهو : « لا اله الا الله » .. فيذكره
المرید ويجتهد فيه ويكرره ، ولا ينتقل عنه الى الاسم الثانى الا بإشارة
شيخه .. ومن هنا قلنا ان هذه الطريقة هى أفضل الطرق الصوفية
المعروفة ..

وللطريق مهمات : كالتوبة ، والخوف ، والرجاء ، والحزن ،
والقناعة ، والزهد ... الخ .

وله لوازم : وهو الشيخ ، ومداومة الذكر ، والاقتصاد فى الحلال ،
وحفظ القلب ، وعدم استبطاء الفتح .. الخ ..

والمقصود من روايتى لهذه السلسلة الطويلة من رجال الطريقة
الخلوتية .. واحتفاظ الذاكرة بأسمائهم طيلة هذه المدة .. أن هذه
النسأة وهذه التربية .. تجعلان من الظلم والتجنى اتهامى بالعداء
للأولياء أو محاربة التصوف والصوفية !! ولكن الحرص على سلامة
العقيدة ، أثمن وأعلى عندى من كل عاطفة ، ولو كانت عاطفة القرابة
أو وشيجة الدم !!

وكما قلت من قبل .. نحن لا نعادي الصوفية ولا نحاربها اذا
تمسكت بكتاب الله وسنة رسوله ، واذا دعت الى صفاء النفس
ونقاء العقيدة ..

نحن لا نعادي الصوفية ولا نحاربها اذا دعت الى التجرد من
علائق الدنيا — دون مقاومتها — وعملت على التفرغ لطلب الآخرة دون
التعبود عن عمارة الدنيا •

نحن لا نعادي الصوفية اذا كانت تدعو الى الرهبة من الخالق
لا من الخلق •• واذا ما جعلت يقينها أن ما يصيبنا لم يكن ليخطئنا ،
وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا •

نحن لا نعادي الصوفية اذا دعت الى ارجاع كل الأمور الى
الله تعالى دون خوف من مخلوق لا يملك لنفسه نفعا ولا أذى •
وأخيرا •• أقول : نحن لا نملك معاداة الصوفية أو محاربتها ••
اذا كان السالكون طريقها أطهار الذيل ، أعفاء النفوس ، زاهدين في
كل ما في أيدي الناس ، مطمئنين الى ما عند مسبب الأسباب ••
وحين تحرص الصوفية على التزام هذا النهج •• تصبح حقا ذروة
الايمان في التقى والجراة ، والاقدام والاخلاص •• ولا يوجد —
في تقديرنا — عاقل يرغب في محاربة مثل هذه المبادئ الفاضلة ••
أما حين تحيد الصوفية عن أمر الله ، وحين تعرض عن كتابه
وسنة رسوله !!

أما حين تدعو الى وحدة الوجود ، والى الحقيقة المحمدية ، والى
خاتم الأولياء !! ، وحين تتمسك بالخرافات والأساطير التي تنسب الى
التصوف نفسه بأكثر مما تنسب الى الاسلام !! ، فاننا لا نملك أبدا
مسامحتها أو مهادنتها •• ولا نستطيع أبدا السكوت على زيغها وانحرافها ،
مهما كان الثمن غاليا ••

ومجمل القول : اننا لا نعادي الا الخرافة والأسطورة في الدين ••
ولا نحارب الا منازعة الله تعالى خصائصه واشراك عباده فيها ••
والله الموفق •• وهو المستعان •

« ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين » (٨) •
وآخر دعوانا : « أن الحمد لله رب العالمين » (٩) •

* * *

مراجع الكتب

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - الأبريز ، للدباغ ، ط ١٢٦٢ هـ (مشار إليه في : هذه هي الصوفية) .
- ٣ - ابن الفارض : سلطان العاشقين ، د . محمد مصطفى حلمي ، سلسلة أعلام العرب (١٥) ١٩٦٣ م .
- ٤ - اتحاف الكائنات ، للشيخ محمود خطاب السبكي .
- ٥ - أحياء علوم الدين ، لأبي حامد الغزالي ، نشر دار الشعب .
- ٦ - أسباب النزول ، للنيسابوري ، نشر دار الكتب العلمية بيروت .
- ٧ - أغاثة اللفان من مصائد الشيطان ، لابن القيم ، نشر دار التراث العربي .
- ٨ - الانسنان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل ، لعبد الكريم الجيلاني ، نشر صبيح .
- ٩ - بداية الهداية ، لأبي حامد الغزالي ، نشر دار التراث العربي .
- ١٠ - البدعة : تحديدها وموقف الإسلام منها . د . عزت علي عيد عطية ، دار الكتب الحديثة (الإسلامية) .
- ١١ - تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد ، للشيخ ناصر الدين الألباني ، نشر المكتب الإسلامي بيروت .
- ١٢ - التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة ، د . إبراهيم هلال ، نشر مكتبة النهضة العربية .
- ١٣ - تفسير روح المعاني ، للألوسي ، إدارة الطباعة المنيرية .
- ١٤ - التفسير والمفسرون ، د . محمد حسين الذهبي ، نشر مكتبة وهبة .
- ١٥ - التوسل : أنواعه وأحكامه ، للشيخ ناصر الدين الألباني ، نشر بيروت ، ١٣٩٧ هـ .
- ١٦ - جامع الأصول في الأولياء ، للكشخاني ، (مشار إليه في : هذه هي الصوفية) .
- ١٧ - الجانب العاطفي من الإسلام ، للشيخ محمد الغزالي ، نشر دار الكتب الحديثة (الإسلامية) .
- ١٨ - جواهر المعاني في فيض التيجاني ، لعلي بن حرازم (.مشار إليه في : هذه هي الصوفية) .
- ١٩ - حقيقة التوحيد ، د . يوسف القرضاوي ، نشر مكتبة وهبة .
- ٢٠ - حقيقة التوسل والتوسيلة على ضوء الكتب والسنة ، للأستاذ موسى محمد علي ، نشر دار التراث العربي .

- ٢١ — حقيقة مذهب الاتحاديين ، لابن تيمية (مشار إليه في : هذه هي الصوفية) .
- ٢٢ — حكمة الاشراف ، للسهروردي ، نشر هنري كورباني (مشار إليه في : هذه هي الصوفية) .
- ٢٣ — حلية الأولياء ، لأبي نعيم الأصفهاني ، نشر مكتبة الخانجي .
- ٢٤ — الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ، للشيخ محمد الغزالي ، نشر مكتبة وهبة .
- ٢٥ — الدين الخالص ، للشيخ محمود محمد خطاب السبكي ، نشر الجمعية الشرعية .
- ٢٦ — رسالة في معرفة الحقائق ، لأحمد الدمرداشي (مشار إليه في : هذه هي الصوفية) .
- ٢٧ — رسالة لأحمد عبد المنعم الحلواني (مشار إليه في : هذه هي الصوفية) .
- ٢٨ — الرسالة القشيرية ، للتشيري ، مطبعة التقدم العلمية ، ١٣٤٦ هـ .
- ٢٩ — رماح حزب الرحيم ، لعمر بن سعيد الفونى (مشار إليه في : هذه هي الصوفية) .
- ٣٠ — زاد المعاد في هدى خير العباد ، لابن القيم ، نشر المطبعة المصرية ومكتبتها .
- ٣١ — السيد البدوي : شيخ وطريقة ، د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، سلسلة اعلام العرب (٧٨) ، ١٩٦٦ م .
- ٣٢ — السيرة النبوية ، لابن هشام ، نشر دار التراث العربي .
- ٣٣ — صحيح مسلم بشرح النووي ، نشر دار الشعب .
- ٣٤ — صحيح البخاري ، للإمام البخاري ، نشر دار الشعب .
- ٣٥ — الصوفية في نظر الاسلام ، للأستاذ سميح عاطف الزين ، نشر دار الكتب اللبنانى — بيروت .
- ٣٦ — طبقات الشاذلية الكبرى ، للكوهنى (مشار إليه في : هذه هي الصوفية) .
- ٣٧ — الطبقات الكبرى ، للشعراني ، نشر ضبيح .
- ٣٨ — عقيدة الشيعة ، لرونلدسن (مشار إليه في : هذه هي الصوفية) .
- ٣٩ — انعتيدة والشريعة ، لجواد زهير (مشار إليه في : هذه هي الصوفية) .
- ٤٠ — علم الحديث ، لابن تيمية ، نشر دار الكتب الإسلامية .
- ٤١ — عجائب الآثار ، للجبرتي ، طبع بولاق — القاهرة .

٤٢ — الفتاوى الامينية ، للشيخ أمين محمود خطاب السبكي ،
نشر الجمعية الشرعية .

- ٤٣ — الفتاوى الكبرى ، لابن تيمية ، نشر دار المعرفة ببيروت ،
٤٤ — الفتح الرياني والفيض الرحمانى ، لعبد الغنى النابلسي —
نشرته دار التراث العربى سنة ١٩٨٦ باسم « حقائق الاسلام وأسراره » ..
٤٥ — الفتوحات المكية ، لابن عربى ، طبع بولاق — القاهرة .
٤٦ — فصوص الحكم ، لابن عربى ، تحقيق د . أبو العلا عفيفى .
٤٧ — الفكر الاسلامى فى تطوره ، د . محمد البهى ، نشر مكتبة وهبة .
٤٨ — فقه التنين ، للشيخ السيد سابق ، نشر تار التراث العربى .
٤٩ — قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ، لابن تيمية ، طبع المنار ،
١٣٥٤ هـ .

٥٠ — قصص الانبياء ، لابن كثير ، نشر دار التراث العربى .
٥١ — قوت القلوب ، لأبى طالب المكنى (مشنار اليه فى : هذه
هى الصوفية) .

٥٢ — الكبائر ، للذهبى ، نشر دار التراث العربى .
٥٣ — كشف الوجوه الغر ، للقاشانى (مشنار اليه فى : هذه
هى الصوفية) .

٥٤ — الكواكب الدرية ، لعبد الرؤوف المناوى (مشنار اليه فى :
هذه هى الصوفية) .

٥٥ — لسان العرب ، لابن منظور ، نشر دار المعارف بمصر .
٥٦ — اللمع ، للطوسى ، تحقيق د . عبد الحليم محمود ، وطه
عبد الباقي سرور ، نشر دار الكتب الحديثة (الاسلامية) .
٥٧ — ليس من الاسلام ، للشيخ محمد الغزالى ، نشر دار الكتب
الاسلامية .

٥٨ — مختصر تفسير الطبرى ، اختصار وتعليق الشيخ محمد على
الصابونى ، و د . صالح احمد رضا ، نشر دار التراث العربى .

٥٩ — المدخل ، لجوتيه (مشنار اليه فى : هذه هى الصوفية) .
٦٠ — مدخل الى التصوف الاسلامى ، د . ابو الوفا التفتازانى ،
نشر دار الثقافة .

٦١ — مشكاة الانوار ، لأبى حامد الغزالى ، تحقيق ونشر الادار
القومية .

٦٢ — المصريون المحدثون ، للمستشرق لين (مشنار اليه فى : هذه
هى الصوفية) .

٦٣ — المصطلحات الاربعة فى الاسلام ، لأبى الأعلى المودودى ،
نشر دار التراث العربى .

٦٤. — المعجم - المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، نشر دار الشعب .
٦٥. — مفتاح السعادة ، لطاش كبرى زاده (مشار إليه في : هذه هي الصوفية) .
٦٦. — مفتاح الفلاح ، لابن عطاء الله السكندري .
٦٧. — مقاييس اللغة ، لابن فارس .
٦٨. — منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ، للأستاذ عز الدين بليق — بيروت .
٦٩. — من وصايا القرآن الكريم ، أحمد الأنور أحمد البلتاجي ، نشر دار التراث العربي .
٧٠. — مواقع النجوم ومطلع أهلة الأسرار والعلوم ، لابن عربي ، ط القاهرة ، ١٣٨٤ هـ .
٧١. — النفحات الأقدسية شرح الصلوات الأدرسية ، لمحمد بهاء الدين البيطار (مشار إليه في : هذه هي الصوفية) .
٧٢. — هذه دعوتنا ، للشيخ عبد اللطيف مشتهري ، نشر دار الاعتصام .
٧٣. — هذه هي الصوفية ، للأستاذ عبد الرحمن الوكيل ، نشر دار الكتب العلمية ببيروت .
٧٤. — الوحي والقرآن الكريم ، د . محمد حسين الذهبي ، نشر مكتبة وهبة .
٧٥. — اليواقيت والجواهر ، للشعراني ، ط ١٢٧٧ هـ ، القاهرة .

● دوريات :

- ١ — جريدة الأهرام القاهرية الصادرة في ١٩٨٥/١/٦
- ٢ — جريدة الأهرام القاهرية الصادرة في ١٩٨٥/٢/١٨
- ٣ — جريدة الأهرام القاهرية الصادرة في ١٩٨٦/١/٥
- ٤ — جريدة الأهرام القاهرية الصادرة في ١٩٨٦/١/١٥
- ٥ — جريدة أخبار اليوم الصادرة في ١٩٨٦/٢/١٨
- ٦ — مجلة الاذاعة المصرية — الصادرة في ١٩٥٧/٩/٧
- ٧ — مجلة التصوف الاسلامي — العدد ٧٠ (ربيع الأول سنة ١٤٠٥ هـ — ديسمبر سنة ١٩٨٤ م) .
- ٨ — مجلة التصوف الاسلامي — العدد ٧٢ (جمادى الأولى سنة ١٤٠٥ هـ — فبراير سنة ١٩٨٥ م) .
- ٩ — مجلة اللواء الاسلامي — العدد ٢٠٩ في ١٩٨٦/١/٢٣
- ١٠ — مجلة اللواء الاسلامي — العدد ٢١٠ في ١٩٨٦/١/٣٠

محتويات الكتاب

الصفحة

الاهتمام	٥
المقدمة	٧
الفصل الأول : ما هو التصوف ؟ (١٢ - ٢٠)	
أصل كلمة التصوف	١٣
مفهوم التصوف عند الصوفية	١٧
من مصطلحات الصوفية	٢٤
الفصل الثاني : نشأة التصوف ، وتطوره (٢١ - ٦٨)	
تصوف الملاحدة	٣٩
آراء العلماء في التصوف الاسلامي	٤٠
رأينا في مسألة التصوف الاسلامي	٤١
الفصل الثالث : القول بوحدة الوجود (٦٩ - ١٠٣)	
صاحب النظرية .. بين خصوبة وانصره	٦٦
الفصل الرابع : مذهب الصوفية في التفسير الباطني للقرآن الكريم (١٠٤ - ١٣٠)	
أهم كتب التفسير الصوفي الفيضي (الباطني)	١١٢
نماذج من التفسير الصوفي الفيضي للقرآن الكريم	١١٣
من تفسير القرآن العظيم للتستري	١١٣

الصفحة

من حقائق التفسير ، للتسليم	١١٦
من عرائس البيان فى حقائق القرآن ، للشيرازى	١١٨
من التأويلات النجمية ، لنجم الدين داود	١٢١
من التأويلات النجمية ، للسمنانى	١٢٢
من تفسير ابن عربى	١٢٥

الفصل الخامس : موقف الصوفية من الوحي والنبوة
(١٦١ - ١٦٧)

نظرية المعرفة الاشراقية	١٣٣
كيف يتصورون الوحي والنبوة ؟	١٣٥
الحقيقة المحمدية	١٥٢

الفصل السادس : ألوية ، والمعجزة ، والكرامة
(١٦٨ - ٢٠٨)

من هو الولى ؟	١٦٨
ما هى المعجزة ؟	١٧٣
ما هى الكرامة ؟	١٧٥
عقيدة الصوفية فى ألوية والكرامة	١٨١
خاتم الأولياء	١٨٨
كرامات .. أم خرافات ؟	١٩٧

الفصل السابع : ادعاء العلم بالغيب وانكشاف الحجب
(٢٠٩ - ٢٤٧)

مزايعم وأباطيل	٢٢٧
----------------	-----

الصفحة

الفصل الثامن : تعظيم القبور ، وتقديس المقبورين
(٢٤٨ — ٣٣٠)

٢٤٨	السنة ، واليسدة
٢٥٧	طاعة الرسول من طاعة الله
٢٦٢	الخلو ، يؤدي إلى الشرك
٢٨١	بدعية الموالد
٢٩٠	مولد الرسول صلى الله عليه وسلم والاحتفال به
٢٩٦	النذر لغير الله من الشرك
٣٠٢	الى أين تذهب اموال النفوس ؟
٣٤٦	ومن حلف بغير الله ، فقد اشرك
٣١٠	خلاصة المسئلة بين المعترضين والمجيزين
٣١٧	فتوى صريحة في مسئلة الاضرحة

الفصل التاسع : في مسئلة التوسل والوسيلة
(٣٢١ — ٣٧٣)

٣٢٣	الوجه الآخر للعبلة !!
٣٢٤	الحصاد المرفول !!
٣٢٧	وحوار آخر صريح
٣٣٩	ما هو التوسل ، وما هي الوسيلة ؟
٣٥٤	كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتوسل الى ربه ؟
٣٥٩	الدعاء في الاسـلام

الفصل العاشر : حلقات الذكر ، أم حفلات للزار ؟
(٣٧٤ — ٤٠٧)

٣٨٠	الرسول صلى الله عليه وسلم يعلننا كيفية الذكر
٣٨٢	رقص ، وطبل ، ومزمار !!

الصفحة

الفصل الحادى عشر : خلاصات .. وانحرافات !!
(٤٠٨ — ٤٣٥)

٤١٠	شيخ طريقة يدعى النبوة
٤١٦	ثلاثة مهديون فى وقت واحد
٤٢٤	راى مشيخة الطرق الصوفية
٤٣٠	من ثمارهم تعرفونهم !!

الفصل الثانى عشر : والآن .. نعالوا الى الكلمة السواء
(٤٣٦ — ٤٧٦)

٤٣٧	معنى العبادة
٤٥٧	الشرك ، والكفر ، والالحاد
٤٦٠	عقيدة اهل التوحيد فى الاله المعبود ، والرسول الخاتم
٤٧٦	وقفة لا يسد منها

الخاتمة
(٤٨٧ — ٤٩٤)

٤٩٥	مراجع الكتاب
٤٩٩	محتويات الكتاب

* * *

هذا الكتاب

« وإله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » . . . « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير » .

[قرآن كريم]

« . . . إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . . . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا سبيء ، قد كتب الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا سبيء ، قد كتب الله عليك . رفعت الأقلام وحفت الصحف » .

[حديث شريف]

● الأصل الذي جاءت به رسالات الأنبياء جميعاً - وحائهم محمد صلى الله عليه وسلم - هو الإقرار بتوحيد الله تعالى . . . بغير وسطاء ولا شركاء ولا شفعاء . . .

● وانشر الإسلام مدحه الرفاه لتحرير الفكر الإنساني من ربة التذلل والخضوع والخشية - إلا لله وحده - وظل هذه الدعوة الصافية تحذب العقل البشري إلى عقيدة التوحيد التي هي أصل الإسلام . . . حتى دخلت الفلسفة الديناوية وغيرها من الفلسفات إلى المشتغلين بفلسفة الفكر الإسلامي . . . فوقع بعضهم في ربة هذه الفلسفات الغربية عن الإسلام . . . وجعلوا منها مذاهب أسمها مبه بالاشراق ، وأخرى بأهل الحقيقة ، وأهل المعرفة ، والصوفية . . . إلخ . . . وتطورت من أستاذ ومريد إلى شيخ عالم بالأسرار ، ثم إلى واسطة بين الله والعباد ، ثم إلى شيخ نخسدت فيه روح الله . . . إلخ !!

● وفي ظل هذه الأفكار الدخيلة على الإسلام الصحيح . ظهر من ينادى بنظرية « وحدة الوجود » في مقابل عقيدة « التوحيد » التي هي الأساس لجميع الأديان السماوية !!

● وهذا الكتاب « الله . . . توحيد ، وليس وحدة » : نجلى لنا « عقيدة التوحيد » كم جاء بها الإسلام الخفيف . ويكشف العطاء عن حقيقة « التصوف الإسلامي » . . . نشأته . . . تطوره . وتأثيره بالطريقات الغربية عن الإسلام الصحيح مثل « وحدة الوجود » . . . و « الحقيقة المحمدية » و « خاتم الأولياء » . . . كما يعرض نظريات الصوفية في « التفسير المباطلي للقرآن الكريم » . . . وعقيدتهم في « الوحي » والنبوة . . . والولاية . . . ومفهومهم « للمعجزة » والكرامة « والإدعاء بعلم الغيب . . . وتعظيم القبور وتقديس المقابر » « الواسل والوسيلة » . . . إلخ

● ومن مميزات هذا الكتاب إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . غاص « مؤلف الكتاب » في بطون الكتب والمراجع . ليجتنب المسوغات أحاط هذه الأمور من بدع وأهواء ، وناقش هذه الآراء بالتصريح والهدوء في القرآن الكريم . . . والسنة النبوية الشريفة

● « الله . . . توحيد ، وليس وحدة » وبالله التوفيق .

مكتبة وهبة